بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن عبد الله بن جمعان بن سرور الغامدي **كلية** : الدعوة وأصول الدين **قسم** : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير **في تخصص** : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((أسباب سقوط الشيوعية " الماركسية "))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤١٨/٢/٩هـ – بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
الاسم : د. سليمان بن عبدالله السلومي	الاسم : د. محمود محمد مزروعه	الاسم : د. عبد الله بن عمر الدميجي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د. أحمد بن عطية الزهراني

التوقيع :

١٧ / ٢ / ١٨

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة

المملكة العربيه السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة ام القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

أسباب سقوط الشيوعية
(الماركسية)

رساله مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالب
أحمد بن عبد الله بن جمعان آل سرور الغامدي

إشراف الدكتور
سليمان بن عبد الله السلومي

المجلد الثاني
١٤١٦هـ - ١٤١٧هـ

الفصل الأول
مصادمة النظام الشيوعى للفطرة

تمهيد :

حمل الفكر الشيوعى أسباب إنهياره وزواله فى أفكاره ومبادئه ونظرياته وتطبيقاته .

وأعظم ماعجل بسقوطه مصادمته للفطرة الإنسانية التى أودع الله تعالى فيها مايصلحها ، ويحقق لها سعادتها فى الدنيا والآخرة .

ولاشك أن هذه الفطرة قد تنحرف ويطرأ عليها التغيير والتبديل ، ولكن سرعان ماتعود إلى أصلها خاصة إذا عاش الإنسان فاقدا لما تطلبه فطرته ، وهذا ماحدث فى النظام الشيوعى حيث صادر الفطر بالقوة والقهر والحديد والنار . صادرها ظاهراواستجاب الناس لتلك المصادرة محافظة على ناحية أخرى فطرية وهى حب البقاء والخوف من الهلاك ، فأراد الله تعالى أن يهتك أستار هذا الفكر ويكشف عواره حيث إن الخلق تحت وطأته لم ينعموا بما فطروا عليه ونسى أصحاب هذا الفكر (أن كل منهج يخالف الفطرة ويعارض التوحيد لابد أن ينهار مهما امتد به الزمن أو حاول السيطرة والبقاء . وتلك حقيقة قد أثبتتها الأيام وسجلها التاريخ وهى تظهر ... هذه الأيام على نحو واضح صريح حيث نرى أن الشيوعية تنهار بعد سبعين سنة وتعلن عجزها عن العطاء ومعنى هذا أنه لاتوجد نظرية بشرية تعيش إلى الأبد ولكن الشىء الذى يستطيع أن يبقى إلى الأبد هو المنهج الربانى الذى لاتستطيع أن تجتاحه المتغيرات أو يعجز عن العطاء وهكذا يتكشف للبشرية أن الانسان مهما سما عقله وعلا شأنه وتفتحت أمامه أبواب العلم فإنه لايستطيع أن يقيم منهجا لحياته مما يحتم أن تؤمن البشرية وتخضع للمنهج الوحيد الذى رسمه لها صانع الحياة فالمنهج الربانى وحده هو القادر على البقاء وسوف تتساقط المناهج الوضعية كأوراق الخريف حتى لايبقى إلا منهج الله الذى يجب على البشرية أن تسلم وجهها له ولكن سقوط المنهج

البشـرى (الشيوعية) لم يحدث مفاجأة ولكنه كان متوقعـا منذ وقت بعيد فقد كشفت الدراسات عن مجافاته للفطرة والعلم وحقائق الأشيـاء وأنه لم يكن إلا محاولـة زائفـة لاستغلال نصـوص مـن التاريخ وأساليــب مـن عصور التسلط والقهر لإيجاد نظام يحمل كل سموم التلمودية الطامعة فى السيطـرة على العالم والتى تجعل أول أهدافها إلغاء الدين وتحطيم النبؤات ورسـائل السماء . وقد خدعت العالم كله بالدعوة إلى استعادة حقوق الفقراء المظلومين وإقامة العدل الإجتمـاعى فى مـواجهة الرأسمـالية التى سيطـرت على العـالم كلـه من خلال النهـب العالمى للمواد الخام واستغلال الانسان وتكديس الثروات لصـالح فئة محدودة)[١].

ونأتى لتفصيل ذلك :

---

(١) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (١٨) .

المبحث الأول
مصادمة الشيوعية لفطرية التدين

وسيكون منهج الطرح كما يلى :

أولا :

إثبات فطرية التدين شرعا وتاريخا ، وتعريف الفطرة لغة واصطلاحا ، وبيان المقصود بالفطرة ، والقول الراجح فى ذلك .

ثانيا :

مصادمة الشيوعية لفطرية التدين وتحته عدة أمور :

(أ) إنكارهم وجود الخالق جل وعلا .

(ب) أقوالهم فى الدين .

(ج) تفسيرهم لنشأة الدين .

ثالثا :

بيان بطلان مزاعمهم وأقوالهم وتفسيراتهم للدين .

أولا : إثبات فطرية التدين شرعا وتاريخا :

(أ) فطرية التدين شرعا :

أخبر جل وعلا أنه فطر عباده على الدين والإيمان به جل جلاله ، وهذا الأصل فيهم غير أنه قد ينحرف لعوامل ومؤثرات خارجية تكون سببا فى تغيرها وصرفها عن مسارها الذى ارتضاه لها خالقها تبارك وتعالى ، وقد وردت لفظة الفطرة فى الكتاب والسنة فماذا تعنى الفطرة فى اللغة والشرع؟

الفطرة لغة :

فطر الشىء يفطره فطرا فانفطر وفطره شقه وتفطر الشىء تشقق وأصل الفطر الشق ، ومنه قوله تعالى : {**إذا السماء انفطرت**}(١)، والفطرة الابتداء والاختراع(٢).

ولفظ الفطرة ورد فى كتاب الله تعالى وله معنيان أحدهما لغوى والآخر شرعى .

(١) اللغوى :

بمعنى الخالق أو المبتدىء ، ابتداء الخلقة ومنه قوله تعالى {**الحمد لله فاطر السموات والأرض**}(٣).

وقوله تعالى : {**فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة**}(٤).
قال ابن كثير فى تفسيرها : (أى خلقكم ولم تكونوا شيئا)(٥).

(٢) المعنى الشرعى :

وهو المعنى الذى دلت عليه بعض الآيات والأحاديث الشريفة وهو أن الفطرة هى الإسلام .

---

(١) سورة الانفطار : (١) .
(٢) انظر لسان العرب (٥٦/٥) حرف الراء ، فصل الفاء ، القاموس المحيط (٥٨٧) .
(٣) سورة فاطر : (١) .
(٤) سورة الإسراء : (٥١) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٤/٣) .

بعض الآيات والأحاديث الدالة على المعنى الشرعى للفطرة (الدين) :

الآية الأولى : قال تعالى : **{فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون}**[١].

يقول ابن كثير فى تفسير الآية : (فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة ابراهيم الذى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك التى فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لاإله غيره)[٢].

وقال الشوكانى : (الفطرة فى الأصل الخلقة والمراد بها هنا الملة وهى الإسلام والتوحيد)[٣].

وقد قال بعض الناس أن فاطر فى كلام العرب تعنى الخالق وهذا حق لالبس فيه أن فاطر تعنى الخالق والمبتدىء ، ولكن فى هذه الآية جاء لفظ الفطرة بمعنى الإسلام أو الدين .

وعن هذا الإشكال والإجابة عنه يقول الإمام الشوكانى : (والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف . وقال آخرون : هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها ، فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة ، والفاطر فى كلام العرب هو المبتدىء وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة وإهمال معناها شرعا . والمعنى الشرعى مقدم على المعنى اللغوى كقوله تعالى : **{الحمد لله فاطر السموات والأرض}**[٤]أى خالقها ومبتدئها ...)[٥].

---

(١) سورة الروم : (٣٠) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٣٢/٣) .
(٣) فتح القدير (٢٢٤/٤) ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها.
(٤) سورة فاطر : (١) .
(٥) فتح القدير (٢٢٤/٤) .

الآية الثانية : قال تعالى : **{وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}**(١).

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما سئل عن الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون) فقال رجل : يارسول الله ، ففيم العمل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار)(٢).

الآية الثالثة : قال تعالى : **{هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذاكنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين}**(٣).

ففى هذه الآية دليل صريح على أن كل إنسان يؤمن بوجود الله تعالى وإن تجاهل هذه الحقيقة . فالفطرة مغروس فيها هذه الحقيقة ولكن انحرافها وزيغها جعلت صاحبها يحيد عن الطريق المستقيم لعوارض ومؤثرات خارجية

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٢) رواه أبو داود (٤/٢٢٧) كتاب السنة ، باب القدر ، حديث (٤٧٠٣) مراجعة محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة .
وانظر عن الحديث وبعض رواياته كتاب الرد على الجهمية لابن منده (٤٩-٦٧) تحقيق د. على ناصر الفقيهى ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، مكتبة الغرباء الأثرية المدينة النبوية .

(٣) سورة يونس : (٢٢) .

ولكن سرعان ماتعود الفطرة إلى صفائها حين يقع الإنسان فى ضائقة أو ينزل به كرب فيعلم أنه لاينفع من دون الله تعالى أحد ، وهنا تعود فطرته إلى أصلها فيلجأ الإنسان إلى الخالق لكشف ضره فإذا نجاه الله وأصبح مطمئنا كما يظن إذا هو راجع إلى شركه ونكرانه السابق ، فدلت هذه الآية والتى قبلها على أن الانسان مفطور على الإيمان بالله والاعتراف بوجوده ، ولو حصل النكران لهذا الإله فكل دلك إنما هو جحود واستكبار وعناد فى الظاهر ليس إلا . أما حقيقة مايبطن فهو الاعتراف به تعالى ربا وخالقا ومتصرفا فى هذا الكون . وأشهر من عرف بانكار الرب والخالق لهذا الكون هو فرعون ، قال الله تعالى عنه وعن قومه :

{**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**}(١).

وأخبر تعالى أن المشركين يقرون بوجود الله تعالى ولاينكرون ذلك ، قال جل شأنه : {**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**}(٢).

وقال تعالى : {**ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**}(٣).

فتبين أن الإيمان بوجود الله تعالى حقيقة ثابتة فى النفس البشرية ، حتى وإن أعلن صاحبها الجحود فسرعان ماتنزل به الشدة والكرب فيدعو الله لكشفه حينها تعود الفطرة إلى صفائها ونقائها .

يقول سيد قطب : (عجيب هذا المخلوق الإنسانى لايذكر الله إلا فى ساعة العسرة ولايثوب إلى فطرته وينزع عنها ماغشاه من شوائب وانحرافات إلا فى ساعة الكربة فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة فى كل آن مجلوة دائما بجلاء الإيمان)(٤).

وعن أولئك الذين يشركون بالله ثم يعودون إليه حال الشدة والكرب يقول : (عندئذ فقط فى هذا الهول المتلاطم تتعرى فطرتهم مما ألم

---

(١) سورة النمل : (١٤) .
(٢) سورة لقمان : (٢٥) .
(٣) سورة يوسف : (١٠٦) .
(٤) فى ظلال القرآن (١٧٧٣/٣) ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، دار الشروق ، بيروت .

بهـا من أوشاب وتنفض قلوبهم ماران عليها من تصورات ، وتنبـض الفطرة الأصيلة السليمة بالتوحيد واخلاص الدينونة لله دون سواه)(١).

ثانيا : الأحاديث :

الحديث القـدسى الذى يرويه الـرسول صلى الله عليـه وسلم عـن ربه تعـالى أنه قـال : (كل مال نحلته عبـدا حلالا ، وإنى خلقـت عبـادى حنفاء كلهـم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمـت عليهم ماأحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا)(٢).

معنى الحنيفيـة فى اللغة : الميل وإنما يقال للمائل الـرجل أحنف تفاؤلا بالإستقامة .

والحنيفيـة فى الإسلام الميـل إليـه والإقـامة على عقـده والحنيـف المسلم الذى يتحنف عن الأديان أى يميل إلى الحق .

والحنيف هو الذى يستقبل البيت الحرام .

وقيل هو المخلص ، وقيل هو من أسلم فى أمر اللـه فلم يلتو فى شىء .

وتحنف الرجل أى عمل عمل الحنيفية .

ويقال اختتن ،و يقال اعتزل الأصنام وتعبد(٣).

وعلى هـذا فـالحديث يدل على أن النـاس خلقوا على دين اللـه تعـالى وأن هذا هو الأصل فيهم ، ولولا تعرض الشياطين لهم ، وإبعادهم لهم عن أصلهم ذلك لبقوا على هذا الإيمان الذى فطروا عليه .

الحديث الثـانى : قـوله صلى اللـه عليه وسلم : (كـل مـولود يولد على الفطـرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه كما تنتـج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء إلا أن تجدعونها أنتم .

---

(١) فى ظلال القرآن (١٧٧٤/٣) .

(٢) صحيـح مسلم بشرح النووى (١٩٧/١٧) كتـاب الجنة وصفة نعيمهـا وأهلهـا ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

(٣) انظر لسان العرب (٥٥/٩-٥٦) حرف الفاء ، فصل الحاء .

قال أبو هريرة رضى الله عنه اقرؤا إن شئتم قـول الله تعالى : {**فطرة الله التـى فطر الناس عليها لاتبـديل لخلـق الله ذلك الدين القيم ولكـن أكثر الناس لايعلمون**}[(١)])[(٢)].

وقـد اختلـف العلماء رحمهـم اللـه تعالى فى المقصـود بالفطـرة فى هذا الحديث ، وكان لاستدلال بعض الفرق المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة به أثر فى هذا الاختلاف حيث أرادوا الرد على أهل البـاطل ففسرت الفطرة هنا بغير الدين[(٣)].

ويمكن القول أن هذه الأقوال والاختلافات لاتخرج عن التالى :

(أ) أنها العهد والميثاق الذى أخذه الله تعالى عليهم .

(ب) ابتداء الخلق فى بطن الأم .

(ج) أن معناها المعرفة التى يولد بها .

(د) أن معناها الخلقة .

(هـ) أن اللـه تعـالى فطـرهم على الإنكـار والمعـرفة وعلى الكفـــر والإيمان .

(و) أن المقصود بالفطرة السلامة خلقة وطبعا وبنية ليس معها كفر ولاإيمان ولامعرفة ولاإنكار .

(ز) أن الفطرة هى الإسلام .

---

(١) سورة الروم : (٣٠) .

(٢) متفق عليه وسبق تخريجه (٢٧٢) .

(٣) انظر شفاء العليل (٥٧٥-٥٧٦) تأليف ابن قيم الجوزية ، دار التراث ، القـاهرة ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

وقد عرض شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم رحمهما الله تعالى لهذه الأقوال وبينوا أن المقصود بالفطرة فى الحديث القول الأخير(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (الصواب أنها فطرة الله التى فطر الناس عليها هى فطرة الإسلام وهى الفطرة التى فطرهم عليها يوم قال {**ألست بربكم قالوا بلى**}(٢)وهى السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة)(٣).

ويقول : (الدلائل الدالة على أنه أراد على فطرة الإسلام كثيرة ، كألفاظ الحديث التى فى الصحيح ، مثل قوله "على الملة" ، "وعلى هذه الملة" ومثل قوله فى حديث عياض بن حمار : "خلقت عبادى حنفاء كلهم" ، وفى لفظ "حنفاء مسلمين" ومثل تفسير أبى هريرة وغيره من رواة الحديث ذلك ، وهم أعلم بما سمعوا .

وأيضا ، فإنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام ، لما سألوا عقب ذلك "أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟" ، لأنه لو لم يكن هناك مايغير تلك الفطرة لما سألوه . والعلم القديم ومايجرى مجراه لايتغير ، وكذلك قوله : "فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" ، بين فيه أنهم يغيرون [الفطرة] التى فطر [الناس] عليها .

---

(١) عن القول الأول ورده انظر : درء تعارض العقل والنقل (٣٥٩/٨) لابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، دار الكنوز الأدبية ، شفاء العليل (٥٦٨) ، الرد على الجهمية (٥٧-٥٨) .
عن القول الثانى انظر : درء تعارض العقل والنقل (٣٦٠/٨-٣٦١) ، شفاء العليل (٥٦٩-٥٧٠) .
وعن القول الثالث انظر : الدرء (٣٨٤/٨-٣٨٥) ، شفاء العليل (٥٧٩-٥٨٠) .
وعن القول الرابع انظر : الدرء (٣٨٦/٨-٣٨٨) ، شفاء العليل (٥٨١) .
وعن القول الخامس انظر : الدرء (٤١٣-٤١٤) ، شفاء العليل (٥٨٨) .
وعن القول السادس انظر الدرء (٤٤٤/٨-٤٤٧) .

(٢) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٤٥/٤) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل (٣٦٧/٨-٣٦٨) شفاء العليل (٥٧٢-٥٧٣) .

وأيضـا ، فإنه شبه ذلك بالبهيمة التى تولد مجتمعـة الخلق لانقص فيه ، ثم تجدع بعد ذلك ، فعلم أن التغيير وارد على الفطرة السليمة التى ولد العبد عليها .

وأيضـا ، فإن الحديث مطابق للقرآن ، لقـوله تعالى : ﴿**فطرة الله التى فطر الناس عليها**﴾(١)، وهذا يعم جميع الناس ، فعلم أن الله فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة ، وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لاإضافة ذم ، فعلم أنها فطرة محمودة لامذمومة)(٢).

ويقول الإمام ابن القيم : (والمقصود أن الله فطر عبـاده على فطرة فيها الإقـرار به ومحبتـه والاخلاص لـه ، والإنابة إليـه وإجلالـه وتعظيمـه . وأن الشخـص الخارج عنها لايحدث فيهـا ذلك ويجعلها فيها بعـد أن لم تكـن وإنما يذكرها بما فيها وينبهها عليه ويحركها له ويفصله لها ويبينه ويعرفها الأسباب المقـوية والأسباب المعارضة له والمانعة من كماله . كمـا أن الشخص الخارج لايجعل فى الفطرة شهوة اللبن عند الرضاع والأكل والشرب والنكاح ، وإنما تذكر النفس وتحركها لما هو مركوز فيها بالقوة)(٣).

وقـد دلـت الآيات الكـريمة والأحاديث الشـريفـة على ذلـك وهـو أن المقصـود بالفطرة دين الله تعالى ، يقول الإمام ابن القيم : لقـد جاءت (دلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلق مفطورون على دين الله الذى هو معرفته والإقرار به ومحبته والخضوع له ، وأن ذلك موجب فطرتهم ومقتضاها ، يجب حصوله فيها إن لم يحصل مايعارضـه ويقتضى حصول ضده وأن حصـول ذلك فيها لايقف على وجود شرط ، بل على انتفـاء المانع . فإذا لم يوجد فهـو لوجود منافيه لالعـدم مقتضيه . ولهذا لم يذكـر النبى صلى الله عليه وسلم لوجود الفطرة شرطا ، بل ذكر مايمنع موجبهـا حيث قال : "فأبواه يهـودانه وينصـرانه ويمجسانه" فحصـول هـذا التهويد والتنصير مـوقوف على

(١) سورة الروم : (٣٠) .
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣٧١-٣٧٢) .
(٣) شفاء العليل (٦٠٣) .

أسباب خارجة عن الفطرة . وحصول الحنيفية والإخلاص ومعرفة الرب والخضوع له لايتوقف أصله على غير الفطرة ، وإن توقف كماله وتفضيله على غيرها ...)(١).

وإذا كانت الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، قد أثبتت هذه الحقيقة وهى أن الفطرة هى الإسلام ، فإن دلالة العقل كذلك تؤيد هذا الرأى وتدعم أن المقصود بالفطرة الإسلام(٢).

(ب) **الدلالة التاريخية على أن البشر مفطورون على التوحيد** :

بعد حديثنا عن بيان أن التوحيد هو الأصل فى البشر بنص الكتاب والسنة نعرض الآن للدلالة التاريخية على ذلك .

أولا : إجماع الأمم على الإقرار بالربوبية .

إن المشركين فى اتخاذهم للآلهة من دون الله تعالى لم يكونوا يساوون بين الله تعالى وبين من أشركوه معه تعالى ، وأخبر سبحانه أنهم لايعبدون تلك الأصنام إلا لتقربهم إلى الله زلفى {**ومانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**}(٣).

ويبين تعالى أنهم يقرون بوجوده سبحانه فيقول : {**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**}(٤).

وقد أجمع الباحثون والمختصون فى علم الأديان والحضارات على أن الفطرة الدينية والاعتراف بوجود الإله حقيقة ثابتة منذ وجود الإنسان فى أقدم العصور وهو يتعبد ويؤمن بوجود الإله ، حيث (وجدت فى التاريخ

---

(١) شفاء العليل (٦٠٤) .
(٢) انظر هذه الأدلة فى درء تعارض العقل والنقل (٨/٤٥٦-٤٦٨) .
وانظر شفاء العليل (٦٠٥-٦١١) .
(٣) سورة الزمر : (٣) .
(٤) سورة لقمان : (٢٥) .

مدن بلاقصور ، ولامصانع ، ولاحصون ، ولكن لم توجد مدن بلامعابد)[١].

وإن كان هذا الإنسان قد ينحرف فى تصوره عن هذا الإله إلا أن الدين كان (هو أساس الأسرة والحياة الإجتماعية فى المدينة القديمة ...)[٢].

ومما يدل على هذا الإقرار هو أن أولئك المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة لم يجعلوا الآلهة سواء بل جعلوا أحدها أفضل من سائرها فإن الثنوية من المجوس وهم (القائلون بالأصلين ، النور والظلمة ، وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود ، وأن الظلمة شريرة مذمومة وهم متنازعون فى الظلمة هل هى قديمة أو محدثة فلم يثبتوا ربين متماثلين)[٣].

ومن القائلين بتعدد الآلهة كما أخبر الله تعالى عنهم النصارى القائلين بالتثليث . ومع ذلك فهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض بل متفقون أن العالم له صانع واحد ويقولون باسم الابن والأب وروح القدس إله واحد وقولهم بالتثليث متناقض فى نفسه وقولهم بالحلول أفسد منه ، ولهذا كانوا مضطربين فى فهمه وفى التعبير عنه فيقولون هو واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم ، والأقانيم تارة يفسرونها بالخواص وتارة بالصفات وتارة بالأشخاص ، وقد فطر الله تعالى العباد على فساد هذه الأقوال . وبالجملة فهم لايقولون باثبات خالقين متماثلين[٤].

---

(١) الإيمان والحياة (٩٩) ، نقلا من كتاب العقيدة الإسلامية سفينة النجاة (١٠٧) ، د. كمال محمد عيسى ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة .

(٢) الإنسان ذلك المجهول (١٥٧-١٥٨) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١٨) ، على بن أبى العز الدمشقى ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، دار البيان ، دمشق .

(٤) انظر المرجع السابق (١٧-١٨) .

ويذكر أفلاطون : أن الآلهة صنفان منها ماهو سماوى والآخر أرضى فالسماوى يعبد ، والأرضى تبجل ولاتعبد ويرتب لكل آلهة مايناسبها[١].

وهكذا كان الاعتراف ، والإقرار بوجود الإله الذى يستحق التميز عن سائر الآلهة ، وماعرف عن أحد أنه أنكر الربوبية لله تعالى إلا استكبارا وعنادا فى الظاهر مع الإقرار بهذه الحقيقة واستيقانها فى النفس ، ومن أشهر هؤلاء فرعون قال الله تعالى عنه وعن قومه : {**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**}[٢].

ثانيا : إن دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم لم تكن لإثبات وجوده تعالى والاعتراف به . فإن هذه الحقيقة كانت موجودة فى النفس البشرية مفطورة عليها منذ أخذ الله تعالى الميثاق عليهم .

بل كانت دعوتهم لتصحيح الانحراف الذى حصل لهذه الفطر فى توحيدها وعبادة ربها . فكانت دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعهم لهذه الغاية اخلاص التوحيد لله بإفراده جل وعلا بالعبادة .

وهذا أول الأنبياء عليهم السلام يقول الله تعالى عنه : {**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**}[٣].

وكذلك دعوة الأنبياء عليهم السلام من بعده كانت لهذه الغاية إفراد الله تعالى بالعبادة . فهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم كانت دعوتهم لتوحيد العبادة .

قال تعالى : {**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**}[٤].

---

(١) انظر أفلاطون فى الإسلام (٧٦) .
(٢) سورة النمل : (١٤) .
(٣) سورة الأعراف : (٥٩) .
(٤) سورة النحل : (٣٦) .

وقال سبحانه وتعالى : {**وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون**}(١).

فكانت دعوتهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولم يدعوهم إلى الاعتراف بوجوده جل وعلا ، أو الإقرار بالربوبية فإن هذه الحقيقة كانت أكبر من أن يتطرق إليها الشك أو النكران .

فإرسال الرسل كان لإعادة الفطر إلى أصلها الاول الذى خلقت عليه(٢).

ثالثا : لجوء الانسان إلى قوة خفية تسيطر عليه يفزع إليهاعند حاجته ، وقد أخبر جل وعلا بذلك فقال سبحانه : {**هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين**}(٣).

فهنا لجأ الانسان إلى الخالق جل وعلا لعلمه أنه هو كاشف الضر وأن من دونه لايستطيعون شيئا ، ومن هنا عادت الفطرة إلى أصلها وهو الإقرار بربها وإفتقارها إليه جل وعلا ، فشعور الإنسان بوجود قوة مهيمنة على الكون يتجه إليها ويستمد منها العون شعور فطرى فى النفس البشرية .

يقول الأستاذ كريسى موريسون : (إن كون الإنسان فى كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم يدل على أن الدين فطرى فيه . ويجب أن يقر العلم بذلك)(٤).

---

(١) سورة الأنبياء : (٢٥) .

(٢) انظر الإسلام وأزمة الغرب (٢١-٢٢) لرجاء جارودى ، ترجمة د. رفيق المصرى ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع .

(٣) سورة يونس : (٢٢) .

(٤) الانسان لايقوم وحده (٢٩٠) نقلا من كتاب روح الدين الإسلامى (٨٣) ، عفيف عبد الفتاح طباره ، توزيع دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

فالشعور الديني احساس طبيعي يجده الإنسان في حياته حيث يشعر (بأن من فوقه قوة عليا توجهه ، وتسدده في طريقه ، وتعصمه من اليأس في ساعات الحرج والشدة وتمنحه العزيمة والقوة على اقتحام المصاعب ، وتمنعه من الاستسلام لنزعات الشر والسوء أو للشهوات والنزوات والمطامع الفردية وتربط البشر بعضهم إلى بعض بروابط تجمعهم على الأخوة الإنسانية المتعاونة من غير انتظار لجزاء مادى أو غير مادى يلقاه الانسان على الأرض)(١).

(إن هذه الأحاسيس والغريزة الفطرية ومايشعر به الانسان من إلهام مصدره خارج الإنسان لهى سبل وصول الإنسان إلى معرفة خالقه والتمسك بعبادته .. كما أن حاجة الإنسان إلى الإيمان بوجود قوى خارجية يفزع إليها عند حاجته .. لتنصره إذا بغى عليه وترد إليه حقه إذا سلب منه .. يتضرع إليها إذا أصابه الداء .. ويشكرها إذا نال الشفاء .. ولابد أنه في تصوره لهذه القوى إنما يتخيل أنها أكبر مما يستطيع أن يسعفه به التخيل .. فهى أكبر من كل ظروفه لأنه يلجأ إليها .. وأكبر من كل مافى الحياة لأنها هى الله تهب له حياته وحياة الآخرين .. وهى أقوى من كل ماعرف ومالم يعرف من القوى لأن كل قوة أحسها أو عرفها .. كثيرا ماوجد أكبر منها .. فالدين بذلك فطرى فى الإنسان أودعه الله سبحانه وتعالى فيه منذ أن خلقه)(٢).

بعد هذه المقدمات نصل إلى الآتى :

أولا : أن كل مولود يولد على الفطرة الصحيحة وهى دين الله تعالى سواء كان من أبوين كافرين أو مسلمين .

---

(١) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٥٣-٥٤) محمد الغزالى ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، صيدا .
وانظر الدين أو اللادينية (٤٠) ومابعدها ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(٢) بين الدين والعلم (٣٨-٤٠) ، عبد الرزاق نوفل ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، دون ذكر لتاريخ الطبعة .

ثانيا : أن فى إثبات هذه الحقيقة أبلغ رد ونقد لمزاعم الشيوعية فى إنكارها للدين واعتباره من اختراع البشر . وهو أول أمر يرد به على الفكر الشيوعى .

ثالثا : أن الفطرة السليمة قد تنحرف بفعل المؤثرات الخارجية سواء من الأبوين أو من المجتمع والبيئة التى يعيش فيها الإنسان .

رابعا : أن واقع التاريخ الإنسانى منذ آدم عليه السلام وحتى الآن إلى قيام الساعة يدل على هذه الحقيقة وهى أن الناس يعترفون بهذا الأمر وهو وجود الخالق جل وعلا .

خامسا : أن كل إنكار لهذا الأمر قديما أو حديثا إنما هو من الشيطان واتباع للهوى وتحقيق لمآرب شخصية وإشباع لمطالب شيطانية . وهذا ماحمل الشيوعية على موقفها من الدين وإنكارها للألوهية مطلقا . ولو تركت النفوس البشرية على أصلها لاختارت طريق الهدى والصلاح على طريق الضلال والإلحاد . ونعرض الآن لمصادمة الشيوعية لهذه الفطرة الربانية وهل نجحت فى تحقيق ذلك أم لا؟

على أن العداء للدين من قبل الشيوعية يعتبر أمرا بدهيا لأنه يأتى على بنيانها من أساسه ، ولأجل ذلك ناصبوه العداء واعتبروا القضاء عليه وإنكاره من الأولويات التى يقوم عليها فكرهم .

ثانيا : مصادمة الشيوعية للفطرة الدينية فى النفس البشرية :

قامت الشيوعية على عدد من المبادىء والأسس ومن أهمها مبدأ القضاء على الدين ، ونصوا على هذا فى كتاباتهم ، وتوجيهاتهم كما طبقوا ذلك عن طريق أفعالهم وكان جام غضبهم على المسلمين ، وذلك لكونهم شديدى التمسك بدينهم ، ولكون هذا الدين هو الذى ارتضاه المولى سبحانه وتعالى لنفسه ، ومن هنا كان لابد من شدة العداء بين الحق والباطل ، ولم تكن الأفكار الماركسية ـ منذ أن كانت نظرية وبعد أن أصبحت مطبقة فى دولة شيوعية ـ صديقة للإسلام أو المسلمين .

يقول د. صفوت : (إن عداء الماركسية للإسلام هو أشد وأقسى من عدائها لأى دين من الأديان ولعل السبب فى هذا ماتراه الماركسية من تمسك المسلمين القوى بعقيدتهم وماتعلمه من أن الشعار الذى ترفعه والذى يدعو إلى إنصاف الفئات الكادحة المطحونة قد سبقها إليه الإسلام منذ قرون وأن العدالة الإجتماعية فى الإسلام هى أتم وأكمل مماتدعو إليه (الماركسية) ، وأن تطبيقها يتم بدون عنف ومن غير إراقة للدماء ولاإثارة للحقد والشحناء هذا بالإضافة إلى أن الإسلام بعيد عن الكهنوت وصكوك الغفران برىء من اضطهاد العلم والعلماء ...)(١).

وقولنا هذا لايجعلنا ننكر حربهم للنصرانية ومحاولة القضاء عليها غير أنها لم تكن قادرة على المقاومة لما أصابها من تحريف وتبديل . ولما فى رجالها من فساد ومنكرات ترتكب باسم الإله مما ساعد على حدة العداء والحقد من قبل الشيوعيين على الإسلام . فاتخذ الشيوعيون من أفعال الكنيسة وفساد الدين فى أوروبا ذريعة فى حربهم للإسلام . واعتبروا الأديان سواء فى الاستغلال والطغيان . وليت ماركس وانجلز حددا فى أفكارهما الدين

---

(١) الفكر الماركسى (٩٤) .

النصرانى وبحثا عن الحق ولكنهما قصرا نفسيهما على دراسة الواقع النصرانى ثم عمما حكمهما على كل الأديان وهذا يتعارض مع أبسط قواعد المنهج العلمى . ومنذ الأيام الأولى لقيام الثورة البلشفية أعلن الشيوعيون حربهم للدين ، تطبيقا للمبادىء التى جاءت عن ماركس وانجلز .

وكانت روسيا القيصرية نصرانية فى دينها ، وتمثل الكنيسة ورجالها قوة واضحة فيها ، وعندما قامت الثورة البلشفية اتخذت نهجا عدائيا تجاهها ووزعت السفارة السوفيتية فى إحدى عواصم الدول العربية كتابا باللغةالعربية وعنوانه (حرية الدين فى الاتحاد السوفييتى) ، (وقد أرادت به تبرئة الحكومة السوفيتية فى اضطهادها للدين وأصحابه .. وقد جاء كل مافيه أدلة اتهام لاأدلة قراءة ، ورد بالكتاب فى الفصل الأول تحت عنوان (الدين فى روسيا قبل الثورة) مانصه : (وفى زمن الثورة الأولى فى روسيا كتب لينين يجب ألاتشتغل الدولة بالدين ، ويجب ألا تكون للجمعيات الدينية أية صلة بسلطة الدولة ، يجب أن يصبح كل فرد حرا تماما فى اعتناق أى دين يرضيه أو من عدم الإيمان على الاطلاق ، ولايمكن التسامح بشأن أى تمييز بين المواطنين فى حقوقهم على أساس معتقداتهم الدينية . ويجب أن تحذف أية إشارة إلى معتقدات المواطنين من جميع الوثائق الرسمية بلاقيد أو شرط ، ويجب ألاتقدم أية منحة حكومية للكنيسة ، والجمعيات الدينية التى يجب أن تصبح هيئات حرة كلية ومستقلة تماما عن الدولة) .

ويلى هذا باب بعنوان : تشريعات الدولة السوفيتية بشأن الدين ، ورد به : (قضت ثورة أكتوبر الإشتراكية الكبرى على العلاقات القديمة بين الكنيسة والدولة فأصدرت الحكومة السوفيتية فى ٢٣ يناير سنة ١٩١٨م مرسوما سوى مسألة حرية الدين وموقف الدولة السوفيتية تجاه الدين والجمعيات الدينية ، وقد أعلن هذا المرسوم التاريخى مايلى :

(١) الكنيسة منفصلة عن الدولة .

(٢) محظور إصدار أى قوانين محلية أو لوائح فى أراضى الجمهورية يكون من شأنها عرقلة أو تقييد حرية الضمير أو إيجاد أية امتيازات أو ميزات على أساس معتقدات المواطنين الدينية .

(٣) لكل مواطن أن يعتنق أى دين[١]، أو لايعتنق أى دين على الإطلاق .

(٤) لن تجرى أية مراسم أو احتفالات دينية فى أى عمل من أعمال الدولة أوفى أى احتفال رسمى عام أو إجتماعى .

(٥) حرية القيام بالطقوس الدينية مكفولة إلى الحد الذى لاتؤدى فيه إلى اضطراب النظام العام ، وإذا كانت غير مصحوبة بالتعدى على حقوق المواطنين فى الجمهورية السوفيتية ، وللسلطات المحلية الحق فى اتخاذ جميع التدابير اللازمة فى هذه الأغراض لضمان المحافظة على النظام العام والأمن .

(٦) لايستخدم أحد معتقداته الدينية كعذر للتنصل من واجباته المدنية .

(٧) يلغى عمل قسم أو عهد دينى وفى الأحوال الضرورية يكتفى فقط بالوعد الصادق .

(٨) تقوم السلطات المدنية ـ وحدها بجميع أعمال التسجيل عن طريق مكاتب تسجيل الزواج والميلاد .

(٩) المدرسة مفصولة عن الكنيسة والتعليم الدينى محظور فى جميع المدارس العامة والخاصة ، ويتعلم المواطنون الدين على انفراد)[٢].

وبالنظر فى هذه البنود نجد أنها تمس مبادىء الإسلام مباشرة بينما لايمس النصرانية منها إلا قضية الفصل بين العلم والدين ، وقد ألمحنا أن النصرانية لاتستطيع أن تقاوم فالهدف من هذه التوصيات والبنود هو الإسلام ومبادئه .

---

(١) لو بقى الأمر على هذا القانون لكان ذلك جيدا إلى حد ما ، ولكن كانت هذه الخطوة تمهيدا لما بعدها ، وكسبا لود أغلب السكان فى تلك المناطق .

(٢) حقيقة الشيوعية (١٩٤-١٩٦) .
وانظر الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٢٦-٢٧) .

فالإلحاد مسموح به ، والتفرقة على أساس الدين ليس مسموحا بها . وتعلم الإلحاد ودراسته تنال الاهتمام والتعليم الديني يمنع في المدارس الخاصة والعامة . وليس من حق العامل القيام بواجباته الدينية وهو على رأس عمله (وهل المسيحى يفعل ذلك) فالمقصود المسلم وكل الأمور التى يتبين منها ميولها الدينية أو تعبيرها دينى تمنع فلاأذان ولاصلاة ولادعوة فكل ذلك يتنافى مع النظام . فكانت الحرب منذ اللحظة الأولى على الإسلام وأهله . ذلك الدين الذى فطر الناس عليه .

وهذا وضع طبيعى تمارسه الشيوعية ، كيف لا وهى التى قامت على إنكار الإله ، ويمكن إبراز مصادمة هذا النظام للفطرة الإنسانية فى الأمور التالية :

أولا : إنكارهم وجود الإله .

ثانيا : أقوالهم فى الدين من حيث تفسيره ، نشأته ، تطوره .

ثالثا : واقعهم مع المسلمين[١].

أولا : إنكارهم وجود الخالق جل جلاله :

قامت الشيوعية على الفكر الإلحادى ولم تعترف إلا بما هو محسوس مشاهد ، وإذا نظرنا إلى أصول ماركس وأفكاره نجد أنها اصطبغت بالصبغة المادية فلاغرابة أن جاء عنه وعن أتباعه أن لاإله والكون مادة ، وعمل الشيوعيون على نشر هذه العقيدة بين الناس بل ودرسوها فى مدارسهم وجامعاتهم . واعتبروا أن الفرد الصالح النافع للحزب هو ذلك الفرد الذى يتربى على الأفكار الماركسية اللينينية ولأجل ذلك اعتبروا التربية الإلحادية أحد أنواع التربية التى لابد وأن يتلقاها الفرد فى ظل النظام الشيوعى فصدرت هذه العقيدة من ماركس ومن بعده لينين وأتباعهما وحدداها بقولهم

---

(١) وهذا سيتضح لنا من خلال حديثنا عن الحريات الدينية فى الاتحاد السوفييتى إن شاء الله تعالى .

(لاإله والحياة مادة)[١].

ويقول انجلز : (لامحل مطلقا لوجود خالق أو حاكم فى هذا الزمان الذى ظهرت فيه نظرية التطور التى يقوم عليها الكون)[٢].

ويقول ماركس : (أنا أكره كل الآلهة)[٣].

وصرح لينين بأن الإلحاد الذى هو الإنكار للإله جزء طبيعى من الماركسية ، فقال : (الإلحاد جزء طبيعى من الماركسية لاينفصل عنها)[٤].

وينكر لينين صراحة وجود الإله فيقول : (ليس صحيحا أن الله هو الذى ينظم الأكوان ، وإنما الصحيح هو أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه ، ولهذا فإن كل إنسان يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز ...)[٥].

ويقول لينين : (كل إله وإن تناهى فى المظهر وبلغ الذروة من الجودة والجمال هو أكذوبة يتذرع بها الأسياد . أما نحن فلسنا ملاحدة وحسب . بل نحن ملاحدة مجاهدون ، ولانكتفى ببذر الأفكار ، بل نشعلها فتنة بين الطبقات ارادة أن نصل إلى القضاء على جرثومة الدين)[٦].

وماأكثر ماسفه زعماء الشيوعية أحلام كل أحد يفكر فى قضية الإله أو الاعتراف بأن هذا الكون له مدبر واعتبروا ذلك من سقط الأخلاق والدناءة

---

(١) شهادتى للتاريخ (٢٥٤) .
وانظر : الشيوعية فى موازين الإسلام (٢٠) ، الشيوعية والأديان (٢٣) .

(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (٢٠) .

(٣) الفروق بين فلسفة الطبيعة عند ديموقريط وفلسفة الطبيعة عند أبيقور ماركس ١٨٤١-١٨٤٢ ، نقلا من كتاب تجربتى مع الماركسية (١٥٣) .

(٤) شهادتى للتاريخ (٢٥٥) ، وانظر حقيقة الشيوعية (١٨٩-١٩٠) .

(٥) الحقيقة الكاملة (١٩) ، وانظر : حركات ومذاهب (١٥) ، إشتراكيتهم وإسلامنا (٥١) ، قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (٣٢) حاشية رقم (١) ، معالم الإشتراكية العربية (١٧٠) .

(٦) الحقيقة الكاملة (٣٧) .

فى النفس . يقول لينين : (إن كل فكرة دينية وكل معتقد بالله لابل إن مجرد التفكير بالله دناءة كامنة فى النفس)[١].

ويقول لينين : (إننا لانؤمن بالإله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والاقطاعيين والبورجوازيين لايخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالا ومحافظة على مصالحهم . إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التى صدرت عن طاقات وراء الطبيعة غير الإنسان ، والتى لاتتفق مع أفكارنا الطبقية ، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن نظامنا لايتبع إلا ثمرة النضال البروليتارى ، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية)[٢].

ويقول : (إن تهذيب الشبان وتعليمهم يجب أن يتوخى تلقيحهم بالأخلاق الشيوعية ، ولكن هذه الأخلاق ليست مستمدة من وصايا إلهية لأننا لانؤمن بالله)[٣].

وعندما غاب مكسيم جوركى وهو كاتب روسى شهير عن جلسات الحزب افتقده لينين فأرسل إليه من يحضره ، واعتذر وقال بأنه يبحث عن الإله فأرسل إليه لينين برسالة يقول فيها : (إن البحث عن الله لافائدة منه ... ومن العبث البحث عن شىء لم يخبأ، وبدون أن تزرع لاتستطيع أن تحصد ... وليس لك إله لأنك لم تخلق بعد .. والإله لايبحث عنه وإنما

---

(١) حركات ومذاهب (١٦) .

(٢) نقلا من كتاب الإسلام يتحدى (٤٠) وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، د. عبد الصبور شاهين ، الطبعة الأولى ، المختار الإسلامى .
وانظر حقيقة الشيوعية (١٩١) .

(٣) حركات ومذاهب (١٦) .

يخلق)[١].

وقد حرص لينين على الدعوة إلى الإلحاد سرا فى أول الأمر فقال سنة ١٩٠٥م :

(لماذا لانعلن فى براجنا إننا ملحدون؟ إننا نفعل ذلك لكى لانزود خصومنا بسلاح يهاجموننا به ، فعدد المؤمنين بالله لايزال يفوق عدد الملحدين)[٢].

ثم خرج عن هذه السرية وقال :

(إننا نقوم بالدعوة ضد الدين الآن لأننا أقوى من أن ينال خصومنا منا عن طريق التشهير بالحادنا ، ولقد كنا نحرص فى الماضى على عدم إعلان إلحادنا لأننا لم نكن أقوياء ، أما الآن فإننا نعلن بصراحة أننا ملحدون وأننا نرى فى الأديان خطرا على الحضارة والانسان فالاديان أفيون مخدر)[٣].

وعلى نفس الخطى وفى نفس الطريق سار الرفيق ستالين فى طريق أسلافه فى هذا الإنكار فقال : (إن العالم يسير دون أن يكون له مسير) .

ويقول : (العالم يسير ويتطور وسيره وتطوره يتبع قوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لأى عقل كلى يسيره)[٤].

ويقول : (نحن ملحدون ... ونحن نؤمن بأن فكرة الله خرافة ... ونحن لانريد أن نجعل الدين مسيطرا علينا لأننا لانريد أن نكون سكارى)[٥].

---

(١) شهادتى للتاريخ (٢٣٠) .
وانظر : حقيقة الشيوعية (١٩١) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٤١) ، الكيد الأحمر (٤١) ، كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٦-١٧) ، الماركسية بين النظرية والتطبيق (٦٤) ، فتاوى عن الشيوعية (٩٢-٩٣) .

(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٩) .

(٣) المرجع السابق (٥٠) ، وانظر الحقيقة الكاملة (١٥) .

(٤) شهادتى للتاريخ (٢٤٦-٢٤٧) .
وانظر الماركسية بين النظرية والتطبيق (٦٤) .

(٥) إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٠) ، وانظر الحقيقة الكاملة (١٩) .

ويقـول بوليتزر : (الماركسيـة هـى فى آن واحد الإلحاد الأكثر تماسكـا ومنطقيـة وتجاوز الإلحاد المبتـذل الـذى يخيل إليه أن كـل شـىء يسوى على الـوجه المطلـوب عنـد "نقد السمـاء" . فمـادام الدين انعكـاسا خيـاليا للعـالم الواقعى ، فلابد من تبيان أن الدين وهم)[١].

كمـا أن صحـف الحزب ووسـائل إعلامه قد عملـت على ترويج هـذه الفكرة وأن الكون ليس له خالق .

ففـى عام ١٩٥٤م نشرت صحيفـة البرافدا (أن الإعتقـاد بالله هو تراث القدامى الجهلة)[٢].

ونشرت باكنسكى بايوش فى ١٧ كانون الأول ١٩٥٨م : (لـو كان الله موجودا لما سمح أن ننبذ الدين)[٣].

ونشـرت البرافدا بتاريخ ٢٦ نيسان ١٩٤٩م على لسـان أحد قادة الحزب الشيـوعى مايلى : (نحن نؤمـن بثلاثة أشياء هى : ماركـس ولينين وستالين ، ونكفر بثلاثة أشياء هى الله والدين والملكية الخاصة)[٤].

ونشـرت صحيفة العلم الأحمـر بتاريخ آذار ١٩٥٩م : (مـن الطبيعى أن الصـراع بين الإلحاد والإيمان باللـه لم ينته بعد ولابد مـن توجيه الجماهير نحو استئصـال جذور الإيمان بالخرافـات والجن والآلهـة بصـورة أعمـق مما حدث حتى الآن)[٥].

إن دعوة الشيوعيين إلى الإلحاد لم تكن فقط على مستوى رؤساء الحزب كمـا أنها لم تكن فقط كلمات تصدر ، أو خطابات تلقـى ، بل جعلوا أعضاء

---

(١) فلسفة الأنوار (١١) .
(٢) حركات ومذاهب (١٦-١٧) .
(٣) المرجع السابق (١٦-١٧) .
(٤) الحقيقة الكاملة (١٩) .
وانظـر : إشتراكيتهـم وإسلامنا (٥١) ، المذاهـب المعـاصرة ومـوقف الإسلام منهـا (١٤٣) ، الكيد الأحمر (٤١) .
(٥) حركات ومذاهب (١٦-١٧) .

حزبهم ومفكريهم والقائمين على التعليم فى جامعاتهم يلقنون النشء الإلحاد ويمنعونهم من كل فكر دينى ، لقد فرضوا الإلحاد بالقوة . وجعلوا التربية الإلحادية أحد الأسس المهمة فى تربية الفرد الشيوعى .

يقول أحد أعضاء الحزب فى فترة من فترات حياته[١]: (لقد تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا فعقولنا خاوية من هذا الجانب لم يمسها أى تيار دينى وبهذا لم نشغل فكرنا اطلاقا بهذا الجانب ...)[٢].

وقال : (إننى لم أقابل فى مدة العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى إنسانا واحدا من جيلى ليس ملحدا)[٣].

فهذه بعض أقوالهم التى جاءت عنهم فى إنكار الإله والدعوة إلى الإلحاد بكل وسيلة أمكنهم استخدامها ، فهذا الأمر الأول الذى صادموا به حقيقة مغروسة فى النفس الإنسانية ألا وهى الاعتراف بوجود الإله ، فأظهر الناس الإلحاد ، وأبطنوا الإيمان ، ومارس المسلمون بعض شعائرهم سرا وبعيدا عن أنظار الحزب وحراسه .

ثانيا : موقفهم من الدين وأقوالهم فيه ، نشأته وتطوره :

بعد أن مر معنا أن الشيوعية تقوم على إنكار الإله ولاتؤمن إلا بالمادة فإن النتيجة الطبيعية لذلك أن يكون موقفهم من الدين بحكم أنه موجود فى النفوس البشرية موقف العداء والتفسير الذى يتفق مع مبادئهم . ويمكن جعل موقفهم من الدين قد مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : من سنة ١٩١٧م إلى ١٩٥٥م .

والمرحلة الثانية : مابعد سنة ١٩٥٥م .

---

(١) ليونهارد الألمانى .

(٢) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١١٧) ، نقله للعربية محمد شامه ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، مكتبة وهبة .

(٣) المرجع السابق (١١٧) .

ويمكن تسمية المرحلة الأولى (مرحلة الرفض جوهرا ورداء) .

والثانية (مرحلة الرفض جوهرا مضمرا ، والقبول رياء)[١].

وقد جاء فى مجلة الشباب السوفييت فى عددها الصادر ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٧م : (نحن لانستطيع أن نقف من الدين موقفا محايدا)[٢].

اتسمت المرحلة الأولى بالحرب على الدين واعتباره خرافة وأوهام واعتبروه حجر عثرة فى طريقهم وفى طريق تحقيق مبادئهم ، فمن تفسيراتهم له يقول انجلز :

(ومهما يكن من شىء ، فليس الدين إلا الانعكاس الوهمى فى أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية ، وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعته)[٣].

ويقول ماركس إن الدين (هو نفثة المخلوق المضطهد وشعوره بالدنيا التى لاقلب لها ، إنه أفيون الشعوب) .

كما قال : (إنه الأفيون الذى يخدر الشعب لتسهل سرقته) .

وقال : (إن الدين كان وسيلة الإخضاع الروحى كما كانت الدولة وسيلة الإخضاع الاقتصادى)[٤].

ويقول لينين : الدين (أحد أشكال المظالم الروحية التى يئن منها الناس فى كل مكان . فالدين يعلم "العامل الفقير المستغل" الاستسلام والصبر

---

(١) الشيوعية والأديان (٣٤-٣٥) .
(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٥١) .
(٣) انتى دوهرنغ (٣٨١) وانظر مابعدها .
(٤) الشيوعية والأديان (٢٣) .
وانظر : تجربتى مع الماركسية (١٥٥) ، شهادتى للتاريخ (٢٤٦) ، كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٦) .

فى الحياة على هذه الأرض ، ويعزيه بأمله فى الجزاء فى الحياة الآخرة)[١].

ويقول : إن الدين (ليس إلا طائفة من الخرافات ابتكرها المستغلون بما أوتوا من دهاء ليفرضوا العبودية الأبدية على من يستغلوهم)[٢].

ويقول : (الدين هو أفيون الشعوب فالدين ورجل الدين يخدران أعصاب المظلومين والفقراء ويجعلانهم يرضخون للظلم)[٣].

وفى بيان أهمية حرب الدين وأنه من أساسيات عمل الثورة قال لينين (الحرب ضد الدين ـ أفيون الشعوب ـ تشغل مكانا هاما بين أعمال الثورة الثقافية ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة)[٤].

والإشتراكية لن تقوم إلا بالتحرر من الدين . يقول لينين : (كلما تحررنا من نفوذ الدين ازددنا اقترابا من الواقع الاشتراكى ، ولهذا يجب علينا أن نحرر عقولنا من خرافة الدين)[٥].

ويقول لينين : (إن الدين هو أفيون الشعوب وإن الدين نوع من الخمر الروحية يغرق فيها عبيد الرأسمالية صورتهم الإنسانية ودعواهم إلى حياة انسانية كريمة)[٦].

وبين ماركس من قبل أهمية حرب الدين والقضاء عليه فقال : (لاغنى فى الوقت الحاضر عن شن أشد الحرب على تعاليم الدين وأوهامه وخزعبلاته)[٧].

---

(١)،(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٦٥) ، كاونتس ، ترجمة محمد بدران ، مكتبة الأنجلو المصرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
وانظر : حقيقة الشيوعية (١٨٩-١٩٠) ، الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٣٩-٤٠) .

(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٩) .

(٤) حركات ومذاهب (١٧) .
وانظر : حقيقة الشيوعية (١٩١) ، الكيد الأحمر (٤٢) ، فتاوى عن الشيوعية (٩٢-٩٣) ، الماركسية بين النظرية والتطبيق (٦٥) .

(٥) إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٩) .

(٦) شهادتى للتاريخ (٢٥١) .

(٧) المرجع السابق (٢٣٠) .

ويقول لينين : (علينا محاربة الدين هذه هى ألف باء الماركسية ، وينبغى أن ترتبط محاربة الدين مع الممارسة الفعلية للصراع الطبقى بإزالة الجذور الإجتماعية للدين)(١).

وجاء عن الشيوعيين قولهم : (الدين كشراب الفودكا الرخيص يضعف النفوس ويشوش العقل) .

ويقولون : (الشعوب ليست فى حاجة إلى معونة المعجزات والإيمان بالله) .

ويقولون للأطفال : (إن الدين هو التركة التى خلفها لنا العجائز)(٢).

ويقول ماركس عن المسيحية : (إن المسيحية تقرظ الجبن واحتقار النفس وإذلالها وتحبذ الخضوع والخسة وكل صفات الكلب الطريد)(٣).

كما نشرت مجلة أوزباكستان مادينانى يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٥٨م مانصه:

(إن من شأن الدين أن يحول بين المواطن السوفييتى وبين أن يكون بناء فى صرح المجتمع الشيوعى ، والإسلام بصفة خاصة هو بحكم تقاليده ، وعاداته عدو للإشتراكية ، وأنه لمما يؤسف له ألا نكون قد قضينا حتى الآن على بعض آثار الدين فى حياة المواطنين . كذلك كان الواجب على الحزب الشيوعى وعلى تنظيمات الشباب واتحادات العمال والمعلمين والمحاضرين ورجال الأدب والمشتغلين بالسينما والصحافة والفن أن يحملوا على الدين حملة شعواء ، حتى لايتركوا له أثرا ، وألا يهادنوه حتى يقضوا عليه قضاء مبرما)(٤).

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد ٨/٣٨٨٣ الأحد ١٩٨٩/٧/١٦م .
(٢) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٧) .
(٣) الشيوعية والأديان (٢٤) .
(٤) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٢٢-٢٣) .

وبالفعل عمل الشيوعيون فى هذه المرحلة الأولى على تنفيذ تلك الأقوال ونشر الإلحاد بكل قوة ، فهدمت المساجد والكنائس ، وحرمت تعليم الدروس الدينية ، وأنشأت بالمقابل المعاهد والمدارس المهتمة بالتربية الإلحادية وبذلوا جهدهم فى القضاء على كل مايمت إلى الدين بصلة .

يقول كاونتس : (إن البلاشفة ماكادوا يتسلمون زمام الحكم ، حتى أخذوا يهاجمون الدين بكل مظاهره ومذاهبه ، سواء كان هو المذهب الأرثوذكسى أو الكاثوليكى الرومانى أو البروتستنتى أو الدين الإسلامى ، أو اليهودى[1]، أو غير هذه كلها من المذاهب والأديان . ومنعوا معونة الدولة عن الكنيسة ، وأمموا أملاكها ، وحرموا رجال الدين من جميع المناصب ، وألغوا تعليم الدين من المدارس ، وحرموا بقوة القانون تعليم الدين للأطفال الذين تقل سنهم عن الثامنة عشرة إذا كانوا جماعات تزيد على ثلاثة أفراد . وشعر القساوسة والكهنة ، فى الكفاح الذى حدث بعدئذ بين الدولة الثورية والكنيسة ، بوطأة الإرهاب الأحمر كاملة ، وصودرت الكنوز الفنية التى كانت فى الكنائس واستخدمت فى الأغراض الدنيوية ، وفرضت رقابة شديدة على الصلات الثقافية بين رجال الدين والشعب . وأغلقت بتأثير ضغط الدولة المباشر أو غير المباشر كثير من الكنائس ، والأديرة ومعابد اليهود ، ومساجد المسلمين ، وحولت إلى نواد ، ومدارس ، وبيوت للحضانة ، ودور الكتب ، بل إن منها ماحول إلى متاحف للأغراض المضادة للدين . ثم وجهت كل الهيئات التعليمية ووسائل الدعاة لنشر "النظرة الإلحادية ـ العلمية" ، وتكونت منظمة خاصة هى جمعية (من لايؤمن بالله) لإعداد الزعماء القائمين بحملة واسعة ضد الدين تمتد إلى جميع أطراف البلاد . وظل البلاشفة على العموم يسيرون على هذا النهج لايحيدون عنه حتى وقتنا هذا ، وإن تبدلت النقط التى يؤكدونها فيه وتغيرت أساليبهم

---

(١) ولعل ذلك فى الظاهر حتى لايكشف الأمر من أول لحظة وإلا فإن الحفاظ على اليهودية والميزات التى أعطوها لليهود تدل على أنه الدين الوحيد الذى لم يلق مالقيته بقية الأديان الأخرى وخاصة الإسلام .

من آن إلى آن . ويظهر هذا النهج فى صورة يكتنفها بعض الغموض فى المادة ١٢٤ من دستور عام ١٩٣٦م . فقد جاء فيها "ولكى نحقق للمواطنين حرية الضمير تفصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة فى اتحاد جمهوريات السوفييت الإشتراكية ، ويعترف لجميع المواطنين بحرية العبادة الدينية ، وحريتهم فى نشر الدعاوة المعارضة للدين والنقطة التى لابد من ملاحظتها هنا هى أن الدستور لايضمن حرية الدعوة الدينية)[١].

ويقول لينين : (نصر على اعتبار الدين مسألة خاصة فيما يختص بالدولة ولكننا لانستطيع أبدا أن نعتبر الدين مسألة خاصة بالنظر إلى حزبنا)[٢].

ولقد كانت الشيوعية فى هذه الفترة أكثر ماتكون اهتماما بالتربية الإلحادية وانشاء المعاهد اللادينية ، لأنهم يرون أن الأفكار الدينية لابد وأن تقابل بأساليب تربوية هادفة من أجل القضاء عليها ، جاء فى معجم الشيوعية (فى ظل الإشتراكية ، تتقوض أعمق جذور الدين الإجتماعية الناجمة عن النظام المتناحر طبقيا وعن مختلف أشكال الاضطهاد الإجتماعى والقومى وبذلك تنشأ الظروف والشروط الموضوعية لأجل التغلب على الدين ولكن هذا لايعنى أن التغلب على الأوهام الدينية يجرى عفويا وتلقائيا . ذلك أن الأوهام الدينية والعقائد الدينية تتميز بحيوية كبيرة . وهى تبقى بفعل التقاليد ، وتدعمها الهيئات الدينية والكنيسة والطائفية ، كما يضطلع المستوى الثقافى المنخفض عند قسم من السكان بدور معين فى بقائها . ولهذا يصبح العمل التربوى الهادف ، إلى جانب التحويلات الإجتماعية والإقتصادية ، عاملا مهما لتذليل الدين . كتب ماركس يقول : (إن الدين سيزول بقدر ماتتطور الإشتراكية وينبغى أن يتم زواله بنتيجة التطور

(١) التعليم (٦٥-٦٦) ، وانظر حاضر العالم الإسلامى (١٣٦) .
(٢) الشيوعية والأديان (٥٧-٥٨) .

الإجتماعى الذى يعود فيه إلى التربية دور كبير)[١].

واهتم الشيوعيون بالتربية الإلحادية ووجدت عدة منظمات فى الاتحاد السوفييتى لخدمة الشيوعية .

ومن هذه المنظمات "اتحاد اللادينيين" وغير اسمها عام ١٩٢٩م إلى "اتحاد المجاهدين اللادينيين" ، وكانت السن المقررة للقبول فيه هى الثامنة عشرة ثم خفضت إلى السادسة عشرة ثم إلى الرابعة عشرة . ثم أنشىء قسم خاص للأطفال سمى "اتحاد شباب المجاهدين اللادينيين" والسن المقررة للقبول فيه مابين الثامنة وحتى الرابعة عشرة . وقد قامت هذه المنظمات بالدعوة ضد الدين ، وإعداد البرامج اللادينية ، واستخدمت المرافق المتعددة للدعوة ضد الدين[٢].

ويرى الشيوعيون : (إن التربية الإلحادية تشتمل على تطبيق شتى أشكال وطرائق التأثير فى الناس . والمقصود هنا الأشكال الجماهيرية لنشر المعارف الإلحادية (المحاضرات ، الأحاديث ، أمسيات الأسئلة والأجوبة ، المناقشات فى مواضيع معينة) ، والعمل الفردى مع المؤمنين ، واستعمال وسائل الإعلام الجماهيرى والدعاية الجماهيرية (السينما ، الراديو ، والتلفزيون ، الصحافة) وكذلك استعمال المؤسسات الثقافية التنويرية (قصور الثقافة ، النوادى ، المكتبات)[٣].

وهذا ماأكده لينين ودعا إليه حيث قال : (إنه ينبغى اعطاء الجماهير "مادة متنوعة للغاية فى الدعاية الإلحادية ، واطلاعها على وقائع من شتى ميادين الحياة ، والاقتراب منها بهذا النحو أو ذاك لإثارة اهتمامها ، وإيقاظها من السبات الدينى ، وهزها من شتى الجوانب ، وبشتى الأساليب ، ومالى ذلك)[٤].

---

(١) آراء ماركس وانجلز فى الدين (٢٠) نقلا من المعجم (١٢٣) .
(٢) انظر التعليم (١٥٧-١٥٨) .
(٣) المعجم (١٢٤) .
(٤) المؤلفات الكاملة الجلد (٤٥/٢٦) نقلا من المعجم (١٢٤) .

إن هـذا الاهتمام بالتربيـة الإلحادية والعداء للـدين هـو الذى سيمكن الإشتراكيـة من القيام . يقول لينين : (كلمـا تحررنا مـن نفوذ الدين ، إزددنا اقترابا مـن الواقع الإشتراكى ، ولهذا يجب علينا أن نحرر عقـولنا من خرافة الدين ، فالدين هو أفيون الشعوب)[١].

إن الـدين يمثـل عقبة كؤوداً فى طـريق تحقق الإشتراكيـة . وقـد عمل الشيـوعيون على جعـل التربيـة الإلحادية متنـوعة وشاملـة لكـل الاتجاهـات ، واستبـدلوا الطقوس الدينيـة ، بطقوس أخرى لادينية فجـاء عنهـم : (وفضلا عن نقد الأيديولوجية الدينية نقدا مسبها ومقنعا وعن ترويج العقيدة العلمية المادية ، لتشمـل التربية الإلحادية مختلـف وسائل التأثير الانفعـالى النفسانى فى الناس وفى عدادها يأتى فى المقام الأول تكوين طقوس مدنية جديدة وتطبيقها فى المعيشـة ، طقوس من شأنها أن تسهم فى إزاحة الأعيـاد والطقوس الدينية وأن تلبى حاجات الإنسان الأخلاقية والمعنوية والنفسانيـة والجمالية ، وتؤكد المثل العليا الشيوعية . أن فعالية التربية الإلحادية تتوقف على طابعها المنسجم والمنتظـم والهادف والهجومى ، على إجتماعها مع أشكـال أخرى من العمل التربوى ومـع تنويع مخاطبـة مختلف فئات السكان . إن الموقـف الشـامل من التربيـة الإلحادية هو الذى يحدد فعـاليتها . ناهيك بأن هـدف التربية الإلحادية ليـس نقد الأيديولوجية الدينيـة والعقائد الدينية وحســب ، بل أيضا تأكيد النظـرات والتصورات العلميـة المادية ، وقواعد الأخلاق الشيـوعية ، الأمـر الـذى يتطلب ضرورة الاستفادة فى التربيـة الإلحادية مـن جميع منجزات العلم المعـاصر ، كمـا يتطلب الصلة الـوثيقة بين التربية الإلحادية وممـارسة البنـاء الشيوعى)[٢].

هـذا باختصار ماكان فى المرحلـة الأولى وقبله من عـداء للدين وتفسير له . وقد تركز العداء فى الظـاهر والباطن وبكل ماأوتى الشيـوعيون من قوة وفعلـوا ذلك سواء بنشر الإلحاد أو بحرب الأديان وقتـل أهلهـا أو بتشريدهم

(١) الحقيقة الكاملة (١٦) .

(٢) المعجم (١٢٤-١٢٥) .

وتعذيبهم ، وبعد أن أحسوا بأن الأمر قد يفلت من أيديهم ظلوا على معتقدهم الإلحادى ولكنهم سلكوا طريقا آخر من أجل الوصول إلى غاياتهم وكان ذلك الطريق يقوم على الخداع ومدى المصلحة التى سيجنيها الحزب من هذا الأسلوب الجديد .

المرحلة الثانية من سنة ١٩٥٥م : مرحلة الرفض جوهرا مضمرا والقبول رياء .

لاهم للشيوعيين إلا الوصول إلى غاياتهم وتحقيق أهدافهم فالغاية تبرر الوسيلة عندهم ، كيف لا وهم فى خدمة اليهود .

فإذا رأوا المصلحة فى طريق سلكوه ، وإن كان ذلك السبيل يتعارض مع أصول دعوتهم فالمهم تحقيق الغاية .

ومر معنا شيئا من أقوالهم فى الدين ونكرانهم للإله أصلا مما يدل على معاداتهم له ظاهرا وباطنا . ولكن إذا اقتضت المصلحة اللين قليلا فى الظاهر فلا يمنع ذلك أن يختط الشيوعيون لهم طريقا يسلكونه للوصول إلى تحقيق رغباتهم .

وبدأ السوفييت أول تعامل جدى لهم مع العالم الثالث بصفقة السلاح المصرية التشيكوسلوفاكية .

وكانت الأخيرة مجرد واجهة للاتحاد السوفييتى ، وقدم حاكم مصر حينها أكبر فرصة فى تاريخهم المعاصر فقد كان هذا العمل بمثابة مخرج للسوفييت من عزلتهم وراء قضبان السور الحديدى ومن برودة العزلة التى طالت لأربعة عقود من الزمان إلى دفء العالم الثالث حيث مصادر الطاقة والأسواق الواسعة . فتح زعيم مصر أمام الدب الروسى الشيوعى طاقة واسعة لم يحلم بها من قبل ، ودلف منها إلى العوالم الجديدة ، وقد كانت غنية بثرواتها الطبيعية وظمأى لمنتجات العصر المصنعة وماهى إلا فترة وجيزة حتى كانت قدم روسيا فى بلدان عديدة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى ، وبدأ يتعامل السوفييت مع شعوب جديدة ولكن هذه الشعوب كانت ذات أقدام راسخة فى التربية الدينية فى لعالم الإسلامى حيث توجد مصر وسوريا والعراق والجزائر وليبيا شعوب شديدة التمسك بعقيدتها الإسلامية .

وفى أمريكا الوسطى والجنوبية ـ حيث تبذل الأحزاب الشيوعية قصارى جهدها ـ توجد شعوب شديدة التمسك بالكاثوليكية ، وفى آسيا يوجد أعداد كبيرة من المسلمين شديدو التمسك بعقيدتهم[١].

وبعد هذه المقدمة وإذا عرفنا أن الشيوعية ترغب فى نشر فكرها وعقيدتها التى تتعارض مع عقائد هؤلاء وأفكارهم ، فهل يظهرون بالوجه الحقيقى؟ إن هذا بالطبع سيجعل الشعوب تزداد كراهية للماركسية ، ويؤدى ذلك إلى صراع تعجز الشيوعية عن مواجهته فى غالبية بلدان العالم لما لديها من دين حتى ولو كان محرفا ، لأن الماركسية تقوم على مصادمة فطرهم .

يقول طارق حجى : (وماهى إلا شهور قليلة حتى أدرك الساسة الشيوعيون أن الوجه الشيوعى القديم[٢]لايمكن بحال من الأحوال أن يقبل لدى شعوب تلك البلدان بسبب معرفة أبناء هذه الشعوب بعدائه التقليدى السافر للدين . وقد أدرك هؤلاء الساسة أن تقديم النعيم المطلق لهذه الشعوب على صحن العداء للدين يجعلهم لايترددون هنيهة فى لفظه ورفضه أيا كانت المغريات أو المقبلات ...) .

ويضيف قائلا لقد (تغير المسلك الشيوعى الصدامى إلى موقف آخر تماما وهو محاولة التحالف مع الفكر الدينى ، تحالفا لايمكن أن ينتهى إلا بانتصارهم وبإلحاق الهزيمة الماحقة بالفكر الدينى . فهو تحالف يقوم على إبراز نقاط وهمية للالتقاء بين الشيوعية أو الاشتراكية وبين الدين "وخاصة الإسلام" ، ولكنه فى نفس الوقت تحالف "مصحوب" بحرب جانبية غير واضحة . فهناك أولا التشويه المطلق لسمعة رجال الدين أو القائمين بالدعوة والعمل فى مجالات دينية . وهناك ثانيا ترك الجانب العقائدى فى الدين ... وهناك ثالثا : طامة إلحاق الدين بالشيوعية أو الإشتراكية فى نقاط الاتفاق الوهمية المصطنعة ... فإذا كانا يتفقان فى كذا وكذا ، فذلك نصر للإشتراكية

---

(١) انظر الشيوعية والأديان (٣٧-٣٨) .
(٢) يقصد المرحلة الأولى العدائية ، فى الظاهر والباطن .

وحدها باعتباره مدعاة لقبولها بعد أن كانت ملفوظة ومرفوضة ومستهجنة والأمر لايخرج عن كونه تكتيكا خبيثا)(١).

وجاء فى مجلة (العلم والدين) السوفيتية مانصه : (من اللازم أن نحبذ بعض رجال الدين وبعض النصوص الدينية لمثل هذه الدعوة الإشتراكية إن أمكن ذلك ، ولامانع أن يظهر الإشتراكيين وهم يمارسون الفروض الدينية علانية ، ليسيطروا على زمام المعاقل الدينية لئلا تتحداهم ، وقد لجأنا إلى هذا الأسلوب فى مناطقنا الإسلامية وساعدنا ذلك على مرحلة التحول الإشتراكى ، واليوم يلجأ إليه بعض أقطاب الحزب الشيوعى فى ايطاليا الكاثوليكية ، ولكن من الضرورى أن يأتى وقت تقرر فيها القيادة الإشتراكية إنهاء هذه الهدنة مع الميراث الدينى حتى لايؤدى إلى بعث دينى يكون خطرا على التجربة الإشتراكية)(٢).

ويقول لينين : (علينا أن نكون مستعدين لكل لون من ألوان التضحية وإذا استلزم الأمر فإننا نمارس كل شىء ممكن فالحيل وفنون المكر وكل الأساليب غير الشرعية جميعها مباحة وكذلك السكوت واخفاء الحق ، وموجز القول إننا نستخلص الآداب من مصالح حرب الطبقات)(٣).

وهم يرون أن الحكمة تقتضى عدم استخدام الأساليب المباشرة فى حرب الدين وإعلان الإلحاد . فهذا باكونين(٤)أصر على ماركس حين كتابة الميثاق الشيوعى على (أن يصدر باعلان الالحاد) ، فقال ماركس وهو أشد إلحادا من الأول : "إنها سياسة غير حكيمة" ...)(٥).

---

(١) الشيوعية والأديان (٣٨-٣٩) .
(٢) نقلا من كتاب كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٢٤) ، وانظر (٢٧،٣٠-٣١) .
(٣) حقيقة الشيوعية (١٩٠) .
(٤) أيديولوجى فوضوى ، انضم إلى الأممية الأولى حيث عمل كعدو لدود للماركسية ، أنكر دكتاتورية البروليتاريا ووقف ضد انشاء حزب سياسى مستقل للطبقة العاملة . انظر لينين الدولة والثورة (١٤٦) .
(٥) نظرات فى الإشتراكية الثورية (٢٧) .

(ولاشك لو أن ماركس كان حيا ، لقال اليوم مع المتربصين من وراء القادة الإشتراكيين الثوريين العرب المؤمنين : "أن إعلان التمسك بالإيمان بالله أحكم ، ولو إلى حين ...)[١].

وهذا لايعني المهاودة الدائمة للدين وأفكاره ، ولكن مؤقتالتحقيق الهدف ثم العودة فى عدائه وحربه ، فهم حسب مصلحتهم وماتقتضيه سياستهم الخارجية[٢]. وكانت سياسة ستالين أثناء الحرب العالمية من خير الأمثلة على هذا التقلب فى مهادنة الدين حسب الحاجة ، فحين هاجمت القوات الألمانية الاتحاد السوفييتى عام ١٩٤١م (لمس ستالين آنذاك أثر الدعاية الألمانية ضد الشيوعية بأنها تحارب الدين وتعاديه، ووجد أن ثلث أهل المدن وثلثى أهل القرى الروسية متدينون وكذلك الأمم التى تفتحها روسية مما حولها هى متدينة واحتاج ستالين إلى تملق الدول المتدينة ومعونة الشعور الدينى والوطنى معا حتى يستمد من الفلاح الروسى أقصى مايقوى عليه من تضحية لمقاتلة الألمان فسمح بممارسة الشعائر الدينية حينذاك ، إلا أن هذا الأمر والمواقف التى تتخذ أمثاله وهى مغايرة بواقعها لحقيقة الشيوعية هى إجراءات مؤقتة فيها الكثير من الحيلة والخداع للشعوب ، تتخلى عنها فى الوقت الذى ترى عدم حاجتها إليها ...)[٣].

ولكن هذا الأسلوب قد فتح بابا على السوفييت مااستطاعوا غلقه بعد ذلك وتأثر الناس بالأفكار الدينية مما أفزع الشيوعيين . يقول كاونتس : (خفف الهجوم على الدين إلى حد ما فى أثناء الحرب الوطنية الكبرى تحقيقا

---

(١) نظرات فى الإشتراكية الثورية (٢٨) .

(٢) انظر الشيوعية منشأ ومسلكا (١٩٧) .

(٣) الشيوعية منشأ ومسلكا (١٩٣-١٩٤) .
وانظر كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٤٧) حين ذكر أن جد غورباتشوف كان يصطحبه إلى الكنيسة كلما خفت حدة الاضطهاد الدينى زمن ستالين خلال الحرب ، لأن ستالين بحاجة لحشد القوى الحية فى روسيا للدفاع عن الاتحاد السوفييتى .

للتضامن القومى ، لكن الحملة التى شنت فى السنين التالية ، وبخاصة بعد موت ستالين ، (لإصلاح) التعليم اللادينى فى المدارس قد اشتدت واتسع نطاقها اتساعا كبيرا ، حتى لقد أفسحت صحف وزارة الثقافة فى الاتحاد العام وصحف وزارات التربية فى الجمهوريات فى صيف عام ١٩٥٤م صدرها لهذه الحملة ، مثال ذلك أن صحيفة الثقافة السوفيتية (Sovtsuaia Kultura) نشرت فى عددها الصادر فى ٢٨ أغسطس نتائج بحوث ندوة عقدت فى لينجراد ودامت خمسة أيام فى "موضوع الدعاوة العملية الإلحادية التى قامت بها اللجنة الأولمبية للحزب الشيوعى" وكانت الموضوعات الآتية من بين الموضوعات التى دارت حولها أقوال الباحثين :

"علاقة الحزب الشيوعى والدولة السوفيتية بالدين والكنيسة" .

"مايقوله العلم والدين عن أصل العالم" .

"ماللمخلفات الدينية من أثر رجعى فى مدارك الشعب" .

"نجاح العقائد الخاصة بخلق الكون فى الوقت الحاضر" .

و"طريقة الدعاوة العملية الإلحادية" .

ويقول : (لقد وصفت الحالة التى يرثى لها فى المدارس التى شنت فيها تلك الحملة لإصلاحها وصفا صادقا فى مقال عنوانه "قسم ضعيف" نشرته صحيفة اتشيتل اسكايا غازيتا Uchitel-Skaia Gazeta فى عدد أول سبتمبر سنة ١٩٥٤م يوم بداية السنة المدرسية الجديدة . فقد قال الكاتب بصريح العبارة فى معرض وصف الأحوال السائدة فى مدارس يوغسلافيا ، إن نوع (التدريب العلمى - الإلحادى للتلاميذ لايطاق) ، وإن (كثيرين من المدرسين لايقومون بالكفاح الواجب ضد تغلغل البقايا الدينية والخرافات بين الأطفال) .

ويقول كاتب المقال فى خلاصة الموضوعات الواردة فيه : (إن بعض التلاميذ يشتركون فى الحفلات الدينية ، وقد سرت إليهم عدوى كثير من الخرافات المختلفة الأنواع ، وإن تلميذا فى الفرقة الرابعة يدعى إيجور ،

وأختـا لـه فى الفـرقة الثـالثـة تسمـى جاليـا "يحملان صليبين ويترددان على الكنيسـة بانتظـام ، ويتلـوان الأدعيـة والصلـوات ، ويجمعـان المال لحاجات الكنيسـة" ، وإن ثمة شواهد على تعميد الأطفال فى هذا الإقليم وأن "المدرسين يعلمون هذه الأشياء ، ويسمحون بها ، وينظرون إليها دون مبالاة" . ويبدو أيضـا "أن بعـض المدرسين أنفسهـم قـد استعبدتهم الأوهـام الـدينية فتراهـم يحافظون على مراسم الكنيسة وأعيادها" . وقد عرف أن مدرسة تدعى الرفيقة نيقولا ييفا فى المدرسة رقم ١٤ تحتفظ فى بيتها بصورة مقدسة تضيؤها مصابيح" وعرف أيضا عن طالبة فى إحدى الفرق العليا بالمدرسة رقم ٢١ ، أنها تركت صفوف الكمسومول[١]وأخذت تقضى وقتها فى الصلوات ، لكـى ترفع بذلك مقـدرتها العلمية . ويختم المقال بأن التعليم اللادينى يجب أن يكـون منظما فى نوعـه ممتازا بروح الجهاد والهجـوم ، وأن (من أهم واجبـات المدرسين أن يظهروا مابين العلم والدين من تناقض تام ، وأنه لايمكن التوفيق بينهما بحال من الأحوال)[٢].

ويظهـر مـن هذا النص أن فطـر أولئك الناس تنزع إلى الإيمان بالإلـه ووجوده وتتعبـد حتى ولو كـانت على باطل ، ومن هنـا عجزت الشيوعية فى تحقيـق مبـدئها ذلك حيث كـانت تصبـو من وراء القضـاء على الـدين تحقيق مآربها وخططها والإسراع فى تنفيذها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، لأن الدين أمـر فطرى فى النفس البشرية فلم يملكوا إلا الحملة الشعـواء على الدين بنشر الالحاد وتدريسـه وفـرضه بالقـوة ، جاء فى صحيفـة البرافـدا : (إن واجبنـا يقضى بأن توجه حملة كفاح عقائدى صحيحة ضد الدين)[٣].

---

(١) الكومسومول Komosomol تعبير مختصر عن اتحاد عصبة الشباب اللينينى الشيوعى تجربتى مع الشيوعية (١٦٦) الحاشية رقم (١) .
(٢) التعليم (١٥٨-١٥٩) .
(٣) نقلا من كتاب حركات ومذاهب (١٦) .

وأختم حديثى عن نظرتهم للدين وموقفهم منه ومحاولة القضاء عليه بهذه الوثيقة السرية المهمة التى أنقلها كاملة رغم طولها حيث يظهر منها الموقف جليا مابين عداء مستمر وتراجع للمصلحة وغيره من أهداف .

تقول الوثيقة : (برغم مرور خمسين سنة تقريبا على الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى وبرغم الضربات العنيفة التى وجهتها أضخم قوة إشتراكية فى العالم إلى الإسلام ، فإن الرفاق يراقبون حركة الدين فى الاتحاد السوفييتى صرحوا كما تذكر مجلة (العلم والدين) الروسية فى عددها الصادر فى أول ينـاير سنة ١٩٦٤م بما نصه : "إننا نواجه فى الاتحاد السوفييتى تحديات داخلية فى المناطق الإسلامية وكأن مبادىء لينين لم تتشربها دماء المسلمين" . "وبرغم القوى اليقظة التى تحارب الدين فإن الإسلام مايزال يرسل إشعاعا ومايزال يتفجر قوة بدليل أن ملايينا من الجيل الجديد فى المناطق الإسلامية يعتنقون الإسلام ويجاهرون بتعاليمه مع أن قادة الشعوب ومفكرى المذهب لايغيب عنه خطر يقظة الإسلام فى المناطق الإسلامية بالاتحاد السوفييتى الذى أشار فى (دائرة معارف الثقافة الشيوعية) إلى خطر الإسلام ووصفته على حقيقته إذ ذكرت "دائرة معارف الثقافة الشيوعية" أن الإسلام أخطر الأديان الرجعية ، ويبذل "أى الإسلام" أقصى جهده ليكون فى خدمة المستغلين والإقطاعيين والرأسماليين ، ويقدم كل العون للاستغلال ، وهو دين جامد حقود على الحضارة والتقدم ، وخصم عنيد للإشتراكية ، ويناهض الحركات التحررية) .

(ومن هذا المخطط أن يتخذ الإسلام نفسه أداة لهدم الإسلام نفسه، وقد قررنا مايلى :

(١) مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه ، والمهادنة لأجل حتى نضمن أيضا السيطرة ونجتذب الشعوب العربية للإشتراكية .

(٢) تشويه سمعة رجال الدين والحكام المتدينين واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية .

(٣) تعميم دراسة الإشتراكية فى جميع المعاهد والكليات والمدارس فى جميع المراحل .. ومزاحمة الإسلام ومحاصرته حتى لايصبح قوة تهدد الإشتراكية .

(٤) الحيلولة دون قيام حركات دينية فى البلاد مهما كان شأنها ضعيفا ، والعمل الدائم بيقظة لمحو أى انبعاث دينى ، والضرب بعنف لارحمة فيه لكل من يدعو إلى الدين ولو أدى إلى الموت .

(٥) ومع هذا لايغيب عنا أن للدين دوره الخطير فى بناء المجتمعات ، ولذا وجب أن نحاصره من كل الجهات وفى كل مكان ، وإلصاق التهم به وتنفير الناس منه بالأسلوب الذى لاينم عن معاداة الإسلام .

(٦) تشجيع الكتاب الملحدين واعطاؤهم الحرية كلها فى مهاجمة الدين والشعور الدينى والضمير الدينى والعبقرية الدينية والتركيز فى الأذهان أن الإسلام انتهى عصره ، وهذا هو الواقع ، ولم يبق منه اليوم إلا العبادات الشكلية التى هى الصوم والصلاة والحج وعقود الزواج والطلاق وسنخضع هذه العقود للنظم الإشتراكية .
أما الصوم والصلاة فلاأثر لهما فى الحياة الواقعية ولاخطر منهما ، أما الحج فمقيد بظروف الدولة ، ويمكن استخدام الحج فى نشر الدعوة الإشتراكية بين الحجاج القادمين من جميع الأقطار الإسلامية ، والحصول على معلومات دقيقة عن تحركات الإسلام لنستعد للقضاء عليها .

(٧) قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعا تاما ، وإحلال الرابطة الإشتراكية محل الرابطة الإسلامية التى هى أكبر خطر على إشتراكيتنا العلمية .

(٨) إن فصم روابط الدين ومحو الدين لايتمان بهدم المساجد والكنائس لأن الدين يكمن فى الضمير ، والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية ، والمطلوب هو هدم الضمير الدينى ، ولم يصبح صعبا هدم الدين فى ضمير المؤمنين به بعد ، أن نجحنا فى جعل السيطرة والحكم والسيادة للإشتراكية ، ونجحنا فى تعميم مايهدم الدين من القصص والمسرحيات والمحاضرات والصحف والأخبار والمؤلفات والتى تروج للإلحاد وتدعو إليه وتهزأ بالدين ورجاله ، وتدعو للعلم وحده وجعله

الإله المسيطر[١].

(٩) مزاحمة الوعى الدينى بالوعى العلمى ، وطرد الوعى الدينى بالوعى العلمى .

(١٠) خداع الجماهير بأن يزعم لهم أن المسيح إشتراكى وإمام الإشتراكية ، فهو فقير ، من أسرة فقيرة ، وأتباعه فقراء كادحون ، ودعا إلى محاربة الأغنياء .

وهذا يمكننا من استخدام المسيح نفسه لتثبيت الاشتراكية لدى المسيحيين .

ونقول عن محمد إنه إمام الإشتراكيين فهو فقير وتبعه فقراء وحارب الأغنياء المحتكرين والإقطاعيين والمرابين والرأسماليين ، وثار عليهم وعلى هذا النحو يجب أن نصور الأنبياء والرسل ، ونبعد القداسات الروحية والوحى والمعجزات عنهم بقدر الإمكان لنجعلهم بشرا عاديين حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التى أوجدوها لأنفسهم وأوجدها لهم أتباعهم المهووسون .

(١١) فى القرآن والتوراة والأناجيل قصص ، ولئلا نصطدم بشعور الجماهير الدينى ونثيرهم على الإشتراكية يجب أن نفسر تلك القصص الدينية تفسيرا ماديا إشتراكيا ، فقصة يوسف - على سبيل المثال - يمكن تفسيرها تفسيرا ماديا تاريخيا ، ومافيها من جزئيات يمكن أن نفيد منها فى تعبئة الشعور العام ضد الرأسماليين والإقطاعيين والنساء الشريفات والحكام الرجعيين .

(١٢) إخضاع جميع القوى الدينية للنظام الإشتراكى ، وتجريد هذه القوى تدريجيا من وجدانها ...إلخ .

---

(١) قارن هذا مع مخططات اليهود تجدها تنبع من عين واحدة هى الحقد اليهودى الدفين على الإسلام والمسلمين وهذا دليل على أن الفكر الشيوعى نسج من خيوط اليهود .

(١٣) إشغال الجماهير بالشعارات الإشتراكية وعدم ترك الفرصة لهم للتفكير وإشغالهم بالأناشيد الحماسية والوطنية والأغانى الوطنية والشئون العسكرية ، والتنظيمات الحزبية والمحاضرات المذهبية والوعود المستمرة برفع الإنتاج ومستوى المعيشة وإلقاء مسئولية التأخر والإنهيار الإقتصادى والجوع والفقر والمرض على الرجعية والإستعمار والصهيونية والإقطاع ورجال الدين .

(١٤) تحطيم القيم الدينية والروحية بإظهار مافيها من خلل وعيوب وتخدير للقوى الناهضة .

(١٥) الهتاف الدائم ليل نهار وصباح ومساء بالثورة ، وأن الثورة هى المنقذ الأول والأخير للشعوب من حكامها الرجعيين ، والهتاف للإشتراكية بأنها هى الجنة الموعود بها جماهير الشعوب الكادحة .

(١٦) نشر الأفكار الإلحادية ، بل نشر كل فكرة تضعف الشعور الدينى والعقيدة الدينية ، وزعزعة الثقة فى رجال الدين فى كل قطر إسلامى.

(١٧) لابأس من استخدام الدين لهدم الدين ، ولابأس من أداء الزعماء الإشتراكيين بعض الفرائض الدينية الجماعية للتضليل والخداع على ألا يطول زمن ذلك ، لأن القوى الثورية يجب ألاتظهر غير ماتبطن إلا بقدر ، ويجب أن تختصر الوقت والطريق لتضرب ضربتها فالثورة قبل كل شىء هدم للقديم والمواريث الدينية جميعها .

(١٨) الإعلان بأن الإشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لابالدين الزائف الذى يعتنقه الناس لجهلهم والدين الصحيح هو الإشتراكية ، والدين الزائف هو الأفيون الذى يخدر الشعوب لتنساق وتسخر لخدمة طبقة معينة ، والصاق كل عيون الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه ، وترويج الإلحاد وإثبات أن الدين خرافة ، والخرافة تكمن فى الدين الزائف لاالدين الصحيح الذى هو الإشتراكية .

(١٩) تسمية الإسلام الذى تؤيده الإشتراكية لبلوغ مآربها وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح والدين الثورى والدين المتطور ودين المستقبل حتى

يتم تجريد الإسلام الذى جاء به محمد من خصائصه ومعالمه ، والإحتفاظ منه بالاسم فقط ، لأن العرب إلا القليل مسلمون بطبيعتهم فليكونوا الآن مسلمين اسما ، إشتراكيين فعلا حتى يذوب الإسلام لفظا كما ذاب معنى .

(٢٠) أخذنا بتعاليم لينين ووصيته بأن يكون الحزب الإشتراكى خصما عنيدا للدين ، ويحارب فكرته فى المنتظر مابعد الموت بالفردوس الذى تحققه الإشتراكية العلمية التى تحقق العدالة الإجتماعية التى هى الفردوس ، وإذا وجدنا من الضرورى مهادنة الدين وتأييده ، وجب أن تكون المهادنة لأجل ، والتأييد بحذر على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين .

(٢١) الاهتمام بالإسلام مقصود منه :

أولا : استخدام الإسلام فى تحطيم الإسلام .

ثانيا : استخدام الإسلام للدخول فى شعوب العالم الإسلامى .

ومع أن القوى الرجعية فى العالم العربى والإسلامى قوى يقظة إلا أن الخطة التى اتخذناها ستضعف هذه القوى حتى تجردها من عناصر احتفاظها بمقوماتها فتذوب على مر الأيام .

(٢٢) وباسم تصحيح المفاهيم الإسلامية وتنقيته من الشوائب ، وتحت ستار الإسلام يتم القضاء عليه بأن نستبدل به الإشتراكية .

(وفى المحيط العربى كله يعمل أنصارنا بجد ، وقد استطاعوا أن يثبوا إلى المناصب الرئيسية فى الوزارات والإدارات الحكومية والشركات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية ، ووفقوا حسب تعليماتنا للسيطرة التى وإن كانت فردية إلا أن توفيقهم للوصول إلى تلك المناصب يعد من الأعمال الناجحة ، كما أن لقاء الأفراد بعضهم مع بعض يجعل اللقاءات فى صور اللقاء الجماعى) .

(ولئن كان من المتعذر جدا توقيت التحرك الثورى إلا أن التمهيد له ينتهى فى وقت غير بعيد ، ويزداد على مر الأيام عدد أنصارنا الذين يتولون المناصب ذات الأثر الفعال فى خلق الجو الصالح للتحرك الثورى وحسب تعليماتنا لهم جعلوا من الوزراء والمسئولين الذين لايشك فى إخلاصهم للنظام الرجعى الحاكم المعادى للإشتراكية واجهة يقفون وراءها ويعملون تحت ستارها مايريدون من أمن وطمأنينة مع اليقظة والحذر دون أن تحوم حولهم الشكوك لأنهم يتسترون بأولئك المسئولين .

وأنصارنا منبثون فى كل الوزارات والإدارات والقطاعات الحكومية والعسكرية والشعبية والرسمية والأهلية ، واتسعت دائرة نفوذهم التى تزداد إتساعا ويزداد تغلغلهم على مر الأيام) .

ويعلق طارق حجى على ذلك بقوله : (كانت تلك الوثيقة التى تفضح حقيقة آراء الشيوعيين ونواياهم تجاه الدين ، وهى حقيقة ماكانت تحتاج منا للدليل عليها ، فما من دارس للشيوعية متابع لأصولها ولسيرتها فى مجال التطبيق والنشاط العلمى ، إلا ويدرك - إدراكا كاملا - تلك الحقيقة بكل أبعادها ولكن ركون الشيوعيين للأقنعة وأخذهم - فى السنوات الأخيرة - فى إعلان غير مايضمرون ، واسترسالهم فى الكذب والبهتان ، مع الإعادة والزيادة المعهودة فى فنون الدعاية الشيوعية ، كل هذا أوجد جيلا جديدا أمكن خداع بعض اليافعين فيه وغير ذوى الدراية والتعمق فى معرفة حقيقة الشيوعية ، فتسربت لعقول هؤلاء قناعة - لاأساس لها من الصحة - بأن من الممكن التعايش بين الدين - وخاصة الإسلام - وبين الإشتراكية! وهى قناعة تبرهن على نجاح المخطط الشيوعى الراهن فى خداع وتضليل البعض ليساق فى النهاية إلى حتفه ، وأى حتف أسوأ وأحط هوانا وعبودية وذلا وفقرا

ونكدا من حتف الشيوعية ؟!!)[١].

ثالثا : **تفسيرهم لنشأة الدين** :

بعد أن علم الشيوعيون أن الدين لامحالة موجود فى النفوس الإنسانية وأن مايذكرونه عنه مغالطات ليس إلا . كان لابد والحال هذه من إيجاد تفسير لوجوده لتناسب ذلك مع عقيدتهم وفكرهم ، فاختلفوا فى تفسير نشأته بل تناقضوا فى ذلك .

نشرت مجلة (سوفتسكى كازاخستان فى عدد مايو سنة ١٩٥٨م "من الذى اخترع الآلهة نحن الذين اخترعناهم بخيالنا ، وإذا كنا نحن الذين خلقناهم فإن من حقنا أن نهدمهم ، بل الواجب يقتضينا أن نهدمهم على الفور)[٢].

فالرأى الأول : يقول إن الدين من اختراع الطبقة المستغلة ، طبقة الأغنياء ليسيطروا على الضعفاء ، ومن هنا جاءت مقولة (الدين أفيون الشعوب) وذلك لتنسى الطبقة المضطهدة واقعها السىء ، وهو على هذا أحبولة تنسجها الطبقة الحاكمة للعبيد وإغراء الكادحين والبائسين صنعها بعض الناس ليستعبدوا كل الناس فهو وسيلة استغلال وحيلة يتذرع بها المخادع[٣].

يقول ماركس : (الدستور والدين والأخلاق خدعة برجوازية يتستر وراءها البرجوازيون من أجل مطامعهم ، إن الدين هو أفيون الفقراء ، وهذا هو حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية ، وإن جميع الأديان والكنائس والمنظمات الدينية إنما هى تخدير للطبقة العاملة . إن رسالة "البروليتاريا" هى القضاء على الدين والداعين إليه)[٤].

---

(١) نقلا من كتاب الشيوعية والأديان (٤٤-٥٠) .

(٢) نقلا من كتاب كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٧) .

(٣) انظر : وسقطت الماركسية (٥٣) ، إقتصادنا (١٠٨) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٥٤) ، حقيقة الشيوعية (١٨٦-١٨٧) .

(٤) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٦٣) ، وانظر حقيقة الشيوعية (١٩١) .

ويقول : (إن المبادىء الاجتماعية المسيحية قد بررت العبودية القديمة ومجدت السخرة فى العصور الوسطى وتستطيع عند الحاجة منح الموافقة على اضطهاد البروليتاريا .

إن هذه المبادىء تبشر بضرورة وجود طبقة مسيطرة وطبقة خاضعة وهى تودع فى السماء الجزاء على كافة المظالم ، ومن ثم فإنها تبرر ارتكاب المظالم على الأرض إلى الأبد إما باعتبارها العقاب العادل على الخطيئة الأولى وإما باعتبارها اختبارا فرضه الله على عباده ، إن هذه المبادىء إنما تبشر بالجبن واحتقار الذات والخضوع والخنوع والذل وبالاختصار كل صفات القلب الذليل ...)[١].

ويقول لينين : (الدين هو أفيون الشعوب ، فالدين ورجل الدين يخدران أعصاب المظلومين والفقراء ويجعلانهم يرضخون للظلم)[٢].

ويقول : (الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم فى الفقر الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ويغريهم بالأمل فى المثوبة بالعالم الآخر)[٣].

وفكرة اختراع الدين من قبل الإنسان لاستغلال الآخرين قال بها عدة فلاسفة ومن أبرزهم فيورباخ حيث يرى (أن الدين من اختراع الإنسان ، وأن الله لم يخلق الإنسان بل الإنسان هو الذء خلق الله ، وأن أحكام الدين وأوامره ليست إلا أفكار الإنسان المثالية ، وبتقدم العلم سيستيقظ الإنسان وسيصبح سمعه إلى العلم لاإلى الدين)[٤].

<u>الرأى الثانى</u> : أن الدين من اختراع الطبقة المضطهدة .

يقول ماركس : (إن الشدة الدينية وهى فى جزء منها التعبير عن الشدة الواقعية ، وفى جزء آخر الاحتجاج على الشدة الواقعية ، الدين هو

(١) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٣٦) .
(٢) معالم الإشتراكية العربية (٩٦) ، وانظر الإنسان بين المادية والإسلام (٥٨) .
(٣) حقيقة الشيوعية (١٩١) .
(٤) موقف الدين من العلم (٣١) .

تحسر الإنسان المضطهد ، حرارة عالم عديم الشفقة ، مثلما هو روح الأوضاع الإجتماعية التى لامكان للروح فيها إنه أفيون الشعب)[١].

فالدين من اختراع الطبقة المضطهدة نابع من أعماقها نتيجة اليأس والبؤس اللذان يملآن نفوس أصحابها فينسجون هذه الأفكار ليجدوا فيها السلوة ويستشعروا فى ظله الأمل فهو من صنع الفقراء[٢].

الرأى الثالث : وجد الدين بسبب جهل الإنسان وضعفه .

يقول انجلز : (إن الدين قد ولد فى عصور بدائية من تخيلات الناس الجاهلة الغامضة البدائية عن طبيعتهم ذاتها وعن الطبيعة الخارجية التى تحيط بهم إن الاعتقاد بإله واحد فى المسيحية الذى خلف الاعتقاد بتعدد الآلهة كان نتيجة توحيد الأمم المختلفة فى الإمبراطورية الرومانية)[٣].

ويقول ماركس : (إن العجز والجهل هما المصدر المزدوج للأخلاق والدين)[٤].

ويقول انجلز : (أى دين ليس إلا الانعكاس الخيالى فى دماغ الناس للقوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية فى انعكاس تأخذ فيه قوى أرضية شكل قوى علوية)[٥].

فوجد الدين بسبب عجز الإنسان البدائى حيث كان يقف عاجزا أمام الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق والعواصف والفيضانات وجهله بها يجعله يردها إلى إرادة عليا فسعى إلى كسب عطفها والتماس أسباب الزلفى إليها بتقديم القرابين واصطناع ألوان العبادات فنشأ الإيمان بالقوى غير المنظورة

---

(١) نقلا من كتاب وصفية الدين عند ماركس وانجلز (٣٨) ، وانظر : فلسفة الأنوار (٩-١٠) ، إقتصادنا (١٠٨) .

(٢) انظر : إقتصادنا (١٠٩) ، وسقطت الماركسية (٥٣) .

(٣) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٤٤) .

(٤) المرجع السابق (٩٨) .

(٥) نقلا من كتاب وضعية الدين عند ماركس وانجلز (٥٣) .

ثم أفاق الإنسان وأنارت الكشوف العلمية بصيرته[١].

فيرى الشيوعيون أن الجهل سبب فى قيام الدين ووجوده ، فإذا انتشر العلم فإنه سيأتى على الدين ويجتثه من جذوره ، ولأجل هذا (تواترت التصريحات على أفواه زعماء الشيوعيةكلهم إن الدين لامكان له فى العالم الذى يبنونه وأن الأولين إذا كانوا من الغباء بحيث قبلوه فإن التقدم العلمى جدير فى هذا العصر بأن يأتى عليه من القواعد ...)[٢].

وأصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى عدة قرارات منها : (إن العلم يساعد الانسانية على التعمق أكثر فأكثر فى القوانين الموضوعية لتطور الطبيعة . وبالعكس فإن الدين يعدم وعى الإنسان ويسلمه إلى السلبية أمام قوى الطبيعة وذلك بعمله على شل مبادرته ونشاطه الخلاق ...)[٣].

وبناء على هذه الآراء كان رأيهم فى الآلهة أنها مخترعة ومصنوعة من قبل الإنسان ، وبالتالى فإن الدين من اختراعه أيضا ، فقال ماركس : (الإنسان هو الذى يصنع الدين والدين لايصنع الإنسان)[٤].

ويقول بولتيزر : (إن الإنسان هو الذء خلق الآلهة ، الإنسان الموجود فى شروط حياتية محددة والدين طريقة معينة فى انعكاس العالم فى وجدان الإنسان ، وإذا كان بصفته انعكاسا عبثيا ، فهذا لأن العالم المعكوس فيه هو نفسه عبثى . هذا العالم هو المجتمع ، والإنسان فيه بائس ومضطهد ، إنه عالم بلاقلب لايتمتع فيه الإنسان بـ"واقعية حقة"، لأن المجمع ليس مصنوعا لامن أجله ولامن أجل إسعاده ، إنه عالم لايستطيع فيه الإنسان أن يحقق كينونته ، وليس فيه له فى الحقيقة ، سوى الشقاء . إنه بالفعل "واد من الدموع" والإنسان بحاجة إلى الأوهام مادام فى هذه الحالة والدين يقدمها له ، فهو يحيط وادى الدموع بهالة يحجب عن الأنظار سلاسل (الأزهار الخيالية) يغرى

---

(١) انظر حقيقة الشيوعية (١٨٨-١٨٩) .
(٢) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٣٥) .
(٣) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٣٧) .
(٤) فلسفة الأنوار (٩) .

الإنسان بما يقدمه له من تحقيق وهمى لكينونته)[١].

ويقول ماركس : (حقا بأن الدين هو من استنباط الإنسان ، فالإنسان هو الذى يصنع الدين ، وليس الدين هو الذى يصنع الإنسان)[٢].

ولايوجد الدين إلا بوجود خلل ما ، وذلك ماذكره ماركس عن المسوغ الموضوعى للمسيحية حيث قال : (إن وجود الدين هو وجود اختلال ما)[٣].

ومن هنا كان لابد من نقد الدين لأنه وهم ، فقال ماركس : (نقد الدين يجرد الإنسان من أوهامه حتى يفكر ويعمل ويصوغ واقعه الذاتى كانسان أضاع أوهامه وبلغ سن الرشد ، وذلك كى يدور حول نفسه ، أى حول شمسه الواقعية)[٤].

الرأى الرابع : إن الدين متطور على أساس إقتصادى . وعلى هذا فهو متطور ومتغير ويكون فى كل فترة حسب فكر الطبقة المسيطرة فى ذلك العصر (فكل شعب حين تطورت ظروفه الإقتصادية وأتاحت له إقامة مجتمع قومى كانت الآلهة التى يعبدها قومه الهة قومية ، لاتتجاوز سلطتها حدود الأراضى القومية المدعوة إلى حمايتها وبعد أن تلاشت قوميات هذه الشعوب بالاندماج فى إمبراطورية عالمية هى الإمبراطورية الرومانية ظهرت الحاجة إلى دين عالمى أيضا وكان هذا الدين العالمى هو المسيحية التى أصبحت دينا رسميا للدولة بعد مرور ٣٢٥ عاما على نشأتها وتكيفت المسيحية بعد ذلك بالظروف الاقطاعية وحين بدأت تتعارض بشكلها الكاثوليكى مع القوى البورجوازية المتنامية ظهرت حركة الإصلاح الدينى البروتستانتية)[٥].

---

(١) فلسفة الأنوار (٩-١٠) .
(٢) نقلا من كتاب وضعية الدين عند ماركس وانجلز (٣٩) .
(٣) K.Marx orvres philosophigure, costes tome I,p. 171 .
نقلا من كتاب وضعية الدين عند ماركس وانجلز (٣٧) .
(٤) فلسفة الأنوار (١٢) .
(٥) انظر لوديج فيورباخ (١٠٣-١٠٥) نقلا من كتاب إقتصادنا (١١٠-١١١) .

ويقـول انجلز : (إن مايسمى بالحروب الدينية فى القـرن السادس عشر كانت تتضمن مصالح طبقية مـادية إيجابيـة فقـد كـانت هـذه الحروب حروبا طبقية تماما تمثل الصدامات الداخلية التى وقعت بعد ذلك فى انجلترا وفرنسا ، ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينيـة ، ورغم أن مصـالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفيـة خلف ستار دينى فلم يبـدل هـذا شيئا من الأمر ، ويمكـن تفسيره ببسـاطـة مـن واقع ظروف تلك الأيام)(١).

فالطبقة التى تمتلك زمام السلطة تبسط فكرها ، وبالتالى فالدين هو دين تلك الطبقة يقول انجلز : (إن من له السلطة الدنيوية يمتلـك السلطة الدينية أيضا)(٢).

ففسروا نشأة الدين تفسيرا اقتصاديا طبقيا(٣).

ويقولون عن الإسلام إن (العرب أرادوا أن يقووا مـركزهم التجارى بين الشعـوب الأخرى فابتدعوا الإسلام فتطور المدنيـة حملهم على ذلك وأن الضعفـاء فى مكـة أرادوا الثـورة على الأغنيـاء فاعتنقوا الإسلام وأن الفقـراء تسلحوا به ، والأغنياء تسلطوا بسببه ، فعامل ظهور الإسلام هو تطور المدنية عندهم)(٤).

بيان بطلان مزاعمهم :

أولا : إنكارهم وجود الخالق جل وعلا :

مـر معنا بعض أقوال الشيـوعيين فى إنكار وجود الإلــه ، وهذه مسألة يبطلهـا كتـاب اللـه تعالى وسنـة نبيـه صلى الله عليـه وسلم ، ولكـن القـوم لايؤمنـون كما صرحوا إلا بالمحسـوس والمشاهد ، فكان لابد مـن الإشارة إلى

---

(١) حرب الفلاحين (٤٦) .
(٢) حرب الفلاحين (١٦٨) .
(٣) انظر : وسقطت الماركسية (٥٣) ، حقيقة الشيوعية (١٨٨-١٨٩) .
(٤) وسقطت الماركسية (٥٣) .

الأدلة والبراهين العقلية ، وذلك من باب خطاب القوم بما يفهمون أو يعتقدون ، هذا بالإضافة إلى أن البراهين العقلية تتفق مع كل مافى كتاب الله تعالى ، وماصح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الزعم الشيوعى باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : دلالة الشرع : إن الكتب السماوية كلها نطقت بهذه الحقيقة ، وهى أن الله تعالى موجود ، وأنه الخالق لهذا الكون ولكل مخلوق من انسان ونبات وجماد ، وقد وردت عدة آيات من ذلك قوله تعالى : {**ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلاتجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون**}[١]

وعندما كان كتاب الله تعالى قد نطق بهذه الحقيقة ، فإن بعض الكتاب قد اعتبر أنه من العبث الدخول فى جدال مع الآخرين لإثباتها لأنها ثبتت بالنص القرآنى يقول محمد على يوسف : (إذا كان وجود الله عز وجل فى نظر القرآن حقيقة لاتقبل الشك ، والإيمان به فطرة جبلت عليها النفوس والبرهان عليه أكبر من أن يحصره حد من المنطق ، أو العبارة ، والإنكار لوجوده لاينهض به دليل ، إذا كان كل ذلك كذلك ، كان من العبث ـ فى حدود هذه المفاهيم ـ محاولة البرهان على وجود الله ، واقتضى المقام أن يتجاهل من ينكر وجود الله ، أو يطلب منه الدليل على إنكاره)[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (والإقرار به سبحانه وتعالى لايحتاج إلى دليل بل هو أرسخ المعارف ، وأثبت العلوم ، وأصل الأصول)[٣].

---

(١) سورة البقرة : (٢١-٢٢) .

(٢) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٤٢) .

من أقوال عطا الله : (إلهى متى غبت حتى تكون الآثار هى التى تدل عليك . ومتى بعدت حتى يكون جميل صنعك هو الهادى إليك . كيف تخفى وأنت الظاهر أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر) .

حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٧٩) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢/٧٢) .

الوجه الثانى : دلالة الفطرة .

سبق وأن بينا أن الفطرة هى الإسلام[١]، وأن كل مولود ولد على الاعتراف بالخالق جل وعلا ، والإقرار له بالربوبية ، فالإيمان به تعالى شعور فطرى ، ومن القضايا البدهية التى لاتحتاج إلى دليل ، وهو شعور موجود فى كل مخلوق . يقول د. يوسف الأحمد : (المخلوقات جميعها من حيوان ونبات وجماد مفطورة على المعرفة بخالقها وكل فى ذلك بحسبه ، ولهذا فقد أثبت لها القرآن الكريم أنواعا من الطاعة والعبودية لله تعالى ، من تسبيح وسجود وغير ذلك مما يستلزم بالضرورة معرفتها بخالقها ، وإلا فكيف تسبح بحمده وتسجد له وتصغى إليه من غير معرفة سابقة بوجوده)[٢].

فالإيمان بالخالق جل وعلا حقيقة بدهية وشعور فطرى وجدانى فى الإنسان . وهذه الحقيقة أظهر للعقول من وجود النهار وطلب الدليل على البدهيات إفساد لكل القضايا الأولية التى يؤمن بها العقل . كالكل أكبر من الجزء ، والواحد نصف الاثنين ، وهذاالإيمان موجود فى النفس الإنسانية دون سابق تفكير أو تعليم ، ولهذا كان معتقد أهل السنة والجماعة عدم القول بوجوب النظر والاستدلال الذى ادعى وجوبه بعض أهل الكلام[٣].

وإن التاريخ الإنسانى يشهد بهذه الحقيقة ، حيث كان الإنسان يشعر بوجود الإله ، ويقيم المعابد ليعبد هذا الإله أو ذاك ، مما يدل على اعترافه بوجوده . يقول مالك بن نبى :(كلما أوغل المرء فى الماضى التاريخى للإنسان فى الأحقاب الزاهرة لحضارته ، أو فى المراحل البدائية لتطوره الإجتماعى

---

(١) راجع (٥٢١-٥٢٣) .

(٢) منهج المتكلمين والفلاسفة المنتسبين للإسلام فى الاستدلال على وجود الله تعالى ، عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة (٢٢/١) ، رسالة دكتوراه اشراف د. أحمد المهدى ١٤١٠-١٤١١هـ/١٩٩٠-١٩٩١م .

(٣) انظر : العقيدة الإسلامية سفينة النجاة (١٠١) ، مناهج المتكلمين والفلاسفة (٢٥) ، الأدلة والقواطع والبراهين فى ابطال أصول الملحدين (١٢-١٣) ، عبد الرحمن الناصر بن سعدى ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

فإنه يجد سطورا من الفكرة الدينية ، ولقد أظهر علم الآثار دائما - من بين الأطلال التى كشف عنها - بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية ، أيا كانت تلك الشعائر ، ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة فى العصر الحجرى ، إلى عهد المعابد الفخمة ، جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية ...)(١).

ويقول محمد العجوز : (ويدل على ذلك الشعور ماتخذته الأمم والأجيال المتعاقبة فى غابر الزمان إلى وقتنا هذا من أديان مختلفة وعقائد متباينة ومعبودات شتى ، كل ذلك يدل على الشعور بالخالق وإن أخطأوا فى تصوره وضلوا فى تحديده)(٢).

لقد أصبح الاعتراف بهذه الحقيقة وتقريرها أكبر من أن تحصره ورقات معدودة وأقربها حتى من لايؤمن بالله تعالى ، ونضرب الأمثلة على ذلك . فهذا اللورد هربرت يقول : (توجد فينا ملكات وعواطف لاتجد مجالا للتجربة وفق ارادتها وكذلك لاتسكن هذه العواطف بهذه التجربة المحدودة ، وعلى هذا لاتحصل لنا الطمأنينة الكاملة إلا بوجود كامل أزلى غير محدود والملجأ الوحيد لهذه العواطف هو الله . ولذا توجد فى جميع من سمت فطرته هذه الملكة الدينية بطريقة مختلفة كما أنها لاتظهر فى العبادات والطقوس الخارجية فقط)(٣).

ويقول ماكس هولكر: (إن الإنسان مفطور على الدين الحق)(٤).

ويقول الدكتور رينان : (إن الغريزة الدينية طبيعية فى الإنسان كما أن بناء العش طبيعى فى الطيور)(٥).

---

(١) الظاهرة القرآنية (٦٨) ، مالك بن نبى ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق دون ذكر تاريخ الطبعة .

(٢) مناهج الشريعة الإسلامية (٦/١) أحمد محي الدين العجوز ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان .

(٣) عصر الإلحاد (٦٦) .

(٤) العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٤٦) ، يوسف مروة ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م منشورات مروة العلمية ، مطابع الوفاء ، بيروت .

(٥) عصر الإلحاد (٤٠) .

وبعد إثبات هذه الحقيقة وهي أن الإنسان مفطور على الإيمان بالله ، فإن التنظيمات البشرية تعجز عن تحقيق رغبات هذه الفطرة إذا لم تقم على الأخذ بما جاء عن بارئها ، وهذا الذى حصل مع كل الأنظمة الأرضية التى ابتعدت عن المنهج الربانى ورفضت الأخذ به ، لم تستطع القيام بتلبية حاجيات الإنسان وتهذيب غرائزه مع المحافظة عليها بل صادمتها فكان ماكان من صراع هذه الشعوب مع هذه الأنظمة الوضعية ، ولاشك أن الانتصار سيكون حليف الفطرة لأنها فطرة الله تعالى ولايمكن تبديلها أو تغييرها مهما بلغت القوة فى مصادمتها ومحاولة مصادرتها ، ومع ذلك تظل هذه الفطر على الإيمان بهذه الحقيقة وإن أنكرتها ظاهرا ، جحودا واستكبارا للوصول إلى غايات وأهداف مادية حيوانية ، والاعتراف بوجود الخالق جل وعلا متناسق مع مافى الفطرة كيف لا وهى من عند الله تعالى .

ثم إن الشرائع مرتبة على استقرار هذه الحقيقة فى النفس الإنسانية . يقول ابراهيم الجبالى : (يدعو الدين الإسلامى إلى الاعتقاد أن لهذا العالم خالقا واحدا ، وهو واجب الوجود(١)، ولايقبل العدم(٢)، ولايحتاج إلى شيء(٣)، وليس كمثله شيء ، منزه(٤)عن كل نقص ، متصف بصفات الكمال التام ، والجلال العام ، فهو حى عليم ، قدير مدبر ، حكيم سميع بصير ، متكلم بكلامه القديم(٥)أرسل الرسل بالهدى ، ودين الحق ، ليرشد الناس ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

ولقد ترى جليا أن الاعتقاد بوجود إله لهذا العالم ، مهيمن عليه ، عليم بما يجرى فيه ، قدير على تصريفه حسب مشيئته ، غالب على أمره ، يصح أن يأمر فتجب طاعته ، وينهى فلاتجوز مخالفته ، هذا الاعتقاد يجب أن

---

(١) أى وجوده أمر يوجبه العقل السليم .
(٢) لايطرأ عليه الموت والفناء .
(٣) مستغن عن كل ماسواه .
(٤) مترفع ومتباعد عن كل نقص .
(٥) غير مخلوق لأن الكلام صفة من صفات الله تعالى ، وصفات الله تعالى غير مخلوقة وهو وإن كان نوعه قديما إلا أن أفراد كلامه تعالى تبع لمشيئته عز وجل .

يكـون سابقا على النظر فى شـريعة بعينها أصحيحة هى؟ فيـذعن لها ، أم غير صحيحـة؟ فيهمل أمرها ، أجل إنه لـو لم يسبق إلى نفسـك الشعـور بأن لك خالقـا خلقك فسواك ، وأنعـم عليك ورباك ، ثم تقوم الأدلـة على أن هـذا الـذى تشعر به حقيقة لاشك فيها ، وأمر ثابت لامناص منـه ، ولامفر ، وأنه إذا قـدر على الإنعام عليك فهـو قادر على السلب منـك ، وإذا أنعـم بالفضل فلايؤمن منه البطش ، وإنك بين نعمته وبطشه عبد لـه ، وهو سيدك ، يصح أن يأمـرك فيجـب عليـك أن تطيعـه ، وينهـاك فلايجوز أن تخالفـــه ، وأنت بطاعته تستحق رضاه وبمعصيته تعرض لغضبه ، وأنه مطلـع على مايكون منك وإنه بكـل شـىء عليم ... نقـول : لو لم يسبق إلى نفسـك هـذا الشعور يتلوه الاعتقـاد الجازم الذى تتجلى معـالمه ، وتظهر دلائله ، مـاكان لـك أن تفكرفى شريعة تجب طاعتها ، ودين يلـزم الإذعان له ، فما كـان لنفس أن تذعن إلا لمن تعلم أنه غامرها بنعمته ، وقاهرها بقدرته ، فترجو رحمته ، وتخاف عذابه من أجل هذا كانت الدعوة إلى الشريعة مسبوقة أو مبـدوءة بتوجيه النفوس إلى الاعتراف بخالقها الذى تشعر به فى وجدانها ...)(١).

الوجه الثالث : دلالة العقل .

يدعـى الشيـوعيون أن مذهبهـم يقـوم على البراهين العقليـة والحجـج المنطقيـة ، ويرون أن العقـل يدعـوهم لعـدم الإيمان إلا بما هـو محسـوس أو مشاهد ، ونقول لهؤلاء إن العقل يدل دلالة واضحة على وجود الخالـق جل وعلا ، وهذه الدلالة من وجهين :

(١) أن هـذه المخلوقات لايمكن أن توجد نفسهـا بنفسهـا لكـونها مفتقـرة فى ذاتها إلى موجد يوجدها .

(٢) أن هذه المخلوقات لايمكن أن تكون وجدت صدفة .

---

(١) الإسلام دين الفطـرة (١٥-١٧) ، الطبعـة الأولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، مكتبـة الهدى ، حلب .

فالأمر الأول : وهو كون المخلوقات لاتوجد نفسها بنفسها فإن (الوجود المعلوم إما ممكن ، وإما واجب ، والممكن لايوجد إلا بواجب فثبت وجود الواجب على التقديرين)[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (إن ثم وجودا وهو إما مصنوع أو غير مصنوع ، أو مخلوق أو غير مخلوق ، أو مفطور أو غير مفطور ، والمصنوع أو المخلوق أو المفطور لابد له من صانع وخالق وفاطر ، فثبت وجود ماليس بمصنوع ولامفطور ولامخلوق على التقديرين)[٢].

ويقول : (من المعلوم بالمشاهدة والعقل وجود موجودات ، ومن المعلوم أيضا أن منها ماهو حادث بعد أن لم يكن كما نعلم أنا حادثون بعد عدمنا وأن السحاب حادث ، والمطر والنبات حادث ، والدواب حادثة ، وأمثال ذلك من الآيات التي نبه الله تعالى عليها بقوله : **{إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون}**[٣].

وهذه الحوادث المشهودة يمتنع أن تكون واجبة الوجود بذاتها ؛ فإن ماوجب وجوده بنفسه امتنع عدمه ، ووجب قدمه ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت فدل وجودها بعد عدمها على أنها يمكن وجودها ويمكن عدمها ، فإن كليهما قد تحقق فيها ، فعلم بالضرورة اشتمال الوجود على موجود محدث ممكن.

فنقول حينئذ : الموجود والمحدث الممكن لابد له من موجود قديم واجب بنفسه ؛ فإنه يمتنع وجود المحدث بنفسه كما يمتنع أن يخلق الإنسان

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٧٥) .
(٢) مجموع الفتاوى (٢/٧٥) ، وانظر (١٦/٤٤٤) ومابعدها .
(٣) سورة البقرة : (١٦٤) .

نفســه ، وهذا من أظهر المعارف الضرورية ؛ فإن الإنسـان بعد قوته ووجوده لايقدر أن يزيد فى ذاته عضوا ، ولاقدرا ، فلايقصر الطويل ولايطول القصير ولايجعل رأسه أكبر مما هو ولاأصغر ، وكذلك أبواه لايقدران على شىء من ذلك .

ومـن المعلـوم بالضرورة أن الحادث بعـد عـدمه لابد لـه مـن محدث ، وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة ...)[١].

وقـد جاءت الآيات الكريمة تبين ذلـك الدليل فهـى أدلة شرعية عقلية بينها الله تعالى فى إثبات هذه الحقيقة . قال تعالى : {**أم خلقوا من غير شىء أم هـم الخـالقون أم خلقـوا السمـوات والأرض بل لايوقنـون أم عنـدهم خزائن ربك أم هم المصيطرون**}[٢].

يقـول شيخ الإسلام : (إن هـذا تقسيم حاصر ذكره اللـه تعـالى بصيغة استفهـام الإنكار ليبين أن هـذه المقدمات معلومة بالضـرورة لايمكن جحدها ، يقول : {**أم خلقوا من غير شىء**} أى : من غير خالق خلقهم : أم هم خلقوا أنفسهم؟ وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل : فتعين أن لهـم خالقا خلقهم سبحانه وتعالى)[٣].

ويقول الجبالى : (هذا الذى وجد بعد أن لم يكـن ، قد وجد على أدق صنـع وأبدع وجه ، فاشتمل على مـايكفل نموه ، ويحفـظ شخصـه من غوائل وعـواد على مايحفظ نوعه ، بتجـديد مواليده ، ولكل مـن هذه الأعمال التى يحتـاج إليهـا فى حفظ شخصه ونوعـه ، أجهزه هى غاية فى الإتقـان ، تؤدى أعمـالها بلاشعور منه ولاإرادة بل ولادراية لـه بها ، حتى إذا كـان من أهل الدراية كشخص الإنسان ، فهو يبحث عن تفاصيلها ، فلايصـل بعد الجهد إلا لمعرفة القليل منها ، وكلما ازداد تأملا فيها ، ازداد إعجـابا بها ، وإكبارا لها

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥٧/٥-٣٥٨) ، وانظر العقيدة الإسلاميـة سفينة النجاة (١٠١) . وعن واجب الوجود وأحكامه انظر الإسلام دين الفطرة (٣٨-٤٠) .

(٢) سورة الطور : (٣٥-٣٧) .

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥٩/٥) .

فبديهة العقل قاضية فى مثل هذا ، أنها ليست من صنعه ، إذ كيف يصنع مالادراية له به ، بعد وجوده ، وكيف وقد كان عدما صرفا ، فكيف يقدر حال عدمه ، على إيجاد مالايستطيع استبقاءه بعد وجوده ، والاستبقاء أسهل من الإيجاد ، وهو بعد الوجود أقوى بالبداهة منه حال العدم وكذلك لايقبل العقل : أن هذا النظام والإحكام والإتقان ـ الذى لايختل له ميزان ـ أن يكون قد وجد فى تلك الكائنات بلاموجد ، مع أن وجودها ليس مقتضى ذاتها ، وإلا لم يفارقها ، فلم يسبقه عدم ، ولم يلحقه عدم ، والمشاهد خلافه)(١).

إن علماء الطبيعة والفلك وغيرهم قد اعترفوا بأن العقل يقر بهذه الحقيقة . يقول جان لاك : (إن العقل هو الذى يرشدنا إلى وجود الخالق ، ذلك لأننا نوقن بوجودنا ونوقن بأن وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديما ونرى أن العقل يحكم أن ليس للعدم أن يوجد شيئا ، إذن نجزم يقينا أن ذاتا أخرى قد أوجدتنا وكونتنا ، وهذه الذات ، وهى ذات البارى ، كانت موجودة بصورة دائمية ، أى أن الخالق أزلى سرمدى)(٢).

إن المنطق العقلى والعلمى (لم يسلم لامن قبل ولامن بعد بأن موجودا عجيبا فى دقته ونظامه وإحكامه ـ كالصاروخ الروسى مثلا إلى القمر والمريخ فضلا عن عظمة الكون بمجموعه بصورة عامة ، وكل ذى حياة بصورة خاصة يمكن أن يكون قد وجد من غير صانع مبدع!!)(٣).

ثم إن هذاالكون يشهد بوجود الله تعالى من دون الحاجة إلى الاستدلال بعجز الماديات عن خلق نفسها، وقد جاءت آيات كثيرة تدل على أن هذا الكون لابد له من خالق ومدبر وكلها مرتبطة بالأدلة العقلية ونضرب على ذلك أمثلة دون استقصاء لكل ماورد فى الكتاب الكريم ، فقد

---

(١) الإسلام دين الفطرة (٢٠-٢١) .
(٢) العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٥٢) .
(٣) نظرات فى الإشتراكية الثورية (٣٠-٣١) .

دعا الخالق جل وعلا إلى التدبر ، والتأمل ، والتفكر فى خلق الله تبارك وتعالى ، لأن فى ذلك مدعاة ولفت انتباه لهذه الحقيقة ، التى لايمكن أن تغيب عن أصحاب العقول السوية .

قال تعالى : {**وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون**}(١).

وقال جل وعلا : {**أفرأيتم ماتمنون ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون**}(٢).

وقال تعالى : {**أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون**}(٣).

ثم خلق هذا الإنسان وأطواره ومراحل نموه يصورها المولى جل وعلا فيقول : {**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**}(٤).

ومن ذلك هذه الآيات الكثيرة التى يمر عليها الناس ويرونها فلو أعملوا عقولهم لعلموا بأن هذا الكون يسير بإرادة خالق عزيز حكيم . يقول تعالى : {**ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم باليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوةمن الأرض إذا أنتم تخرجون ، وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو**

---

(١) سورة الذاريات : (٢٠-٢١) .
(٢) سورة الواقعة : (٥٨-٥٩) .
(٣) سورة الواقعة : (٦٣-٦٤) .
(٤) سورة المؤمنون : (١٢-١٤) .

الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم}[١].

(إن الدين الإسلامى جاء فى باب الخلق ، بما يوافق الفطرة السليمة ، ويقرر مايقتضيه النظر الصحيح ، ويهدى العقل إذا ضل حتى تذعن النفس ، ويطمئن القلب)[٢].

فهذا الجانب الأول ، وهو أن هذا الكون لايمكن أن يكون أوجد نفسه بنفسه لأن أصله العدم وماكان أصله كذلك افتقر إلى موجد يوجده وهو المولى جل وعلا ، ثم نقول لهؤلاء الماركسيين الشيوعيين ، إن لديكم من المخترعات الحديثة ، ومن الأسلحة المدمرة ماتستطيعون به القضاء على العالم بإرادة الله تعالى ، فهل تقبلون منا أن نقول بأن هذه المخترعات قد أوجدت نفسها بنفسها؟!! إن الجواب معلوم!! فإذا لم توجد نفسها على صغر حجمها فهل بالإمكان أن يكون هذا الكون وهو بهذا النظام قد وجد من غير خالق إن هذا محال .

أما الجانب الآخر : فهو أن هذا الكون لايمكن أن يكون قد وجد صدفة . إن الملحدين ينكرون بوجود الإله ، ويرون أن هذا الكون قد وجد صدفة ، أو أنشأته الطبيعة أو المادة[٣].

ويقال لهؤلاء القوم : بالنظر فى هذه المخلوقات نجد النظام البديع ، والتناسب والارتباط بين أجزائها والعلاقة بين الأسباب ومسبباتها ، وعلاقة الكائنات بعضها ببعض ، وسير هذا الكون فى نظام مطرد . قال تعالى : {**لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولااليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون**}[٤].

---

(١) سورة الروم : (١٩-٢٧) .
(٢) الإسلام دين الفطرة (٣٢) .
(٣) ستأتى مناقشة قضية المادة فى نقض العلم للنظرية الماركسية إن شاء الله تعالى .
(٤) سورة يس : (٤٠) .

فكل هذا يمنع أن يكون هذا الكون قد وجد صدفة أو وجد بغير موجد (إذ الموجود صدفة ليس على نظام فى أصل وجوده فكيف يكون منتظما حال بقائه وتطوره؟)(١)

يقول الفلكى لابلاس : (إن القدرة التى شكلت الأجرام السماوية ، وحددت كثافتها ، وأقطارها ومداراتها ، بنظام مستمر إلى الأبد ، لايمكن أن تنسب إلى المصادفة)(٢).

لقد كثرت أقوال العلماء على مختلف مشاربهم وتوجهاتهم فى نفى الصدفة عن هذا الكون لأنه لايتأتى لأبسط الأمور أن تكون وجدت صدفة فكيف بهذا الكون الفسيح الذى يسير فى دقة متناهية .

ومن هذه الاقوال ماجاء عن نيوتن حيث قال : (لاتشكوا فى الخالق ، فإنه مما لايعقل أن تكون المصادفات وحدها ، هى قائدة هذا الوجود)(٣).

ويقول فولتير : (إن الموجودات برمتها تنادى برفيع صوتها أن لها بارئا قد برأها وصانعا قد أتقن صنعها)(٤).

ويقول واين أولف : (بغض النظر عن الاعتبارات الدينية عامة ، نجد أن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة المصادفة ولاشك ، بل إن ذلك النظام البديع الذى يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء)(٥).

---

(١) رسائل فى العقيدة (١٢) ، فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض .

(٢) العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢٥٦) .

(٣) الإسلام دين الفطرة (٦٠) .

(٤) العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٤٦) .

(٥) الله يتجلى فى عصر العلم (١٣٨) ، مجموعة من العلماء الأمريكان ، ترجمة د.الدمرداش عبد المجيد سرحان ، دار العلم ، بيروت ، لبنان .

إن العلم الحديث الذى يتشدق الشيوعيون الماركسيون بأن شيوعيتهم تقوم على أسسه وأطلقوا على إشتراكيتهم الإشتراكية العلمية ، قد أثبت وجود الإله ونفى أن يكون هذا الكون وجد صدفة، فهذا د. لستر بعد أن تحدث عن النباتات وأوجه الخلاف والتمايز بينها أخذ يتساءل فقال : (فمن الذى قدر وأوجد تلك القوانين العديدة التى تتحكم فى وراثة الصفات وفى نمو النبات ، وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيدا وأكبر عمقا وهو من أين جاءت النباتات الأولى؟ أو بعبارة أخرى كيف خلق النبات الأول ونحن لانستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعى ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أونشأت هكذا بمحض المصادفة ، ولابد لنا من البحث عن خالق مبدع ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمرا بديهيا تفرضه عقولنا علينا)[١].

إن هذاالكون بنظامه البديع وسيره على هذا النسق يمنع أن يكون وجد مصادفة ، يقول سقراط : (هذا العالم الذى يظهر لنا على هذا النحو لم يترك فيه شيء للمصادفة ، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية وتلك الغاية متجهة نحو غاية أعلى منها . وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة والجلال من كافة نواحيه ...)[٢].

ولكن ماالذى حمل الشيوعيون الملاحدة على هذا التفسير؟ إنه عجزهم عن فهم الحقيقة وذلك أمر طبيعى ، ممن صد عن آيات الله تعالى المتلوة ، والمشهودة . يقول محمد يوسف : (كل ماعجز العقل عن تعليله فمرده إلى المصادفة وكل ماخفى عن الإدراك سببه ، فسببه المصادفة ، وكل منطق يؤدى فى نهايته إلى التسليم بوجود خالق مدبر حكيم عند المؤمنين ،

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم (١٢٩-١٣٠) .

(٢) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٦٦) .

ينتهى عند الملاحدة بوجود شيء لاوجود له ، هو المصادفة ، وكل ماكان ، وكل مايكون ، وكل ماهو كائن فعلته الأولى هى المصادفة وأساسه الحقيقى هو المصادفة ، منها صدر ، وعليها يقوم ، وبها يتخذ ماشاء ، أو ماشاءت له المصادفة ، من شكل أو كيف ، أو اتجاه ...)[١].

وإذا أحسنوا قالوا إن المادة هى التى أوجدته وهذه المادة باختصار بحاجة إلى أن تدب فيها الحياة من مصدر آخر غير المادة فكيف تبعث على الحياة وهى مفتقرة فى ذاتها إليها (ولايمكن القول بأن الحياة خاصية من خواص المادة الكامنة فيها .. وإلا فكيف ظلت كامنة فيها مالايحصى من السنين لتظهر فى وقت معلوم دون مدبر وراءها ودون قصد مرسوم؟!)[٢].

لقد أثبتت الحقائق العلمية ، والاكتشافات الحديثة ، أن مجال الصدفة محال فى إيجاد هذا الكون[٣]، ومن هنا يبطل إدعاء الشيوعية فى انكار الإله ،

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (٣٤-٣٥) .

(٢) خصائص التصور الإسلامى (١٥٩-١٦٠) ، سيد قطب ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٣) كثرت الاعترافات والإثباتات لهذه الحقيقة بالنظر فى جزئيات صغيرة من هذا الكون ، فمثلا العنكبوت ونسجها المحكم ، انظر فى ذلك العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢٠٩-٢١٠) .
وكذلك المخ البشرى وتكوينه وتركيبه ووظائفه كمثال آخر على الإتقان والإبداع الذى ينفى المصادفة . انظر العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢١٠-٢١١) .
وكذلك النمل وطرق حياته وتخزينه لطعامه وتأمين غذائه ومسكنه والنحل وتنقلاته كل ذلك يمنع المصادفة . انظر كتاب الإسلام يقينا لاتلقينا (١٣-٢٧) د. صابر طعيمة .
يقول كريس فورسون رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتابه العلم يدعو للإيمان : (إن الأكسجين والهيدروجين وثانى أكسيد الكربون والكربون سواء أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة مع بعضها هى العناصر البيولوجية الرئيسية ، وهى عين الأساس الذى تقوم عليه الحياة ، غير أنه لاتوجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن تكون كلها فى وقت واحد وفى كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق .
أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية) .
نقلا من كتاب الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (٣٧) .

والقول بأن العالم وجد صدفة بالعقل . وتلخيص ذلك :

(أ) أن هذا الكون مفتقر إلى موجد فى ذاته .

(ب) أن المعدوم لايمكن أن يوجد نفسه فكيف يوجد غيره .

(ج) أن الإبداع والنظام الذى يسير عليه الكون يمنع أن يكون الكون وجد صدفة .

(د) أن المادة التى يدعى الشيوعيون أنها أصل كل شىء معدومة فكيف توجد غيرها ، وميتة فكيف تبعث الحياة فى غيرها .

(هـ) أن العلم والعقل يرد فكر الشيوعية الزاعم بإنكار الإله أوإسناد الخلق إلى الطبيعة أو الصدفة .

الوجه الرابع : دلالة الحس .

إن الواقع يشهد ببطلان الزعم المادى المنكر لوجود الإله جل وعلا .

ودلالة الحس على وجوده تعالى من جانبين :

(أ) إجابة دعو الداعين ، وإزالة الكرب عن المكروبين مما يدل دلالة واضحة على جود الخالق جل وعلا مجيب الدعوات .

(ب) المعجزات التى أمرها الله تعالى على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تصديقا لهم على نبوتهم وأنهم مرسلون من قبل الخالق جل وعلا .

فعن الأمر الأول يقول تعالى : {**ونوحا إذا نادى ربه من قبل فاستجبنا له**}[1].

وقال تعالى : {**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم**}[2].

ومازالت إجابة الدعوة أمرا مشهودا يحققه الله تعالى على يد من صدق معه جل وعلا وجاء بشرائط الإجابة[3].

---

(١) سورة الأنبياء : (٧٦) .

(٢) سورة الأنفال : (٩) .

(٣) انظر رسائل فى العقيدة (١٢-١٣) .

أمـا الجانب الثانى : فهو المعجـزات[(١)]: وهـى تدل على أن اللـه تعالى موجود وفى ذلك رد على المنكـرين المكذبين لنبوات الـرسل عليهـم السلام ، وقـد كان لهم عليهم الصلاة والسلام معجزات كثيرة ، جاء ذكـرها فى كتابه تعــالى ، وجاء فى سنـة المصطفـى صلى اللـه عليـه وسلم الشــىء الكثير مـن معجـزاته عليـه السلام . يقـول شيـخ الإسلام ابن تيميـة رحمـه الله : (إن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة ، وذلك ، لأن المعجزة ـ التى هى فعل خارق للعـادة ـ تدل بنفسهـا على ثبوت الصانع ، كسـائر الحوادث ، بل هى أخص من ذلك ، لأن الحوادث المعتادة ليست فى الدلالة كالحوادث الغريبة ، ولهذا يسبح الرب عندها ، ويمجد ويعظم مالايكون عنـد المعتاد ، ويحصل فى النفـوس ذلـة [مـن ذكر] عظمتـه مـالايحصل للمعتاد ، إذ هـى آيات جديدة فتعطى حقها ، وتدل بظهورها على الرسول وإذا تبين إنهـا تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله فتقرر بها الربوبية والرسالة)[(٢)]. فهذه الآيات (مما يصدق به رسلـه فيما أخبرت به فلاتزال آيات الرسل وأعلام صـدقهم ، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى فى الأرض إقامة للحجة ...)[(٣)].

فكـانت المعجزات آيات لإثبـات وجود الإله، وأدلـة حسية على ذلك ، وبيـان لصـدق الـرسل عليهم الصلاة والسلام . وكـانت آثارهـا واضحـة فى إيمان النـاس بسببهـا ، كذلـك فإن مايراه الإنسان ويشعـر به فى هـذا الكون يدل دلالة واضحة على أن لهذا الكون موجد[(٤)].

الوجه الخامس : الاستـدلال بالآيات ، وخلـق السمــاوات والأرض والإنسان على وجود الخالق جل وعلا .

---

(١) المعجـزة أمر خارق للعادة يظهر على مدعى النبوة ، مـع التحدى لكل من يعارض أو ينكر ومعنى التحدى طلب المعارضة أى الإتيان بمثل ماأتى به إذا كان هناك من ينكر عليه معجزته . الإسلام دين الفطرة (٧٨) .

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٣٧٩) .

(٣) التبيـان فى أقسام القرآن (١٨٩) ، ابن القيم ، مكتبة الـرياض الحديثة ، الرياض ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٤) انظر العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢٤٩) .

(أ) من الآيات الكريمة :

قوله تعالى : {سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}(١).

وقال تعالى : {أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وماخلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون}(٢).

وقوله جل وعلا : {ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد}(٣).

قال تعالى : {أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين}(٤).

وقوله جل وعلا : {قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين}(٥).

(ب) افتقار هذه المخلوقات لله تعالى من سماء وأرض ومافيهما .

قال تعالى : {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا}(٦).

وقال سبحانه : {الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها}(٧).

وقال عز من قائل : {أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير}(٨).

إلى غير ذلك من الآيات التى تثبت احتياج وافتقار هذه المخلوقات إلى الله تعالى وافتقارها هذا لذواتها لالشىء خارج عنها جعلها مفتقرة إليه .

---

(١) سورة فصلت : (٥٣) .
(٢) سورة الأعراف : (١٨٥) .
(٣) سورة إبراهيم : (١٩) .
(٤) سورة النمل : (٦٤) .
(٥) سورة فصلت : (٩) .
(٦) سورة فاطر : (٤١) .
(٧) سورة الرعد : (٢) .
(٨) سورة الملك : (١٩) .

يقـول شيخ الإسلام : (وأما فقـر المخلوقات إلى الله بمعنى حاجتهـا كلها إليه وأنه لاوجود لهـا ولاشـيء مـن صفـاتها وأفعـالها إلا به فهـذا أدل درجات الافتقار .

وهـو افتقارها إلى ربوبيتـه لها وخلقه وإتقانه ، وبهـذا الاعتبـار كانت مملـوكة له وله سبحانه الملك والحمد . وهذا معلوم عنـد كل من آمن بالله ورسلـه الإيمان الواجب ، فـالحدوث دليل افتقار الأشيـاء إلى محدثهـا وكذلك حاجتها إلى محدثها بعد إحداثه لها دليل افتقارها فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق) .

ويقـول (الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لالأمـر آخر جعلها مفتقرة إليه بل فقرها لازم لها لايمكن أن تكون غير مفتقرة إليـه كما أن غناء الرب وصف لازم له لايمكن أن يكون غير غنى فهو غنى بنفسـه لابوصف جعله غنيا وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها ...)(١).

(ج) **عنـاية اللـه تعـالى وحكمتـه وتدبيـره وتسخيـره لهـذا الكـون ، كـل ذلك يدل على وجوده جلت قدرته .**

قال تعالى : [**ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات مـاء ثجاجا . لنخـرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا**](٢).

وهـذه الآيات تشير إلى الكـون إلى أرضـه وسمـائه وجبـاله وسحـابه ومائه وثماره وليله ونهاره وذكوره وإناثه ، وتشير إلى عناية الله تعالى بخلقه حيث جعل جميع الموجودات موافقة للإنسان ، وهذه الموافقة لابد أن تكون من حكيم عليم قادر على كل شيء(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٦/١) .

(٢) سورة النبأ : (٦-١٦) .

(٣) انظر العقيدة الإسلامية سفينة النجاة (١٢٣) .

وقد امتدح الله تعالى أولئك الذين يتفكرون فى خلق الله تعالى قال تعالى : {**ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك**}[١].

يقول محمد قطب : (إن النظر الدقيق فى هذا الكون يملأ القلب بهذه الحقيقة أنه لايمكن أن يكون خلق هذا الكون باطلا .. الكون بعظمته المعجزة .. الكون بدقته المعجزة .. بأجرامه التى تبلغ ملايين الملايين .. لايصطدم اثنان منها {**وكل فى فلك يسبحون**}[٢] والدقة المعجزة فى جريان هذا الفلك بكل أجرامه التى لم يحصها محص من البشر .. الكون بعظمته تلك ودقته المعجزة تلك .. يخلق باطلا؟! يخلق عبثا؟! إنما يهدى الإيمان العقل البشرى إلى أن هذا الكون لم يخلق باطلا إنما خلق بالحق ...)[٣].

(د) **آيات الله تعالى فى السماء والأرض وكذلك خلق الإنسان كلها تدل على وجوده جل جلاله .**

يقول تعالى : {**إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**}[٤].

وإذا كان الماديون لايؤمنون إلا بما هو محسوس ومشاهد ، فماذا يقولون عن الكون وأحواله ، وأفلاكه وأنجمه ، ومايعرض لهم فيه ، وإذا كانت القضايا لاتثبت إلا بالحواس للزم من ذلك إنكار أشياء كثيرة يؤمن بها الشيوعيون الماديون ، ونوجه لهم هذه الأسئلة ، ماهى المادة؟ ومامكوناتها؟ وكيف هو شكلها؟ وصفوا لنا الالكترونات؟ والكهرباء؟ إلى غير ذلك مما تؤمنون به ولم تروه ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذا الكون بأجرامه وأفلاكه يدل على وجود خالق له مدبر لشئونه حيث يسير فى نظام متسق

---

(١) سورة آل عمران : (١٩١) .
(٢) سورة يس : (٤٠) .
(٣) دروس تربوية من القرآن الكريم (١٥-١٦) .
(٤) سورة البقرة : (١٦٤) .

مطرد . وقد أكثر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى ذكر هذه الآيات وبيان دلالتها على وجود الخالق واستحقاقه للوحدانية دون سواه . وأعرض لبعض كلامه .. ففى قوله تعالى : {**والسماء ذات البروج**}[1] قال وهى (من آيات قدرته وشواهد وحدانيته ، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء والشكل الكرى لايتميز فيه جانب عن جانب بطول ولاقصر ولاوضع بل هو متساوى الجوانب ، فجعل هذه البروج فى هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ولاعالم ولامريد ولاحى ، ولاحكيم ولامباين للمفعول ، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة ، والفلاسفة الذين لايثبتون للعالم ربا بائنا قادرا فاعلا بالاختيار عالما بتفاصيله حكيما مدبرا له)[2].

وعن السحاب والرياح فى قوله تعالى {**والذاريات ذروا**}[3] إن الله تعالى (أقسم بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله فى الجو .. فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد ، وأحيا به البلاد ، وصرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم فلايجدون إليه وصولا ، فإن لم يجبك طورا أجابك اعتبارا .

وسل الرياح ، من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته ، وسخرها بمشيئته وأرسلها بشرا بين يدى رحمته ، جعلها سببا لتمام نعمته ، وسلطانا على من شاء بعقوبته؟ ومن جعلها رخاء وذارية . ولاقحة ، ومثيرة ، ومؤلفة ، ومغذية لأبدان الحيوان ، والشجر ، والنبات ، وجعلها قاصفا ، ومهلكة

---

(١) سورة البروج : (١) .
(٢) التبيان فى أقسام القرآن (٥٦) .
وعن الرياح وأنواعها وكون فيها دلالة باهرة على ربوبيته وعظيم قدرته انظر نفس المرجع (١٧٥) .
(٣) سورة الذاريات : (١) .

وعاتية؟ إلى غير ذلك من صفاتها . فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته ، وأقرت المصنوعات بوحدانيته ، بيده النفع والضر ، وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين)(١).

وقال عن السفن : (وسل الجاريات يسرا من السفن : من أمسكها على وجه الماء ، وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التى تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها فى مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذى جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنها لعاقها ...)(٢).

وعن الأرض يقول : (ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقة . فهذه سهلة ، وهذه حزنة ، تجاورها وتلاصقها . وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لاتنبت . وهذه تربة ، وتلاصقها رمال . وهذه صلبة ، ويلاصقها ويليها رخوة . وهذه سوداء ، ويليها أرض بيضاء . وهذه حصى كلها ، ويجاورها أرض لايوجد فيها حجر ... وهذه لاينفعها المطر ، بل لاتصلح إلا على سقى الأنهار ، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض . فلو سألتها من نوعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى .. ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده إليها ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولا غير مستصعبة ولاممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ... وشق أنهارها وأنبت اشجارها ، وأخرج ثمارها ... ومن بسطها ، وفرشها ومهدها وذللها ، وطحاها ، ودحاها وجعل ماعليها زينة لها ...

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن (١٧٦-١٧٧) .
(٢) المرجع السابق (١٧٧) .
وعن الكواكب وأحوالها ودلالاتها انظر (١٧٧-١٧٨) وقال : (إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة) .

ومـن الذى جعل باطنها بيـوتا للأموات وظاهرها بيـوتا للأحياء؟ ومن الـذى يحييها بعد موتها فينزل عليهـا الماء من السماء ثم يرسـل عليهـا الريح ويطلـع عليهـا الشمس ، فتأخذ فى الحبـل ، فـإذا كان وقـت الـولادة مخضت للـوضع ، واهتزت وأنبتـت مـن كـل زوج بهيج فسبحـان مـن جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينعقد منـه الولد .. فيالها من آية تكفـى وحدها فى الدلالـة على وجود الخالق ، وصفـات كماله وأفعاله ، وعلى صـدق رسله فيما أخبروا به عنه ، بإخراج من فى القبـور ليوم البعث والنشور)(١).

الوجه السادس : الإقرار بتوحيد الربوبية .

حيث كانت جميع الأمم تقر بهذا التوحيد ولم يعـرف أن أحدا أنكره إلا استكبـارا وعنادا ، ولأجل ذلـك ماوجدت جماعة إنسـانية إلا ولها ديانة وإن كـانت ضـالة . يقول هنرى برجسـون : (لقد وجدت وتوجد جمـاعات إنسـانية مـن غير علـوم وفنـون وفلسفـات ولكنه لم توجد قـط جمـاعة بغير ديانة)(٢).

ومـن هنـا فـإن دعوة الأنبيـاء عليهـم الصلاة والسلام كـانت لتـوحيد الألـوهية ، أمـا توحيـد الربوبيـة فكـان حقيقـة ثابتة فى النفـس الإنسـانية ، ولأجل ذلـك لم تكن الدعوة إليـه ، وعلم من هذا أن الـدين والإقرار بالإله موجود فى النفس الإنسانية لاكمـا يقول الملاحدة الشيـوعيون فـ(الإيمان بإلـه قادر عليم صانع حكيم مما دلـت عليـه الفطـرة وهدى إليـه العقـل فقـالت به العـامة والدهماء بمقتضى فطـرهم وسذاجتهم كما قال به الحكمـاء والفلاسفة على مقتضـى أدلتهـم ومقـدماتهـم ... وهكـذا يتفـق جميـع العقلاء إلا مـن

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن (١٨٦-١٨٨) ، وانظر الأدلة القـواطع والبراهين فى إبطال أصول الملحدين (٨٥-٨٦) .

(٢) الـدين (٨٤-٨٥) محمد عبد الله دراز ، نقلا من كتاب موقـف الإسلام من نظرية ماركس (٤٨٥) .

اجتالتهم الشياطين على إله مدبر لهذا الكون متصف بالكمال كله ومنزه عن النقص)[١].

الوجه السابع : إقرار العلم والعلماء بأن لهذا الكون خالقا واحدا .

إذا كانت الشيوعية تدعى أنها إشتراكية علمية تقوم على الحجة والبرهان والمنطق العلمى ، فإن العلم والعلماء قد شهدوا بوجود الخالق وأقروا به . وقد سئل أفلاطون (عن العالم أمحدث هو أم غير محدث فقال إن اسم العالم يدل على صفته وحاله وذلك أن تفسير العالم باليونانية "المقدر ، المتقن" فلايكون التقدير إلا من مقدر ولاالإتقان إلا من متقن)[٢].

ويقول : (إن للنفس حياة وموتا وصحة وسقما فحياتها بأن تعرف خالقها وتتقرب إليه بالبر والشكر وموتها بأن تجهل خالقها وتباعد منه بالفجور والكفر وصحتها بالحكمة وسقمها بالجهل)[٣]. ويقول : (الله بالعدد الفرد لاآلهة بالعدد المكثر)[٤].

ومن الأقوال الدالة على ذلك قول بركلى : (إن التحقق من إدراك وجود الله لأكبر جدا من تحقق وجود الإنسان)[٥].

ويقول الدكتور رسك تشارلز آرنست : (إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها ، وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق ، ولذلك فإننى أؤمن بوجود الله إيمانا راسخا)[٦].

---

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية (٥٧) .
(٢) أفلاطون فى الإسلام (٢٩٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٠٥) .
(٤) المرجع السابق (١٣١) .
(٥) نقلا من كتاب الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٢٢) .
(٦) الله يتجلى فى عصر العلم (٨٣) .
وقد كثرت الأقوال والإقرارات من قبل المفكرين والفلاسفة والتى كلها تصب فى الاعتراف بتلك الحقيقة البدهية وهى وجود المولى جل وعلا . انظر مثلا كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ، وانظر كتاب العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم .

إن قانون السببية (وهو من أعم قوانين الكون يقضى باستحالة وجود شيء من لاشيء ، فلكل موجود لابد من علة وسبب ، ولكن لابد أن يكون هناك مبدأ وبداية لحلقة هذه الأسباب وإلا لدخلنا إلى دائرة مفرغة ، وهذا المبدأ يجب أن يتصف بالعلم وبالإرادة المطلقة ، ذلك لأننا نحدس عند مشاهدة أية ذرة فى هذا الكون ـ الذى هو نتيجة لعلة ـ بأن وراءها عقلا وذكاء وإرادة مطلقة . والخلاصة أن سلسلة الأسباب والعلل لابد أن تنتهى إلى سبب ليس له سبب ولابد أن تنتهى إلى خالق غير مخلوق ، وهذا المبدأ النهائى والعلة الأولية والخالق الذى لم يخلق هو الله تعالى الذى يخبرنا عنه الدين)(١).

وهكذا ينقض العلم مقولة الملاحدة الشيوعيين الذين أنكروا وجود الخالق جل وعلا ، وبهذا نجد أن زعمهم ذلك باطل بالشرع ، والعقل ، والحس ، والعلم ، واعتراف العلماء والفلاسفة ، ولم يبق بعد ظهور الحق إلا الضلال ، إن هذه الدعوى عارية عن الدليل ، مفتقرة لأصل سليم تقوم عليه وإنما كان الهدف منها تحقيق المصالح الشخصية ، والمطامع اليهودية فى القضاء على الأديان وسيطرة الأفكار التلمودية ، ولكن إرادة الله تعالى فوق كل شيء . والله تعالى متم نوره ولو كره الكافرون .

ونأتى الآن لإبطال مزاعمهم فى الدين .

---

(١) موقف الدين من العلم (٧٢) .

ثانيا : إبطال مزاعمهم فى الدين وأنه أفيون الشعوب :

مر معنا أن الشيوعيين قالوا بأن الدين هو أفيون الفقراء وماقام إلا لتسلية هذه الطبقة واستغلالها ، والتهجم على الدين من قبل الشيوعيين نتيجة طبيعية للأصل الذى وضعوه فى مبادئهم (وهو القضاء على الدين) وليحققوا مقولتهم أن (لاإله والحياة مادة) ، وزعم أن الدين أفيون الشعوب باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن هذا القول قد يصدق على الدين المحرف الذى تسلطت باسمه الكنيسة واستغلت الناس وطغت على جميع جوانب الحياة هناك ، وأعطت الوعود للمساكين والمضطهدين بأن الآخرة هى لمن صبر فى هذه الدار باسمه أيضا .

الوجه الثانى : أن هذا الحكم على الدين بأنه أفيون الفقراء حكم عام يفتقر إلى أصول المنهج العلمى فى البحث . لأن الحكم العام لايتأتى إلا عن طريق الاستقراء لجميع الأديان ، وبالتالى الخروج بحكم عام عنها . وهذا مالم يفعله ماركس حيث إنه لم يستقرىء جميع الأديان ، وإذا فإن النتيجة التى توصل إليها إما خاطئة وإما أن فيها مغالطة ، لأن الواقع يشهد بخلافها .

وإن لم يستقرئها وهذا هو الحق فإن الحكم الذى توصل إليه بشأن الدين لايدعمه دليل ولابرهان علمى . وبالتالى افتقرت الدراسة إلى أبسط قواعد منهج البحث العلمى[١].

---

(١) لمزيد عن ذلك انظر موقف الإسلام من نظرية ماركس (٥٠٤-٥٠٥) .

الوجه الثالث : أن واقع الأديان السماوية يكذب هذه المقولة حيث كانت الأديان باعثة على العمل ، داعية إليه ، مرغبة فيه ، محرمة ظلم العامل ونعنى بذلك أصل الدين كما أنزله الله تعالى . وقد اعترف أقطاب الماركسية بشىء من ذلك يقرر انجلز أن مطالب الفلاحين كانت ترمى إلى الدين والمطالبة به لعلمهم أنه يحقق لهم مطالبهم فيقول : (أما الهرطقة التى عبرت مباشرة عن مطالب العمال والفلاحين والتى ارتبطت غالبا بالعصيان فى كل مكان فكانت ذات طبيعة مختلفة تماما . ورغم أنها كانت تشترك مع الهرطقة البرجوازية فى كافة المطالب المتعلقة برجال الكنيسة والبابوية وإحياء دستور الكنيسة المسيحية الأولى ، إلا أنها هدفت إلى أبعد من ذلك فطالبت بعودة المساواة المسيحية الأولى بين أعضاء الجماعة والاعتراف بهذه المساواة كقاعدة من قواعد العالم البرجوازى . واعتمدت على "المساواة بين أبناء الرب" لتصل إلى المساواة فى الحقوق المدنية بل وإلى المساواة فى الملكية بشكل جزئى)[1].

الوجه الرابع : لو سلمنا مع ماركس وانجلز أن الدين المسيحى (المحرف) كان مضطهدا للعمال وأفيونا مخدرا لهم ، فلماذا لم يبحث ماركس ورفيقه عن دين غير ذلك الدين؟! وأين التجرد من الهوى والتعصب الأعمى؟ ولكنها النفسية اليهودية التى كانت ملازمة لماركس وإلا ففى دين الله تعالى الرأفة والرحمة والعدل لهؤلاء العمال .

الوجه الخامس : أن الماركسية وقعت فيما وصمت به الدين فهى تصف (الدين بأنه "مخدر" لأنه يدعو إلى تأليه غير المحدود فى الوجود ، وهى تقف عند المحدود الذى هو الحس . وبأنه يدعو إلى تقديس علة عامة للوجود وراء الحس والشاهد وهى تنكر وجود ماعدا الحس والشاهد ، وبأنه يدعو إلى "القيم الأخلاقية" و"المثل العليا" الثابتة ، وهى لاترى نباتا لشىء على الاطلاق! كما لاترى قيما ولامثلا فيما عدا مايوحى به الحس ومايقدمه للإنسان من متع حسية ، ومايسد به حاجة بدنه فقط . إذ المتع العقلية عندها

---

(١) حرب الفلاحين (٥٠) .

ظواهر ، أو صدى للمتع الحسية ، ولعلاقات الإنسان الطبيعية التى يعيش فيها!!

تصف الدين عامة بأنه مخدر،لأنه يقف فى طرف مقابل لما تؤمن هى به

وتصف المسيحية الأرثوذكسية على الخصوص بأنها (سلطة) تعوق "الانتقال" أو "التقدم" فى سير العالم ، كلازمة لمبدأ "النقيض" فى الوجود ، لأن لهذه الكنيسة نفوذا سياسيا وروحيا استخدمته فى تأييد الوضع السابق على الثورة الحمراء ضد القيصرية ، فكانت تؤيد "الرجعية" ولاتؤيد "التقدم" الذى يدعو إليه "التطور" بوجه خاص! وهى لاتعيب الدين عامة لأنه لايدعو إلى الاعتقاد والإيمان ، ويحمل أتباعه على تقديس مايراه أهلا للتقديس من الموجودات لاتعيب الدين بذلك ، لأنها نفسها تدعو إلى "الاعتقاد" و"الإيمان" ، وتحمل فى عنف وإصرار - لاعن اقتناع - على "تقديس" ماتراه أهلا "للتقديس" و"العبادة"!! هى نفسها تدعو إلى عبادة "الدولة" وتدعو إلى الصلاة فى محراب "العلم" وتأخذ على الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية نظام "الكهنة" ، و"المجمع المقدس" وعقيدة "عصمة" البابا ، وهى ذاتها تضفى على "الحزب" الشيوعى ، و"رئاسة" هذا الحزب لونا سميكا من "القداسة" و"الاعتبار" لايتردد فى قيمته فضلا عن أن يناقش فيه!! هى تدعو إلى "عبادة" و"معبودها" هو الدولة ، وتدعو لذلك عن طريق الفلسفة فهى "وثنية" باسم الفكر!! ثم إذا هى تنكر إله الكنيسة لأنه فيما وراء الطبيعة لايحس ، تدعو فى الوقت نفسه إلى عبادة مالايحس ولايشاهد ، وهو الدولة ، أو المجتمع . وإلا فأين مكان الدولة ومكان المجتمع فيما وراء التصور الذهنى؟!)[١].

الوجه السادس : أن الدين الإسلامى ينقض وينفى هذه الفرية من أساسها ، إذ أن دين الله تعالى لم يكن فى يوم من الأيام ، أو فى مرحلة من مراحله داعيا إلى التكاسل والتخاذل مما يدل على أن الأفكار الشيوعية متهافتة ومصيرها الخذلان ، أمام أصول الإسلام وتشريعاته الصالحة لكل

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث (٢٨٨) .

زمان ومكان . وظهر فى دين الله تعالى مايرد على هذه الفرية (أن الدين أفيون الفقراء) ، ومن ذلك :

(أ) الجهاد فى سبيل الله تعالى :

حيث قام المسلمون الأوائل بنشر الإسلام والدعوة إليه ولقوا فى سبيل ذلك الشىء الكثير من الصعاب وبذلوا فى سبيل نشره النفس والنفيس فكيف يكون الدين مخدرا وأفيونا وهو الذى جعل هؤلاء الحفاة الرعاة سادات العالم وقواده ، وكيف يكون الدين مخدرا وهو الذى يطلب من الإنسان المسلم منذ لحظة دخوله فيه أن يبدأ العمل ويطبق الفرائض ، ويتقرب بالنوافل ، ويبحث عن الرزق ، ويسعى فى الأرض للجهاد والكسب إن واقع الدين الإسلامى يأتى على هذه الفكرة من أساسها فيجعلها متهالكة متهافتة لاتنهض ولايقوم لها بنيان ، هل تصدق هذه الفرية (على محمد [صلى الله عليه وسلم] وهو الذى رفع السيف مع من معه من العمال والفقراء المستضعفين فى وجوه كسرى وقيصر وأبى لهب وأبى جهل وغيرهم من أئمة الجور والطغيان)(١).

(ب) كيف يكون الإسلام أفيونا أو مخدرا والله تعالى أمر العباد بالعمل ، وحثهم عليه، كما أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم به والآيات والأحاديث فى هذا الجانب أكثر من أن تحصى ، بل بين تعالى فضل العاملين ، وامتدح رسوله صلى الله عليه وسلم أولئك المتكسبين من أعمال أيديهم ، ونهاهم عن تكفف الناس ، وأبان أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وشارك صلى الله عليه وسلم فى العمل بيده ، وكانت شرائع الإسلام كلهاتقوم على العمل ولاتتم إلا به فكيف يكون الدين مخدرا سبحانك هذا بهتان عظيم .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (١٥٤) ، البهى الخولى ، دار الفتح ، دون ذكر لتاريخ الطبعة أو رقمها .
وكذلك كان معه صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وهما من أثرياء المسلمين .

(ج) يعتبر الشيوعيون أن الدين أفيونا مخدرا مسكنا للطبقة الفقيرة للعمال والمضطهدين ، فهلا نظروا فى دين الله تعالى كيف حرم الظلم ، وحرم كل مايلحق الضرر بالآخرين ، وخاصة الفقراء والضعفاء والأجراء ، وحرم تكديس الأموال فى يد الطبقة الغنية ، وفرض للفقراء حقا فيها وحرم الربا والاحتكار والغش بأنواعه ، وسوى بين الفقير والغنى ، والأمير والحقير فى حدود الله تعالى ، فالدين الإسلامى لم يخدر الطبقة العاملة أو الفقيرة بل جعل لها الحقوق المفروضة على الأغنياء ، وماذلك إلا ليحيي هذه الطبقة ويجعلها تتطلع إلى الأمام فأين المخدر من تشريعات الإسلام؟!!

(د) أن أغلب الدعوات والحركات التى قامت فى فترات متفرقة من الزمن إنما كانت بدافع دينى ، تدعو إلى حياة القلوب بعد موتها ، وإلى العلم بعد الجهل ، وإلى العمل بعد الكسل ، والأمثلة على ذلك كثيرة فدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب(١) رحمه الله كان الباعث عليها الدين ، وغيرهامن الدعوات الإصلاحية فى العالم العربى والإسلامى ، وكذلك الدعوة الإصلاحية فى الغرب ضد أفعال الكنيسة الدافع لها الدين . لقد كان (الدين قوة دافعة حقيقية فى عصور النهضة ، فالثورة على الخضوع لغير الحق إنما هى هدف الدين وهى تتجدد فى عصور نهضات

---

(١) الإمام المصلح المجدد ، ولد بالعيينة وكان مولده فى بيت علم ودين ، ورحل فى طلب العلم ، وحارب الشرك والجهل الذى كان متفشيا بين الناس ، وباشر إزالة الشركيات من أحجار وأشجار بيده ، له مؤلفات عديدة منها : كتاب التوحيد ، كشف الشبهات ، الأصول الثلاثة وأدلتها ، تفسير سورة الفاتحة ، مختصر زاد المعاد ، وغيرها . ولد عام ١١١٥هـ ، ومات سنة ١٢٠٦هـ رحمه الله .
انظر الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه فى مباحث العقيدة (٢٧) ومابعدها ، د. آمنة محمد نصير ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة .

لخلق تغيرات جذرية فى أسلوب الحياة إذا تخلفت حياة الناس عن تحقيق هذا الهدف ، حيث تعتبر العقيدة الدينية قوة دافعة نحو التطور الإجتماعى المأمول)(١).

ثم إن كثيرا من حركات التحرر من الاستعمار الباعث عليها الدين ، وكان من هذه الحركات حركة الجهاد الأفغانى ضد الشيوعية .

(هـ) أن هذه الدعوة يبطلها ماجاء فى كتاب الله تعالى من التحذير بأنه جل وعلا مطلع على كل صغيرة وكبيرة وأنه يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور فـ(هل الدين إلا ذروة اليقظة والانتباه وماذا يكون حال المسلمين الذين يقول لهم ربهم : {**إن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**}(٢).

ماذا يكون حال مثل هؤلاء المسلمين إلا الخوف الدائم واليقظة الدائمة والانتباه الدائم لكل خاطر يخطر فى القلب .. فهذا هو الله يحاسبهم على مواطن النيات ، كما يحاسبهم على شواهد الأعمال فأين لهم النوم .. وأين هم من سكرة الأفيون . إنما المساطيل حقا وأهل الغفلة الذين يعيشون فى خدر الأوهام الباطلة هم أهل المذاهب المادية من شيوعيين وغيرهم . ممن تصوروا أن لاشىء وراء هذه الحياة ولاشىء بعدها فإن غنموها غنموا كل شىء ، ولو بالقتل وسفك الدماء فلاحسيب من بعد ولارقيب . هؤلاء هم الذين يعيشون فى خدر الأفيون حقا .. هؤلاء هم الذين خدرتهم أطماعهم وأهواؤهم وشهواتهم .. وهؤلاء هم الذين أعمتهم أحقادهم وأضغانهم فتصوروا أنه لاوجود لأى شىء وراء هذه الأحقاد والأطماع حسب لحظتهم .. فليعيشوها.. أو فليسرقوها .. ثم لايعبأوا بشىء بعد ذلك)(٣).

---

(١) الفكر الدينى فى مواجهة العصر (١٠٤) ، د. عفت محمد الشرقاوى ، الطبعة الثانية ١٩٧٩/١/١م ، دار العودة ، بيروت .

(٢) سورة البقرة : (٢٨٤) .

(٣) حذار لاهم تقدميون ولاعلميون ولاموضوعيون (١١-١٢) ، مصطفى محمود ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

(و) مما يرد به على الشيوعيين فى هذه الفرية أن يقال لهم لماذا قامت ثورتكم؟!! وماهو الدافع لها؟!! إن مايدل عليه واقع الثورة البلشفية والأحداث التى تلت أنها ماقامت إلا بدافع مذهبى وظف لتحقيق أطماع اليهود فى العودة إلى صهيون بأرض فلسطين ، ثم يقال لهم أليست الأفكار الماركسية واللينينية معتقدات ترغبون فى إيمان الناس بها ، بل وتفرضونها عليهم بالقوة ، إن الدافع الدينى كان وراء ثورتكم ، فكيف تنكرون أمرا وأنتم ماقمت وماعملتم إلا من أجله؟!! وكيف يصبح لكم دافعا ولغيركم أفيونا؟!! إن اختلال موازين الشيوعيين جعلتهم يجازفون فى إصدار أحكامهم ثم ألم يعد الشيوعيون العمال بجنة الفردوس إن هم صبروا ضد الظلم ، وكافحوا فى سبيل الإشتراكية ، إن هذا العمل يعد أفيونا على معتقد الماركسية ، وعلى هذا الأساس فإن تناقض الشيوعيين يطغى على كل آرائهم وأفكارهم .

(ز) لقد جاء الاعتراف بأن الدين ليس مخدرا ولاأفيونا بل باعثا على العمل من قبل الأعداء وبعض المفكرين . يقول جارودى : (إن فكرة الدين ليست أفيونا ولامخدرا ويجب أن نقف كشيوعيين الموقف الإيجابى بالنسبة للدين لأنه حركة ثورية لها فلسفتها الإجتماعية والإقتصادية العلميتين ، ولو أدرك ماركس مفاهيم الدين بكل موضوعية ووعى لما وقف ذلك الموقف الرافض والمنكر)(١).

ويقول لامارتين بعد أن أثنى على الإسلام وانتشاره (إذا كانت عظمة الهدف ، وحقارة الوسائل ، وسعة النتيجة هى المعيار الوحيد لتقدير مهارة الإنسان ، فمن يتجرأ منكم ـ وعن طريق الإنسانية ـ على مقارنة أى عظيم من عظماء التاريخ بمحمد؟ إن أكابر العاملين ماحركوا إلا عساكر ، وقوانين ودولا ... ومـاأسسوا عندما أرادوا تأسيس شىء ، إلا قوات مادية قد

---

(١) مجلة الطليعة آب ١٩٦٩م نقلا من كتاب معالم الإشتراكية العربية (٩-١٠) .

اضمحلت قبل وصولهم إلى الغاية ... ولكن محمدا حرك عساكر ، وحكاما ، ودولا ، وشعوبا ، وممالك ، وملايين من الناس فى أطراف العالم المسكون ، بل حرك - مع ذلك - آراء ، وعقائد ، وأرواحا ... وأسس ، على كتاب واحد - ثبت أن كل حرف منه يقابل قانونا مستقلا . أسس على هذا الكتاب الجنسية الروحية التى تحيط بالشعوب فى جميع اللغات وفى جميع الأنواع...)(١).

فهل النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه كانوا بدينهم مخدرين عاطلين بعد أن بلغوا مشارق الأرض ومغاربها؟!! أين هو الأفيون فى دين الله تعالى الذى صنع هؤلاء الرجال؟! إن هذا الدين ينقض الرأى القائل بأن الدين أفيون الشعب بل هو حياة القلوب والشعوب .

وأخيرا نقول إن الإسلام ملىء بالأدلة الواقعية على أن الدين كان دافعا قويا للعمل ، فأين الأفيون من عقيدة الإسلام التى هى حياة القلوب وسر الانتصار على الأعداء كما جاء فى كتاب الله تعالى .

أين الأفيون من تشريعات الإسلام ، تلك التشريعات التى أحيت الأرواح والأجساد وجعلت الإنسان يبذل روحه وماله فى سبيل إبلاغ دعوة الحق إلى الناس .

إن دين الله تعالى لم يكن أفيونا ، وإذا صدق هذا على دين محرف قام على الظلم والطغيان واستغلال الإنسان (بعد تحريفه) فلايعنى ذلك أن الوصف ينطبق على كل دين ، وخاصة الإسلام دين الله الذى ارتضاه لنفسه وأوجبه على عباده {**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين**}(٢).

---

(١) الإسلام فى السنغال (٩٨-٩٩) ، الشيخ أحمد التيجانى سى ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) سورة آل عمران : (٨٥) .

ثالثا : رد مزاعمهم فى نشأة الدين :

اضطرب الشيوعيون فى تحديد نشأة الدين إلى أقوال عدة :

(أ) أنه من اختراع الضعفاء "الطبقة المستغلة".

(ب) أنه من اختراع الأقوياء "الطبقة المستغلة".

(ج) أن الإنسان اخترعه بسبب الجهل .

(د) ربط نشأة الدين بالعامل الاقتصادى .

ويجمع هذه الأقوال إن الدين من اختراع الإنسان ، وهذه مزاعم باطلة .

أولا : قولهم أن الدين من اختراع الإنسان :

هذا زعم باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : ثبت إن كل مولود يولد على الفطرة التى هى دين الله تعالى (الإسلام) ومامن أمة إلا ولها دين بصرف النظر عن هذا الدين إن كان حقا أم باطلا ، وقد اعترف الشيوعيون بوجود الدين لدى القبائل البدائية ، تلك القبائل التى كانت خلوا من الطبقات الاجتماعية فكيف يفسرون الدين فيها . ثم كيف يقولون بأنه نشأ من الطبقات الموجودة فى المجتمع مع اعترافهم بأنه وجد فى مجتمع غير طبقى ، إن هذا تناقض ظاهر ودليل على فساد اختراع الإنسان للدين .

وبهذا إما أن يقولوا بعدم وجود هذه المرحلة التى خلت من الطبقات وبالتالى تكون فكرة المشاعية البدائية التى حققت السعادة للبشرية غير موجودة ويلزم من ذلك أن تنهار القاعدة التى عول عليها الشيوعيون كثيرا وهى المجتمع البدائى . وإما أن يقولوا بوجودها مع اعترافهم بأن لها دين خاص بها وبالتالى يكون هذا أحد التناقضات التى وقع فيها الشيوعيون ويبطل الزعم الذى جاءوا به .

الوجه الثانى : أن الدين وجد منذ وجد الإنسان على هذه الأرض فكيف يكون الإنسان هو الذى اخترعه . فقد وجد مع آدم عليه السلام بمجرد هبوطه من الجنة ، وقد اتفقت الأديان السماوية على ذلك (ولايزال دليل الأديان كلها على صدق دعوى نشأة الدين مع وجود أول إنسان على هذه الأرض وهو "آدم" فقد قدم القرآن قضية هبوط آدم من الجنة وتلقيه الوحى وعبادته للخالق فى صورة لاتناقض العلم ولاتتناقض مع العقل بل هى أدعى إلى الاستنارة بهما وتحكيمهما لالتدليل على صحة القضية بل لتأكيد إيمان المؤمنين ...)[1]. ويظل هنا قضية ننبه عليها وهى أن كون الإنسان يتخذ له آلهة يعبدها وينحرف بفطرته إلى الشرك ويتخذ إلها يعبده من شجر أو حيوان أو كوكب فإنه يطلق عليها آلهة لذلك الإنسان تجوزا ، وهذه مصدرها الإنسان ولكن لايصح الحكم بها على الدين الصحيح .

وإذا كانت اليهودية والنصرانية حرفت ، وقامت الشيوعية فى نقدها للدين مستدلة على دين محرف وأكثر طقوسه من وضع الرهبان ، فإن من رحمة الله تعالى بالناس أن جعل دينا خاتما لايتطرق إليه الاحتمال أو الشك وهو الدين الإسلامى الذى كان عليه آدم عليه السلام ، وكتابه القرآن الكريم الذى قال تعالى عنه : {**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**}[2][3]. ونبيه خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الإنسان فى ظل الأديان (٤٣-٤٤) .

(٢) سورة الحجر : (٩) .

(٣) موقف الدين من العلم (٣٢) .

(ولقد أثبتت الأبحاث والتدقيقات التى جرت فى ميدانى علم الإجتماع والتاريخ خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين أثبتت أن الدين وجد منذ وجود الإنسان كشعور عميق وكسند معنوى ، وإن جميع الحضارات والمدنيات الأولية وآثارها كانت نتيجة ووليدة هذا الشعور ، فالسياسة والأخلاق بل حتى التكنيك والفنون الجميلة مدينة فى نشوئها وفى تقدمها إلى هذا الشعور والتفكير الدينى ، وأن نواة هذه المؤسسات وجدت وتكونت منذ البداية فى ظل الدين وتقدمت معه جنبا إلى جنب واستمر هذا حتى زمن قريب حيث انفصلت عن الدين أصبحت كل منها مؤسسة مستقلة عن الأخرى)(١).

الوجه الثالث : لابد من التفريق بين الإنسان الذى يعنيه الشيوعيون وهو البدائى ، وبين الإنسان الأول الذى كان على دين الله تعالى وهو آدم ، فالشيوعيون يعولون على الإنسان البدائى وهى فترة لم يحددها هؤلاء الشيوعيون ، والمعلومات عن هذه الفترة وحقيقتها ، وطرق تفكيرها وغير ذلك من أمورها فى طور الجهل وماجاء عنها مبنى على التخمين والظن(٢). وهل يبنى على فترة لم تعرف حقيقتها ، ولاتتوفر عنها المعلومات الكافية مذهب من المذاهب؟!! إن هذا لم يصح إلا عند أصحاب الفكر الإشتراكى العلمى!! وإذا كان الإنسان البدائى هو آدم عليه السلام فإن الدين قد وجد معه فى هذه الأرض ، وأخبر تعالى بذلك عنه منذ أن كان فى الجنة . فدل ذلك على أن الدين وجد فى النفس الإنسانية ووجد مع أب البشر عليه السلام ، فأين هو الاختراع؟ ومتى تم هذا الاختراع؟ فالدين (ولد بولادة الإنسان ويؤكد هذا الرأى التاريخ والآثار والبرهان العلمى)(٣).

الوجه الرابع : إن واقع الشيوعية فى تعاملها مع الدين وأصحابه ، يدل على بطلان قولهم ذلك ، حيث يعترفون وبطريق غير مباشر أن الدين

---

(١) موقف الدين من العلم (٣٢) .
(٢) انظر الإنسان فى ظل الأديان (٥٣-٥٦) .
(٣) العلوم الطبيعية فى القرآن (١٦) .

أمر ثابت فى أصل الخلقة ، وذلك بحربهم التى لاهوادة فيها على الدين وأهله عسكريا ، وفكريا ، وبالقتل والتعذيب ، ولو كان الشيوعيون الملاحدة يعتقدون أن الدين ليس موجودا أصلا فى النفس الإنسانية ومستقر فيها لما هاجموه بهذه الطريقة الوحشية ، ولحاولوا إيجاد البديل عن طريق تلقين الفكر الإلحادى أو اختراع أفكار أخرى أكثر عمقا من الدين ، وأشد أثرا فى النفس الإنسانية . زد على هذا ماذا يقول الشيوعيون لأولئك الذين تركوا إلحادهم ورجعوا إلى الله تعالى؟!! إن هذه العودة هى عودة إلى الأصل الذى هو ثابت مستقر فى النفس البشرية ، ولو كان الدين أمرا مخترعا ولم يكن فى نفوس هؤلاء الملاحدة أساسا فكيف رجعوا إليه؟!

الوجه الخامس : ومما يبطل قولهم ـ فى أن الإنسان هو الذى اخترع الدين ـ الاضطراب الشديد فى تحديد الطبقة التى اخترعت الدين والسبب الذى أدى إلى وجوده ، وهذا الاضطراب دليل على أن الإنسان ليس هو مخترع الدين ، وإلا لو كان الأمر كذلك لاخترعت كل طبقة مايناسبها من أفكار وأحكام تخدم مصالحها على حساب الطبقات الأخرى ، ولكن الذى نجده فى الدين المخترع كما يزعمون أنه يحتوى على أفكار تتعارض مع مصالح الطبقة المخترعة ، فكيف يقال إن الإنسان يخترع شيئا يعادى رغبته ، ويفرضه على نفسه ، وفيه مصلحة لغيره ، ويلزم نفسه بأشياء لارغبة له فيها إن العقلاء يرفضون القبول بذلك ومن هنا يتبين فساد مايذهب إليه الماركسيون من القول بأن الإنسان هو الذى اخترع الدين، ويتبين خطل هذا الرأى وفساده لأنه يتعارض مع أبسط مسوغات القبول له ، سواء من الناحية الشرعية أو العقلية أو العلمية أو واقع الشيوعية .

ثانيا : بطلان زعمهم أن الدين من اختراع الطبقة المالكة :

وهذا الزعم باطل من وجوه مع ملاحظة أن نقض الزعم الأول يستدل به هنا على اعتبار أن الدين ليس من اختراع الإنسان سواء كان مالكا أو مملوكا .

الوجه الأول : إن الواقع الذى نشأت فيه الأديان يبطل هذا الزعم .

وواقع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ينقض هذه الفرية ، فقد وقفوا فى وجه الطغاة والمتسلطين على الناس بسبب أموالهم وقوتهم ، فهل تصدق هذه الفرية على ابراهيم عليه السلام فى وقوفه ضد أعدائه؟ وهل تصدق على موسى عليه السلام الذى نازل فرعون؟ أم هل تصدق على عيسى عليه الصلاة والسلام وهو الذى تآمر عليه القوم ليصلبوه؟[٢] أم هل تصدق على محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذى رفع السيف ومعه المؤمنون به ومنهم الفقراء المستضعفين فى وجه أهل الطغيان[٣].

الوجه الثانى : أن هذا الزعم القائل بأن الدين من اختراع الطبقة المالكة لايصمد أمام ماجاءت به الأديان من فرائض وتشريعات ، حيث جاء فيها تحريم كثير من الأساليب والطرق التى كانت ترغب الطبقة المالكة فى سلوكها من أجل زيادة ربحها أو استثمارها ، كتحريم الربا ، والاحتكار ، وكذلك منع احتقار الفقراء أو التنقص منهم ...الخ ماهنالك من شرائع دينية كانت تحرم على الطبقة المالكة ماترغب فيه ، فكيف تخترع الدين ، ثم تجعله يفرض عليها مايخالف مصالحها ، إن هذا زعم باطل ، يقول الصدر : (إذا كان يحلو للماركسية ، أن تؤمن بأن الطبقة المالكة المسيطرة ، وهى التى تصنع الدين لحماية مصالحها ، فمن حقنا أن نتساءل : هل كان من مصلحة هذه الطبقة ، أن تجعل من هذا الدين أداة فعالة فى القضاء على الرأسمال الربوى ، الذى كان يدر عليها أرباحا طائلة فى المجتمع المكى ، قبل أن يحرمه الإسلام تحريما باتا؟! أو هل كان من مصلحتها ، أن تتنازل عن كل مزاعمها الارستقراطية ، فتسخر الدين للدعوة إلى المساواة بين الناس ، فى الكرامة الإنسانية ، بل إلى الاستهانة بالأغنياء ، والتنديد بتعاظمهم دون حق

---

(١) إقتصادنا (١٠٨-١٠٩) .

(٢) انظر الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (١٥٣) .

(٣) انظر المرجع السابق (١٥٥) .

...)[١]. إن هذا لايقبل به عاقل فكيف بمن يدعى العلم والسير على الأسس العلمية الصحيحة!!

الوجه الثالث : إذا كان الأغنياء والملاك هم الذين اخترعوا الدين ، وأغروا العمال بالخضوع له ، وعدم المطالبة بحقوقهم فى الدنيا ، ووعدوهم بالآخرة - كما زعم الشيوعيون - فإن الأنسب لهؤلاء كى يصلوا إلى تحقيق أهدافهم أن لايتخذوا الدين وسيلة لهذا الإغراء وذلك لأنه ليس هناك دين حق يغرى أصحابه بترك الحق والاستكانة للمخلوقين ومامن دين حق إلا وهو قوة إيجابية تدفع المتدينين إلى العمل وشحذ العقول والنقمة على الطغاة العصاة حتى يؤمنوا[٢]. وبهذا يتبين أن هذه الفرية باطلة ينقضها الواقع الذى قام فيه الدين ، كما تنقضها التشريعات والفرائض الدينية التى كانت تفرض على الأغنياء والمالكين البذل والعطاء .

ثالثا : بطلان زعمهم أن الدين من اختراع الطبقة المضطهدة :

وهذا زعم باطل من عدة وجوه :

الوجه الأول : أن الدين مستقر فى النفس الإنسانية ، وموجود من قبل وجود الطبقات الإجتماعية ، كما تقدم تقريره .

الوجه الثانى : إذا كان الدين من اختراع الطبقة المضطهدة (فكيف يمكن أن نفسر وجود العقيدة الدينية ، منفصلة عن الواقع السيء ، وظروف المضطهدة الإقتصادى ؟! وكيف أمكن لغير المضطهدين ، أن يتقبلوا من الطبقة المضطهدة ، إيديولوجيتها التى نبعت من واقعها الإقتصادى ، ودينها الذى تبشر به ؟! إن الماركسية لايمكنها أن تنكر وجود العقيدة الدينية ، عند أشخاص لايمتون إلى ظروف الاضطهاد الإقتصادى ، بصلة وصلابة العقيدة فى نفوس بعضهم ، إلى درجة تدفعهم إلى التضحية بنفوسهم فى سبيلها . وهذا يبرهن - بوضوح - على أن المفكر لايستوحى فكرة إيديولوجية - دائما - من

---

(١) اقتصادنا (١٠٩) .

(٢) انظر المرجع السابق (٨٥) .

واقعه الاقتصادى ، لأن الفكرة الدينية عند أولئك الأشخاص ، لم تكن تعبيرا عن بؤسهم ، وتنفيسا عن شقائهم ، وبالتالى لم تكن انعكاسا لظروفهم الإقتصادية وإنما كانت عقيدة تجاوبت من شروطهم النفسية والعقلية ، فآمنوا بها على أساس فكرى)(١).

الوجه الثالث : إذا كان الدين من اختراع الطبقة المضطهدة بسبب الظروف السيئة الواقعة عليهم فلماذا وافقهم أصحاب رؤوس الأموال الأغنياء فى الدخول فيه؟

ولماذا عملوا بالأفكار والمبادىء النابعة منه؟!

وكيف يوافقونهم فى مطالبتهم إياهم بالعدل والانفاق عليهم وعدم الاستكبار والمساواة فيما بينهم فى أمور العبادة وغيرها؟!!

إن المنطق يقول لو كان الدين من اختراع المضطهدين لطالبوا بما يعلمون بأنهم سيحصلون عليه ، لأن هذه المطالب لو كانت من عندهم لاستكبرها الأغنياء ، بل إن أمر الدين وصل إلى المطالبة بالمساواة فدل ذلك على أن الدين لم يكن صادرا منهم بل هو من عند الله تعالى ، ومن هنا دخل فيه الأغنياء مع الفقراء دون تردد {**وقالوا سمعنا وأطعنا**}(٢).

رابعا : **بطلان زعمهم أن الدين يتطور تبعا لتطور العامل الإقتصادى** :

وهذا باطل للوجوه التالية :

الوجه الأول : إن زعم الماديين أن الأديان تتطور لتطور العامل الإقتصادى ويكون فى البلدان المتطورة أكثر منه تطورا فى غيرها باطل يرده واقع الأديان حيث كانت تظهر فى أماكن لم تكن الظروف الإقتصادية تساعد على وجوده فيها . يقول الصدر : (ونلاحظ فى هذا المجال ، أن المسيحية أو البروتستانتية ، لو كانت تعبيرا عن الحاجات الموضوعية المادية ، التى تشير إليها الماركسية ، لكان من الطبيعى أن تولد المسيحية وتنمو فى قلب

---

(١) إقتصادنا (١١٠) .

(٢) سورة البقرة : (٢٨٥) .

الإمبراطورية الرومانية ، الآخذة بزمام القيادة العالمية ، وأن تنشأ حركة الإصلاح الديني ، في أكثر المجتمعات الأوروبية ، تطورا ونموا من الناحية البورجوازية ، مع أن الواقع التاريخي ، يختلف عن ذلك تماما . فالمسيحية لم تنشأ في نقاط التمركز السياسي ، ولم تولد في أحضان الرومان الذين بنوا الدولة العالمية ، وكانوا يعبرون في نشاطاتهم عنها ، وإنما نشأت بعيدة عن ذلك كله ، في إقليم من الأقاليم الشرقية المستعمرة للرومان ، ونمت بين شعب يهودي مضطهد ، لم يكن ... يحلم إلا بالاستقلال القومي ، وتحطيم الأغلال التي تربطه بالمستعمرين ، الأمر الذي كلفه كثيرا من الثورات ، وعشرات الألوف من الضحايا ، خلال تلك العقود الستة ، فهل كانت ظروف هذا الشعب المادية والسياسية والإقتصادية جديرة بأن تتمخض عن الدين العالمي الذي يلبي حاجات الإمبراطورية المستعمرة؟!)[(١)].

<u>الوجه الثاني</u> : أن حركات الإصلاح الديني لم تكن وليدة لتطور الأوضاع الاقتصادية وإلا لكان ظهورها يتحتم في أماكن دون أخرى . إلا أن الواقع نقض ماذهب إليه أصحاب الفكر الشيوعي ، وفي ذلك يقول الصدر : (وحركة الإصلاح الديني ، التي نشأت من طلائع التحرير الفكري في أوروبا هي الأخرى لم تكن وليدة القوى البرجوازية ، وإن حصلت منها البورجوازية على مكاسب ، غير أن هذا لايعني أنها بوصفها أيديولوجية معينة قد نشأت عن مجرد التطور الإقتصادي البورجوازي . وإلا لكانت انجلترا أجدر بها من البلاد ، التي انبثقت عنها حركة الإصلاح ، لأن البروجوازية في انجلترا ، كانت أقوى منها في أي بلد أوروبي آخر . ، والتطور الإقتصادي والسياسي ، الذي أحرزته خلال ثورات ، منذ عام (١٢١٥) ، جعلها في موضع لاتصل إلى مستواه البلدان الأخرى ، وبالرغم من ذلك لم يظهر "لوثر" في انجلترا استجابة للوعي البورجوازي فيها ، وإنما ظهر بعيدا عنها ، ومارس نشاطه ودعوته في المانيا ، كما ظهر في فرنسا الزعيم

---

(١) إقتصادنا (١١١) .

الثانى للحركة فى شخص (كالفن) البروتستانتى العنيد ...)[١]. فلو كان الإقتصاد هو السبب فى ظهور الدين لكانت حركات الإصلاح الدينى سارت على هذه القاعدة .

الوجه الثالث : أن العقيدة الدينية موجودة عند أشخاص لايمتون للاضطهاد الإقتصادى بصلة ، وصلابة العقيدة فى نفوسهم ثابتة إلى درجة تدفعهم إلى التضحية بنفوسهم وأموالهم فى سبيلها ، ومثال ذلك امرأة فرعون[٢]، وعثمان بن عفان[٣]، وعبد الرحمن بن عوف[٤]رضى الله عنهما وكثير من المسلمين الأغنياء لم يكن لهم علاقة بالاضطهاد الإقتصادى ودخلوا فى دين الله تعالى رغبة فيما عنده جل وعلا[٥].

الوجه الرابع : إن قيام الإسلام فى أرض الجزيرة العربية ، أعظم دليل على فساد النظرية الماركسية ، التى ربطت قيام الدين بالوضعية الإقتصادية .

---

(١) إقتصادنا (١١١-١١٢) .

(٢) وهى آسية بنت مزاحم رضى الله عنها آمنت بالله تعالى ، وعلم فرعون بذلك وأمر جنده أن يأخذوا صخرة ويلقوها عليها إذا لم ترجع عن إيمانها ولكنها بقيت صامدة وبنى الله تعالى لها بيتا فى الجنة . انظر تفسير القرآن العظيم (٣٩٤/٤) .

(٣) عثمان بن عفان : ذى النورين ، أمير المؤمنين ، أسلم فى أول الإسلام على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنهم وكان يقول إنى لرابع أربعة فى الإسلام، تزوج اثنتين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم رضى الله عنهما أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو أحد الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم . قتل رضى الله عنه يوم الجمعة من شهر ذى الحجة سنة ٣٥هـ . انظر أسد الغابة (٤٨٠/٣) ومابعدها .

(٤) عبد الرحمن بن عوف : ولد بعد الفيل بعشر سنين ، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر رضى الله عنه ، شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى ، كان كثير الإنفاق فى سبيل الله تعالى ، أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبدا ، مات بالمدينة سنة ٣١هـ .
انظر أسد الغابة (٣٧٦/٣-٣٧٧،٣٨٠) .

(٥) انظر موقف الإسلام من نظرية ماركس (٤٩٥) .

ويرى الإشتراكيـون أن سبب ظهور دعوة محمد صلى اللـه عليه وسلم (آراؤه الإشتراكية لاآراؤه الدينية)[١].

يقـول الـدكتور الصدر : (وإذا أخذنا فكـرة الماركسيـة ، عـن التطور التاريخى للأديان لنطبقها على الإسلام ، الدين العالمى الآخر ، لـوجدنا مدى التنـاقض الفاضح ، بين الفكـرة والواقع . فلئن كانت أوروبا دولـة عـالمية ، تتطلـب دينـا عالميا ، فلم تكـن فى جزيرة العرب دولة عـالمية كـذلك ، بل لم تكـن توجد دولة قومية ، تضـم الشعب العربى ، وإنما كـان العـرب موزعين فئات متعددة ، وكان لكل قبيلة الهها الذى تؤمن به ، وتتذلل إليه وتصنعه من الحجر ، ثم تدين له بالطاعة والعبودية ، فهل كانت هذه الظروف المادية والسيـاسية ، تدعـو إلى انبثـاق دين عـالمى واحد ، مـن قلـب تلـك الجزيرة المبضعة ، وهى بعد لم تعرف كيف تدرك وجودها كقـوم وشعب ، فضلا عن أن تعـى وحدة مـن نمط أرقى ، تتمثـل فى دين يوحد العـالم برمتـه؟! . وإذا كانت الآلهة الدينية تتطور مـن آلهـة قومية إلى إله عـالمى ، تبعـا للحاجات المادية والأوضـاع السيـاسيـة فكيـف طفر العرب من آلهـة قبليـة يصنعـونها بأيديهم إلى إله عالمى دانوا له بأعلى درجات التوحيد؟!)[٢].

<u>الوجه الخامس</u> : إن ربط ذلـك بالعامل الإقتصادى تحكـم بغير دليل ، حيـث إن هذا العامل يعمل بجانب العـوامل الأخرى التى لاتقـل فى الأهمية عنـه بالنسبـة لحياة الإنسان ككـل ، فهـم جعلوا العامـل الإقتصـادى المحـرك لجوانب الحياة بما فى ذلك وجود الدين ، ويكفى أن انجلز قد اعترف بأنه هو ورفيقـه مـاركس أعطوا العامـل الإقتصـادى أكثر من حقـه واهتمـوا به ممـا جعلهم يغفلون عن الجوانب الأخرى المؤثرة فى مجرى التاريخ . يقول انجلز : (ينبغـى علينـا ماركس وأنا أن نتحمـل جزئيـا مسئوليـة كـون بعض الشبان

---

(١) نقلا من كتاب آراء غربية فى مسائل شرقية (٩٩) ، عمر فـاخورى ، الطبعة الثانية ١٩٥٥م ، بيروت ، وانظـر غير ذلـك من الأقوال والآراء التى تفسـر مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الظروف الإقتصادية . المرجع نفسه .

(٢) إقتصادنا (١١٢) ، وانظر وسقطت الماركسية (٥٣) .

يعلقـون فى بعض الأحيان وزنا أكبر مما ينبغى على النـاحية الإقتصادية فقد كان علينا إزاء خصومنا أن نؤكد المبدأ الأساسى الذى كانوا ينكرونه ، وفى هذه الحالة لم نكن نجد لاالـوقت ولاالمكان ولاالمناسبـة لتحديد مكانة العوامل الأخرى التى تسـاهم فى الفعـل المتبـادل أن العـامل المحـدد فى التـاريخ هـو التحليـل الأخير وفى منظور التفسير المادى عن التاريخ إنتـاج الحياة الواقعية وإعـادة إنتـاجها ولم نؤكد قـط لامـاركس ولاأنا أكثر مـن هـذا وإذا مـاشوه أحدهـم هـذا الموقف وصرفه بمعنى أن العـامل الإقتصـادى هـو وحدة العامل المجرد فإنه يكون بذلك قد حوله إلى جملة فارغة مجردة لاغية .

إن الوضع الإقتصادى هو الأساس ولكن مختلف عنـاصر البنية الفوقية الأشكـال السيـاسية للصـراع الطبقـى ونتـائجه والأشكــال الحقـوقية بل حتى انعكـاسات هـذه الصراعات الـواقعية فى دمـاغ المساهمين فيهـا مـن نظـريات سيـاسية وحقوقية وفلسفية ودينيـة تمارس أيضا تأثيرهـا على مجرى الصراعات التاريخية وتحدد فى الكثير من الحالات وبصورة قاطعة شكلها)[١].

وهـذا الاهتمام يتفق مع الأصـل الذى قامت عليه الماركسيـة ، عنيـت المادية التـاريخية . إلا أن اعتبـار العامل الاقتصادى هـو السبب الذى يتحكم فى وجود الأفكـار المتناسبة مـع كل وضع اقتصادى لايمكـن التسليم به ، لأنه (يكشـف جانبـا من الحقيقة ويخفـى سائر جوانبها فممـا لاشـك فيه أن هناك قوى أخرى غير إقتصادية تؤثر فى التاريخ وتشكله وفق إرادتها بل لعل هذه القوى الأخيرة تأتى فى المقام الأول قبل القوى المادية البحتة التى ركز عليها ماركس)[٢].

الـوجه السادس : أن الـدين الإسلامـى يرد على ذلك الـزعم فلـو كان الـدين نتاجا للأوضاع الإقتصادية لكان الدين الإسلامـى (دينا متخلفا جاهلا يعبر فعلا عن واقع علاقات الإنتاج وأدواتها وفعالياتها آنذاك . والحقيقة أن

---

(١) الماركسيـة والأيديولـوجيا (٩٣) ، نقلا عـن المؤلفات المختـارة (م٢، ٥٣٥-٥٣٧) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٤٤٩-٤٥٠) .

(٢) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٨٥) .

الإسلام مثل دور الثورة التحررية من العلاقات الإنتاجية والإجتماعية الفاسدة وقضى على الإقتصاد المبنى على الربا وهو أهم قواعد الربح والكسب للقوى المسيطرة على الإنتاج ، وهدم البنيان الإجتماعى المتخلف المتمثل بالتعصب القبلى والأمية والجهل والغزو ، وقضى على وجود الاستغلال الطبقى والاستعمارى حينما حرر الإنسان العربى من ربقة السيطرة الإقطاعية البدائية والسيطرة الاستعمارية الأجنبية ، فمهد بذلك إلى توحيد الشعب العربى ، وبناء دولته السياسية الواحدة .

ومن يطلع على الإسلام فى قوانينه وتشريعاته الإقتصادية والإجتماعية والتربوية ...الخ يرى أنه فعلا جاء بثورة على الواقع المتخلف الذى نزل فيه مصطحبا نظرية بناءة مستقبلية لاتحد بمكان أو زمان ، أما النبى محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الأمى الذى لايقرأ ولايكتب يأتى بقرآن فيه من البلاغة والفصاحة والحكمة والموعظة والأحكام ...الخ فإنه هو الاعجاز لوحده .

فكيف يمكن للأمى أن يأتى بقرآن كريم فيه خبر كل مامر على البشرية وعلى ماسيصيبها ، وفيه نظام إقتصادى إجتماعى شامل وفيه أحكام وتشريعات وقوانين صيغت بأبلغ العبارات وأفصحها وأقربها إلى القلب والعقل .

وهل يمكن لشعب جاهل ممزق تسوده علاقات إنتاج إقطاعية زراعية وتجارية بسيطة وعلاقات إجتماعية مفككة لايحسد عليها شىء أن يفرز من تناقضات واقع علاقات إنتاجه وأدواتها مع القوى المنتجة فتكون الظروف الإجتماعية والأفكار والمشاعر ويكون الدين الإسلامى مثلا؟ إذا كان هذا هو التفسير الوحيد لوجود الدين فالأحرى أن يكون الإسلام دين الجهل والتخلف والأمية والغباء؟ مع أن الواقع والحقيقة أثبت أن الإسلام يتكلم بلغة العلم والنظام والحضارة الراقية ، وكم تكلم العلماء والفلكيون والرياضيون والأطباء وغيرهم عن أمور علمية واكتشافات مهمة كان قد تكلم عنها الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام فهل يعقل أن يكون ظهور الإسلام

وأى دين سماوى آخر نتيجة للظروف الإجتماعية الإقتصادية السائدة؟)[١].

الوجه السابع : أن زعمهم أن الأفكار ومنها الأفكار الدينية تكون نابعة من الواقع الموضوعي القائم فى الإقتصاد والإنتاج والتبادل ، وأن الفكر الإنسانى يكون متناسباً مع واقعه الإجتماعى والإقتصادى أن هذا الزعم يكذبه واقع بعض رواد الفكر الشيوعى . فهذا انجلز مع شيوعيته كان والده يمتلك مصانع وصاحب أعمال (لماذا لم يكن وجوده انعكاسا لواقعه الموضوعى فبقى ارستقراطيا متعاليا غنيا عدوا للعمال وواقعهم؟ ولماذا تمرد على واقعه الموضوعى فناصر ماركس وآواه وأطعمه وانخرطا سويا ضمن حلقة طبقة البروليتاريا وأسسا المذهب الشيوعى بكل مقولاته المادية الجدلية والمادية التاريخية؟ ثم لماذا يتمرد تشى غيفارا[٢]على واقعه الموضوعى الرأسمالى وهو ابن الصناعى الرأسمالى الملاك الكبير ، فينخرط مع الشيوعيين ويحارب ضد واقعه حتى النصر؟ فلو كان فكر الإنسان انعكاسا لواقعه الموضوعى لكان الأجدر بانجلز وغيفارا أن يكونا مع طبقة الرأسماليين والأرستقراطيين ، فلماذا تحيزا ضد واقعهما؟ أليس هذا التحيز عملا رجعيا مخالفا لقوانين الديالكتيك؟)[٣].

الوجه الثامن : دعوى أن الدين نشأ بسبب الظروف الإقتصادية دعوى يبطلها ماكانت عليه البشرية فى سابق عهدها زمن أبينا آدم عليه السلام حيث أهبط من الجنة وهو مؤمن بالله تعالى ، وكان الدين مستقرا فى نفسه ولم تكن الظروف الإقتصادية هى التى أوجدته بل وجد فى النفس الإنسانية قبل وجود الطبقات والخلافات التى توجب تنوع الإقتصاد ، وبالتالى الحاجة إلى اختراع الدين ، وبهذا فإن إدعاء ذلك الأمر يفتقر إلى الدليل ، ويرده

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (٩٧-١٠٠) ، وانظر الإنسان بين المادية والإسلام (٦٥) .

(٢) إقتصادى برجوازى ترك ذلك وانخرط فى الشيوعية وألف كتابا عنوانه الطريق الروسى نحو الإشتراكية (١٨٧١-١٩٤٤) .
انظر الماركسية قضايا أساسية (١١٨) .

(٣) معالم الإشتراكية العربية (١٦١-١٦٢) .

الواقع الحقيقى لبداية التاريخ البشرى وبداية وجود الدين فى هذه الأرض .

خامسا : بطلان زعمهم أن الإنسان اخترع الدين بسبب جهله :

صرح الشيوعيون (أن الدين لامكان له فى العالم الذى يبنونه وأن الأولين إذا كانوا من الغباء بحيث قبلوه فإن التقدم العلمى جدير فى هذا العصر بأن يأتى عليه من القواعد)(١). فالإنسان - كما يزعم الشيوعيون - لايلجأ إلى الإله إلا ليحقق مصالحه ولكى تصرف عنه الشرور والآفات . وهذا زعم باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : ثبت بما لايدع مجالا للشك أن الدين من عند الله تعالى وأن الناس خلقوا على ذلك وآمنوا بالله تعالى . وعلى هذا فيمكن قبول تفسيرهم ذلك لو كان الدين من اختراع الإنسان ، وعندما لم يكن كذلك فزعمهم ذلك غير وارد .

الوجه الثانى : على ضوء ماقرره الماركسيون زعموا أن العلم يتعارض مع الدين ، ويؤدى إلى عدم الإيمان ، لأن الدين ماقام إلا بسبب الجهل ، وهذا زعم يرده كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن العلماء هم أكثر الناس خشية لله تعالى ، قال عز من قائل : {**إنما يخشى الله من عباده العلماء**}(٢)، ومن المعلوم أن الدين لايتعارض مع الحقائق العلمية ، وأن مصدرهما من الله تعالى فكيف يتعارضان ، وقد ثبت توافق الآيات القرآنية ، والأحاديث الصحيحة ، مع الحقائق العلمية الثابتة كما أن النصوص الشرعية لاتتعارض مع البراهين العقلية ، وبالتالى فزعم الشيوعية أن الدين يتعارض مع العلم يبطله الواقع والمشاهد .

الوجه الثالث : مما يبطل زعم الشيوعيين أن العلم يتعارض مع الدين كثرة الاعترافات الواردة عن علماء الطبيعة والفلك وغيرهم بأن العلم يوصل إلى الإيمان بالله ، ولايتعارض مع الدين . ونضرب الأمثلة على أقوالهم .

---

(١) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٣٥) .

(٢) سورة فاطر : (٢٨) .

يقول المطران غريغورا حداد : (إن الدين والعلم هما من جهة واحدة لايمكن أن يتصارعا ، إذ هما من جهة الحقيقة ، والحقيقة واحدة لايمكن أن تتناقض وتتنافى أجزاؤها)(١).

ويقول هربرت سبنسر : (العلم يناقض الخرافات ، ولكنه لايناقض الدين نفسه ...)(٢).

ويقول العلامة الفلكى (فاى) : (من الخطأ القول بأن العلم يفضى بصاحبه إلى نكران وجود الله)(٣).

ويقول ادمون هربرت : (العلم لايمكن أن يؤدى إلى الكفر ولاإلى المادية ولايفضى إلى التشكيك)(٤).

ويقول باستور : (لاتنافى بين العلم والإيمان بالله ، وكلما زاد علم الإنسان زاد إيمانه بالله)(٥).

فهذه الأقوال تدل على فساد ماذهب إليه الماركسيون ، حيث إن العلم يدعو إلى الإيمان ويدعمه ويوصل إلى الدين والإقرار به ، يقول محمد قطب (التقدم العلمى ليس عدوا للدين وكذلك تنظيم الحياة على الأرض ، قد يكون هذا أو ذاك عدوا للمفهوم الكنسى أو لرجال الدين والكنيسة . ولكنه ليس عدوا (للدين) ذاته ليس عدوا لدين الله . فدين الله لايمكن أن يقف فى سبيل البشر وهو الذى نزل لإصلاح البشرية والدليل هو الإسلام . فالحركة العلمية الكبرى التى نشأ عنها المذهب التجريبى ، أو العلم الحديث فى أوروبا قد نشأت فى ظل الإسلام ، بل نشأت من وحى الإسلام وتوجيه الإسلام)(٦). وعلى هذا فليس هناك تعارض بين العلم والدين بل إن العلم يدعو إلى الدين والإيمان بالله تعالى .

---

(١) العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٤٧) .

(٢) الإسلام دين الفطرة (٦٢) .

(٣)،(٤) روح الدين الإسلامى (٨٥) ، وانظر مزيدا من هذه الأقوال فى كتاب العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٥٥) ومابعدها ، وكتاب الله يتجلى فى عصر العلم .

(٥) العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢٤١) .

(٦) التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٨٣) .

سادسا : بطلان زعمهم بأن الدين متطور :

وهذا زعم باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن فكرة التطور قد استخدمها ماركس بعد أن جعل نظرية داروين مصدرا له فى فكره ، وهذه الفكرة باطلة فى ذاتها ، كماأن تطبيقها على الدين واعتباره متطوراً حسب العوامل الإقتصادية مردود بما قلناه من إثبات أن التوحيد هو الأصل فى البشر ، وأن عقيدة الإقرار بالربوبية مغروسة فى النفس البشرية ، كما أن عقيدة التوحيد هى الأصل الذى كان عليه آدم عليه السلام ، وأن الشرك طارىء . ولايعقل أن يكون التطور فى الإنسان من التوحيد إلى الشرك .

الوجه الثانى : أن هذه الفكرة وهى فكرة تطور الأديان استخدمها أعداء الدين من أجل القضاء عليه ، فالتوحيد هو الأصل وهو الأكمل فهل يتطور إلى الأدنى وهو الشرك والوثنية . ثم إن الديانات السابقة وجد فيها التوحيد ، فعلى سبيل المثال الهند وهى مرتع الديانات المختلفة وجد التوحيد فيها فى فترات من زمانها ، ومع ذلك يشكك البعض فى وجود التوحيد هناك وذلك التشكيك هو منهج القائلين بتطور الأديان (وهذه مغالطات علمية مكشوفة فالتوحيد المنزه وجد لدى الهنود وغيرهم ، لأنه يكون وحيا أو قاعدة لدين صحيح أو اقتباسا منهما يصل إلى الناس فى أى وقت ومع أى ظروف بيئية أو ثقافية ، ولايخضع أبدا لقاعدة التطور العقائدى التى وضعها علماء مقارنة الأديان ...)[١].

كذلك العرب قبل الإسلام وجد من كان فيهم موحدا مع وجود المشركين وغير ذلك من الديانات التى وجد فيها من يوحد الله تعالى[٢]، مما يدل دلالة واضحة أن التوحيد من عهد آدم هو ذلك التوحيد لم يتغير ولم

---

(١) الإنسان فى ظل الأديان (١٩٠-١٩١) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٢٥-٢٢٦،٢٤٦-٢٤٧) .

يتبـدل وأن الذى تغير وتبـدل هو ماحرفه الناس وغيروه وأعملـوا عقولهم فيـه ، بل مااخترعوه من باطـل . فالتطور لايلحق الـدين الصحيح لأنه ثابت يقـوم على التـوحيد والعبـودية للـه تعـالى . وأمـا الـدين المخترع والأفكـار الموضوعة من قبل الإنسان فيلحقها التطور والتغير(١).

الوجه الثالث : أن هدف الشيوعيين من القول بالتطـور ، هو الوصول إلى غـايتهم من إلغاء الدين والقضاء عليه ، وذلك بإفهـام الآخرين أنه ليس هنـاك ثوابت لاللأفكار ولاللأخلاق فهى متغيرة متطـورة حسب تطور وسائل الإنتاج وعلاقاته ، فنقول لهم هل وصل الناس إلى هـذه المرحلة من التطور بحيـث لم يعودوا بحاجة إلى الدين؟! فهذه وسائل الإنتـاج قد تطورت وبلغت تعقيـدا كبيرا فى تكنولوجيتهـا ، ومع ذلك ظل الإنسان محافظـا على دينه حتى داخل الأراضـى السـوفيتية التى فجـرت فيهـا الثـورة البلشفيـة . إن القـول بالتطـور للأخلاق والأفكار يعنى انهيار الأساس الذى تؤخذ منـه وهو الدين ولكن لقد عجز الشيوعيون عن ذلك وبقيت الشعوب التى يحكمها الشيوعيون على دينهـا فدل ذلك على بطلان زعـم تطور الأديان بتطـور وسائل الإنتاج . ثم هل التطور إلى أدنى أم إلى أعلى؟ إن الشيوعيين يرون أن التطـور يكون إلى أعلى فيقال لهم إن أعظم مايرتجيه الإنسان العاقـل أن يكون حرا لايملكه أحد ، ولايتحكم بأمره أحد ، فإذا حصل له أن أستعبـد ضاقت عليه الأرض وهـو بهـذه العبـودية (لغير اللـه تعـالى) يكون مسلـوبا للحـرية ، ومصـادر الإنسـانية ، بينما إذا لم يكـن كذلك إنما يعبد من خلقـه ، وصدق الله تعالى {**ضـرب الله مثلا رجلا فيه شـركاء متشاكسون ورجلا سلمـا لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون**}(٢).

---

(١) لمزيد مـن التفصيـل فى هـذه المسـألة انظـر الإنسان فى ظـل الأديان (١٠٧-٢٠٨) .
(٢) سورة الزمر : (٢٩) .

ومن هنا علم أن الإنسان إذا كان موحدا فإن ذلك مايتطلع إليه ، وحينها يكون التوحيد هو الأعلى منزلة والشرك هو الأدنى ، فكيف ينتكس القانون التطورى ويتراجع إلى الوراء ، إن هذه انتكاسة للفكر الشيوعى برمته من قضية بدهية أصولية وهى الاعتراف بوجود الإله ، ومن ثم وجود الدين فى النفس الإنسانية ، إن الدين لايخضع للعوامل الإقتصادية ، إلا أن الشيوعيين أرادوا تحقيق أهدافهم والعمل على إنجاح مخططاتهم ، فصادموا العقائد وصادموا الفطرة فكانت إرادة الله تعالى وسنته التى حقت على ذلك الفكر وذلك النظام بسبب ذلك الصدام .

الشيوعيون والفطرة :

بعد ماقلناه سابقا عن الفطرة وحقيقة الدين فأين يقف الشيوعيون من هذه الحقيقة فى ذواتهم .

هل هم من البشر المخلوقين فيقع عليهم ماقلناه أم أنهم ليسوا كذلك؟

إن الشيوعيين بشر ممن خلق الله تعالى ويدخلون تحت هذه الحقيقة فرغم الإلحاد الذى يدعون إليه ويبرهنون بأقوالهم أنهم عليه ، ورغم مابذلوه من جهود مضنية فى هذا الجانب إلا أن الفطرة فى قلوبهم وقلوب شعوبهم كانت أقوى من أن تزعزعها تلك الأفعال والأساليب الفكرية والعسكرية ، فكلما سنحت الفرصة لهؤلاء الشيوعيين أو استطاعوا الخروج من الحصار الحديدى انطلقت ألسنتهم تلهج بهذه الحقيقة ، وإن كانوا على دين محرف ، فهذا تولستوى[1] يقول : (لقد نبذت تلك العقائد[2] أول الأمر ووجدتها عديمة المعنى ثم قبلتها الآن وألفيتها مليئة بالمعانى ، ذلك لأنى كنت مخطئا وأدركت سبب الخطأ وهذا السبب ليس ناشئا عن تفكيرى السىء فحسب بل لأنى عشت فى بيئة سيئة ، وذلك أشد السببين خطأ ، ماالحياة وماالموت؟

---

(١) فيلسوف روسى .

(٢) يقصد العقائد الدينية .

انى لاأعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد ، إننى أحيا وأحيا حقيقة حينما أحس به .

وأبحث عنه فقط ويصيح من داخلى صوت يقول عن أى شىء تبحث بعد هذا هذا هو .

إنه ذلك الذى لايستطيع المرء بدونه أن يعيش إنه الله .. وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخلقى وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة)(١).

وهذا لينين حين حضرته الوفاة (واشتدت عليه سكرات الموت ، وقد أحاط به زعماء الحزب الشيوعى لم يتمالك نفسه من أن يصيح من الأعماق صيحة البائس المضطر قائلا : "أى يوه" أى "ياالله" فلما أحس دهشة المحيطين به من الزعماء تدارك الأمر وقال : "إن هذا من تأثير المرض")(٢).

وهذه قصة أخرى تدل على أن الإنسان مفطور على الإيمان وبأن لهذا الكون إله ، قادر على كل شىء ، وقد وقعت هذه الحادثة لأحد علماء السوفييت الذين تربوا على الإلحاد ولكن إذا أزيلت القيود والأغلال والحديد والنار عن رقاب الناس ليعبروا عن آرائهم ويظهروا حقيقة خفاياهم نجد أنهم ينطقون بهذه الحقيقة التى تربوا على إنكارها .

يقول الأستاذ محمد قطب : (وتكفى هذه الحادثة لتثبت أن الشيوعيين ليسوا استثناء من القاعدة فجاجارين رائد الفضاء الأول شاب ربى فى الشيوعية والإلحاد منذ مولده إلى يوم انطلاقه إلى الفضاء فى داخل الصاروخ

---

(١) الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها(١٩٨-١٩٩) ، عبد الباقى أحمد عطا الله ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، وانظر : الماركسية بين النظرية والتطبيق (٧٠) ، الإسلام يرفض الشيوعية (١٣-١٤) ، د. محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، دار المنار للنشر والتوزيع .

(٢) الدين والشيوعية (٧٠) ، مبشر الطرازى ، نقلا من كتاب الماركسية بين النظرية والتطبيق (٧٠) .

ومع ذلك فقد اهتزت فطرته حين نظر إلى الكون من خلال الصاروخ ، لأنه رأى صورة لم يشهدها من قبل ، وكان أول تصريح له حين هبط إلى الأرض (حين صعدت إلى الفضاء أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله!) .

تلك هى استجابة الفطرة التلقائية إزاء الكون الهائل الذى خلقه الله تعالى لم تستطع الشيوعية التى تفرضها الدولة ، وكل الإلحاد الذى تبثه فى الدروس أن تحول دون انطلاقها حين هزتها روعة الكون! ولكن الشيوعية لم يرضها ذلك الاعتراف ، وغضبت من هذا التصريح ، الخطير (فأضاف إليه فى القراءة الثانية "أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله فلم أجده" ونشرت وكالات الأنباء هاتين القراءتين المختلفتين للتصريح الواحد .. بغير تعليق!)[١].

وهذه فتاة عاشت فى بيت يقوم على الإلحاد - وهى ابنة ستالين - بعد أن غادرت الاتحاد السوفييتى وخرجت من سيطرة الارهاب اللادينى قالت : (لقد نشأت فى بيت لايعرف الله ولاتذكر فيه كلمة الله أبدا ، ولكنى بعد أن كبرت ونضجت عرفت أن الحياة صعبة وقاسية بغير الإيمان بالله)[٢].

وقد مر معنا أن مكسيم جوركى كان يعتزل جلسات لينين ويريد البحث عن الله كما يقول ، وهذا فيه دليل على أن الشيوعية لم تستطع أن تلغى مسألة الدين أو الاعتراف بوجود الإله ، وعلى أقل تقدير فإن مثل هذه الأحداث تدل على أن أصل الدين مغروس فى فطرة الإنسان .

وهذه حادثة أخرى تدل على مدى تأثر الفرد فى الاتحاد السوفييتى بقضايا الدين التى جاء العلم الحديث يؤيدها ، كما تدل على خشية القائمين على الإلحاد أن يؤمن أولئك حيث ذهب طبيب مصرى إلى الاتحاد السوفييتى ليرى المعاهد الطبية التى يمكن أن يتدرب بها الطلاب ، ويحاضر عن بعض

---

(١) دراسات قرآنية (٢٧-٢٨) ، الطبعة السادسة ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الشروق ، وانظر التطور والثبات فى حياة البشرية (٣٠١) .

(٢) صحيفة الاخبار ١٩٦٧/٥/١٠م نقلا من كتاب الماركسية بين النظرية والتطبيق (٧٠).

النظريات الطبية ، وأثنوا عليه غير أنهم أسفوا لأنه متدين ويؤمن بالخرافة التى هى الله - كما يزعمون - ثم أخذ بضرب الأمثلة لهم ، وذكر بعض الآيات القرآنية التى جاء العلم الحديث يؤيدها ، فبدأوا بالسؤال والاستفسار إلا أن رئيس الأكاديمية لم يكن ليرضى أن يستمر هذا الوضع حيث فوجىء بعضهم بأن الدين على خلاف ماكان يتصور وقال منفعلا : (مع احترامى لضيفنا العربى لابد من أن أوقف هذا السيل من الكلام الفارغ ، وإنى أقول لكم بكل قوة أن كل ماقاله كلام فارغ .. والنصر للشيوعية وأن ثلثى العالم شيوعيون ، وسيصير الثلث الثالث شيوعيا إن قريبا وإن بعيدا .. لابد أن أنهى هذه الجلسة)[١].

ومما يدل على أن الإنسان مفطور على الإقرار به تعالى ، أن التساؤلات كانت قائمة فى نفوسهم عن وجود الإله ، وهل العلم يؤيد ذلك أم ينكره ، ثم اعتراف بعضهم بأن هناك قوة عليا تدبر العالم[٢]مما يدل على أن الفطرة أقوى من أن تصادرها الشيوعية أو الفكرة البشرية أيا كانت ، فهذه بعض الأحداث التى تدل على أن الفرد الشيوعى الذى نشأ وترعرع فى الإلحاد وتربى عليه ، ولم ير فى مراحل تعليمه إلا إياه ، ومع ذلك كانت فطرته تنزع لهذه الحقيقة ناهيك عن المسلمين الذين كانوا تحت الحكم الشيوعى وجبروته ، فقد حافظوا على هويتهم الإسلامية وبقوا على شعائر كثيرة من دينهم ، وإن كان طول العهد عن ممارستها والقيام بها قد جعلهم بحاجة ماسة إلى تعليمهم أمور دينهم حتى يعبدوا الله تعالى على بصيرة ، ولو كانت الفطرة تنتزع أو تزال بالقوة لما بقى انسان هناك يذكر الله تعالى ولكن واقع الاتحاد السوفييتى فيه أبلغ رد على من أنكر فطرية التدين من

---

(١) شهادتى للتاريخ (٢٥٢-٢٥٤) باختصار وتصرف فى غير المنصوص عليه، وقد نقلها من جريدة الأخبار عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٥/٥/٤م عرض الدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) انظر الإسلام والمناهج الإشتراكية (٢٦٦-٢٦٧) ، محمد الغزالى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، دون ذكر لتاريخ الطبعة .

الشيـوعيين . ولكن رغم مااستخدمته الشيوعية فى حربهـا على الفطرة والدين ماذا كانت النتيجة؟ . أفعال الشيوعيين تدل على أنهم يوقنون بهذه الفطرة ، ويعترفـون بهـذه الحقيقة ، ولأجل ذلـك بذلوا كل ماوفى وسعهـم لمصـادرتها فمـن تربيـة إلحادية ، وأقـوال وتفسيرات للدين عديدة ، واستخـدام للقـوة العسكرية كل ذلك وغيره ، دل على الخوف الشديد من هـذه الفطرة أن تأتى على بنيـانهم فيخـر عليهم ، وعلينـا أن نتـذكر بأن الفطـر قـد تكون منحرفة أصلا إلا أنها تشكل خطرا على الشيوعية . لقد استبعـد الشيوعيون كل مادة عن الدين ، وجعلوا الإلحاد هو أساس التربية منذ اللحظات الأولى فى التعليم يقـول محمد قطب : (إن إصرار الـدولة على تدريس الإلحاد فى المدارس لهـو ذاته دليل على خشيتهم من العقيدة المفطورة فى الفطـرة وإن ضلت ـ وكثيرا ماتضل ـ فهم يلاحقونها دائمًا بالتـوجيه المضـاد فى برامج الـــدراسة خشيـة أن تظهـر تلقـائيا فتفسد عليهـم ـ برغـم كونها ضالة ـ أصلا هـــاما مـن أصـول مذهبهم الشرير المخطط لإفساد البشرية)[١].

إن الحديد والنـار والدعوة إلى الإلحاد ومعاداة الأديان لم تستطـع كلها أن تلغـى الإيمان والكيـان الـروحى للإنسـان (إنها لم تستطـع إلغـاء النزعـة الأصليـة التى تلح على الإنسـان من داخله بأن لكون إلـه وإن أظهـر عكسها خوفا من الحديد والنار ...)[٢].

نعم إن الفطرة حين تصطدم (بوضع من الأوضاع أو بنظـام من النظم قد تغلب فى أول الأمر لأن وراء هـذا الـوضع أو هـــذا النظـام قـوة مـادية تفـرضه فرضا ولكن الذى لاشك فيه أن الفطرة أقوى وأثبـت من كل وضع

---

(١) دراسات قرآنية (٢٧) .

(٢) الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (١٩٨) .

طارىء عليها ، ومن كل قوة تسند هذا الوضع الطارىء ولابد لها من أن تغلب فى النهاية وبخاصة حين يقودها منهج طبيعته من طبيعتها ...)[١].

(إن الفطرة الإنسانية لاتهزم أمام الأنظمة البشرية ؛ لأنها دخيلة عليها لاصلة لها بأعماقها . إن القوانين البشرية لاتملك أن تشبع الإنسان ولاأن تروى ظمأه ، لأنه لايستطيع أن يملأ النفس إلا منهاج خالقها ...) .

ولأجل ذلك فشلت الأنظمة الأوربية كلها بل فشلت النظم البشرية برمتها لأن (الوصفات التى تعطى لإسعاد الإنسان ، وصفات جهال بهذا الإنسان ، يريدون إسعاد الروح التى لايعرفونها . يخاطبون الروح بلغة لاتفهمها ، ويناجونها بكلمات لاتدركها)[٢].

(إن معارضة الفطرة لاتستطيع أن تثبت طويلا وسرعان ماتجتاحها طبيعة الإنسان الأصيلة)[٣].

وهذا ماحصل من الشيوعية حيث (خالفت فطرة الإنسان وركبت الصعب فى تقرير ماذهبت إليه ولايمكن الإنسان مهما أوتى من علم وذكاء أن يحاول إدعاء مالايكون أن الشيوعية قد خالفت الفطرة ثم خالفت نفسها فى واحد من الوقت)[٤].

إن الشيوعية بهذا العداء السافر للدين وللفطرة الإنسانية ظنت بأنها ستقضى على آثاره وترفعه إلى متاحف التاريخ ونسى هؤلاء الشيوعيون أنه

---

(١) هذا الدين (٤٥) ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) السرطان الأحمر (٩٧) .

(٣) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦٣) .

(٤) نقد أصول الشيوعية (٦٨) .

(عندما يصطدم مذهب من المذاهب بالفطرة الإنسانية ، ويحاول أصحاب هذا المذهب الاعتماد على القوة فى فرضه على البشرية تبقى هناك مقاومات نفسية داخلية حتى فى أنفس القائمين على هذا المذهب ، الذين يحاولون فرضه ، هذه المقاومات الداخلية أشبه برفض جسم المريض لكل الأجسام الغريبة التى لاتناسبه ، ولاتنسجم معه .. الماركسية هى جسم غريب بالنسبة للمجتمعات البشرية ، ولذلك نرى هذا التراجع والتخلى عنها فى معاقلها ، لأنها لاتتفق مع فطرة النفس البشرية ، فقد فرضها على الشعوب من هيمنوا على الحكم من الماركسيين الثوريين ، الذين استغلوا الثورات الوطنية ، وركبوا موجاتها حتى تمكنوا بالخداع والغدر ، والمساعدات الخارجية من السيطرة على القيادة ، والتخلص من الوطنيين ، وفرضوا مذهبهم بالحديد والنار ، وأمعنوا فى اضطهاد شعوبهم)[١].

إن مصادمة هذه الحقيقة وهى (أن الإيمان بالخالق المدبر فطرى فى كل انسان)[٢]، كان بمثابة المسمار الأول فى نعش الشيوعية إذ لايستطيع الإنسان الحياة بمعزل عن ممارسة هذا الحق وإن كان قد يظل الإنسان فيه فيتخذ له ماشاء من حجر أو شجر أو حيوان ويظن أنه إلهه . فهذه الفطرة فى النفس البشرية لايتأتى لأحد أن يصادرها أو يصادمها وإلا يكون قد خسر أولئك الناس وإن استعبدهم بالقوة ردحا من الزمن ، ولكن سيأتى اليوم الذى تنفجر فيه تلك الرغبة ، وتطالب بحقها فى هذه الفطرة ، التى حرمت منها وبالتالى بكل ماجاء مرتبا عليها أو متفرعا منها ، وهذا ماحدث للنظام الشيوعى حيث كانت فلسفته (عودة بالإنسان إلى الرق وعود بالفكر والإيمان إلى الجبر وعود بالإنسانية إلى الوثنية ، وبالأخلاق والقيم إلى الانطلاق فى الحيوانية)[٣].

---

(١) وسقطت الماركسية (٥٨-٥٩) .
(٢) الإسلام والحضارة الإنسانية (٥٥) .
(٣) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٩٢) .

لقد عجل الفكر الشيوعى بما حمل من مبادىء وأفكـار أسباب إنهياره وفشلـه ، وماحدث له من نكبات وصدامات وهزات وضعـف إنما كان بسبب الخواء الـروحى الـذى افتقـده الفـرد بالقـوة تحت ذلـك النظـام ، والفطـرة الإنسـانية (فى أصلها متناسقة مع ناموس الكون .. فحين يخرج الإنسـان بنظام حياته عن ذلك الناموس فإنه لايصطدم مع الكون الهـائل فحسب بل يصطدم أيضـا بفطرته التى بين جنبيـه فيشقى ويتمزق ويحتار ويقلـق ويحيـا كما تحيا البشـرية اليـوم فى عـذاب نكـد على الـرغم من جميع الانتصـارات العلميـة وجميع التيسيرات الحضارية المادية)[١].

لقـد كـانت هـذه المصـادمة أول الأسبـاب التى أدت وعجلـت بإنهيـار الشيوعية وجاء سقوطها فى هذا الوقت ليثبت (أن الفطـرة لايعدلها شىء كما أن دين الفطرة هو الدين الحق الذى لاتستقيم البشرية إلا به ولاتسعد إلا فى رحابه . وأكـدت الأيام أن مـاتتفتق عنـه قرائح البشـرية المعـوجة مـن نظم و"أيديولـوجيات" تنحرف عن مسار الفطرة إنما يكون مـآلها الفشل ومصيرها الإهمـال والتخلى عنها رويدا رويدا ولـو على استحيـاء حتى تصبح فى زاوية النسيـان بقعـة سـوداء فى جبين مـن ابتـدعها وأظـل بهـا وظلم وعتى عتـوا شديدا)[٢].

وبالحرب التى شنتها الشيوعية على الدين وإنكار الإله ومصادمة الفطرة تكـون قطعـت شـوطا كبيرا نحو الهـاوية كيـف لا وهـى قـد صـادمت أعظم الحقـائق ومـن ثم جنت على نفسهـا وحكمـت على بنيانهـا بالـزوال والإنهيار حيث كان أصلها فاسداً فليس بعد إنكار هذه الحقيقة من فساد .

لقـد خالفت الشيوعية الحقيقـة الربانية فحقت عليهـا السنة الإلهية كما حقـت على الكافرين من قبل . نعم (فشلت الشيوعية ... فى كـل ميدان لأنها

---

(١) هذا الدين (٢٤) .

(٢) صحيفـة أخبار العالم الإسلامى العـدد (٨/١١٤٣) ٨ ربيع الثـانى ١٤٠٩هـ الموافـق ٦ نوفمبر ١٩٨٩م .

تصطدم بالفطرة التى فطر الله الناس عليها ...)(١).

نعم لـ(قد افتضح أمرها ، وفشلت فكرا وتطبيقا ، لأنها مصادمة للفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها ، ولأنها مخالفة للسنن والنواميس التى أجرى الله الحياة على وفقها ، كما أنها بنيت على التعسف والظلم والجبروت وكل ذلك لايدوم)(٢).

لقد كانت مصادمة الفطرة الإنسانية وإعلان الإلحاد أعظم ذنب ارتكبته وكان لابد من إحقاق السنة الإلهية لوجود مقتضيها ، وتمت كلمة الله تعالى وسقط ذلك الفكر ، وكان لأصله الفاسد أكبر الأثر فى سقوطه ، وإن استمر تلك الفترة الزمنية فإن الله تعالى بالغ أمره ، قال تعالى : {**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكم موعدا**}(٣).

وبعد هذا فإن أحفاد الطغاة وأصحاب ذلك الفكر الإلحادى يعترفون بالدين ويقرون تلك الحياة الروحية التى عادت إلى شعوب الاتحاد السوفييتى السابق ، وإن كانت ضالة فى بعض المجتمعات فتراجعت الشيوعية عن ذلك العداء ، وأعلنت اعترافها الرسمى بالدين ، واحترام أصحاب الاتجاه الروحى {**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**}(٤).

وبعد هذا نصل إلى التالى :

أولا : أن مصادمة الفطرة الدينية كان من أعظم الأسباب التى أدت إلى إنهيار الشيوعية .

ثانيا : أن فكر ماركس والشيوعيين من بعده عن الدين لم ينهض أمام الأدلة الشرعية والعقلية ، ولاالبراهين العلمية بل كلها كانت تكذبه وتنقضه.

---

(١) فوق أطلال الماركسية والالحاد (٣٠٧) .
(٢) وسقطت الماركسية (٥) .
(٣) سورة الكهف : (٥٩) .
(٤) سورة الإسراء : (٨١) .

ثالثا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يدل دلالة واضحة على وجود هذه الفطرة فى النفس الإنسانية ، فقد اعترف بهذا بعض رواد الحزب غصبا عنهم كما وجد من المفكرين الشيوعيين من أقر بهذه الحقيقة وسأل عنها منذ قيام الثورة البلشفية ، كما أن كثيرا ممن خرج من سجن الفكر الماركسى أعلن كفره بهذا المذهب .

رابعا : أن إنهيار الاتحاد السوفييتى ليدل دلالة أكيدة بأن مصادمة الفطرة ومخالفة السنن الربانية يفضى إلى هذه النتيجة لأن ذلك مقتضى السنة الإلهية {**ولن تجد لسنة الله تحويلا**}[1]، وعندما صادمت الشيوعية هذه الفطرة فإنها حتما ولابد أن تصادم مايتفرع عنها ومن ذلك مصادمتها لفطرية التملك.

---

(١) سورة فاطر : (٤٣) .

المبحث الثانى
مصادمة الشيوعية لفطرية التملك

بعد أن قامت الشيوعية بمصادمة فطرية التدين فى النفوس البشرية ، فإنه من البدهى أن تصادم بقية الفطر والغرائز الإنسانية خاصة وأنها تتفرع أو تأخذ فطريتها من الأصل السابق وهو الدين ، ومن هذه الأمور الفطرية التى قامت الشيوعية بمصادمتها ومصادرتها (فطرية التملك) ، وقد أعلن الشيوعيون أنهم يكفرون بثلاثة أشياء : الله ، والدين ، والملكية الفردية ، بل إن أقطاب الماركسية أعلنوا أنه يمكن تلخيص الشيوعية بأنها (القضاء على الملكية الخاصة)(١). ومن هنا قامت الشيوعية بمحاربتها ومحاولة القضاء عليها بالقوة . وسيكون حديثنا عن الملكية كالتالى :

أولا : تعريف الملكية ، وفطريتها فى النفس الإنسانية ، والملكية فى الإسلام .

ثانيا : مصادمة الشيوعية لهذه الفطرة .

أولا : تعريف الملكية :

الملكية فى اللغة : (الملك والملك والملك احتواء الشىء والقدرة على الاستبداد به ، ملكه يملكه ملكا وملكا وملكا ... وتملكا ، وماله ملك وملك وملك وملك أى شىء يملكه ... وأملكه الشىء وملكه إياه تمليكا جعله ملكا له يملكه ...)(٢).

الاصطلاح : كثرت تعريفات الملكية فى الاصطلاح ومن ذلك أنها (حكم شرعى مقدر فى العين أو المنفعة يقتضى تمكين من يضاف إليه من

---

(١) البيان الشيوعى (٥٦) .

(٢) لسان العرب (١٠/٤٩٢-٤٩٣) حرف الكاف فصل الميم ، وانظر القاموس المحيط (٢٣٢) باب الكاف فصل الجيم .

انتفاعه بالمملوك والعوض عنه من حيث هو كذلك)[١].

ومن التعاريف المحدثة : (اختصاص إنسان بشيء يخوله شرعا حق الانتفاع والتصرف فيه أو بانابته ابتداء إلا لمانع)[٢].

ويظهر من هذين التعريفين أن الملكية هى أحقية التصرف من قبل المالك بما يملك ضمن الضوابط الشرعية كسبا وإنفاقا .

فطرية التملك :

إن حب التملك أمر فطرى فى الإنسان ولله الحكمة البالغة فى ذلك ، إذ من خلال هذه الغريزة يحافظ الإنسان على بقائه ويقوم بعبادة ربه فـ(كانت غريزة التملك نعمة منحها الله عباده ومنة منه حتى يستقيم الكون وتعمر الأرض)[٣].

ومن هنا أقر الإسلام بهذه الفطرة كيف لا والله تعالى الذى فطر الخلق عليها وا(قرار الإسلام للملكية الفردية كان تقريرا للواقع الإنسانى ، واستجابة لما أودعه الله تعالى فى نفوس البشرية من الغرائز والقوى ومنها غريزة التملك وحب المال)[٤].

(إن حب التملك غريزة أصيلة هيهات أن تستأصل وهذا الحب حافز على الكدح والإنتاج ، وهذا كله ماراعاه الإسلام فعلا إذ أحل الملكية الفردية)[٥].

---

(١) الفروق (٣/٢٠٨) ، القرافى ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، وانظر الأشباه والنظائر (٣١٦) السيوطى ، الطبعة الأخيرة ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى وأولاده ، مصر .

(٢) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (١٥) ، عدنان خالد التركمانى ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار المطبوعات الحديثة للطباعة والنشر ، المملكة العربية السعودية .

(٣) التملك فى الإسلام (٢٣) .

(٤) الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الإسلامية (٢٥) ، د. أحمد فراج حسين ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الثقافة الجامعية دون ذكر لرقم الطبعة .

(٥) الشيوعية فى موازين الإسلام (٤٣) .

فاعتراف الإسلام بهذه الملكية موافقا للغريزة المركبة فى جبلة الإنسان وطبيعته ، وهى حبه للتملك كحافز على مايبذل من جهد نتيجة للعمل الذى يمارسه ، إنها سنة إلهية موافقة للغريزة الإنسانية فالمحسن يجازى بإحسانه والمسيء يعاقب باساءته ، قال تعالى : {**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون**}[١][٢].

ولكون هذه الفطرة فى النفس الإنسانية فإن الإسلام نظمها وأقرها وجعل لها أحكامها الخاصة بها حتى لايطغى جانب فيها على جانب آخر[٣]، وقد وجدت عدة آيات تدل على إقرار الإسلام لها ، وبيان أن الإنسان فطر عليها ، ومن ذلك قوله تعالى : {**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**}[٤].

وقال تعالى : {**وأحضرت الأنفس الشح**}[٥].

وقوله تعالى : {**والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**}[٦].

إلى غير ذلك مما جاء فى كتاب الله تعالى دالا على ملكية الإنسان للمال والأنعام ، آمرا لهم بأداء حقها ليديمها عليهم ، وفى هذا إقرار بها حيث لم يغفل الإسلام عن الشح الذى يلازم النفس الإنسانية ، وحبها للاستحواذ والتملك . يقول د. التركمانى : (وعندما يضع الإسلام نظمه وتشريعاته وعظاته وتوجيهاته لايغفل ذلك الحب الفطرى للذات ولاينسى ذلك الشح العميق ولكنه يعالج الأثرة ويعالج الشح بالتوجيه الفطرى والتشريع فلايكلف الإنسان إلا وسعه ، ولايغفل فى الوقت ذاته حاجات

---

(١) سورة النحل : (٩٧) .

(٢) الشيوعية وموقف القرآن منها (١٠٤-١٠٥) ، وانظر الدين أواللادينية (٧٩) ، الفرد والمجتمع فى الإسلام (٦٩) .

(٣) انظر حكم الإسلام فى الإشتراكية (٧٠-٧١) .

(٤) سورة آل عمران : (١٤) .

(٥) سورة النساء : (١٢٨) .

(٦) سورة المعارج : (٢٤-٢٥) .

الجماعة ومصالحها على توالى العصور والأجيال ، ولأن الحياة لاتستقيم إذا ذهب فيها كل فرد إلى الاستمتاع بحريته المطلقة إلى غير حد فللمجتمع مصلحة عليا لابد أن تنتهى عندها حرية الأفراد)(١).

والملكية فى الإسلام منسجمة ومحققة لمتطلبات فطر الإنسان التى فطره الله عليها(٢).

كذلك كانت سنة المصطفى تدل على إقرار هذه الملكية بل وحمايتها من الإعتداء عليها .

قال صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله فمن قال لاإله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله"(٣).

إلى غير ذلك من النصوص الشرعية التى جاءت تثبت حق الملكية للإنسان ، مما يدل على التوازن الذى تميزت به الشريعة الإسلامية ، حيث أعطت النفس الإنسانية ماتطلبه وجعلت ذلك ضمن ضوابط محددة معينة ، ومن هنا لم يقر الإسلام الملكية ـ وهى أمر تطلبه الفطرة الإنسانية ـ دون أن يجعل لها حدودا تقف عندها حتى لايحصل بسببها الضرر ، وعندما أقرت الملكية فى الإسلام فإن هناك طرقا وضعها تكتسب الملكية من خلالها ، كما جعل طرقا تصرف فيها تلك الملكيات فهى (شرعت لاشباع حاجات الناس فى الحدود المشروعة والحصول على ماينفعهم فى معاشهم دون أن يكون فى ذلك إضرار بالغير أو انحراف بالملكية عما شرعت له من أغراض)(٤).

---

(١) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٩٥) .

(٢) انظر الملكية ونظرية العقد (٢٦) ، وانظر الملكية وضوابطها فى الإسلام (٩٦) ، د. عبد الحميد البعلى ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلى .

(٣) البخارى بفتح البارى (١٣/٢٥٠) ، كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة ، باب الإقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) دوام حق الملكية (١٦) د. عبد الرزاق فرج ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، دون ذكر لرقم الطبعة أو دار النشر .

الملكية فى الإسلام :

خلق الله تعالى الإنسان لحكمة بالغة وهى عبادته جل وعلا ، وفطره على ذلك ، كما فطره على حب مامن شأنه أن يكون محتاجا إليه معينا له . ومن ذلك الأموال فكان حب الإنسان لها شديدا ، قال تعالى : {**وتحبون المال حبا جما**}[(١)] ففطر الله تعالى الإنسان على حب المال وتملكه وماكان ليفطره على أمر ثم يمنعه منه . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حب ابن آدم للمال وقال : "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب"[(٢)].

فاعترف الإسلام بهذه الغريزة وأقرها ، وجعل الإنسان حرا فى ملكيته إذا سار بها ضمن الحدود المرسومة لها .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن المجتمعات الإنسانية عرفت الملكية وأقرتها ، ووجدت فيها صور متعددة لها .

ومن خلال ماذكرناه سابقا نصل إلى التالى :

أولا : أن حب التملك أمر فطرى فى النفس الإنسانية .

ثانيا : إقرار الإسلام لهذه الملكية والعمل على الحفاظ عليها .

ثالثا : أن الأمم القديمة عرفت الملكية الخاصة كما عرفت بعض القبائل والمجتمعات بجوارها الملكية الجماعية ، وقد تكون إحدى هاتين الملكيتين طاغية فى مجتمع دون غيره .

ومع الإقرار بهذه الغريزة فإن الإسلام لم يطلق لها العنان فكانت هناك ضوابط وقواعد لهذه الملكية ، وطرق مشروعة لكسبها ، وطرق محرمة لايجوز إتيانها من أجل تحقيق مطلب هذه الفطرة ، وهذا يجعلنا نعرج ولو بصورة مختصرة على تلك الضوابط والقيود ليتبين لنا أن الإسلام حقق للإنسان

---

(١) سورة الفجر : (٢٠) .

(٢) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (٢٥٣/١١) كتاب الرقاق ، باب مايتقى من فتنة المال ، ومسلم بشرح النووى (١٣٨/٧-١٣٩) كتاب الزكاة ، باب كراهة الحرص على الدنيا .

ماتطلبه فطرته ، ولكن دون إضرار بالآخرين أو احتيال عليهم . ولاشك أن قضيـة الملكيـة والأموال والأعيـان فى الفقـه الإسلامـى قـد أشبعت بحثا منذ القـدم وإلى وقتنا الحاضر ولأجل ذلـك فإن لنا العذر فى الاختصـار الشـديد لبيان ذلك .

شروط التملك وقيود الملكية :

عنـدما أباح الإسلام التملـك فإنه جعل لهذا الملـك شروطا يتحقق بها ومن ذلك :

(١) أن يكون التملك قائما على طرق مشروعة .

(٢) أن يكون أساس المال حلالا كذلك الربح بطريق مشروع[١].

فـإذا حصـل التملك بطرقه المشـروعة فـإن هناك قيـودا مفـروضة عليه وهذه القيود هى (مجموعة الضوابط الناظمة لأحكام الملكية ...)[٢].

ومن هذه القيود التى وضعتها الشريعة الإسلامية على الملكية :

(١) إحسان الانتفاع والتصرف فى الأموال فى الحدود التى بينها الخالق جل وعلا[٣].

(٢) ضرورة الاستثمار للأموال وعدم جواز تعطيلها[٤].

(٣) وجوب الالتزام بقواعد الشريعة فى الاستثمار والاستغلال .

(٤) أن تكون حرية المالك مقيدة بعدم إضراره بالغير[٥].

(٥) المسئـولية لكل فرد عما يقـع تحت يده من ملك عــن حق الجماعة فيه ثم جعل ولى الأمر مسئولا عن حق الجماعة فيما يخص الأفراد من هذا المال[٦].

---

(١) انظر : الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٢٢٠) ، مناهج الشريعـة الإسلامية (١٧٣/٢) .
(٢) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٩٢) .
(٣) انظر الملكية ونظرية العقد (٢٨) .
(٤) انظر المرجع السابق (٦٢) .
(٥) انظـر : الملكية فى الفقه الإسلامـى (١٤١) ومابعدها ، النظـام الإقتصادى فى الإسلام (٥٧) ، الملكية ونظرية العقد (٦٤) .
(٦) انظر الملكية ونظرية العقد (٢٨) .

(٦) أن تكون الملكية ، على مافيه نفع فلايجوز امتلاك الأعيان التى لامنفعة فيها لأن الملك شرع للانتفاع به فقيامه على أعيان لامنفعة فيها عبث لايقبله شرع ولاعقل ، ولأن الملك يدور مع حل الانتفاع ، فما حل الانتفاع به صح ملكه وماحرم الانتفاع به لم يصح تملكه(١).

وهكذا تكون هذه القيود بمثابة حماية مصلحة الفرد والجماعة ، ومنع الضرر ، وعدم استغلالها فى ظلم الآخرين(٢)، وهذه القيود ليس المقصود منها إلغاء الملكية ، بل ضبطها والارتقاء بها(٣).

خصائص الملكية فى الإسلام :

لقد تميزت الملكية فى الشريعة الإسلامية عن الملكيات فى الأنظمة الإقتصادية الوضعية بعدة خصائص ، ومن أهمها :

أولا : أن الله تعالى هو المالك الحقيقى لكل شىء .

فالإسلام يعلم (المسلم أنه مادام خلق السموات والأرض لله فإن الملكية الحقيقية للمال جميعا لله رب العالمين)(٤).

وأبان القرآن الكريم (أن سلطتهم عليها محدودة وهم ليسوا إلا مستخلفين فيها فلايظلمون ولايطغون)(٥). وإذا نظرنا فى كتاب الله تعالى وجدناه يأمر الناس أن ينفقوا من مال الله تعالى ورزقه الذى رزقهم إياه(٦). قال تعالى : {**وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو شاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين**}(٧)، وقوله تعالى : {**وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت**}(٨).

---

(١) انظر الملكية ونظرية العقد (٣١-٣٢) .
(٢) انظر : النظام الإقتصادى فى الإسلام (٤٢) ، الملكية ونظرية العقد (٥٩) ، أسس الإقتصاد (١٣٠) ، أبو الأعلى المودودى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع دون ذكر لرقم الطبعة .
(٣) انظر الفكر الدينى فى مواجهة العصر (٢٦٣) .
(٤) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (١٣٩) .
(٥) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٩٢) ، وانظر الإسلام وأزمة الغرب (٢٤-٢٥).
(٦) انظر مقال فى العدل الإجتماعى (٦٣) .
(٧) سورة يس : (٤٧) .
(٨) سورة المنافقون : (١٠) .

يقول البهى الخولى : (فإذا جاء الشرع يقرر أن المال مال الله ، فهى قضية قائمة على أسس إقتصادية واقعية سليمة .. وإذا جاء المستهلكون يضعون أيديهم باسم العمل على هذه الثروات فإنهم يضعون أيديهم على مال الله .. وإذا كان حق العمل يمنحهم هذه الملكية فهى ملكية عارضة طارئة ، لاتنسخ أبدا ملكية الله [تعالى] ...)[١].

ثانيا : الأصل فى الملك إنما هو الاستخلاف الإلهى ، قال تعالى : {**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**}[٢]، وهذه الخلافة لابد وأن تكون منضبطة بقواعد الشرع التى وضعها الخالق جل وعلا .

ثالثا : أن المصدر لهذه الحقوق هو الله تعالى ، وهذا الحق إنما استحقه الإنسان بمنح الله تعالى له إياه . يقول الإمام الشاطبى : (إن مصدر الحقوق هو الله سبحانه وتعالى إذ كان لله أن لايجعل للعبد حقا أصلا)[٣].

رابعا : الملك فى الإسلام موجه بأوامر الله تعالى ونواهيه[٤].

خامسا : الانتفاع بالملك .

سادسا : حرية التصرف فيه[٥].

سابعا : عدم الإضرار بالغير عند التصرف فى الملك[٦].

ثامنا : التوازن فى الانفاق والابقاء فلاإسراف ولاتبذير ، ولابخل ولاشح وإنما عملا بقول الله عز وجل : {**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**}[٧].

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٣٣) .
(٢) سورة الحديد : (٧) .
(٣) الموافقات (٣١٦/٢) .
(٤) انظر : الملكية وضوابطها فى الإسلام (١١٣-١١٤) ، الرأسمالية وموقف الإسلام منها (٧٤) ، د. حمود بن أحمد الرحيلى ، النشرة الأولى ١٤١٥هـ ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، الرياض ، وانظر (٩٧) .
(٥) انظر : الملكية وضوابطها فى الإسلام (١١٤-١١٧) ، الملكية ونظرية العقد (٥٦-٥٧).
(٦) انظر الملكية وضوابطها فى الإسلام (١٣٥) .
(٧) سورة الفرقان : (٦٧) .

وهذا التقييد ليس للإضرار بل فيه مراعاة مصالح العباد[١].

تاسعا : شمول الملكية ومنفعتها .

عاشرا : دوام الملك وتأبده[٢].

الحادى عشر : أن هذه الملكية الخاصة لاتنزع من صاحبها إلا إذا أخرجها هو .

الثانى عشر : جواز نزع الملكية الخاصة تحقيقا للمصلحة العامة مع دفع العوض المكافىء حيث (تجيز الشريعة الإسلامية نزع الملكية للمنافع العامة مقابل تعويض يقدره أهل الخبرة ...)[٣]. ولابد أن تكون المصلحة متحققة حين نزعها ، وإذا كان للدولة أن تتدخل فى نزع الملكية تحقيقا للمصلحة العامة[٤]، فإنه ليس من حقها (أن تمنع الفرد حقا من حقوقه لأن حقها ليس أقوى من حق الفرد لأن كلا من الدولة والفرد يتلقيان الحق من الله تعالى)[٥].

الثالث عشر : (أن الإسلام يراعى معانى الأخلاق الفاضلة فى جميع جوانب أنشطة الإنسان الإقتصادية)[٦].

---

(١) انظر : منهاج السنة النبوية (٣١/٢) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، إعلام الموقعين (٢/٣) ، أوضاعنا السياسية (٢٣٢) عبد القادر عوده ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(٢) الملكية ونظرية العقد (٥٦-٥٧) .

(٣) الملكية والحقوق العينية (٥٦٠) ، محمد كامل مرسى بك ، وانظر نظرية العقد (٨١-٨٢) .

(٤) انظر دوام حق الملكية (٢١) .

(٥) الملكية فى الفقه الإسلامى (٩٣) .

(٦) الرأسمالية وموقف الإسلام منها (٩٨) .

الرابع عشر : أن الإسلام يحث على العمل ويباركه ويكره البطالة والكسل . كما يقرر حق التكافل الإجتماعى ويقرر مصلحة الفرد والجماعة ، ولايقول بالندرة ولابالوفرة المطلقة بل كل شىء فيه بمقدار(١).

الخامس عشر : أن النظام الإسلامى اشتمل على كل مافى الأنظمة البشرية من مزايا وزاد عليها بل إن المزايا الموجودة فى الأنظمة البشرية من شيوعية ورأسمالية قد جاء بها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا(٢).

فهذه أبرز خصائص الاقتصاد الإسلامى .

التصرف فى الملكية :

إن الإنسان المسلم يملك كامل الحرية فى التصرف بملكه إذا أعطى حق الله تعالى فيه وحق العباد ، حيث أوجب الإسلام على صاحب الملك حقوقا(٣)للآخرين حتى لاتتكدس الثروة فى يد طبقة دون أخرى .

ومن هذه الواجبات والتصرفات :

(١) الزكاة . قال تعالى : {**وآتوا الزكاة**}(٤).

وأوضح الخالق جل علا الأصناف التى تجب لهم الزكاة فقال عز من قائل : {**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**}(٥).

(٢) حقوق الآدميين كالدين ، والمهر ...

(٣) مايتعلق بالكفارات التى تجزىء فيها الأموال .

(٤) الانفاق على من تجب نفقته عليه .

---

(١) انظر الرأسمالية وموقف الإسلام منها (٩٨) .
(٢) انظر المرجع السابق (٩٧) وذكر الرأسمالية فقط .
(٣) انظر : الفرد والمجتمع فى الإسلام (٦٩) ، الدين أو اللادينية (٧٩) .
(٤) سورة البقرة : (٤٣) .
(٥) سورة التوبة : (٦٠) .

(٥) أعمال البر فى سبيل الله تعالى .

(٦) عدم الإضرار بالآخرين حين التصرف .

(٧) عدم اعطاء العدو المال ليتقوى به ضد المسلمين .

(٨) المنع من الوصية والهبة حال مرض الموت .

(٩) منعه من الإسراف والتبذير حال الإنفاق .

(١٠) فرض الحجر عليه إن كان سفيها .

(١١) منعه من التقتير على نفسه أو على من يعول[١].

إن الإسلام يراعى فى تصرفات المالك تحقيق مبدأ التكافل الإجتماعى الذى افتقرت إليه الأنظمة الأرضية بكاملها . يقول د. النمر : إن الإسلام (لم يطلق للمالك العنان ليتصرف فى ملكه كما يشاء بل جعل فيه حقوقا لغيره يجب عليه أداؤها وقيد هذه الحرية بقيود فى مصادر الملكية ، أولا ، ثم كيفية التصرف فيها ، بحيث تصبح مصدر خير له وللآخرين من حوله ، لامصدر شر وضر وتحكم فى مصالح الآخرين)[٢].

فليس من حق المالك أن يتعسف فى استعمال حقه فى الملكية ليلحق الضرر بنفسه أو بغيره .

أنواع الملكية فى الإسلام :

امتاز الإسلام بأنه جمع بين أنواع الملكيات الخاصة منها والعامة ، وبهذا يتبين أن الملكية فى الإسلام ليست من وضع البشر واختلاقهم ، بل هى وحى ربانى . ودل ذلك على أن الإسلام حقق الوسطية بين الأنظمة الوضعية التى أفرطت فى اتجاهاتها .

---

(١) انظر حكم الإسلام فى الإشتراكية (٧٧) .

(٢) إسلام لاشيوعية (٢٧٤) .

فالنظام الرأسمالى أفرط فى قضية الملك حتى أعطى صاحبه الحق فى أن يتصرف فيه كيف شاء ولو أدى ذلك إلى هلاكه وهلاك الآخرين ، بل لو أوصى بماله لتربية الحيوان لكان ذلك تصرفا سائغا مقبولا فى ذلك النظام .

وبالمقابل جاء النظام الإشتراكى فأفرط فى منع الملكية حتى حرم على الإنسان أن يملك مايخصه من أدوات يتقوى بها على ممارسة حياته ، وجاء الإسلام الدين الإلهى المحفوظ ، وعلم ماتطلبه النفس الإنسانية ، وماتحتاج إليه فأقر لها حق الملكية الشخصية ولها الحق فى أن تعمل وتملك ثمار عملها ذلك ، بل وحافظ الإسلام على هذه الملكية واحترمها وحرم التعرض لها بسرقة أو غصب أو نهب .

ومامضى معنا من عرض لإقرار الإسلام لهذه الملكية ودفاعه عنها واعتبارها غريزة فى النفس الإنسانية فيه كفاية متواضعة لإثبات الملكية الخاصة . ويتبقى علينا عرض الملكية العامة باختصار .

الملكية العامة :

إن الملكية العامة فى الإسلام (هى الملكية التى يكون صاحبها مجموع الأمة دون النظر لأشخاص أفرادها على التعيين بحيث يكون الانتفاع بالأموال التى تتعلق بها لهم جميعا دون أن يختص به واحد دون المجموع)[١].

خصائصها :

(١) أنها مسبوقة بملكية الخالق جل وعلا قائمة عليها .

(٢) أن الحق فى تلك الملكية مقرر للجماعة باعتبارها مؤلفة من أفراد ذوى أنصبة سابقة فيها .

(٣) أن تكون تلك الملكية محققة للمنفعة وذات نفع ضرورى لكل أحد[٢].

---

(١) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٥١) ، وانظر إسلام لاشيوعية (٢٦١) .

(٢) انظر الثروة فى ظل الإسلام (١٠١-١٠٦) .

من صور الملكية العامة فى النظام الإسلامى :

أولا : ملكية المرافق العامة .

ثانيا : الحمى .

ثالثا : الأراضى الموقوفة على جماعة المسلمين[(١)].

رابعا : أموال الفىء[(٢)].

خامسا : الماء والكلأ والنار[(٣)].

ومن صور الملكية الجماعية : الأراضى المفتوحة ، وقد اختلف الفقهاء فيما فتح عنوة . فمنهم من ذهب إلى أنها تقسم ، ومنهم من منع ، ومنهم من قال يرى الإمام أين يكون الأصلح فيفعله[(٤)].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن ملكية الماء والكلأ والنار : (المسلمون شركاء فى ثلاث فى الكلأ والماء والنار)[(٥)].

وكذلك الأمر بالنسبة للمعادن وغيرها اختلف فى ملكيتها إذا كانت فى أرض مملوكة ، أما إذا كانت فى أرض غير مملوكة فلاخلاف أن ملكيتها للدولة أى ملكية عامة . أما إذا كانت فى أرض مملوكة فقيل بأنها ملكية عامة ، وقيل بأنها خاصة . يقول ابن قدامة : (والمعادن الجامدة تملك بملك الأرض التى هى فيها لأنها جزء من أجزاء الأرض فهى كالتراب والأحجار الثابتة)[(٦)].

---

(١) انظر : الملكية فى الشريعة الإسلامية (٢٥٢/١) ، الأحكام السلطانية (١٦٣) الماوردى ، دار الفكر دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، الملكية وضوابطها فى الإسلام (٩٣) .

(٢) انظر الملكية فى الشريعة الإسلامية (٢٥٣/١) .

(٣) انظر ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٥٢-٥٤) .

(٤) انظر مجموع الفتاوى (٤٩٢/١٧) ، وذكر شيخ الإسلام أقوال العلماء فى ذلك فى الجزء (٥٨١/٢٨-٥٨٢) .

(٥) رواه أبو داود (٢٧٨/٣) ، كتاب البيوع ، باب فى منع الماء ، وابن ماجه (٨٢٦/٢) ، كتاب الرهون ، باب المسلمون شركاء فى ثلاث ، وفى رواية أخرى عنده "الماء والملح والنار" ، طبعة محمد فؤاد عبد الباقى .

(٦) المغنى (٢٨/٣) ، مكتبة الجمهورية العربية ، مصر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

فحقق الإسلام التوازن بين الملكيتين ، وتوسط بين النظم المجحفة كالرأسمالية والإشتراكية ، ووقف ضد افراط الرأسمالية فى تحقيق مبدأ الملكية الخاصة المطلقة[١]. كما تجنب ماوقعت فيه الشيوعية من مصادرة للملكية الفردية التى هى نزعة فطرية فى النفس الإنسانية تدفعه إلى العمل والانتاج[٢]. وعلى هذا فإن الشيوعية والماركسية ، والرأسمالية الغربية طرفان كلاهما شر ، وكلاهما باطل فى تصوره حيث اكتفى كل منهما بنوع واحد من الملكية ، إلا أنهما قد اضطرا إلى التراجع عن ذلك الموقف .

يقول الصدر : (وليس هناك أدلة على صحة الموقف الإسلامى من الملكية ، القائم على أساس مبدأ الملكية المزدوجة من واقع التجربتين الرأسمالية والإشتراكية ، فإن كلتا التجربتين اضطرتا إلى الاعتراف بالشكل الآخر للملكية ، الذى يتعارض مع القاعدة العامة فيهما لأن الواقع برهن على خطأ الفكرة القائلة بالشكل الواحد للملكية ، فقد بدأ المجتمع الرأسمالى منذ أمد طويل يأخذ بفكرة التأميم وينزع عن بعض المرافق إطار الملكية الخاصة وليست حركة التأميم هذه إلا إعترافا ضمنيا من المجتمعات الرأسمالية ، بعدم جدارة المبدأ الرأسمالى فى الملكية ، ومحاولة لمعالجة مانجم عن ذلك المبدأ من مضاعفات وتناقضات ، كما أن المجتمع الإشتراكى من الناحية الأخرى وجد نفسه ـ بالرغم من حداثته ـ مضطرا أيضا إلى الاعتراف بالملكية الخاصة قانونيا وبشكل غير قانونى أحيانا أخرى ...)[٣].

ومع ذلك فهذه الأنواع من الملكيات الأصل فيها عدم الضرر ، وتحقيق المصلحة . وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن حب التملك غريزة فى النفس البشرية .

ثانيا : أن المالك الحقيقى لكل شيء هو الله تعالى .

---

(١) انظر معالم الاشتراكية العربية (١٧) .

(٢) انظر إسلام لاشيوعية (٢٧٤) .

(٣) إقتصادنا (٢٨١-٢٨٢) ، وانظر : الملكية الخاصة فى الشريعة الإسلامية (١٨٥) ، الملكية فى الشريعة الإسلامية (٢/١١٠) .

ثالثا : أن الأمم السابقة عرفت الملكية الخاصة ، وعرفت بجانبها الملكية العامة .

رابعا : أن النظام الإسلامى للملكية اشتمل على أنواع التملك التى وجدت فى الأنظمة الأرضية الوضعية وهو سابق عليها .

خامسا : أن الملكية لها ضوابطها وحدودها ووسائلها فهى ليست مطلقة بل مقيدة حفاظا لها .

سادسا : أنه لاتعارض بين الملكيتين الخاصة والعامة ، فلكل منهما ضوابطها وحدودها .

سابعا : أن المدار الحقيقى للملكيات هو حصول المنفعة منها سواء للأفراد أو الجماعات .

ثامنا : أن النظام الذى يتصادم مع الفطرة أو يقر نوعا دون آخر فمصيره إلى الزوال ، كما هى سنة الخالق جل وعلا . وبهذا نعرض للفكر الشيوعى ومصادمته لهذه الفطرة .

الشيوعية ومصادمة فطرية الملكية الخاصة :

قام الفكر الشيوعى على مصادمة الفطرة الإنسانية فى كل جوانبها ، بداية بالأصل الأول وهو الإيمان بالله تعالى ، ثم بكل مايتفرع عن هذه الحقيقة .. وإذا كان الإنسان قد فطر على حب التملك ، فإن الشيوعية عملت على مصادرة هذه الفطرة ، واعتبرت أن الملكية الفردية سبب الشرور والآثام وسبب الظلم الذى يقع على الإنسان من أخيه الإنسان ، وأن الطبقات فى المجتمع ماوجدت إلا بسبب وجود هذه الملكية ، ومن هنا لابد من القضاء عليها كى يعيش الناس سعداء ويزول عنهم الشقاء ، فبدأت الشيوعية عملها باقتلاع تلك الغريزة من النفس الإنسانية وجعلت من مبادئها الأساسية القضاء عليها ، وعندما لم يسعفها فكرها فى تحقيق ذلك بالسلم ، لجأت إلى العنف كعادتها فى فرض أفكارها ومبادئها ، فأصبح الفرد فى الاتحاد السوفييتى مسلوب الحقوق بقوة الحديد والنار ، وفرض التأميم بالقوة ، وصودرت الممتلكات ، فأصبح الفرد الشيوعى يعيش كالآلة الموجهة . وعملت الشيوعية

على ارضاء العمال والأفراد هناك بالشعارات الجوفاء التى لم تستطـع أن تحقق شيئـا منها ، وزعموا أن سعادة العمـال تكمن فى القضاء على الملكيـة الفردية التى قسمـت المجتمع إلى مالكين وغير مالكين ، وبالتـالى وقع الصراع لشعور الإنسان بعدم المساواة ، وظلت الشيوعية فى تزييف الحقـائق راجية أن تصل إلى اقتلاع هذه النزعة من القلوب البشرية ، إما سلما وإما بالقوة ، ونسيت أنهـا كانت تقوم بالعمل على تعـويض نفسها بفرضها هـذه المبـادىء المصادمة لفطرة الإنسان ، فجرت لنفسها مضارا فادحة ، ونكبات واضحة ، وجنت من وراء موقفها ذلك التعجيل فى النفور من فكرها ومحاولة الخروج منه بالإضافة إلى المفاسد التى وقعت فيها البلاد بسبب الغائها للملكية الفردية.

ملخص أقوال الشيوعيين فى الملكية الفردية ثم بيان بطلانها :

يمكـن ابراز ملخص أقوال الشيـوعيين عن الملكية الفـردية فى التـالى :

أولا : أن الملكيـة الفـردية مـن اختراع البرجوازية مـن أجل استغلال العمـال ، ولم تكـن معروفة فى بداية التـاريخ وليست مـن الأمـور الفطرية .

يقـول بوليتزر : (من المفيد أن نلاحظ أن البرجوازية ستعـود إلى تبنى نظرية الأفكار الفطرية لتدعيم الملكية الرأسمالية . يقـول الناطقون بلسانها أن لكـل إنسان فكرة فطرية عن الملكيـة ، غريزة ملكية . ويترتب على ذلـك أن الملكية الرأسمالية طبيعية ، ومادامت طبيعية فلايمكن ولايجوز أن تمس ...)[١].

ثانيا : أن تطور قوى الإنتاج أدى إلى وجود هذه الملكية . يقول انجلز (إن كل تحول فى النظام الإجتماعى وكل تغيير فى علاقـات الملكية . إنما هو نتيجة ضرورية لظهور قوى إنتاجية جديدة باتت متعارضة مع علاقات الملكية القـديمة . هكذا ظهرت الملكية الفردية ذاتها ، ذلك أنهـا لم تكن موجودة منذ بدء التاريخ . ففى نهاية القرون الوسطى ، ظهر نمط انتاج جديد فى الصناعة أخذ يتعارض باطراد مع الملكية الإقطاعية والملكية الجزئيـة السائدتين فى تلك

---

(١) فلسفة الأنوار (٢١) .

الحقبة . وبما أن هذا الإنتاج المانيفاتورى لم يعد يتوافق مع علاقات الانتاج القديمة ، فقد أدى إلى ولادة شكل جديد للملكية الفردية والشكل المجتمعى)[١].

كما أن هذه التطورات لقوى الإنتاج أدت إلى تقسيم العمل بين الناس وأدى ذلك إلى تقسيم وسائل الإنتاج باعتبارها ملكيات لهذا الشخص أو تلك الجماعة[٢].

ثالثا : أن الملكية الفردية هى السبب فى عدم المساواة وإذا أزيلت فسوف تتحقق المساواة ، ويرى أعداء الملكية الفردية أنها الحجر الذى لايمكن تخطيه (لأن قانون الملكية هو بالضرورة متناف مع المساواة)[٣]. كما أنها سبب الشقاء والظلم . يقول مابلى : (إننى لاأتردد فى أن أنظر إلى تلك الملكية التعسة على أنها السبب الأول للتفاوت فى الحظوظ والحالات وبالتالى لجميع الآلام) ، ويقول : (هل تعرف ماهو المنبع الأساسى لكل التعاسات التى تحزن الإنسانية؟ إنه هو الملكية)[٤].

رابعا : أن وجود الملكية هو سبب وجود الطبقات فى المجتمع ، وبالقضاء عليها يتم القضاء على النظام الطبقى لأن الملكية قائمة على استغلال الإنسان للانسان ، فيوجد فى المجتمع طبقتين مختلفتين يقع بينهما الصراع .

يقول غورباتشوف : (الملكية الخاصة هى ، كما هو معلوم أساس استغلال الإنسان للانسان وقد تمت ثورتنا تحديدا من أجل تصفيتها وتحويل كل شىء إلى ملكية للشعب)[٥].

---

(١) تعاليم الماركسية (٢٧-٢٨) .
(٢) دفاعا عن الماركسية (٢٠٤) .
(٣) نقلا من كتاب الفكر الأوروبى (٢٢٢/١) .
(٤) نقلا من المرجع السابق (٢٢٤/١) .
(٥) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٩٥) ، وانظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٠٢) .

خامسا : أن القضاء على الملكية الفردية سيحرر الإنسان ويجعله يحس بانسانيته [١].

بيان بطلان مزاعم الشيوعية عن الملكية الفردية ومصادمتها للفطرة الإنسانية :

وقعت الشيوعية فى عدة مغالطات كبيرة ، ومضار جسيمة من جراء مناداتها بهذا المبدأ الذى يصادم أمرا مستقرا فى النفس البشرية ، وكانت مزاعمهم عن الملكية الفردية فاسدة ، كما كانت الآثار السلبية لتطبيق المبدأ واضحة نتج عنها ضربة قاصمة وجهت للفكر وللدولة حيث أدت بدورها مع الأسباب الأخرى إلى الإنهيار ، ونأتى الآن إلى إبطال مزاعمهم عن الملكية .

أولا : زعمهم أن الملكية من اختراع البرجوازية وهذا زعم باطل ، وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن حب التملك فطرة فى النفس الإنسانية وشىء غريزى فيها وثبت ذلك بنص كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكفى بهما مصدرين كريمين فى إبطال هذا الزعم .

فمصادرة الملكية أمر (مناقض للفطرة البشرية ومخالف للأحكام الشرعية القطعية ...)[٢].

ولنا أن نتخيل ماهى النتيجة لكل أمر خالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفطرة الإنسان؟ إن مصيره الزوال والإنهيار كما هى سنة العزيز القهار .

الوجه الثانى : أن الشيوعيين قالوا بأن البرجوازية إنما وجدت لظروف اقتضتها من التطور ، بينما الملكية الفردية كانت موجودة من قبل قيام هذه الطبقة وبالتالى يقال لهم كيف تكون من اختراعها وهى سابقة عليها؟!

---

(١) انظر : الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٣٣/١-١٣٤) ، النظرية المادية فى المعرفة (٣٩١) .

(٢) حكم الإسلام فى الإشتراكية (٧٢) .

ثانيا : زعمهم بأن المجتمع البدائى كان على الشيوعية العامة وأن الملكية ماعرفت إلا مؤخرا قول لايقوم عليه دليل[1].

ويذكر الدكتور العبادى أن كثيرا من العلماء بنوا أقوالهم على الحدس والظن والافتراض عن الحياة البشرية الأولى[2].

فالحكم على تلك الفترة بذلك النوع من الملكية لايسنده دليل وإنما هو ضرب من الظنون من أجل أن يكون لهذا المبدأ مستند لديهم . ويحلل الأستاذ محمد قطب ذلك بقوله : (نزعة فطرية ـ رغم جدل الشيوعية ـ يثبتها اضطرار الشيوعية إلى إباحة الملكية الفردية فى بعض الأمور ، ولكن صورة الملك تتغير . فى فترة من الفترات لم يكن هناك مايمتلك ، لم يكن الصيد الذى يصيده الإنسان ملكا لفرد بعينه لأنه لايستطيع أن يمتلكه وهو لايصيده بجهده وحده من ناحية ولايستطيع أن يحتفظ به من ناحية أخرى لأنه ينتن ويفسد ، ولكن حتى فى ذلك الحين كان يثور الصراع على (امتلاك) إمرأة ، فيتصارع من أجلها الرجال ثم صار هناك (إنتاج) يمكن أن يمتلك ، فامتلك الإنسان الأدوات البسيطة التى أنتجها ثم امتلك المحاصيل حين تعلم الزراعة وامتلك حيوان الزراعة المستأنس حين تعلم كيف يستأنسه ، وامتلك الأرض التى تغل المحاصيل ثم امتلك المصانع ، واليوم يمتلك القنابل والصواريخ! وقد يمتلك الكواكب فى الغد القريب أو البعيد .. ماالذى تغير؟! نزعة الملك أو صورة التملك؟)[3].

ثالثا : بطلان زعمهم أن الملكية وجدت بتطور قوى الإنتاج وتقسيم العمل . وبيان بطلانه من وجوه :

---

(١) انظر : قصة الملكية (٢٧) ، الملكية فى الشريعة الإسلامية (٥١/١) .
(٢) انظر الملكية فى الشريعة الإسلامية (٤٧/١-٤٨) .
(٣) التطور والثبات فى حياة البشرية (٩١-٩٢) .

الوجه الأول : أن الملكية الفردية غريزة فى النفس الإنسانية وليس لها دخل بقوى الإنتاج أو غيرها ،إذ أنها وجدت مع وجود الإنسان بل إن الطفل الذى يقع فى حوزته شيئا ويحس بأنه ملكه لو حاول أحد انتزاع ذلك الشىء منه لدافع عن حقه .

الوجه الثانى : أن الملكية وجدت عند القبائل البدائية التى لاتمثل فيها وسائل الانتاج شيئا يذكر على أنه قد يتنوع ذلك الملك من بيئة إلى أخرى ، ولكن الذى لايتغير ويبقى ثابت هو حق التملك .

الوجه الثالث : أن هذا الزعم من الشيوعية الهدف منه القضاء على كل الثوابت ، خاصة بعد أن أيقنت أن فكرها لن يصمد أمام الحقائق الفطرية ، والبراهين الواقعية فأرادوا أن يدخلوا فى أذهان العمال أن الملكية وجدت فى فترة كانت تقتضى وجودها حيث كانت تتناسب مع وسائل الإنتاج حينذاك أما الآن فلا ، ويقاس على ذلك بقية الأفكار الدينية والأخلاقية وحكمهم ذلك على المجتمع البدائى تحكم بغير دليل ولابرهان والعلم لايقوم على ذلك .

رابعا : بطلان زعمهم أن الملكية تتنافى مع المساواة وسبب فى وجود الطبقات وأن زوالها سيحرر الإنسان .

وهذه مزاعم باطلة وبيان بطلانها من وجوه :

الوجه الأول : أنه لابد من التفريق بين الاعتراف بحق الملكية ، وبين طغيان من يملك . فالاستغلال لامن وجود الملكية الفردية بل من الخطأ فى استغلال هذه الملكية ، فالبرجوازية ليسوا هم الذين جاؤا بفكرة الملكية ولكنهم أساؤوا استخدامها .

يقول البهى الخولى : (ومقاومة هذا الاستغلال الدنىء واجبة ، ولكنها لاتكون بالغاء الملكية ، بل بتجريد هؤلاء الأقوياء من كل جاه أو نفوذ أو سلطان يطوع لهم البغى الذى يبغون .. أى بإقامة السلطة العادلة التى تكف عدوان الأغنياء والاقوياء على حقوق الضعفاء ، ويقيم موازين العدل الدقيق

بين كافة الطبقات ، أما الملكية بذاتها فليس من طبيعتها أن تنتج مثل هذا العدوان فقد يملك الإنسان ولايظلم .. وقد يملك ويكون محسنا كريما وسمحا رحيما يغشى الخير والمواساة والسلم بين الناس .. فالملكية إذن ليست فى حاجة إلى علاج أو مقاومة إنما يحتاج إلى العلاج والتهذيب غرائز الناس ومافى نفوسهم من نوازع الطمع والأنانية وحب الذات)[١].

الوجه الثانى : دعوى أن الملكية تتنافى مع المساواة وسبب فى وجود الطبقات فهذين الأمرين يبطلان بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وواقع المجتمعات البشرية القديمة والحديثة ، بل وواقع الشيوعيين أنفسهم[٢].

خامسا : بطلان زعمهم أن القضاء على الملكية الفردية سيقضى على الانحطاط الإنسانى ـ وسيصبح الإنسان أكثر إحساسا بإنسانيته ـ وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : يقوم هذا المبدأ على مخالفة الفطرة الإنسانية وبالتالى إلى ضعف الإنتاج وانعدام الحافز الفردى الذى يعتبر أساس عملية الإنتاج فكيف سيكون الإنسان محققا إنسانيته؟!! يقول ابن خلدون : (اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلهم واكتسابها ، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب والعمران ووفور أسواقه إنما هو بالأعمال فإذا قعد الناس على المعاش ، كسدت أسواق العمران ، وانتقضت الأحوال ، وتفرق الناس فى الآفاق فى طلب الرزق فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره ، واختل باختلاله حال الدولة)[٣].

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (١٩) .

(٢) وسيأتى معنا بيان ذلك فى فساد نظام الشيوعية الإقتصادى إن شاء الله تعالى .

(٣) المقدمة (٣١٩) ، دار الجيل ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

فمن حيث نقص الإنتاج (إن أكبر نكبة تمنى بها الإنسانية هى موت الطموح نحو العمل فى نفس الإنسان ، ذلك لأن هذا سيعود بأفدح الأضرار على مستوى الانتاج العام وحين ينخفض مستوى الانتاج سيؤدى إلى نكبات اقتصادية لاحد لها ، وغنى عن البيان ... أن نقول إن الاتحاد السوفييتى ماكان ليعانى هذا النقص فى محصولاته الزراعية - التى اضطر معها إلى شراء حبوبه من البلاد الخارجية - لولا موت الطموح الفردى عند الفلاح الشيوعى مما حمل القادة السوفييت على الانكفاء عن كثير من نظرياتهم الجماعية لكى يعودوا إلى محاولات تشجيع الجهد الفردى ، بغية السعى وراء زيادة الإنتاج)(١).

وحال الدول الإشتراكية كذلك حيث أدى هذا المبدأ (إلى إحباط الهمم وإلى التكاسل ولهذا السبب نجد الدول الإشتراكية وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى تعانى من تقهقر الإنتاج كما ونوعا)(٢).

وإذا كانت روسيا القيصرية سابقا كانت تصدر القمح الزائد عن حاجتها فالاتحاد السوفييتى أصبح يستورده (فى ظل النظام الإشتراكى ، بالإضافة إلى أن الإنتاج الصناعى للدول الإشتراكية الأوربية هو أسوأ بكثير من إنتاج الدول الأوربية الأخرى)(٣).

فالعامل فى النظام الشيوعى يهدر قدرا كبيرا من مجهوده ولايجد مقابله شيئا ، فثمرة العمل الذى يؤديه تكون ضئيلة بالنسبة له ، فانعدم الحافز الفردى الذى يسارع بالتطور الإقتصادى نحو الأفضل .

يقول أبو الأعلى المودودى : (فحرمان الأفراد من الملكية الشخصية وجعلهم خداما عاملين للمجتمع لايقف ضرره عند القضاء على الاقتصاد فحسب بل هو مبيد على نطاق أوسع لحياة الإنسان المدنية قاطبة فإنه يزهق فى

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (١١٣) ، وانظر نظرات فى الإشتراكية الثورية (٣٢) .
(٢) النظام الإقتصادى فى الإسلام (٢٩) .
(٣) الفكر الماركسى (٧٦-٧٧) .

شئـون الإنسان الإقتصادية وأوضـاعه المدنية روحها وقـوتها الحقيقيـة الباعثة على الجد والإجتهاد وذلك أن الذى يبعث الفرد على استنفـاد قوته فى السعى والجد فى مضمـار التمدن والإقتصاد إن هو فى الحقيقـة إلا مصلحته الشخصية إن هـذه إثرة فطـرية أودعهـا الإنسـان ومافى وسع فلسفـة مـن الفلسفات أن تنزعهـا مـن سـويداء قلبـه وأعمـاق فكـره ، وبصـرف النظـر عـن الشـذاذ (Dbnonmuls) نجد أنه لايبـذل ولايستطيـع أن يبذل رجل مـن عامة الرجال قواه القلبية والفكرية واليـدوية كلهـا إلا فى عمل يجد مـن نفسـه ميلا إليـه ورغبـة فيه لمصلحته الذاتيـة أو يرى أنه سيعود على نفسـه أو مصالحه بشىء من النفع ، فإن فقد من نفسـه هذه الرغبة وعلم أنه مهمـا استنفـد من جهود فلـن يحصـل على شىء فوق مـاحدد له من المنافع والفـوائد اضمحلـت قواه الفكـرية والعمليـة ولم يشتغـل بعملـه إلا كما يشتغل الأجير الـذى لاتكـون رغبته فى العمل إلا بقدر مايعين له من الجعالة)(١).

ثم إن التكـوين البيـولوجى للانسـان توجد فيه تلـك النزعـة الفردية فمحـاولة القضـاء عليها واستئصـالها سـوف يؤدى إلى آثار سيئـة على الفـرد والجماعة . يقول سيد قطب : (والكارثة الفادحة فى الأنظمـة الجماعية ، التى عرفتها أوروبا فى الشرق وفى الغرب - على اختلاف مسمياتها وأشكالها - هى محاولة إلغاء وجود الفرد ، فى حين أن الفردية عميقة فى التكوين البيولوجى وبالتالى فى التكوين العقلى والنفسى للإنسان . واستخدام هذه الفردية بأقصى طاقتها فى إطار يوجهها إلى خير المجموع هو النظام المناسب لفطرة الإنسان ، أما محاولة كبحها وقتلها بشتى الوسائل ، فى تلك الأنظمة ، فهى عملية تدمير تامة للجهاز الإنسانى)(٢).

---

(١) أسس الإقتصاد (١٨-١٩) .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة (١٠٦) ، سيد قطب ، الطبعة التـاسعة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار الشروق .

شجع الإسلام الحوافز الفردية بتملك صاحب العمل ثمرة عمله كاملة حقا وعدلا إذ لامسئـولية مـن غير حرية وملكيـة لثمرة السعى ، ولاحرية فى الإضـرار بالآخرين ولابالمصلحة الفردية ، ولذلك حجر على السفيه فكيف بالـذى ليس لمصلحة غيره . انظر نظرات فى الإشتراكية الثورية (٤٠) .

الوجه الثانى : أدى تطبيق هذا المبدأ الذى تصادم مع الفكر الدينى والحقائق الفطرية ، أدى إلى نبذ الأخلاق والفضيلة ، كما أدى إلى احتكار الحكومة وسيطرتها على ثروات البلاد الإقتصادية مما زاد من تفشى الخيانة والارتشاء وإيذاء الناس والغبن والاستغلال .

وكان عمال الحكومة أنفسهم قد وقعوا فى هذا الفساد ونشوء مثل هذه الأمور فى مجتمع كالمجتمع الروسى ليس غريبا بل الغريب لو لم تظهر فيه هذه المفاسد .

ولايمكن أن يكون النظام صالحا إذا سار بدون أخلاق ، حيث تكمن أهميتها فى مراقبة الإنسان لأعماله(١).

ثم إن مصادمة النفس الإنسانية وسلبها حقها فى الملكية يحمل هذا الإنسان إلى إيجاد الطرق المنحرفة من أجل تحقيق هذه الرغبة والوصول إليها.

الوجه الثالث : يلزم من تطبيق هذا المبدأ انعدام الحرية فى قضية الملكية وكذلك فى كل مايوصل إليها من حيث العمل الذى يريده ، والسلعة التى يرغب فى إنتاجها ، والسلعة التى يرغب فى الاستفادة منها ، فالفرد فى النظام الشيوعى ترس فى الآلة الكبيرة التى تدور فى ذلك المجتمع و(الفرد الذى تسلب حريته إلى هذا الحد ماهو إلا عبد بل فى مستوى العبيد فى العصور القديمة إن لم يخرج من عداد الإنسانية ويصبح مجرد آلة بشرية يلقى بها فى غمار الانتاج قسرا وفقا للخطة المرسومة من قبل المسئولين ، ويشحن بالغذاء والوقود على قدر الخطة المرادة تماما كآلته التى أمامه)(١).

الوجه الرابع : أن تطبيق هذا المبدأ لايؤدى إلى تحرير الإنسان فكيف يكون الإنسان حرا وهو لايستطيع أن ينتج مايريد ، ولايستطيع أن يأكل مايريد .. ثم لو كان هذا المبدأ كذلك سيحقق انسانية الإنسان فلماذا ترفضه

---

(١) التملك فى الإسلام (١٣٦) ، وانظر النظام الإقتصادى فى الإسلام (٧٤) .

الشعوب؟ لماذا رفضه شعب روسيا؟ وكيف طبق التأميم هناك إنه بالقوة فأى إنسانية بقيت للإنسان؟! لقد قيل إن عدد من قتل من أجل تنفيذ مبدأ التأميم مايقارب ١٩,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، وحكم على نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ بعقوبات فادحة مختلفة ونفى عن البلاد نحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ أو ٥,٠٠٠,٠٠٠(١).

الشيوعية وفطرية التملك(٢):

لقد بذل الشيوعيون جهدا كبيرا فى القضاء على الملكية الفردية ، ونصوا على أن الإشتراكية تتعارض معها ، وقد طبقوا هذا العداء عمليا بالقوة وكذلك جعلوه من أسس فكرهم ومواد دستورهم ، فجاء فى المادة الرابعة من الدستور السوفييتى الصادر عام ١٩٣٦م إن (الأساس الاقتصادى لاتحاد الجمهوريات الإقتصادية الإشتراكية السوفيتية هو النظام الإشتراكى فى الإقتصاد والتملك الإقتصادى لأدوات الإنتاج ووسائله اللذان رست دعائمها على أثر تصفية النظام الرأسمالى فى الإقتصاد وإلغاء التملك الفردى لأدوات الإنتاج ووسائله والقضاء على استغلال الإنسان للإنسان)(٣).

وجاء فى المادة العاشرة : (يحمى القانون للمواطنين حقهم فى الامتلاك الشخصى للدخل الناتج من عملهم ومن المنازل التى يقطنونها وأثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصى ولتوفير الراحة ... وحقهم فى وراثة الملكية الشخصية)(٤).

وقد اضطرب الدستور السوفييتى فى تحديد موقفه من الملكية فتارة ينفيها ، وتارة يثبتها أو بعضا من جوانبها ، وقد أدت هذه القوانين وكذلك الأفعال التى صدرت عن الشيوعيين إلى مفاسد كبيرة ، حيث كبتت الإنسان وحرمته من حقوقه ، وأدى ذلك إلى انعدام الرغبة فى العمل وبالتالى تردى

---

(١) انظر أسس الإقتصاد (٧٨-٧٩) .
(٢) سيأتى معنا بيان واقع الشيوعية مع تلك الفطرة فى فصل الإقتصاد .
(٣) الإسلام وحقوق الإنسان (٢٣٣) ، وانظر الإسلام والمناهج الإشتراكية (١٢٦) .
(٤) الإسلام والمناهج الاشتراكية (١٢٦-١٢٧) ، وانظر : الإسلام وحقوق الإنسان (٢٣٣) ، إسلام لاشيوعية (٧٧) .

المنتجات ، كما أدت هذه المصادرة للملكية إلى تفشى الأخلاق السيئة من غش وخداع ورشوة ... لقد أدى نزع الملكية الفردية ولكونه يتصادم مع الفطرة الإنسانية إلى آثار سلبية فى المجتمع ، حيث إن الملكية الفردية تعتبر حافزا قويا للإنسان لكى يعمل . يقول كوسيغين : (إن السبب الوحيد لتدهور الإنتاج الزراعى يعود إلى فقدان المصلحة الخاصة بالفلاح ...)(١).

ويقول خروشوف بعد أن زار المزارع الدنماركية إنه (على استعداد لتمزيق هويته الشيوعية إذا لم تستطع الشيوعية اللحاق بالنظام الحر فى انجازاتها)(٢).

لقد قامت الشيوعية بمصادمة الفطرة الإنسانية فى التملك ، ولكنها فشلت فى تحقيق غايتها ، ولم يكن واقعها دالا على ماقررته نظريا ، وعندما كان القضاء على الملكية مبدأ أساسيا من مبادىء الإقتصاد الشيوعى فسوف نتبين ذلك الفشل عند عرضنا للمذهب الإقتصادى بين النظرية والواقع ، كما سنتبين آثار ذلك المبدأ ومحاولة تطبيقه بالقوة وهل نجح الشيوعيون فى ذلك أم لا؟ ونصل إلى الحديث عن فطرية الزواج والحياة الأسرية .

---

(١) نظرات فى الاشتراكية الثورية (٩٥) .

(٢) الإشتراكية فى التجارب العربية (٦٨) .

المبحث الثالث
مصادمة الشيوعية لفطرية الزواج والحياة الأسرية

إن الله تعالى ماأباح أمرا إلا والخير فيه ، وماحذر من أمر إلا والشر من ورائه .

وأحل الله تعالى الطيبات وأباح للناس ماتطلبه فطرهم وماركبه الخالق جل وعلا فى نفوسهم .

ومن هذه الغرائز والشهوات التى وجدت فى النفوس البشرية الميل من قبل الرجال إلى النساء والعكس ، وجعل الله تعالى لهذا طريقا تلبى فيه النفس احتياجاتها ، وينظم تلك الفطرة ويهذبها . فميل الرجل إلى المرأة وسكونه النفسى إليها ورغبته فى أن يكون له ذرية من بعده وأسرة ينتمى إليها ، مما فطر الله تعالى الخلق عليه ، وأخبر جل وعلا حب الإنسان للشهوة والزينة فى هذا حيث قال تعالى : {**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب**}(١).

فحب الإنسان لهذه المذكورات لاشىء فيه ، إذا لم يشغل عن الآخرة ويبعد الإنسان عن عبادة ربه أو القيام بفرائضه ، ثم إن حكمة الله تعالى وعدله تأبى أن يخلق الإنسان ويفطره على أمر ثم يحرم عليه ذلك الأمر . ولكنه جل وعلا جعل السبل التى يحقق من خلالها الإنسان غرائزه بصورة منضبطة ، وهذا ماتميز به شرع الله تعالى عن المذاهب الوضعية والآراء الجاهلية التى وقفت من قضايا الفطرة بين إفراط وتفريط . فكان دين الله تعالى وسطا لم يكمم الفطر ، ولم يطلق لها العنان ، بل إقرار وتوجيه ، ليحقق لها رغبتها ، ويسير فى مصلحتها ، وإن مما فطر عليه الإنسان ميل الرجل إلى المرأة والعكس ، وجعل المولى لذلك الميل طريقا شرعيا تتحقق من خلاله تلك الرغبة وهو الزواج .

---

(١) سورة آل عمران : (١٤) .

وقد كانت تلك النزعة موجودة فى أبينا آدم عليه السلام ، قال تعالى **{هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين}**(١).

بعض الآيات والأحاديث الدالة على فطرية الزواج وسكن الإنسان إليه :

قال تعالى : **{ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا}**(٢).

وقال تعالى : **{ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لأيات لقوم يتفكرون}**(٣).

وقال عز من قائل : **{والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون}**(٤).

ونلاحظ من هذه الآيات ذكر الزواج وكونه سكناً للإنسان وكذا ارتباطه بالطيبات الأخرى من مال وبنين مما يدل على ترابط هذه الأمور وكونها مما فطر الإنسان على الرغبة فيها والوصول إليها .

ومن الأحاديث الشريفة الدالة على الترغيب فى الزواج وبيان أنه الفطرة السوية ، وأنه يدفع إلى الخير ويمنع عن الشر وأن الأسرة هى الموطن الأساسى للحنان بالنسبة للولد :

قوله صلى الله عليه وسلم : "يامعشر الشباب ، من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"(٥).

---

(١) سورة الأعراف : (١٨٩) .
(٢) سورة النساء : (١) .
(٣) سورة الروم : (٢١) .
(٤) سورة النحل : (٧٢) .
(٥) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (١١٢/٩) كتاب النكاح ، باب من لم يستطع الباءة فليصم ، ومسلم بشرح النووى (١٧٢/٩-١٧٣) ، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة .

وقال عليه الصلاة والسلام : "خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده"(١).

وأبان صلى الله عليه وسلم أن من سنته الزواج .

وقال صلى الله عليه وسلم : "فمن رغب عن سنتى فليس منى"(٢).

وهكذاكانت شريعة الإسلام فى تحقيق كل ماتصبو إليه فطرة الإنسان ، وذلك على خلاف المذاهب الأرضية ، والفلسفات الوضعية التى أنكرت الأمور الفطرية ، وحاربتها وأعلنت أنها سبب الشقاء ، ومن هنا لابد من القضاء عليها ومن أشد الفلسفات التى عادت الفطرة ونادت بالغائها الشيوعية وقد مر معنا مصادمتها لفطرية التدين والملكية ، فلاغرابة إن هى صادمت فطرية الزواج والحياة الأسرية لأن بقاء الأسرة ، ووجود الزواج سيؤدى إلى فشل الفكر الشيوعى ، فالزواج سيمنع الانحلال الخلقى وهذا مالاتريده الشيوعية وهى التى تنادى بالإباحية الجنسية ، كما أن وجود الأسرة سيعمق الروابط بين الأبناء والآباء وهذا مالاتريده الشيوعية فالانتماء يكون فقط للشيوعية ، وقد تسترت الشيوعية بدفاعها عن المرأة وحقوقها وإعطائها حريتها حالها كحال أصحاب الأهواء والآراء المنحرفة والديانات المحرفة فى استغلال المرأة أو إباحتها أو اضطهادها ، ولو ذهبنا نتتبع وضع المرأة فى الأمم السابقة على الإسلام لوجدنا أنها كانت من سقط المتاع تورث ، وتوهب ، وتباع وتشترى(٣).

---

(١) البخارى بفتح البارى (١٢٥/٩) ، كتاب النكاح ، باب إلى من ينكح وأى النساء خير .

(٢) البخارى بفتح البارى (١٠٤/٩) ، كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح .

(٣) فعن المرأة عند اليونان : انظر تاريخ اليونان (٥٧-٥٩) ، الحجاب (١٦-٢٠) ، أبو الأعلى المودودى ، الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، بطولة المرأة المسلمة (٢١١-٢١٢) ، بنت الهدى ، دون ذكر لدار النشر أو رقم الطبعة أو تاريخها ، المرأة بين الفقه والقانون (١٤) ، المرأة ومكانتها فى الإسلام (١٤-١٥) . =

وكـانت تعانى من نظرة الازدراء والاضطهـاد ، ومـع ذلـك بقيت مسألة الـزواج قائمة ولم يخل منهـا مجتمع مما يدل على أن النـاس فطـروا على ذلك الأمـر . وهكذا ظلت المرأة محتقرة ذليلة أداة للفساد والإغـواء ، إلى أن جاء الإسلام وحررهـا مـن كـل عبـودية إلا للـه تعـالى ، وأكـرمها وحافـظ على إنسـانيتها ، وجعلهـا فى مستـوى يليـق بأن تتلقى أوامـر ربهـا ، وجعـل لها الحرية فى اطـار مـاشرعه تعـالى وجعـل لها قيودا فيهـا حفـاظا عليهـا وصونا لشـرفها ، راعى فيها فطرتها وتركيبتها النفسية والخلقيـة ، فلم تكن تشريعات الإسلام ضـد المرأة ولاهضمـا لحقـوقها ، ومـااختلفت فيـه عـن الـرجل فهـو

= وعنـد الـرومان : انظـر المرأة بين الفقـه والقـانون (١٥-١٦) ، المرأة ومكـانتها فى الإسلام (١٥-١٦) أحمـد الحصين ، الطبعـة الـرابعة دون ذكـر للتـاريخ ، مكتبـة الصحـابة الإسلاميـة ، السـالميـة ، الكـويت ، الحجـاب (٢٠) ، المرأة فى التصـور الإسلامـى (٣٥٧) ، عبـد المتعـال ، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار غـريب للطباعة ، القاهرة ، بطولة المرأة المسلمة (٢١٢-٢١٣) .

وعند الهنود : انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٥١-٥٢) ، المرأة بين الفقـه والقـانون (١٨) ، الحجـاب (٢٢٣) ، المرأة ومكـانتها فى الإسلام (١٦) ، المرأة (١٣٥) .

وعند الصين : انظر المرأة فى التصور الإسلامى (١٣٤) .

عنـد البـوذيين : انظـر المرأة بين الفقـه والقـانون ، المرأة ومكـانتها فى الإسلام (١٦-١٧) .

عنـد اليهـود : انظـر مـاذا خسـر العـالم بانحطـاط المسلمين (١٧١-١٧٢) ، الحجـاب (٢٧-٢٨) .

عـن المرأة فى أوروبا الحديثـة : انظـر الحجـاب (٢٩-٣٠) ، بطـولة المرأة المسلمـة (٢١٣-٢١٤) ، خطـر اليهودية على الإسلام والمسيحيـة (١٤٦) ، المرأة ومكـانتها فى الإسلام (٩-١٠) .

عـن المرأة فى النصرانية : انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٥٩-٦١) ، المرأة بين الفقـه والقانون (٢٢) ، أجنحة المكر الثلاثة (٥٦٧-٥٦٨) ، الإنسـان وحريته فى الإسلام (٩٤) .

لمصلحتها أولا ثم لتناسب ذلك الأمر المختلف فيه مع فطرتها ، ولو تتبعنا ماأعطاه الإسلام للمرأة من حقوق وماشرفها به من واجبات ، وماحافظ عليها به من تشريعات لطال بنا المقام .

لقد حافظ الإسلام على المرأة بنتا تحت رعاية أبيها ، وزوجة تحت ظل زوجها ، وأما فى بر أبنائها ، وأرملة منقطعة تحت رعاية بيت مال المسلمين للحصول على كفايتها فأى إكرام بعد هذا ، وأى حفاظ بعده؟

فنشأت المرأة فى ظل الإسلام محفوظة العرض ، مصونة الشرف مع حصولها على كل حقوقها .

وراعى الإسلام طبيعة المرأة وفطرتها وقدرتها فجعل تشريعاته متفقة مع ماهو صالح لها ومحافظ عليها ، كيف لا وهو دين رب العالمين . وأوجز بعض هذه المميزات التى أعطيتها المرأة فى الإسلام فى نقاط :

أولا : الاعتراف بإنسانية المرأة . قال تعالى : {**ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**}(١).

فالمرأة كالرجل ليست ذات روح شيطانية ولاحيوانية(٢).

ثانيا : أن الله تعالى خاطب الرجال والنساء سواسية فجعل الثواب والعقاب على حسب ماقدم كل منهما من عمل ، قال تعالى : {**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات**}(٣). فسوى الإسلام فى المسئولية بين الذكر والأنثى ، وكذلك سوى بينهما فى الجزاء(٤).

ثالثا : أن المرأة كالرجل فى قضايا الإيمان والعقيدة والتشريعات(٥).

---

(١) سورة النساء : (١) .
(٢) انظر تفصيل ذلك فى كتاب بطولة المرأة المسلمة (٢٠٩-٢١١) ، وانظر : ندوات علمية (١٣٣) ، أجنحة المكر الثلاثة (٥٦٦) .
(٣) سورة الأحزاب : (٣٥) .
(٤) الإنسان وحريته فى الإسلام (٩٥) ، وانظر المرأة فى التصور الإسلامى (٥٤) .
(٥) انظر : أجنحة المكر الثلاثة (٥٧٥) ، المرأة ومكانتها فى الإسلام (٢٩) .

رابعا : منح الإسلام المرأة بعض الحقوق التى كانت محرمة عليها من قبل ظلما وعدوانا ، ومن هذه الحقوق :

(أ) الميراث .

(ب) اقرار حق التملك .

خامسا : حرم الإسلام ماكان يقع عليها من ظلم وعذاب ، ومن ذلك :

(أ) حرم أن تورث كرها .

(ب) حرم قتلها خوفا من الفقر أو العار .

(ج) حرم نكاح زوجة الأب بعد وفاته حيث كانت الجاهلية تجعل المرأة من ضمن المتاع للورثة .

(د) حرم اكراه الإماء على البغاء من أجل الحصول على الأجر .

سادسا : حرم الإسلام بعض الأنكحة التى لم يكن الهدف من ورائها إلا تحقيق مصالح شخصية ، كما حرم نكاح الأقارب من الأخوات والعمات والخالات .

سابعا : جعل الإسلام المرأة كالرجل فى تبليغ الدعوة إلى الله تعالى وإنكار المنكر والأمر بالمعروف .

ثامنا : حرم الإسلام الاختلاط وكشف العورات ، وأمر بغض البصر وحفظ الفرج ، إكراما للمرأة وحفاظا عليها .

تاسعا : منح الإسلام المرأة الحق فى التصرف فى مالها بالطرق المشروعة وأوجب النفقة لها على زوجها حتى ولو كانت موسرة .

عاشرا : حث الإسلام الآباء على التبكير بزواج البنات حفاظا عليهن وتقديرا لمشاعرهن وحتى لاتكون فتنة وفساد كبير من جراء منعهن من حقوقهن .

الحادى عشر : جعل الإسلام للمرأة حقوقا كما جعل عليها حقوقا .

الثانى عشر : جعل الإسلام للمرأة حق التعلم والتعليم ، ومنها ماهو فرض عليها كتعلم أمور دينها ، وجعل لها حق العمل إذا كان مما يتفق مع تركيبتها وفطرتها ، شريطة أن لايكون ذلك على حساب أوامر ربها والتهاون فيها ، وضياع حق زوجها وأسرتها .

الثالث عشر : اهتم الإسلام بالمرأة والحفاظ عليها وإكرامها ، بنتا فى كنف أبيها ، وزوجة فى مودة زوجها ، وبرا من أبنائها ، وجعل لها الحلول والمخارج من المعضلات التى قد تواجهها فى حياتها مع زوجها حتى لاتبقى تحت الظلم أو المهانة أو التجريح .

الرابع عشر : اهتمام القرآن الكريم بالمرأة وشئونها ، وقد كثرت الآيات التى تحدثت عن المرأة ووجدت سور بأكملها عن النساء وشئونهن .

فأى دين أكمل من هذا الدين؟ وأى شريعة جمعت هذا الخير كله للرجال والنساء على حد سواء ، وأين هى دعوات المغرضين لتحرير المرأة؟ هل وصلت المرأة فى دعواتهم لمثل ماأعطى الإسلام لها من حرية وكرامة؟ يقول وريمان : (إن إعطاء الحرية للمرأة فى الإسلام هو وحده السبب فى نهوض العرب وقيام مدنيتهم ...)[١]. وهذه الحرية التى أعطيت للمرأة المسلمة إنما هى حفاظا لها ولكرامتها وعفتها ، وليست الحرية التى هى الانفلات من كل فضيلة كما هى حقيقة دعوات أنصار المرأة والمطالبين بحقوقها وحرياتها من اليهود والعلمانيين وأذنابهم .

وبعد هذا نصل إلى الحديث عن الشيوعية وموقفها من فطرية الزواج والحياة الأسرية .

الشيوعية وفطرية الزواج والحياة الأسرية :

إن الحديث عن موقف الشيوعية من المرأة والحياة الأسرية تلك الغريزة الفطرية التى يتطلع إليها الإنسان ، يذكرنا بالوضع الذى كانت عليه أوروبا من الفساد ، إذ أن الإنسان يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها ، وعمل اليهود على افساد هذه البيئة ليصلوا إلى غايتهم استخدموا المرأة فى مخططاتهم كما استخدموا النظريات العلمية فى إفسادها .

ومن أخطر النظريات التى استخدموها فكرة التطور التى قال بها داروين واستخدمها ماركس وطبقها فى نظريته على مختلف نواحى الحياة ، ومن ذلك الفكر والأخلاق والزواج والأسرة ، وقال بأنها غير ثابتة بل

---

(١) المرأة ومكانتها فى الإسلام (٢٢) .

متطورة . وماكانت إلا بسبب الوضع الإقتصادى الموجود فى ذلك العصر فكل عصر له نظامه الذى يوازيه من الأخلاق والنظام الأسرى ، ومن هنا ولج أعداء الدين فأخرجوا المرأة لإفسادها وتحررها من قيود الفضيلة والتمرد عليها .

فالحياء والأخلاق والأسرة كانت موجودة حينما كانت وسائل الإنتاج وظروف الإقتصاد تتناسب معها ، أما الآن وبعد تطور أسباب وجودها فلابد أن تتطور وتتغير . فدأبت الماركسية بنشر فكرها الإباحى من هنا ، والمطالبة بإشاعة النساء ، واعتبار الأسرة وتربية الأطفال فى كنفها أثر من الآثار القديمة التى دعت إليها الظروف الإقتصادية . يقول جان فيريفيل : (لاتشغل الأسرة كيانا إجتماعيا خالدا ، ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون وهذا التطور يتحدد فى التحليل الأخير بالعامل الإقتصادى)[1].

الأسرة عند الشيوعيين :

يرى انجلز أن هناك خمسة أنواع للأسرة :

النوع الأول : أسرة الأقرباء بالدم أو أسرة الجيل . يقول انجلز عنها : (فى هذه المرحلة تصنف المجموعات الزواجية تبعا للأجيال جميع الأجداد والجدات ضمن حدود الأسرة هم أزواج وزوجات بالتبادل ، وكذلك الأمر مع أولادهم الآباء والأمهات كما أن أولاد هؤلاء يؤلفون هم أيضا حلقة ثالثة من الأزواج والزوجات المشتركين ، ويؤلف أولاد هؤلاء أعنى أولاد الأحفاد للأجداد والجدات حلقة رابعة وهكذا فى هذا الشكل من الأسرة يحرم السلف والخلف فقط الآباء والأولاد من حقوق وواجبات زواج أحدهم بالآخر ، وفى هذه المرحلة تتضمن علاقة الأخ بأخته أن يمارس أحدهما مع الآخر الوصال الجنسى بصورة طبيعية ، إن أسرة الجيل قد انقرضت وحتى أخشن الشعوب التى يتحدث عنها التاريخ لاتمدنا بأمثلة على هذا الشكل يمكن التثبت منها)[2].

---

(١) المرأة والإشتراكية (١٧) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٤٨) .
(٢) أصل الأسرة (٥٦-٥٧) ، نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٤٩)

النوع الثانى : أسرة الشركاء . وعن هذا النوع يقول انجلز : (إذا كان التقدم الأول يتألف الآباء والأولاد من العلاقات الجنسية المتبادلة ، فإن التقدم الثانى يتألف من حرمان الاخوة والأخوات منها ، وقد حدثت هذه الخطوة بالتدرج مبتدئة فى أقرب الاحتمالات بحرمان الاخوة والأخوات الطبيعيين أى من جهة الأم ـ من العلاقات الجنسية وذلك فى حالات متفردة فى أول الأمر ثم أصبح حرمانهم ، بالتدريج هو القاعدة وتنتهى هذه الخطوة بتحريم الزواج حتى بين الاخوة والأخوات الأباعد) .

ويقول : (وفى جميع أشكال الأسرة الجماعية لايعرف من هو والد الولد معرفة أكيدة أما والدته فتعرف معرفة أكيدة)(١).

النوع الثالث : الأسرة الزوجية . يقول انجلز : (فى هذه المرحلة يعيش الرجل الواحد مع امرأة واحدة لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية يظلان من امتيازات الرجال ، وإن لم يكن تعدد الزوجات يمارس إلا نادرا لأسباب إقتصادية فقط ،وفى الوقت ذاته يطلب من المرأة الاخلاص التام طوال فترة العيشة المشتركة ، فإذا زنت عوقبت بقسوة غير أن رباط الزيجة يمكن حله من قبل أى من الطرفين فيرجع الأولاد إلى أمهم فقط كما كان الأمر فى السابق) .

ويقول : (فبينما كان الرجال لاتعوزهم النساء فى ظل الأشكال السابقة للأسرة وكانوا على النقيض يملكون منهن عددا فوق الكفاية إذا بالنساء الآن يصبحن نادرات مطلوبات ونتيجة لذلك بدأ ظهور الزيجة الزوجية اختطاف النساء وبيعهن)(٢).

النوع الرابع : الأسرة الوحدانية . يقول انجلز : (إن الأسرة الوحدانية مبنية على سيطرة الرجل وهدفها الصريح إنتاج أولاد لايشك فى صحة أبوتهم ، هذه الأبوة التى لابد منها ، لكى يرث الأولاد فى يوم ما

---

(١) أصل الأسرة (٧٢) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٥٠-٢٥١)

(٢) المرجع السابق (٧٢-٧٣) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٥١-٢٥٢) .

ثروة أبيهم بوصفهم ورثته الطبيعيين ، وتختلف الأسرة الوحدانية عن الأسرة الزوجية فى أن رباط الزواج أمتن جدا منها ولايعود حله الآن رهنا برضى أى من الطرفين ، بل يصبح الرجل كقاعدة عامة هو وحده الذى يستطيع الآن حل هذا الرباط وتستريح زوجته) .

ويقول : (إن أول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل والمرأة من أجل انجاب الأطفال واليوم أستطيع أن أضيف أن أول تضاد طبقى ظهر فى التاريخ بشأنه التضاد بين الرجل والمرأة فى الزيجة الوحدانية وأول اضطهاد طبقى يطابق اضطهاد جنس الإناث من قبل جنس الذكور) .

ويضيف (كانت الزيجة الوحدانية تقدما تاريخيا عظيما لكنها فى الوقت ذاته دشنت هى والرق والثروة الخاصة ذلك العهد القائم إلى اليوم الذى يكون فيه كل تقدم تقهقرا نسبيا أيضا ، العهد الذى يدرك فيه بعض الناس مصلحتهم وتطورهم بشقاء الناس الآخرين واضطهادهم)[١].

وسبب ظهور هذا النوع من أنواع الأسرة كما يقول انجلز هو الملكية الفردية حيث قال : (كانت الزيجة الوحدانية أول شكل للأسرة مبنى لاعلى أحوال طبيعية بل على أحوال إقتصادية أى على انتصار الملكية الخاصة على الملكية العامة البدائية الطبيعية النشأة)[٢].

والمتتبع لهذه النصوص الواردة عن انجلز يلمس منها مايود الشيوعيون أن يصلوا إليه .

فمن المشاعية الأولى ، وزواج المحارم ، إلى التقليص من ذلك ، إلى طلب النساء الزواج بهن وبالتالى وجود زوجة للرجل تشكل نواة الأسرة ، وأصبحت هذه الزوجة بمثابة الملك الشخصى ، وهو بهذا يريد أن يقول بأن الأسرة ماوصلت إلى هذه الحال إلا مع تطور العامل الإقتصادى ، وأن المشاعية هى الأصل فى المجتمعات السابقة ، حيث خلو ذلك المجتمع من

---

(١) أصل الأسرة (٩٥-١٠٢) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٥٥-٢٥٦) .

(٢) المرجع السابق (١٠١) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٥٦) .

الملكية ، وبالتالى فإن النتيجة الطبيعية لهذه الآراء أن مسألة المحارم والغيرة لاأصل لها بل هى مخترعة من قبل الإنسان .

الأسرة فى الإشتراكية :

نظرا لتغير الملكية فى مرحلة الإشتراكية ، فإن الأسرة ووضع المرأة سيأخذ شكلا آخر ، فالشيوعيون يعتبرون وجود الأسرة مرتبط بالملكية الفردية ، فإذا ماتحولت إلى ملكية جماعية فسيتغير وضع المرأة والأسرة حين ذلك ، وستهب الفتاة نفسها لمن تشاء دون خجل أو تردد ، وسيهدم كيان العائلة ، يقولون عن ارتباط الأسرة بالملكية الفردية : (هدم العائلة حتى أشد الراديكاليين تطرفا تسخطهم نية الشيوعيين هذه الفاضحة المرذولة .

ولكن على أية قاعدة ترتكز العائلة البرجوازية فى الوقت الحاضر؟ إنها ترتكز على الرأسمال والربح الفردى وهى بكامل كيانها وتمام بنيانها ليست موجودة إلا عند البرجوازية فقط ، ولكن تتمتها هى الإلغاء القسرى للعائلة بالنسبة للبروليتارى ثم البغاء العلنى ، إن العائلة البرجوازية تضمحل طبعا باضمحلال تتمتها هذه وكلتاهما العائلة البرجوازية وتتمتها تتلاشيان بتلاشى الرأسمال)[١].

فإذا ماسقطت الرأسمالية ، فإن الأسرة الفردية سوف تتلاشى .

نظرتهم للمرأة :

إن المرأة عند الشيوعيين ليست إلا بضاعة يتناقلها الرجال وتشاركهم فى زيادةالدخول فأباحوا لها الاختلاط ، ومن ثم الزنا وجعلوه أمرا مشاعا ، ولاغرابة فى ذلك حيث إن نظرتهم للعائلة والأسرة أنها نتيجة أوضاع إقتصادية معينة ، وقد أعلنوا صراحة بأنهم يريدون جعل المشاعية الجنسية أمرا مكشوفا للمجتمع كله .

---

(١) البيان الشيوعى (٦١) .

جاء فى البيان الشيوعى : (والآن اسمعوا البرجوازية تصيح من كل جانب انكم أيها الشيوعيون تريدون إشاعة المرأة ، ليست امرأة البرجوازى عنده سوى أداة انتاج بسيطة وهو يسمع أن أدوات الإنتاج يجب أن تكون مشتركة فيستنتج من ذلك بالطبع أن النساء أنفسهن سوف يسرى عليهن ذلك ولايدخل فى وهم البرجوازى أن المسألة هى على العكس تماما وأننا نريد إعطاء المرأة دورا غير هذا الدور الذى تقوم به الآن كأداة إنتاج بسيطة ، ولشد مايضحكنا هذا الذعر فوق الأخلاقى الذى توحيه إلى البرجوازيين إشاعة النساء الرسمية التى يزعمون أن الشيوعيين يدعون إليها .

ليست بالشيوعيين حاجة إلى إدخال إشاعة النساء فهى تقريبا كانت دائما موجودة، ولايكتفى البرجوازيون بأن تكون تحت تصرفهم نساء البروليتاريين وبناتهم ، هذا عدا البغاء الرسمى بل يجدون لذة خاصة فى إغواء بعضهم لنساء بعض)(١).

وقد اعتبر الشيوعيون أن الزواج هو مشاعية للنساء . جاء فى البيان الشيوعى : (ليس الزواج البرجوازى فى الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات فقصارى مايمكن أن يتهم به الشيوعيون إذن هو أنهم يريدون كما يزعم الاستعاضة عن إشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة بإشاعة صريحة رسمية)(٢).

ولأجل هذا قال ماركس : (إن الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة يجب تيسيره دائما ، ومن حق كل شيوعى أو شيوعية أن يشبع رغبته الجنسية دون تقيد بأى قيد ، فهذه الرغبة ـ ككل رغبة بشرية ـ لاحرج من إشباعها بأى طريقة يختارها الإنسان)(٣).

---

(١) (٦٢) .
(٢) (٦٣) .
(٣) نقلا من كتاب الشيوعية فى موازين الإسلام (٩٨-٩٩) .

وعـن العلاقـات بين الجنسين يوضـح انجلـز ذلك فى إجابة على سـؤال يقول ماهو موقف النظام الشيوعى من الأسرة؟

فقـال : (إن النظـام الشيـوعى سـوف يحول العلاقات بين الجنسين إلى مجرد علاقات شخصية تخص المعنيين بالأمر ولايحق للمجتمع أن يتدخل فيها ، ويتحقـق هـذا التحول عند إلغـاء الملكيـة الفردية والبـدء بالتربيـة الجمـاعية للأطفـال ، الأمـر الذى يطيح بالـدعامتين الرئيستين لمؤسسـة الـزواج الحالية تبعيـة المرأة للـرجل ، وتبعيـة الأطفـال للأهل ، هـذا هـو الجواب على كل تخرصات فلاسفة الأخلاق البرجوازيين الذين ينسبون للشيـوعيين عزمهم على اطلاق مشاعية النساء .

إن مشـاعية النساء علاقة لايعرفها إلا المجتمع البرجوازى وهـى تتمثل حاليـا بالبغـاء ، إن البغـاء يرتكـز إلى الملكيـة الفـردية ويزول بزوالهـا)[١].

تربية الأطفال :

بعد أن أعطت الشيوعية المرأة حق المشاعية الجنسية والوصال بمن تشاء أوجبـوا على الـدولة الاهتمـام بالأطفال الشرعيين بالطبـع وغير الشـرعيين ، وهم بهذا العمل يزيلون كل الحواجز التى قد تعترض الفتـاة فى القدوم على هذا العمل خاصة فى ظل غياب الرادع الدينى .

وكـذلك هم بهذه العملية يفصمون العرى الأسرية بأخذ الأطفـال من أهاليهم وتربيتهم فى محاضن جماعية.

يقول البيان الشيوعى : (أتأخذون علينا أننا نريد القضاء على استثمار الأبنـاء مـن قبـل أهلهم وذويهـم؟ إن كـان ذلك فنحن نعترف بهـذه الجريمة وتزعمـون أننـا نحطم أقدس الأواصـر والصلات بإبدالنـا التربيـة فى العـائلة بالتربيـة فى المجتمع ، ولكـن تربيتكم أنتم أليس المجتمـع هـو الذى يحددها . أليسـت تحددها العلاقات الإجتمـاعية التى تربون فيها أولادكـم ، ألا يحددهـا تدخل المجتمع بصورة مباشرة أو غير مباشرة بواسطة المدرسة ...الخ؟

---

(١) تعاليم الماركسية (٣٧-٣٨) .

إن تدخل المجتمع فى التربية ليس من ابتكار الشيوعيين فكل مايفعله الشيوعيون أنهم يغيرون طبيعة التربية ويحورون صفتها وشكلها وينتزعونها من تأثير الطبقة الحاكمة ونفوذها)(١).

والشيوعيون لايقرون ولايعترفون بتلك الأواصر والروابط بين أفراد الأسرة وبين الأطفال وأهاليهم . فلاهم لهم إلا خدمة أهدافهم حتى من وراء الأطفال واعتبروهم سلعا تجارية تعد للمستقبل وأدوات عمل . جاء فى البيان الشيوعى : (إن تشدق البرجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية وعن الأواصر والصلات العذبة التى تربط الولد بأهله أصبحت تقز منها النفس أكثر فأكثر إذ أن الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا وتحول الأولاد إلى مواد تجارية بسيطة وأدوات عمل صرف)(٢).

وهذه التربية الجماعية تتيح للنساء الأمهات الاشتراك بفعالية فى الإنتاج وفى الحياة الإجتماعية ، والعامل الأخير شرط مهم لمساواتهن مع الرجال فى جميع ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية ...)(٣).

وقد اتخذ الشيوعيون من هذا الباب طريقا إلى إخراج المرأة ، والإدعاء بأن ذلك يحقق لها حريتها ويمنحها المساواة مع الرجل ، وقاموا بتحقير العمل المنزلى ، واعتبروه سببا فى ذل المرأة واستعبادها ، ومهانة واحتقاراً لها . وقد أفصح قائد الثورة البلشفية عن كل ذلك فى كلماته التى كان يلقيهاعلى رفيقاته . وهذه مقتطفات من خطابه الذى ألقاه فى مجلس العاملات العام اللاحزبى الرابع لعموم مدينة موسكو فى ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩١٩م يقول : (أيتها الرفيقات إن مسألة وضع المرأة قد طرحتها السلطة السوفيتية منذ بادىء بدء ويخيل إلى أن مهمة كل دولة عمالية تنتقل إلى

---

(١) البيان الشيوعى (٦١-٦٢) .

(٢) (٦٢) ، وانظر : المعجم (٣٨١-٣٨٢) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٣٤) ، سقوط الماركسية (٥٠) .

(٣) المعجم (٣٨١) .

الإشتراكية ستكون مزدوجة النوع ، والقسم الأول من هذه المهمة بسيط وسهل نسبيا وهو يتعلق بتلك القوانين القديمة التي وضعت المرأة فى وضع غير متساو مع وضع الرجل)[١]. وبين أن هذه القوانين لم توفق (لأنه حيثما توجد الرأسمالية حيثما تدم الملكية الخاصة للأرض الملكية الخاصة للمصانع والمعامل حيثما تدم سلطة الرأسمال هناك تبعد الامتيازات للرجال ...)[٢].

ثم يتندر بوضع المرأة فى الدولة البرجوازية وعدم تحقيقها مساواتها بالرجل ، ويعلن أن الدولة السوفيتية هى الوحيدة التى كفلت ذلك فيقول : (فى وسعنا أن نقول الآن بكل اعتزاز ودون أى مبالغة أنه لايوجد فى العالم عدا روسيا السوفيتية بلد تقوم فيه المساواة التامة للمرأة ولاتعانى فيه المرأة حالة الاذلال المحسوسة بخاصة فى الحياة اليومية العائلية ، وقد كانت تلك مهمة من مهامنا الأولى ومن أعظمها شأنا)[٣].

وإذا كان من أهداف الشيوعية إخراج المرأة من منزلها واختلاطها بالرجال وإزالة مابقى لديها من حياء فإن أصحاب الفكر الشيوعى يرون أن بقاء المرأة فى منزلها وعملها فيه من أحقر الأمور ، وإليك بعض ماألقاه لينين على مسامع رفيقاته :

(إن وضع المرأة نظرا لانشغالها بالإقتصاد المنزلى لايزال بعد مقيدا فلأجل تحرير المرأة كليا ولأجل مساواتها فعلا بالرجل ينبغى أن يتوفر إقتصاد إجتماعى عام وأن تشترك المرأة فى العمل الإنتاجى العام ... وآنذاك سيكون وضع المرأة مماثلا لوضع الرجل ...) .

(وأنتن جميعكن تعرفن أنه حتى فى ظل المساواة التامة فى الحقوق يبقى على كل حال ذلك التقييد الفعلى للمرأة لأنهم يحملونها شئون الإقتصاد المنزلى كله ، وهذا الإقتصاد المنزلى هو فى أغلبية الحالات أقل الأعمال التى

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (٢٣-٢٤) .
(٢) المرجع السابق (٢٤) .
(٣) المرجع السابق (٢٥) ، وانظر (٢٧) .

تقوم بها المرأة انتاجية ، وأكثرها وحشية وأشدها وطأة وارهاقا ، وهذا العمل فى منتهى الحقارة والصغر ولاينطوى على أى شىء من شأنه أن يسهم بقدر ما فى تطوير المرأة) .

ويقول : (ونحن الآن نستعد جديا لتمهيد التربة من أجل البناء الإشتراكى والحال لن يبدأ بناء المجتمع الإشتراكى إلا متى عمدنا ، وقد توصلنا إلى مساواة المرأة التامة وانكببنا على عمل جديد مع المرأة المحررة من هذا العمل التافه المخبل غير المنتج ...) .

(نحن ننشىء مؤسسات نموذجية أى مطاعم نهارية ودور حضانة من شأنها أن تحرر المرأة من الإقتصاد المنزلى ، وهنا يوضع على عاتق المرأة بالذات هذا العمل الهادف إلى تنظيم وتسيير جميع هذه المؤسسات ينبغى الاعتراف بأن أمثال هذه المؤسسات التى من شأنها أن تساعد المرأة على التخلص من وضعها كعبدة بيتية هى الآن قليلة جدا فى روسيا ...) .

(ولكنه يجب القول مع ذلك أن هذه المؤسسات التى تنقذ المرأة من وضع العبدة البيتية تظهر حينما تتوافر لذلك أصغر إمكانية)[١].

واعتبر لينين أن القوانين فى الدول البرجوازية وغيرها (قوانين تتسم بحقارة لامتناهية وقذارة منفرة وفظاظة ووحشية حول عدم مساواة المرأة حقوقيا فيما يخص الزواج والطلاق ، وعدم مساواة الأبناء ـ الشرعيين ـ وغير الشرعيين وامتيازات الرجل واستذلال المرأة وإهانتها)[٢].

وهذا الفكر يخرج من مشكاة واحدة هووفكر اليهود القائم على إفساد المرأة . لقد اعتبر الشيوعيون أنفسهم مسئولين عن تحطيم الأسرةحتى لايتم الانتماء إلا للفكر الشيوعى . يقول لينين : (نحن لانؤمن بالأفكار المثالية عن الأسرة فهذه الأفكار المثالية تنادى بجعل الأسرة مجتمعا ذا كيان خاص له استقلاله ، ونحن لانؤمن بمثل هذه المثالية ...)[٣].

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (٢٨-٢٩) ، وانظر المعجم (٣٨٢) .
(٢) ماهى سلطة السوفييت (٣٥) .
(٣) نقلا من كتاب إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٧) .

ويقول ستالين : (دعونى أذكر لكم بصراحة ، أنه من الخطر على حياتنا السياسية تشجيع ذلك المفهوم الخاطىء للأسرة ، وأقصد بذلك الآراء القائلة بأن هناك مايسمى الولاء للأسرة ، فالولاء الوحيد المسموح به فى مجتمعنا هو الولاء للدولة)(١).

ويقول : (كل القداسات زائفة قداسة الأسرة ، وقداسة الزواج ، قداسة الأبوة والبنوة)(٢).

وبعد هذا العرض فإن مجمل أقوال الشيوعيين عن الأسرة والزواج وتربية الأطفال يمكن جعله فى النقاط التالية :

أولا : أن الزواج من امرأة واحدة ، ووجود الأسرة الفردية يعتمد على وجود الملكية الفردية ، أى أن العامل الإقتصادى هو الذى أوجدها وبالتالى إنكار فطرية هذا الجانب فى النفس الإنسانية .

ثانيا : أن المشاعية النسائية هى الأصل الأول الذى كانت عليه البشرية .

ثالثا : أن العمل المنزلى وبقاء المرأة فى بيتها يؤدى إلى استعبادها وإذلالها .

رابعا : أن تربية الأطفال فى المحاضن الجماعية سيريح الأمهات من زيادة أعباء المنزل ، وسيؤدى إلى آثار إيجابية على الأطفال .

خامسا : دعوى مساواة المرأة بالرجل .

إبطال مزاعم الشيوعية وبيان مصادمتها للفطرة الإنسانية :

أولا : إبطال زعمهم أن الميل إلى الزواج وتكوين الأسرة إنما كان بسبب العامل الإقتصادى .

يرد على هذا الزعم بالوجوه التالية :

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٧) .
(٢) المرجع السابق (٤٨) .

الوجه الأول : أن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ينقضان هذا الزعم من أساسه إذ أن الزواج ، وميل الرجل إلى المرأة ، والرغبة فى إقامة الأسرة وإنجاب الأطفال أمور فطر عليها الإنسان . وقد تبينا أن آدم عليه السلام كان مفطورا على ذلك ، فاعلا له ، وإذا كانت هذه الغريزة موجودة فى الرجل والمرأة كان لابد من وضع تنظيم لها حتى لاتفسد ، فأحل الله تعالى الزواج . يقول د. سعد الدين صالح إن (الإسلام دين الفطرة يلائم دائمًا طبيعة الإنسان وغرائزه ويلبى هذه الغرائز بوضعها فى اطار مشروع وغريزة الجنس من أقوى الغرائز البشرية لذلك اهتم بها الإسلام ووضع لها الطريق الطبيعى والأمثل للتنفيس عنها وهو الزواج فهو الطريق الوحيد لبناء المجتمع الفاضل والعلاقة الوطيدة المشروعة بين الرجل والمرأة)(١).

إن كثرة الرجال والنساء ، ووجود هذه الغريزة الفطرية تقتضى وجود نظام دقيق حتى لايحدث الخلل والفساد ولن ينضبط ذلك إلا بالزواج . (لقد استلزم وجود رجال كثيرين ونساء - لارجل واحد وامرأة واحدة - تنظيم صور "التجاذب" الذى يحدث حدوثا فطريا بين الرجال والنساء ، لكى لايصبح فوضى تصطدم فيه مختلف "التجاذبات" فتؤدى إلى ضياع "السكن" المرجو لكل نفس من جهة ، وتؤدى إلى فساد روابط المجتمع من جهة أخرى)(٢).

وهكذا وجد الميل إلى المرأة فى النفس الإنسانية ، وكان لابد من إيجاد الطريق لهذه الغريزة وهو الزواج .

الوجه الثانى : أن الطريق الوحيد الذى يخلو من الفوضى لتلبية هذه الفطرة هو الزواج ، وهذا مالايريده الشيوعيون حيث إن ذلك سيؤدى إلى نسف آرائهم ومعتقداتهم الداعية إلى أن تكون المرأة مشاعة بين الرجال ،

---

(١) احذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام (٢٠٩) ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) التطور والثبات فى حياة البشرية (١٩٧-١٩٨) .

والخالق جل وعلا عندما خلق هذه الفطرة فى النفس الإنسانية ماكان ليحرمها من إشباعها أو تحقيقها فجعل سبحانه لها طريقا (لاكبت ولاحرمان ولكن تنظيم . تنظيم يشمل الفرد والمجتمع فى ذات الوقت)[١]. فإذا ثبت هذا الميل من الرجل تجاه المرأة ، وهذا لانزاع فيه ، فإن الدين لايقبل لقاء المرأة بالرجل (إلا بعقد تستحل فيه الفروج بكلمة الله وإذنه ...)[٢]. ومن هنا تنشأ الأسرة ، وتكون الذرية ، وهذا مالايريده الشيوعيون ، إن ترك هذه الغريزة بدون ضابط وبدون إيجاد مخرج لها سيؤدى إلى فساد كبير ، فهذا الزعم الشيوعى يتعارض مع فطرة الإنسان وإذا أقر به وأطلق له العنان كان الشر الذى يهلك الأوطان .

الوجه الثالث : أن هذه الفطرة التى تقوم على التجاذب بين الرجل والمرأة من دواعيها الرغبة فى الخصوصية لاالمشاعية . ثم إن المجتمع الشيوعى بذاته يرد على هذا الزعم القائل بالمشاعية ، ويؤيد القول بالفطرة فى الميل إلى المرأة والاختصاص بها دون الآخرين ، فواقعهم يكذب نظرياتهم يقول محمد قطب : (إن المجتمع الغربى ـ أو الشيوعى ـ لم يصل بصورة الفوضى الكاملة فما زال فيه أفراد فاضلون "بل متطهرون" بل "متزمتون" يحافظون على التقاليد وينظرون بتقزز عنيف لتلك الفوضى الجنسية الضاربة بأطنابها هناك ...)[٣].

ويقال لهؤلاء إن الفطرة التى غرس فيها الميل إلى المرأة ، غرس فيها أيضا حب الإنسان ألا يشاركه أحد فى زوجته ، بل إن الحيوان وهو الذى لايعقل وجدت فيه هذه الغريزة فقد أثبت العالم وستر مارك وجود شكل

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٠٧) . ولمزيد عن هذه المعانى انظر (٢٠٥-٢٠٦، ٢١٣-٢١٥) ، وانظر الحجاب (٢٥٢-٢٥٣) .

(٢) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٣٥) .

(٣) التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٠١-٢٠٢) .

الأسرة الأحادية عند بعض أنواع القردة العليا حيث يغار الذكر على الأنثى ، ويدافع عنها ولايسمح لاى ذكر آخر بالاقتراب منها)[١].

الوجه الرابع : أن هذه الأمور التى فطر عليها الإنسان من ميل إلى المرأة ، ورغبة فى الاقتران بها ، ثم أن تكون خاصة له دون غيره ، وجد معها فطرة أخرى جعلها الله تعالى فى نفسه وهى رغبته فى أن يعيش ضمن أسرة يكتنفها السكن والرحمة ، قال تعالى : {**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها**}[٢]، فهذا السكن شعور فطرى بداخل الإنسان يطمح إليه ويرغب فى تحقيقه ، ولو لم يكن موجودا ويجده فى الزواج وإقامة الأسرة لاكتفى بفعل الحرام . يقول محمد قطب : (هذا السكن وهذه السكينة عنصر هام فى نشأة الأسرة واستمرارها مدى التاريخ البشرى كله ، وهو سبب نابع من "الفطرة" التى تحب هذا السكن وهذه السكينة بصرف النظر عن الدافع الجنسى الذى يمكن أن يتحقق بأية وسيلة ...)[٣].

إن الأسرة (هى الصورة المثلى للحياة المطمئنة التى تلبى رغائب الإنسان وتفى بحاجات وجوده ، وهى الوضع الفطرى الذى ارتضاه الله سبحانه لحياة البشر منذ فجر الخليقة {**ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية**}[٤])[٥].

(إن المشاعر والعواطف التى تنمو فى جو الأسرة غذاء لاتستغنى عنه النفس ولايكفيها سواه ، مما يجعل الأسرة نعمة ورحمة تقى التعاسة والشقاء ...)[٦]. ولأجل ذلك اهتم الإسلام بها اهتماما كبيرا (باعتبارها اللبنة الأساسية

---

(١) الدين والبناء العائلى (١٢) نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٦) .
(٢) سورة الروم : (٢١) .
(٣) مذاهب فكرية معاصرة (٣٥٢-٣٥٣) .
(٤) سورة الرعد : (٣٨) .
(٥) الأسرة فى الإسلام (١٣) ، د. مصطفى عبد الواحد ، الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م دار البيان العربى ، جدة ، وانظر صوت المنبر (١٩٣-١٩٤) .
(٦) الأسرة فى الإسلام (١٤) .

فى بناء المجتمع)[١]، و(حرص على صيانتها من عوامل الفساد ، وطوارىء الانحلال ، وخصها من التشريع بما يحمى كيانها ، ويضمن سعادتها ، ووضع لها أقوم الوسائل لمعالجة مشكلاتها)[٢]. إن هذا الاهتمام بالأسرة من قبل الإسلام الذى هو دين الله تعالى خالق الأولين والآخرين ليدل دلالة واضحة على أن الإنسان فطر على هذه الأمور وأن هذه السبل هى التى تحقق له غايته دون خلل أو زلل .

الوجه الخامس : أن الرغبة فى الذرية أحد الأمور الفطرية التى تلحق بما ذكرناه سابقا ، وبالتالى فإن بقاء هذه الذرية فى كنف الأب والأم هو الأصل ، وأن انتزاع هذه الذرية منهما سيخلف الشرور والمفاسد للآباء والأبناء . وقد أثبت تعالى فطرة الإنسان فى حب الذرية ، وهذا لن يكون إلا عن طريق التقاء المرأة بالرجل . قال تعالى : {**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين** ...}الآية[٣].

كما أن الله تعالى أخبر عن بعض الناس تمنيه لهذه النعمة فقال تعالى عن زكريا : {**رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين**}[٤].

وهكذا يظهر لنا التلازم القائم بين هذه الأمور بدءا من الميل إلى المرأة ثم الارتباط بها ، والسكن إليها ثم تطلعه إلى إنجاب الذرية منها وفى كل ذلك دليل على أن الإنسان مفطور على إقامة الرباط الزوجى والحياة الأسرية ، والسعادة بالذرية التى يقوم على تربيتها ، وفى هذا إبطال لزعم الشيوعية بأنها ليست من الأمور الفطرية .

ثانيا : إبطال زعمهم أن الأسرة لم يكن لها أصل فى المجتمعات القديمة وأن المشاعية النسائية هى الأصل ، وهذا زعم باطل وبيان بطلانه من وجوه:

---

(١) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية (١٦٣) .
(٢) مناهج الشريعة الإسلامية (٢/٢٣٩) .
(٣) سورة آل عمران : (١٤) .
(٤) سورة الأنبياء : (٨٩) .

الوجه الأول : أن هذا مجرد إدعاء يبطله كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالأخبار التى جاءت فيهما عن آدم وزوجته حواء عليهما السلام .

وأخبرنا تعالى أن أبا البشر هو آدم عليه السلام ، فهل يعلم الشيوعيون أن هناك أحدا قبل آدم فمن هم؟ وماهو تاريخهم؟ ومن أين لهم هذه الحقائق عن ذلك النظام؟

فإذا ماقالوا بأن المقصود بالمجتمعات القديمة فترة من التاريخ بعد آدم فيبطلون دعواهم بأنفسهم (بأن الأصل عدم وجود الزواج الأحادى والأسرة) لأنه لايلزم من وجود هذا النظام المشاعى أو غيره فى فترة من الزمن أنه هو الأصل فإن الفطر تنحرف عن الحق الذى خلقت عليه .

الوجه الثانى : أن آراء ماركس وانجلز عن المجتمعات القديمة لاتقوم على علم ودراية وبحث علمى دقيق ولكنها ضربا من التخمين وجر مجريات التاريخ حسب أهوائهم وآرائهم حتى يتأيدوا بها فيما يذهبون إليه ، فادعاء ماركس بأن المجتمع الإنسانى لم يعرف نظام الأسرة إلا متأخرا إدعاء (كل ماله من شبهة فى هذا المجال هى أبحاث بعض علماء الانثروبولوجيا التى تمت فى القبائل البدائية التى تعيش اليوم فى مجاهيل أفريقيا أو فى مناطق أخرى من العالم فتخيل ماركس أن البشرية قد بدأت حياتها بنفس الطريقة ، وتغافل ماركس عن أبحاث كثيرة أثبتت أن نظام الزواج والأسرة موجود فى مجتمعات بدائية أخرى كما هو واقع بين سكان جزر الاندمان فى المحيط الهندى ، ولكن ماركس يريد أن يأخذ من الظواهر مايؤيد نظريته وكعادته يتغافل عن الظواهر المعارضة)(١).

ومن المعلوم أن الانحراف قد وقع فى النفس البشرية حتى فى عبادة ربها فإن ماعدا ذلك من باب أولى ، هذا إذا سلمنا بوجود هذه المجتمعات

---

(١) الدين والبناء العائلى (١١٣) ، نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٦) .

التى يرى ماركس أنها قامت على المشاعية المطلقة بين الرجال والنساء ، وإلا حقيقة الأمر أن ماركس لايملك دليلا واحدا قاطعا على أن الشيوعية المطلقة كانت موجودة فى أى مجتمع من المجتمعات السابقة .

الوجه الثالث : أن ماركس اعتمد على بعض النظريات القائلة بعدم وجود قضايا الفطرة فى النفس الإنسانية ، هذا بالإضافة إلى بعض ماجاء عن أصحاب الفكر الإشتراكى السابقين عليه كأفلاطون وغيره ، وكان يظن أن هؤلاء قد اعتمدوا على أصول أو حقائق علمية بينما الحقيقة كانت مجرد آراء وتصورات لهم يرون أنها أولى بالتطبيق من غيرها ، فأخذ هذه الآراء الشخصية فجعل منها فكرا نسبه لنفسه ادعى فيه أن الشيوعية هى الأساس الذى كانت عليه البشرية ، فأنزل ماركس الآراء الشخصية والأفكار النظرية منزلة الحقيقة الواقعية ، وهذا بعيد عن المنهج العلمى ، والتثبت ، واستخدام المقايسة ، ولكن لاغرابة فى ذلك لأن هذه الأفكار السابقة عليه تتوافق مع هواه وتخدم فكره ، فهو أنكر الإله ، فلابد أن ينكر كل ماجاء عنه تعالى من أخبار عن الحقائق الفطرية سواء عن الملكية أو الحياة الأسرية.

ثالثا : إبطال زعمهم أن التربية الجماعية للطفل أكبر أثرا ونفعا من التربية الخاصة أى تربية الأطفال فى أحضان أسرهم .

وهو قول باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن الأسرة هى المكان الطبيعى الذى ينشأ فيه الطفل ليكون إنسانا سويا فيما بعد ، وذلك لأن الأسرة تعطيه الحنان فينمو نموا طبيعيا ، وقد فطر الإنسان على أن يعيش فى كنف الأسرة .

(فالطفل لابد له من النشأة فى أسرة وإلا نما مبتور العواطف ، شاذ السلوك ، وحاجته إلى أمه وأبيه حاجة أصيلة ، لايغنيه عنها حياة أخرى أو تعهد ، كذلك يحتاج الإنسان إلى الأسرة شابا ورجلا وكهلا لايجد رعاية فى غيرها ولاترضى فطرته بديلا عنها ، فيظل مفتقرا أبدا إلى حمايتها متعطشا إلى عواطفها ومشاعرها ...)[1].

---

(١) الأسرة فى الإسلام (١٤) ، وانظر الإنسان بين المادية والإسلام (١٨٧) .

الوجه الثانى : لقد ثبت بما لايدع مجالا للشك أن الأطفال الذين ينشأون فى محيط أسرهم يكونون أكثر طمأنينة وراحة نفسية من الآخرين ، بل إن المدارس والمحاضن لايمكنها أن تعطى ماتعطيه الأسرة للطفل وبقيادة الأم ، يقول اليكس كاريل : (لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تربية الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما ، ولهذا تترك الأمهات أطفالهن بدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن أو مطامعهن الإجتماعية ، أو مباذلهن أوهوايتهن الأدبية أو الفنية أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما ، وهكذا يمضين أوقاتهن فى الكسل .. انهن مسئولات عن إختفاء وحدة الأسرة وإجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أمورا كثيرة .. إن الكلاب الصغيرة التى تنشأ مع جراء من نفس عمرها فى حظيرة واحدة لاتنمو نموا متكاملا كالكلاب الحرة التى تستطيع أن تمضى فى أثر والديها .. والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء ، لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى للقوالب الموجودة فى محيطه ، إذ أنه لايتعلم إلا قليلا من الأطفال الذين فى مثل سنه ، وحينما يكون وحده فقط فى المدرسة فإنه يظل غير مكتمل ولكى يبلغ الفرد قوته الكاملة فإنه يحتاج عزلة نسبية واهتمام جماعة إجتماعية محددة تتكون من الأسرة)[١].

الوجه الثالث : إن نتائج التربيتين لتدل دلالة واضحة أن التربية فى أحضان الأسرة يفيد منها الطفل الشىء الكثير فى سلوكياته وأخلاقه ، وفى عواطفه وتوجهاته ، فالإحساس بالاطمئنان والاستقرار النفسى ينعكس على الشخص فى مستقبل أيامه ، وتظل التربية خارج محيط الأسرة تربية ناقصة ينجم (عنها خسارات كبيرة يتجرعها الطفل وأبواه أولا ، ثم يجنى المجتمع

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (٣٠٥-٣٠٦) .

ثمارها حنظلا مريرا بعد ذلك ...)[١].

(إن التربية "بالجملة" فى المحاضن ومأأشبهها تخرج أجيالا شاذة منحرفة ناقصة الآدمية ...)[٢].

الوجه الرابع : أن الرابطة التى بين الابن وأبيه رابطة فكرية لايمكن للشيوعية أن تستأصلها من النفس الإنسانية . وقد ضرب الله تعالى لنا قصصا كثيرة تدل على أن هذه الآصرة لايمكن التخلى عنها إلا بسبب واحد حال الكفر والإيمان ، فمن ذلك قصة نوح عليه السلام مع ابنه ، وقصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، وقصته مع ابنه إسماعيل عليه السلام عندما أمر أن يذبحه واستجابة ابراهيم عليه السلام لذلك ولو لم تكن تلك الآصرة من الفطرة لما كان الابتلاء بها ، وقصة أم موسى عليه السلام والقاءه فى اليم ، فكل هذه الأدلة دليل على أن هذه الآصرة مفطور عليها الإنسان ، فمن أين لماركس تاريخ كهذا يثبت من خلاله دعواه أن الزواج والحياة الأسرية ليست من الأمور الفطرية .

رابعا : إبطال زعمهم أن الحياة الأسرية ليست إلا انعكاسا للأوضاع الإقتصادية .

وهذا الزعم باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن الشيوعية دأبت على تفسير الأمور الثابتة بأنها متغيرة وأن تغيرها يتم حسب التطور الإقتصادى ومن ذلك الأسرة ، وهذا زعم يبطله ماقررناه سابقا من فطرية الزواج والحياة الأسرية ، وكونها سابقة على الأوضاع الإقتصادية التى يرى الشيوعيون أنها سبب فى وجود هذا النوع من الأسرة . هذا بالإضافة إلى أنهم قد بالغوا فى تقدير العامل الإقتصادى وأثره وقد اعترف انجلز أنه اهتم هو وصديقه ماركس بالعامل الإقتصادى وأهملا ماعداه .

---

(١) المرأة فى التصور الإسلامى (٦٤-٦٥) .

(٢) التطور والثبات فى حياة البشرية (٣٢٢-٣٢٣) .

الوجه الثانى : من المسلّم به أن الأشياء التى يخترعها الإنسان إنما يخترعها من أجل تحقيق مجموعة رغباته الفطرية فهو لم يخترع ثم يفكر بعد ذلك فيما يستخدم هذا الاختراع ، فوسائل الإنتاج عندما تطورت لايعنى أن الأسرة تغيرت وتبدلت ولو حدث خلاف ماكانت عليه فإنما هو (تحقيق للفطرة وليس تغييرا للفطرة ، تحقيق لها بتنمية إمكانياتها العملية على الدوام .. وهذا يزيد مساحتها ويعيد تشكيلها على الدوام فى أشكال جديدة ولكنه لايضيف إليها عنصرا لم يكن موجودا فى جوهرها .. وفرق بين التنمية والتشكيل فى حدود الاطار الموجود بالفعل وبين استحداث أمر فى ذلك الإطار ...)(١).

فليست وسائل الإنتاج والأدوات والأوضاع الإقتصادية هى التى أوجدت الرغبة فى النفس الإنسانية للزواج وإقامة الأسرة .

فلايقول عاقل أن إنشاء المصانع الكبيرة ووجود الأموال الكثيرة هى التى دفعت الرجال إلى الزواج وإقامة الأسرة والرغبة فى الإنجاب ، بل إن هذه الرغبات المتأصلة فى النفس الإنسانية هى الدوافع الحقيقية لإقامة المصانع والخروج إليها والعمل فيها لإيجاد الحياة الآمنة لنفسه ولأسرته واشباع غرائزه الأخرى من تملك وغيره .

(ومن ثم "فالتطور" الذى يحدثه الاختراع أو الاكتشاف الجديد فى نفس الإنسان هو التنمية الدائمة للرغبات الفطرية الموجودة من قبل فى حالة كامنة باعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق أوسع ، وأشمل وأدق وليس هو إنشاء الرغبات الفطرية من حيث لاتكون ، والتنمية والإنشاء شىء آخر ...)(٢).

إذا فتطور نظام الأسرة لايعنى عدم وجوده من قبل .

---

(١) التطور والثبات (١٠٩-١١٠) .

(٢) المرجع السابق (١٠٨-١٠٩) .

الوجه الثالث : أن المجتمعات التى عرفتها البشرية لم تخل من وجود الأسرة رغم اختلاف نمط الحياة الإقتصادية فيها . حيث (وجد فى مجتمع العبيد فى ظلمات التاريخ ووجد فى المجتمع الرعوى ، والمجتمع الزراعى ، والمجتمع الصناعى ، وعلى الرغم من الانهيار "الإنسانى" الذريع الذى يعانيه الناس فى القرن العشرين فيدمر فطرتهم تدميرا ... مازال الزواج والأسرة نظامين "طبيعيين" تحدث النظم الأخرى [الاباحية والتحلل] إلى جانبها كشذوذ يصيب البشرية بالدمار لا"كتطور" يهدف إليه العقلاء ، أو يرتاح إليه العقلاء!..)(١).

ثم إن ربط التبدل والتغير بتطور وسائل الإنتاج ليس دليلا علميا ولاواقعيا فنحن نرى روسيا قد استخدمت ماتم تصنيعه وإعداده فى فرض الفكر الشيوعى ، بينما نرى الغرب يسخر طاقاته ومخترعاته فى توطيد الفكر الرأسمالى فكيف اختلفت الأفكار مع توحد وسائل الإنتاج بل واتفاقها فى أكثر الأشياء؟!!

خامسا : إبطال زعمهم أن الأسرة والزواج واختصاص الرجل بامرأة واحدة إنما كان بسبب الملكية الفردية .

اعتبر الشيوعيون أن الملكية الفردية هى سبب كل الشرور ولن تسعد البشرية إلا إذا تم القضاء عليها ، ومن الأمور التى رتبوها على الملكية وأنها كانت سببا فى وجودها الحياة الأسرية وفطرية الزواج . وهذا زعم باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن نظام الزواج ورغبة الإنسان فى تكوين أسرة يعيش فى ظلها أمر فطرى دون أن يكون للملكية دخل فيه ، فهذه الحيوانات والطيور يوجد فيها نظام الأسرة . يقول الخفاجى : (إن نظام الأسرة نظام فطرى موجود حتى فى الطيور والحيوانات الراقية بغير سبب من الملكية ، وهى فى الإنسان له قدسيته الخاصة ويمثل وحدة حركية إنسانية ذات قيم ثابتة

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية (١١٥-١١٦) .

وذات دور كبير فى تنمية كل قدرات الإنسان ... ولم يستطيعوا هم أن يتخلصوا منه فى حياتهم برغم كل انحراف)(١).

الوجه الثانى : أن الملكية الفردية ليست السبب فى وجود النزعة الفطرية فى الزواج وإقامة الأسرة وإنجاب الذرية بل إن الملكية والرغبة فى الحياة الأسرية كلاهما من الأمور الفطرية فلاحبه للزواج هو الذى دفعه لحب التملك ، ولاالملكية الفردية هى التى دفعته لتلك الأمور .

بل هى من غرائزه التى يرغب فى تحقيقها كلها .

ثم لماذا لايكون الأمر معكوسا وهو أن الزواج وحب الإنفراد بالزوجة دون الآخرين هو الذى أدى إلى وجود الملكية الفردية ؟!!

سادسا : إبطال زعمهم أن فى خروج المرأة إلى العمل تخفيف من أعباء الإقتصاد المنزلى وخروج من الإذلال المفروض عليها .

وهذا فساد كبير وزعم باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن بقاء المرأة فى بيتها ، وممارستها لعملها فيه ، لهو الشىء الذى يتفق مع طبيعة تكوينها ، ومن أصدق مايمكن أن يستدل به على هؤلاء القوم "الملحدين" الواقع الذى يعيشونه وتعيشه الدول التى أخرجت النساء من البيت فكم هى الصيحات التى أطلقتها النساء فى هذه الدول يطالبن فيها بعودة المرأة إلى بيتها واهتمامها بزوجها وأسرتها وأطفالها.

الوجه الثانى : يقال لهؤلاء : هل الأعمال التى خرجت المرأة لممارستها فى المصانع والمعامل الإنتاجية أيسر من تربية الأطفال والاهتمام بشئون الأسرة ؟!!

ثم كم هى المفاسد التى ستقع من جراء خروج المرأة فى مجتمع يفتقر إلى الدين ؟!!

---

(١) حوار مع الشيوعيين (١٥٤) .

ثم هل الأطفال سيجدون الرعاية والتربية التى كانوا سيجدونها فى أحضان أمهاتهم؟

ثم ماهو حال الأسرة إذا خرجت الأم للعمل وخرج الأب كذلك لطلب الرزق؟!!

إن الشيوعية قد أصمت آذانها عن ذلك كله ، وأغمضت عينيها ولاغرابة فى ذلك فإن القلوب قد عميت عياذا بالله[1].

الوجه الثالث : الجمهورية السوفيتية واجهت بنظرتها تلك إشكالات كبيرة حيث (كانت أول دول العالم التى أمسكت الورقة والقلم وبحسبة بسيطة اكتشفت الحقيقة التى كان فيها الحل الأمثل لمشكلة كانت تعانى منها كثيرا المشكلة هى إيواء الأعداد الهائلة من الأطفال أثناء دوام الأمهات العاملات - أى دور الحضانة لم يكن هناك مشكلة فى إيجاد دور الحضانة بل المشكلة كانت فى أن هذه الأعداد الهائلة من الأطفال كانت تحرم من الرعاية السليمة والتنشئة الطبيعية فى البيت وبين أحضان أمهاتهم ، وقد تبين لهم خطورة هذا الحرمان وتأثيره على نمو الطفل ولهذا بدأوا فى البحث عن حل .. وكان الحل فى الحسبة البسيطة التى أجروها فقد رأوا لو أعطوا الأمهات العاملات رواتبهن التى يتقاضينها من أعمالهن بالكامل ويتفرغن لتربية أولادهن فى البيوت ويعفين من أعمالهن الخارجية لكان مجموع تكاليف هذه الرواتب أقل بكثير من تكاليف ونفقات دور الحضانة التى توفرها الدولة ، فكان القرار الذى يحل المشكلة هو تفرغ الأمهات العاملات لتربية أولادهن ورعايتهم وعودة المرأة العاملة إلى بيتها من جديد)[2].

---

(١) عن خطورة الاختلاط ، ومشاركة المرأة للرجال فى العمل والنواحى السياسية ، وسبب متاعب المرأة الغربية بسبب مشاركتها للرجل فى كثير من المرافق والنقولات عن علماء الغرب ومفكريهم . انظر المرأة بين الفقه والقانون (١٦٧-٢٠٥) .

(٢) نشرت ذلك مجلة (أسرتك) نقلا من دور المرأة فى المجتمع الإسلامى (٢٣٢-٢٣٣).

الوجه الرابع : أن إخراج المرأة إلى العمل قد أدى إلى مفاسد عديدة تتعلق بالمرأة فأصبح لاحق لها فى تربية أولادها ، وبالتالى لاحق لها فيما بعد فى حنانهم وبرهم ، وأصبحت المرأة كالآلة ، ولم يعد لها حق فى المحافظة على عرضها فالعرض والشرف عندهم مجرد قيم بائدة ، ولابد من إزالتها[١]، إن كل هذه الأمور تخالف الفطرة الإنسانية التى خلقت عليها المرأة ، وبالتالى فإن هذه المصادمة لابد وأن تزول وتنتصر الفطرة كما هى سنة الله تعالى .

الوجه الخامس : أن العقلاء من المفكرين الروس وغيرهم من الغرب أيقنوا أن مكان المرأة المتلائم مع فطرتها هو المنزل . يقول تولستوى : (على الرجل أن يكد ويشتغل وماعلى المرأة إلا أن تقيم فى البيت لأنها زوجة أو بعبارة أوضح لأنها إناء لطيف سريع الانكسار)[٢].

ويقول أرسطو : (إن المرأة أقل عقلا من الرجل ، ولذلك يجب أن يكون للرجل وحده أمور الدولة وللمرأة أمور المنزل والأولاد تحت عنايته وإشرافه)[٣].

وتقول (أنا رود) : (لأن تشتغل بناتنا فى البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من انشغالهن فى المعامل ، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد ، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين ، فيها الحشمة والعفاف رداء ... فمالنا لانسعى وراء مايجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية ، من القيام فى البيت وترك أعمال الرجال سلامة لشرفها)[٤].

---

(١) انظر انهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٣٧-٣٣٨) .
(٢) المرأة ومكانتها فى الإسلام (٩١) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (٤٣) .
(٤) نقلا من المرجع السابق (٩١) .
ويمكن الرجوع إلى الملاحق فى كتاب المرأة بين الفقه والقانون (٢٠٩-٣٣١) من أجل الاستزادة عن وضع الغرب بالنسبة للمرأة وضياع الأسرة وتفككها بسبب خروج المرأة ومخالطتها للرجال وكثرة الفساد وأقوال المفكرين فى العودة إلى التعدد ، ومطالبة المرأة الغربية به وعن الفساد بسبب الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل .

إن الفساد الذى عم البلاد والعباد بسبب خروج المرأة قد أرق العقلاء فى الدول الغربية والشرقية على حد سواء ، وهذه المطالبة دليل على أن الفطر تنزع إلى العودة إلى أصلها الذى خلقت عليه .

سابعا : إبطال زعمهم المساواة بين الرجل والمرأة .

وهذا أمر لايمكن تحقيقه وهو قول باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن الله تعالى قد أبان أن الرجل يختلف عن المرأة فى أمور ، وهذه الأمور ليس القصد منها نقصان فى المرأة بل التكريم لها والتكليف للرجل .

الوجه الثانى : أن كلا الجنسين مختلف عن الآخر فى تكوينه وفطرته . يقول اليكس كاريل : (الحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شىء بالنسبة لجهازها العصبى ، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبى فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة)[١]. ويقول : (يجب أن يبذل المربون اهتماما شديدا للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى وكذا لوظائفها الطبيعية فهناك اختلافات لاتنقضى بين الجنسين ، ولذلك فلامناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين)[٢].

الوجه الثالث : أن الحياة الواقعية تدل على الخلاف بين الجنسين إن فى ميولهما ، أو عواطفهما ، ولأجل ذلك حذر العقلاء والمفكرون من إسناد الأمور للنساء ، أو جعلها فى أيديهن لأن فى ذلك هلاكا للأمة ولايعنى

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (١٠٨-١٠٩) .

(٢) المرجع السابق (١١٠-١١١) .

ذلك نقصا فى المرأة ، ولكن تكوينها لايتناسب مع الأمـور الكبيرة التى تحتاج حزما وقوة ، وبعدا عن العاطفة ، ولأجل ذلك نجد الإسلام لم يفـرض الجهاد على المرأة ، ونجد أغلـب الـدول الحديثة لاتوصل المرأة إلى قيـادة الـدولة . يقـول هيغل : (إذا كانت النسـوة فى رأس الحكومة فـالدولة فى خطـر لأنهن لايفعلـن بحسـب متطلبات الكليـة بل تبعـا للميول والآراء العـرضية ...)(١).

الوجه الرابع : أن هذه المساواة ليست إلا دعوة فارغة عن الحقيقة لأن الفطرة ترفضها ، والواقع لايصدقها ، والعقل السليم يمقتهـا ، والدولة صاحبة الفكر الشيوعى تخالفها ، فلماذا لاتصل المرأة إلى القيادة العليا للحزب فيها؟! ولماذا لم يتخل لينين وأتباعه عن السيطرة لها ، فهى (مسـاواة جائرة أساسها إنهيـار بنـاء الأسـرة ونكول الـرجل عـن إعالة المرأة ، واضطـرارها إلى أن تعمل مثله لتعيش)(٢).

ثامنا : بطلان زعمهم أن فكرة المحرم فكرة مخترعة .

إن هـذه المقـولة تنطبـق عليهـم إذ لادين يضبـط حيـاتهم ولاأخلاق يسيرون عليهـا فى معاملاتهم . بل يدعـون إلى الإلحاد والـرذيلة ويأمرون بها ويرون أن السعادة فى زوال مامن شأنه أن يثير الحميـة والاختصاص والأثرة ، ومـن هـذا القبيل الأسرة ووجود الأطفـال لأنها تدعـو إلى الاختصـاص ، وظنوا أنهم سيصلون إلى تحقيق ذلك .

---

(١) مختـارات هيغل (١١٠/٢) ، ترجمة الياس مرقص ، الطبعة الثـانية ١٩٨٩م ، المكتبة الفلسفية .

(٢) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٧٦) .
إن الإسلام (يعترف بتكـافؤ الجنسين لابتماثلهما ، لأن التمـاثل ليس حقيقة ، وهو لذلك يفرق بينهما فى بعض الحقوق والواجبات التى تنشأ مـن اختلاف طبائعهما ، واختلاف وظـائفهما بعد أن سـوى بينهما فى الأمور الأخرى التى تتصـل بالإنسان من حيث هو انسان) . الإنسان بين المادية والإسلام (١٩٩) .

وبالعمـوم فـإن اللـه تعـالى أخبرنا أن الـزوجة سكـن ، وجعـل بين الـزوجين المودة والـرحمة ، ومـن هنـا يفترض فى كـل واحد منهمـا حرصه الـدائم على رضـاء الطرف الآخر والإبقـاء على هـذه المودة ومـن هنـا كانت الغيرة نتيجة طبيعية طالما أن الحال كذلك .

وأما المحرم فهو مخترع كما تراه الشيوعية .

ولاتملـك الشيوعية أكثر من هذا القول أمام الحقائق الفطـرية والحقائق التى يصـدقها الواقع ، وعداءهم للمحرم لأنه يمثل عائقـا حقيقيا فى وجوههم وطريق نشر الإباحية والمشاعية .

فوجود المحرم والغيرة سيجعل الإنسان يرفض ماتدعـو إليه الشيوعية .

ومـن هنا نجدهم حاربوا الملكيـة الفردية وكل مايدعـو إلى زيادة هـذا الشعور فى النفس الإنسانية .

وقـالوا بأن الشيوعية ستحقق للفتاة ماتتمناه من حرية فى هـذا الجانب وتهب نفسها لمن تشاء ولن يكون ذلك إلا إذا زال المحرم وزالت الغيرة من النفس البشرية .

ونقول لهم أيضا إن الحيوانات قد وجدت بينها الغيرة حيث إن بعض الـذكور تأخذه الغيرة على أنثـاه ، فإذا كان هذا الشعـور فى الحيـوانات التى لاتعقل فكيف لايكون موجودا فى الإنسان متأصلا فيه؟!!

مع أن وجود الملكية عند الحيوانات تكاد تنعدم إذا حصلـت على قوت يومهـا فى الغالب فكيف يفسـرون ذلك؟ إن هذا الذى قـالوه تخبط وظلمات بعضها فوق بعض ماتلبث أن تزول إذا عرف الحق وأشـرقت شمس الحقيقة .

وهكذا يتبين لنا فساد أقوالهم ومزاعمهم عن الأسـرة والحياة الزوجية وتربيـة الأطفال . ثم إن مـن أعظم مايمكن أن يرد به على مـزاعم الشيوعية هو واقع الاتحاد السوفييتى .

واقع الاتحاد السوفييتى ومصادمة فطرية الزواج والحياة الأسرية :

كان الاتحاد السوفييتى أشد الأمم محاربة للأسرة والقضاء عليها وكانوا يهدفون من ذلك أن لايكون هناك أدنى ولاء لغير الدولة ، ولاعتبارهم أن نظام الأسرة يزيد وينمى من مشاعر الملكية الفردية فالقضاء عليها ومصادرتها سيحقق المصلحة للشيوعية ، ومع ذلك لم تستطع أن تصل إلى ماسطرته فى فكرها . يقول محمد قطب : (إن روسيا الشيوعية لهى أشد الأمم محاربة للأسرة ودعاية للمحاضن ووراء هذه الحرب تكمن شهوة ملحة فى مقاومة الفطرة الطبيعية فى مسألة الملكية الفردية ، فهم يقولون إن نظام الأسرة هو الذى يربى مشاعر الأثرة وحب الملكية لتوريث الأولاد ، والنظام الشيوعى يقوم على إلغاء الملكية الفردية ، فلابد لمقاومة هذه المشاعر ونزع الميل إلى التملك من وجدانات البشر ـ من محاربة عواطف الأسرة ، وجعل الأولاد ملكا للدولة لالآبائهم الحقيقيين ، يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال ضمان إشراف الدولة على الأولاد ليخرجوا شيوعيين مضمونين! ولكن هذا يؤدى إلى ضررين محققين : أولهما عجز المحاضن عن إمداد الأطفال بحاجتهم النفسية مما يؤدى إلى تنشئتهم على الصراع المطلق لاعلى الحب والتعاطف ، أو تنشئتهم كالآلات لاقلب لهم ولاشعور .

والثانى أن علاقة الرجل والمرأة حين تنتزع منها عواطف الأسرة والأطفال تهبط إلى أن تكون علاقةجسد وشهوة وغريزة مما يؤدى حتما إلى النظر إلى الزواج على أنه قصاصة ورق ، فمادامت الدولة تستولى على الأطفال من أى طريق ، ومادام الزواج مجرد علاقة جنسية فما الفارق بين علاقة وعلاقة؟ ومالذى يلزم الزوج والزوجة بالاخلاص ، أو الوفاء ، الذى يجد من المتعة البهيمية الخالصة؟

ولكن بعض عقلائهم ينفون هذا كله ، ويقولون إن التربية فى المحاضن ضرورة لجأت إليها روسيا لتمنع الآباء الجهلاء من إفساد الأطفال بجهالتهم ، فعلى هذا الأساس قد تسلم لهم على أنها ضرورة لجأ إليها جيل

لاعلى أنها النظام الصالح الأصيل)[١].

ومع هذا كله فإن الشيوعية عجزت عن أن تصل إلى ماسطرته فكريا لأنه يتصادم مع الفطرة الإنسانية . ونوضح ذلك فى التالى :

أولا : أن أصحاب الفكر الشيوعى لم يستطيعوا أن يتخلصوا من هذه الغريزة فبنوا حياتهم بالزواج وإقامة الأسرة وانجاب الذرية .

يقول الخفاجى : (عندما تكلم ماركس وانجلز عن المشاعية الجنسية كان كل منهما ماديا حقا . ولكن عندما يظل كل منهما أبا وزوجا لآخر يوم فى حياته فإنه يكون فى هذه الحالة خاضع لمنطق فطرى أقوى من كل مؤلفاته ألست ترى معى أن هذا التناقض بين النظرية والتطبيق هو من جهة دليل على عدم صحتها ومن وجهة أخرى سبب قوى من أسباب الصراع النفسى ... ألا يكفى برهانا على صحة الإسلام خلو المؤمنين به من هذا التناقض فى حياتهم ، وأنه لذلك دين الفطرة حقا ...)[٢].

ثانيا : واقع شعوب الاتحاد السوفييتى يرفض هذا الفكر ، فيقال لهم : (عندما يتحرق الواحد منكم شوقا إلى ابنه أو زوجته فإنما يكون بفطرته متناقضا مع كل ماتدعو إليه من مشاعية جنسية مستشهدين بزوال هذه الروابط الأسرية فى فجر التاريخ . وإن كان الهجوم المتواصل عليكم جعلكم تغلفونها فى عبارة جديدة لاتلفت الأنظار هى المعاشرة الاختيارية ... ومقتضى هذه العبارة أو تلك ألا يكون لك تعلق بواحدة بعينها ولاباين بعينه حتى لاينحدر حب الملكية الخاصة فى نفسك باعتبارها رجسا إجتماعيا اقتصاديا)[٣].

ثم إن الشيوعية برغم مافعلته (لم تستطع أن تجعل شعبها يتخلص من

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام (١٩٠) .

(٢) حوار مع الشيوعيين (١٠٢-١٠٣) .

(٣) المرجع السابق (١٠٢) .

هذا النظام الفطرى على الرغم مما فى حياتهم من انحراف أوجده هذا النظام)[١].

ثالثا : تراجعهم عن ذلك الفكر مما يدل على مصادمته للفطرة وكل ماصادم الفطرة فمصيره الزوال ومابقى فترة بقائه إلا بالقوة والقهر ، حيث مارست الشيوعية تطبيق هذا الموقف من الأسرة المشاعية (بعد قيام الثورة فى روسيا حتى عام ١٩٣٥م حيث تقرر الغاء ماأطلق عليه فى تلك الفترة اسم المعاشرة الاختيارية وتسليم الإنتاج من الأبناء للدولة .. بعد اتضاح المساوىء الإجتماعية من كثرة الاجهاض وانتشار الأمراض السارية مما هدد سير عجلة الإنتاج واضطرهم إلى إعادة تقييد اجراءات الزواج والطلاق بدعوى الإنسان لم تتطور داخلياته بعد إلى الحد الذى يصلح لممارسة هذه القيم الجديدة وأنه لذلك يلزم إرجاء التطبيق الحرفى لهذا الاعتقاد ضمن ماأرجىء من قضايا على مدار مرحلة الإشتراكية ريثما يحين عصر التطبيق الكامل للشيوعية)[٢].

رابعا : جاء فى المعجم ـ الاعتراف بأهمية العائلة وتربيتها للأطفال والرد على أن الماركسية تريد القضاء على العائلة حيث قالوا إن العائلة التى تريد الماركسية القضاء عليها هى العائلة القائمة على الملكية الخاصة ـ (فى الاتحاد السوفييتى توجد العائلة تحت حماية الدولة (دستور الاتحاد السوفييتى المادتان ٦٦،٥٣) فهى تحمى الحقوق المتساوية لأفراد العائلة وتقدم لها المساعدة فى تربية الأطفال وتنظيم المعيشة المنزلية ، وتلزم الوالدين بتربية الأطفال ، كما تلزم الأطفال بمساعدة الوالدين .

انتشرت انتشارا واسعا بين علماء الاجتماع البرجوازيين وجهة نظر تقول إن الشيوعية تفضى إلى القضاء على العائلة . لقد أشار كلاسيكيو الماركسية فى حينه إلى أن الشيوعية تطرح المسألة فقط حول القضاء على

---

(١) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٧٢) .
(٢) حوار مع الشيوعيين (١٥٤) .

العائلة القديمة القائمة على الملكية الخاصة والمصلحة الإقتصادية والتبعية الإقتصادية . وفى المستقبل سوف يضمحل الضبط الشرعى للعائلة ، فالعائلة الخالية من الحسابات المادية تفرد أسرة حقيقية لأناس متحابين تساعد على الترقى الروحى للفرد البشرى)[١].

ويقال لهم هنا كيف ستكون الأسرة إذا ، إذا قضى على الأسرة البرجوازية صاحبة الملكية؟

خامسا : أن فطرية الزواج والحياة الأسرية هى الأصل فى النفس الإنسانية ومهما حاولت الأنظمة الأرضية أن تنتزع هذه الحقيقة فلن تستطيع ولاأدل على ذلك من البلدان الشيوعية التى أعلنت الإلحاد دينا ، ونبذ الأخلاق والفضيلة منهاجا وشريعة ، فقد بقى الناس على فطرتهم هذه راغبين فى الزواج وإقامة الأسرة والحنين إلى ذلك السكن ،ذلك أمر الله تعالى فلاغالب له ، وتلك فطرة الله تعالى فلانازع لها ، وذلك قضاء الله تعالى فلاراد لقضائه جل وعلا .

ثم إن مصادمة فطرية الزواج والحياة الأسرية كان له أثر كبير فى سقوط الشيوعية . حيث إن هذه المصادمة تجعل الباب مفتوحا لهذه الشعوب باشباع غرائزهم وشهواتهم بالطرق المحرمة فتشيع الفاحشة ، وتنعدم الأخلاق ، وبالتالى تنهار الأمة ، وتسقط فى الحضيض ، حيث لاتبقى الأمم إلا بأخلاقها وتذهب حين تذهب أخلاقها .

ثم إن واقع القادة السوفييت ، والشعب السوفييتى يكذب هذه الأفكار النظرية كلها ، ويردون بأفعالهم على أقوالهم ، لأن الفطرة وأمورها أكبر من أن تنزع وتصادر من الإنسان ، ومصيرها أن تنتصر ولو بعد حين ، لأن بقاءها واستمرارها يتفق مع سنن الله تعالى فى خلقه وفى الكون وماخالفها من نظام إلا كان عليه أن يجهز نفسه للاحتضار وهذا ماجنته الشيوعية على نفسها حين صادمت الفطرة الإنسانية ، ولم تقف فى صدامها ذلك عند حد معين بل أرادت أن تستأصل من النفس الإنسانية كل ولاء أو إنتماء لغير الشيوعية ، فكانت الدعوة إلى الأممية ، والتخلى عن الوطنية لأن العالم كله وطن للعمال . فهل استطاعت الشيوعية أن تزيل من قلب الإنسان حبه لوطنه وإنتمائه إليه . هذا ماسنتعرف عليه فى المبحث التالى .

---

(١) (٢٩٩) .

المبحث الرابع
مصادمة الشيوعية لفطرية التجمع والإنتماء

عملت الشيوعية على القضاء على كل رابطة ، إلا رابطة الإنتماء للحزب والقيادة الشيوعية .

ورفع ماركس وانجلز شعار ياعمال العالم اتحدوا ، وهذا الاتحاد ليس فقط فى المطالب والأهداف بل ليكون العمال كلهم فى العالم كالجسد الواحد وتكون الأرض والأوطان لهم جميعا .

فإذا حدث حادث فى موسكو ثار العمال فى أسبانيا ، وهكذا .

ومن هنا طلبوا التخلى عن كل رابطة تربط الإنسان ببلده الذى يعيش فيه ، لأن الإنتماء للوطن وحبه سيؤدى إلى التقصير فى حق الحزب ووجود الأنداد الذين يتخذون من دونه فى نظر الماركسيين!! فقطعوا كل صلة للانسان بوطنه وقامت دعوتهم للأممية وتناسى الشيوعيون فطرة الإنسان فى انتمائه لوطنه وحبه لأرضه التى نشأ فيها ، ولكن هذا كله لم تقم له الشيوعية أى اعتبار فلم يكن يهمهم إلا مصلحة الحزب الشيوعى ليس إلا . ونعرض الآن لإثبات فطرية الإنتماء وحب التجمع فى الفطرة الإنسانية .

فطرية التجمع والإنتماء :

إن الله تعالى أثبت حب الإنسان للانتساب إلى أصله وموطنه وليس فى ذلك مايضر إذا كان ذلك فى حدود الفطرة التى أوجدها الخالق جل وعلا فى النفس الإنسانية .

قال تعالى : {**ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**}[١].

يقول ابن كثير رحمه الله : (أى يحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته)[٢].

---

(١) سورة الحجرات : (١٣) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢١٧/٣) .

فهذا دليل على وجود القبائل والشعوب واختلافها ، ولاحرج أن ينتسب كل إلى قبيلته أو قومه أو وطنه . ويمكن بيان أن الإنسان فطر على هذا الإنتماء فى النقاط التالية :

أولا : أن الله تعالى خلق الخلق وجعلهم شعوبا وقبائل ، ولايمكن بحال ألا يكون فى قلوب الشعب الواحد رابطة فيما بينهم ، وولاء بعضهم لبعض ، كونهم يدا واحدة فى تحقيق مصالحهم والحفاظ عليها من الأعداء . وحفاظهم على أرضهم من الأعداء ، وقد أثبت التاريخ تلك الحقيقة وهى اجتماع القبيلة الواحدة فى الدفاع عن مصالحها وأرضها أو الشعب الواحد وحتى وقتنا الحاضر .

ثانيا : امتدح الله تعالى الذين هاجروا فى سبيله وتركوا ديارهم وأموالهم ، فدل ذلك على أنهم تركوا ماتتعلق به نفوسهم وأصبح من دلائل الإيمان وقوته الهجرة من الأرض التى عاش فيها الإنسان إلى أرض أخرى وترك الأهل والأموال فيها .

ثالثا : أن التشريعات الإسلامية تراعى مصلحة الجماعة بالدرجة الأولى وهذا دليل على أن الحياة فى مجتمع ينتمى إليه الإنسان هى الأصل فحكم القصاص المصلحة الأولى فيه للمجتمع ، وإقامة حد الزنا والسرقة كذلك ، وتحريم الربا وغيرها لمصلحة المجتمع فدل على أن التجمع والحياة بين مجموعة من الناس هو الأصل الذى فطر عليه الإنسان .

رابعا : أن المجتمع البشرى منذ آدم عليه السلام وهو فى تجمع وبدأ المجتمع ذلك فى أضيق نطاق وأبسط صورة ممكنة ، الأسرة ، الزوج والزوجة ، الأبناء فهذه تدل على تغلب النزعات الجماعية على النزعات الفردية المستقلة وتخضعها لسلطانها بأى طريق(١).

خامسا : أن الواقع والمشاهد يدل على أن الحنين إلى الأرض التى نشأ فيها الإنسان شعور فطرى يظل ملازم له حتى ولو ابتعد عنها وتراه يدافع عنها بكل قوة . إن حب الأرض التى نشأ فيها الإنسان (شعور فطرى يدفع

الإنسان إلى الدفاع عن محضنه الذى نشأ فيه وترعرع . والحنين إلى هذا المحضن شعور غريزى فى الإنسان ويبقى هذا الشعور ملازما الإنسان سواء درج فى أطوار حياته كلها بين مرابع هذا المحضن أم أن الظروف اضطرته إلى أن يعيش غريبا عن محضنه الأساسى وفى هذه الحال يشتد الحنين فى نفس هذا الإنسان فيدفعه للقيام بالكثير من الخدمات لمحضنه وهو عنه بعيد)(٢).

وبهذا نتبين أن الإنتماء للوطن وحبه أمر فطر عليه الإنسان ، كما أن الإنسان يميل بطبعه إلى أن يعيش ضمن مجتمع يقول وليام هاولز : (لن نستطيع أن نفهم العلاقات الإنسانية حق الفهم إلا إذا أدركنا أن نظمنا الاجتماعية الأساسية تقوم على مجموعة قوية من الميول الطبيعية - التى تكونت خلال تطورنا "البيولوجى" - لأن نتصرف بالشكل الذى نتصرف به فعلا . وقد بينت لنا الرئيات الأخرى نوع تلك الميول : حاجة الفرد إلى أن يعيش فى مجتمع وأن يقيم علاقات محددة ومعقدة ولكن دائمة ومؤكدة مع غيره من الأفراد)(٣).

ونأتى الآن إلى عرض موقف الشيوعية من فطرية التجمع والإنتماء .

الشيوعية ومصادمة فطرية التجمع والإنتماء :

عملت الشيوعية دائما على مصادمة الفطرة الإنسانية بكل توجهاتها ، ومن ذلك حب الإنسان لوطنه ، وأن يعيش فى مجتمع ينتمى إليه تربطه به رابطة الفكر واللغة ، وغير ذلك . واعتبر الشيوعيون أن الوطن الكبير لعمال العالم أجمع هو الاتحاد السوفييتى . ويعرفون الوطن بأنه (البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية التى يحيا ويعمل فيها الشعب)(٤).

---

(١) انظر الإنسان بين المادية والإسلام (١١٢-١١٣) .

(٢) الحقيقة الكاملة (٦٤) .

(٣) ماوراء التاريخ (٦٣) ، ترجمة د. أحمد أبو زيد ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دون ذكر لرقم الطبعة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر .

(٤) المعجم (٤٥٤) .

وهـم يرون أن المجتمع البـدائى كان كله وطن لجميـع الشعـب حيث كانت الملكية المشاعية لوسـائل الإنتاج ، ثم تبدل الأمـر بعـد ظهور الطبقات ونشـوء الـدولـة وتقسيم العمـل(١). وعلى هـذا الأسـاس فـالإنتمـاء للـوطن والاحسـاس به يكـون أمرا مخترعـا مـن قبل البرجوازية . يقـول لينين : (فى زمن "عصر" هذه الامبريالية الجموح لم يعد بالامكان حدوث حروب وطنية ، ومـاالمصالح الـوطنية غير وسيلـة خداع غـرضها تسخير جمـاهير الكـادحين الشعبية لخدمة عدوها اللدود الامبريالية)(٢).

فهم يعتبرون الاتحاد السوفييتى بلاد الإشتراكية ، ووطن العمال الوحيد جاء فى الدستور الشيوعى : (يجسد الاتحاد السوفييتى وحده الشعب السوفييتى فى دولـة واحدة ويجمع كل الأمم والأقوام من أجل بنـاء الشيوعية معا)(٣).

وقد شنع لينين وتهكم بأولئك الذين لم يمانعوا فى مـدافعة الإنسان عن وطنـه ، وقـال إن هذه الفكـرة تهكـم تافه بالإشتراكيـة ، وقـال على سبيـل السخـرية والتهكم بهؤلاء (الأمميـة الحقيقية .. تقوم فى تبرير اطلاق العمـال الفرنسيين الرصاص على العمال الألمان واطلاق العمال الألمان الـرصاص على العمال الفرنسيين دفاعا عن الوطن!)(٤).

واعتبر لينين أن هـذه فكـرة شـوفينية(٥)، تماثل الفكـرة الانتهـازية(٦)،

---

(١) انظر المعجم (٤٥٤) .

(٢) نقلا مـن كتاب الماركسية وحرب العصابات (٤٩) ، مجموعـة من المؤلفين ، ترجمة إبراهيم العـابد ، مـاهر كيـالى ، الطبعـة الأولى ١٩٧١م ، المؤسسـة العـربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٣) المعجم (٣٠٩) .

(٤) إفلاس الأممية الثانية (٢٠) .

(٥) يعـرفها لينين بقـوله : (الإقرار بفكـرة الدفاع عن الوطن فى الحرب الامبرياليـة ... وتبرير تحالف الاشتراكيين مع برجوازية وحكومات بلدان (هـم) فى هذه الحرب ، ورفضهم القول بضرورة الأعمال الثورية البروليتارية ضـد بورجوازيتهم ورفضهم مساندة هذه الأعمال) .

(٦) الانتهـازية كما يعرفها لينين هـى (تضحية المرء بمصالح سـواد العمال الأساسية من أجل مصالح مؤقتة لأقلية تافهة من العمال) . إفلاس الأممية (٥١-٥٢) .

وهـذه الأفكار تتعارض مع الفكر الإشتراكى الذى لايرى الـدفاع عن الوطن ضد الاعتداء إذا كان العمال طرفا فيها . فالعامل لاوطن له .

هـذا بالنسبة للوطنية ونزعهـا من النفس الإنسانيـة ، واعتبـارها تصادم الفكـرة الإشتراكية . ويلحـق بذلك بداهة أن الإنسان لابد وأن يقطـع صلتـه بالقـوم الذين ينتمى لهم ومن هنا جاءت معاداة القوميـات أيضا ، وقد اهتم الشيوعيون بالقضاء عليها وأعلنوا أنها من المخلفات البرجوازية التى تتنـاسب مع الاستغلال ، ويعرفونها بقـولهم : (النزعة القوميـة ـ نفسيـة وأيديولوجية وعقيـدة وسياسة تفضل بعض الأمـم على بعضها الآخر ، تعظيم المرء لأمتـه ، إثارة النفور القومى والكره العرقى)[١].

ويرون أن نشـأة القـومية (مـن علاقـات الملكيـة الخاصـة والاستقلال والبرجوازية والبرجوازية الصغيرة همـا حاملتـاها . أمـا البروليتـاريا فهـى بوصفها حاملة للأممية براء بطبيعتها من القومية)[٢].

ويقـولون : إن الوطنية الإشتراكيـة الأممية ، معـادية لنزعـة التعصب القومى ، ومنافية لنزعات ضيق الأفق)[٣].

ويقـول مـاركس : (إن العمـال فى أكثريتهـم السـاحقة منزهـون عـن الأوهـام القـومية لأن ثقافتهـم وحضـارتهم فى الجوهر إنسـانيتان ومعـاديتان للقومية)[٤].

ويقـول لينين : (إن الماركسيـة لاتقف مع التعصـب القومى مهما كان عادلا وصافيا وناعما ومتمـدنا بل إنها تستعيض عن التعصـب القـومى ، أى تعصب بالأممية باندماج جميع الأمم فى وحدة عليا تتطور وتنمو)[٥].

---

(١) المعجم (٤٠٠) .

(٢) المرجع السابق (٤٠١) .

(٣) المرجع السابق (٤٥٧) .

(٤) القـومية العربية (٣٥) ، عفلق والبيطـار ، نقلا من كتاب الشيـوعية منشأ ومسلكا (١٣٩) .

(٥) قضـايا الخلاف فى الحزب الشيـوعى السـورى (٢٣٤) ، نقلا مـن كتـاب الشيوعية منشأ ومسلكا (١٣٩-١٤٠) .

إن القضاء على الوطنية والقومية كان من أهم الأهداف التى ترغب الشيوعية فى تحقيقها ، وإذابة الشيوعيين فى كل أنحاء العالم فى فكر وتوجه الاتحاد السوفييتى ، وهذه عادة الشيوعية فى القضاء على كل آصرة أو إنتماء لغير الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى ، وأصبحت قضية التبعية للاتحاد السوفييتى ورفض الولاء لغيره شعارا للأحزاب الشيوعية فى أنحاء العالم ، فأصبح الفرد الشيوعى يقدم مصلحة الاتحاد السوفييتى على مصلحة وطنه وشعبه .

(وفكرة التبعية للاتحاد السوفييتى أصبحت بالنسبة للشيوعى غير الروسى مبدءا من المبادىء التى يعتنقها ويلتزمها وبذلك تكون مصلحة الاتحاد السوفييتى مقدمة على أى مصلحة وطنية فى الوطن الذى يعيشه الشيوعى ، وقد عرف عن الشيوعيين خارج نطاق الاتحاد السوفييتى تقديم مصلحة الاتحاد السوفييتى وتسويغ مواقفه على المصلحة الوطنية التى توجب على المواطن أيا كان مذهبه ومنهجه الفكرى أن يلتزمها ويعمل من أجلها وقد تعلموا هذا وتشربته أفكارهم من خلال التعاليم الشيوعية ، فقد جاء فى محاضرة لستالين ألقاها فى موسكو عام ١٩٢٤م : (إن من واجب الشيوعى فى كل الأحوال أن يناضل ضد الوطنية الضيقة وأن لايحصر نفسه فى حركته المحدودة الأفق)[١].

وقد أثبتت الأحزاب الشيوعية إلى حد ما هذا الاتصال والقرب والاندماج مع الاتحاد السوفييتى ، ومن ذلك الأحزاب الإشتراكية فى البلاد العربية[٢]، ثم إن الشيوعيين قاموا بالدعوة إلى الأممية بل واعتبروها من المبادىء الأساسية التى يقوم عليها فكرهم وقالوا : (إن الماركسية عقيدة

---

(١) القضية الوطنية (٣٨) ، نقلا من كتاب الشيوعية منشأ ومسلكا (١٤٨) ، وانظر حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٣٢) .

(٢) انظر الشيوعية منشأ ومسلكا (١٢٥-١٢٧) .

أممية ، من حيث مصادرها الاجتماعية والنظرية ، ومن حيث منشأها ومنهجها ، وهى تحمل طابعا عالميا حيث مضمونها وأهميتها وتأثيرها العلمى)[(١)].

وبعد هذا العرض المختصر نصل إلى التالى فيما يخص موقف الشيوعية من فطرية التجمع والإنتماء .

أولا : أن الولاء لايكون إلا للشيوعية وبالتالى فلااعتراف بالإنتماء للوطن أو القومية ، لأن ذلك يقف عائقا فى موالاة الحزب .

ثانيا : ربط هذه الميول إلى التجمع والإنتماء بالملكية الفردية .

ثالثا : دعوتهم للأممية ياعمال العالم اتحدوا .

غير أن موقف الشيوعية ذلك من هذه النزعات لم يبدل شيئا فيها ، بل بقيت على ماهى عليه فى النفس الإنسانية وبالتالى لم تفلح الشيوعية فى تحقيق مطالبها كما أثر موقفها ذلك عليها سلبا .

بطلان مزاعمهم هذه من عدة وجوه :

أولا : أن النفس الإنسانية تميل إلى التجمع وتنزع إليه بدون سبب من ملكية أو غيرها ، ثم تربطها بتلك المجموعة أواصر عديدة يستحيل انتزاعها من النفس البشرية .

(أ) أن الرغبة فى التجمع أمر فطر عليه الإنسان ، ووجدت هذه الرغبة فى نفسه وليس لمؤثرات خارجية .

(إن الرغبة ـ الفطرية ـ فى الاجتماع بالآخرين هى التى أنشأت "المجتمع" بادىء ذى بدء ـ فى أية صورة من صوره ـ لتلبية تلك الرغبة العميقة فى نفس الفرد . وحين نشأ المجتمع ـ فى أية صورة من صوره ـ تعددت حاجاته ونمت ، بحكم الفطرة التى أنشأته من قبل بما أودعها خالقها من طاقات واستعدادات واتجاهات {**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**}[(٢)]، فنحو

---

(١) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٣/١) .
(٢) سورة الحجرات : (١٣) .

"الإنسان" إلى شعوب وقبائل هو العمل الحتمى الناشىء من إرادة الله . والمنفذ عن طريق الفطرة التى خلقها الله وأودعها هذا الميل والقدرة على تحقيقه ، وليس ناشئا من تطور أساليب الإنتاج ، ولاأى ضرورة أخرى "خارج" النفس البشرية ، وخاصية النمو التى تنمى الطفل حتى يبلغ أشده، وهى خاصية بيولوجية أى فى صميم الفطرة ، هى ذاتها التى تنمى المجتمعات الصغيرة إلى مجتمعات كبيرة فتنمى العشيرة إلى قبيلة والقبيلة إلى أمة ... وهكذا . وتنمى العلاقات بين الناس من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة ، وفى أثناء ذلك تجىء أساليب الإنتاج المتطورة فتحتل مكانها من الصورة ، "وتلبس" فى حيزها قوة متفاعلة مع السياق كله آخذه ومعطيه فى ذات الوقت ومتجهة فى اتجاه الفطرة الكبيرة ، فى إتجاه النماء . ويتبادل تطور الإنتاج وتطور المجتمع علاقة السببية من طرفيها فتارة يكون تطور الإنتاج هو السبب فى تطور المجتمع ، وتارة يكون تطور المجتمع هو السبب فى تطور الإنتاج ، وفى النهاية يكون المصدر هو الفطرة المتصفة بخاصية النماء)(١).

(فالمجتمع إذن حاجة نفسية تنبض من نفس الفرد من رغبة ملحة فى ألا يعيش وحده سواء كان الخوف من الإنفراد ، أو الشعور بالوحشية أمام الحيوانات المفترسة أوقوى الطبيعة المجهولة أو كانت المصلحة ، حين وجد كل فرد أنه يستطيع أن يدرك بالإشتراك مع غيره، مالايستطيع أن يدركه وحده ، أو كانت غريزة الجنس ، أو نزعة القطيع ... فالنتيجة الأخيرة واحدة ، وهى أن نزعة لاتقهر هى التى أنشأت المجتمع من ضمير الفرد)(٢).

(ب)أن حياة الإنسان ضمن مجتمع يحقق له مصالح كثيرة حيث الروابط بين أفراده مما يقلل العداء والظلم فيما بينهم ، فالإنسان يميل إلى التجمع بطبعه وفطرته . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (كل بنى آدم لاتتم

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية (١١٤) .
(٢) الإنسان بين المادية والإسلام (١١٢) .

مصلحتهم لافى الدنيا ولافى الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر ، فالتعاون على جلب منافعهم ، والتناصر لدفع مضارهم ، ولهذا يقال : الإنسان مدنى بالطبع ...)[١].

ويقول ابن خلدون : (إن الإجتماع الإنسانى ضرورى ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدنى بالطبع ، أى لابد له من الإجتماع)[٢].

فكان هذا التجمع نظرا لاحتياج الفرد إليه (لأنه لايستطيع أن يفى باحتياجاته كاملة بمفرده ، كما أن الميل الغريزى بين جنسه يدفع إلى الإجتماع ، وهذا من حكمة الله تعالى حتى يتحقق العمران فى الأرض وتستمر الحياة يانعة مورقة فى الأجيال المتعاقبة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ...)[٣].

(ج) أن العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة وثيقة وثابتة ، حتى لو اتخذت أشكالا مختلفة فى عصر من العصور (والمجتمع جزء من الفطرة . الفطرة الثابتة .. والعلاقة بين الفرد والمجتمع كذلك ثابتة فى عمومها . وكونها تتقلب فى شتى العصور ذات اليمين وذات الشمال ، فأخذت صورة فردية حادة أو جماعية ، حادة لايعنى أنه ليس لها مقياس من الفطرة ولأنه مقياس غير ثابت ، وإنما يعنى فقط أنها ـ ككل شىء فى الفطرة البشرية ـ قابلة للانحراف كقابليتها للاعتدال)[٤].

وبهذا نقول إن الإنسان يميل بفطرته إلى أن يعيش فى مجتمع ويندمج خلال مجموعة من الناس ، إذ أن هذا الشعور فطرى فى نفسه خلق عليه .

---

(١) الحسبة فى الإسلام (٤) ، دار الفكر ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) المقدمة (٤٦) .

(٣) نظام الحياة فى الإسلام (٧-٨) ، أبو الأعلى المودودى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، من مقدمة الناشر ، وانظر الفكر الأوروبى (١/٢٣٠-٢٣١) .

(٤) التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٢٦) .

ثانيا : بطلان مزاعمهم والرد على أقوالهم بشأن القضاء على فطرية الإنتماء . وفى هذا نقض لمبدأ الأممية التى نادت بها الشيوعية .

لقد حاولت الشيوعية أن تقطع عن الإنسان كل إنتماء لغير الشيوعية والحزب الشيوعى فى موسكو ، غير أنها عجزت عن تحقيق ذلك ولم تستطع أن تقتلع هذه الفطرة وهى حب الوطن والإنتماء إليه من نفوس الشغيلة فى العالم ، وتعين بطلان ذلك الزعم وعدم تحققه بالوجوه التالية :

الوجه الأول : أن حب الإنسان لموطنه الذى ولد فيه ونشأ فيه أمر ليس بحاجة إلى دليل حيث إن واقع كل انسان يشهد بذلك فالفطرة تكذب إمكانية إبعاد الإنسان عن تعلقه بوطنه وإنتمائه إليه .

الوجه الثانى : اعتراف الشيوعيين بالوطنية وأثرها فى النفس الإنسانية وأنها السبب فى إفلاس مبدأ الأممية . ويعلن لينين أن هذه الدعوة العريضة (الأممية) إنما أفلست بسبب وقوف عمال كل بلد مع مصالح بلدانهم فيقول (إن إفلاس الأممية الثانية قد تجلى بأبلغ الوضوح فى خيانة أغلبية الأحزاب الإشتراكية - الديمقراطية الرسمية الأوربية ...)[١].

الوجه الثالث : أن لينين صاحب العداء للوطنية ، أصبح يرى ضرورة وحتمية الحروب الوطنية لانتصار الإشتراكية وذلك حينما اصطدم بالواقع فيقول : (إن الحروب الوطنية ضد الدول الامبريالية ليست ممكنة ومحتملة وحسب ، بل هى أمر محتوم تقدمى وثورى ...)[٢]، ويرى لينين أن سبب انتصار دولته فى الحروب التى خاضتها إنما هو بسبب الدفاع عن الوطن فيقول إن (وطنية الإنسان الذى يفضل أن يجوع ثلاث سنوات على أن يسلم روسيا للأجانب هى وطنية حقيقية ماكان لنا أن نصمد بدونها ثلاث سنوات ولولا هذه الوطنية لما تمكنا من حماية الجمهورية السوفيتية وإزالة الملكية الخاصة)[٣].

---

(١) إفلاس الأممية الثانية (٧٠) وانظر مابعدها .
(٢) نقلا من الماركسية وحرب العصابات (٥٤) .
(٣) المؤلفات الكاملة (المجلد ٤٢ ، ص١٢٤) ، نقلا من المعجم (٤٥٦) وانظر : لينين (٢١٤-٢١٥) ، الماركسية وحرب العصابات (٨٣) .

وهكذا أخل لينين بهذا المبدأ منذ السنوات الأولى لتطبيق الفكر الماركسي فى الاتحاد السوفييتى .

الوجه الرابع : أن دستور الاتحاد السوفييتى ينص على حقوق شعب الاتحاد السوفييتى وقومياته ، مما يدل على أن فكرة الأممية والقضاء على الوطنية كانت فكرا لايستند على حجة غير أنها أحلام وأوهام سطرها ماركس بفكره المختلط وعندما جاء أصحاب الثورة البلشفية ، وأرادوا تطبيقها ، كانت الفطرة الإنسانية أكبر من أن تنتزع من القلوب فتراجعوا عن مبادئهم وأقروا ماتطالب به الفطرة ، فبقى حب الوطن ، والإنتماء إليه ، وبقيت القوميات فى داخل الاتحاد السوفييتى[1]، ولم يستطيعوا أن يقضوا عليها داخل دولتهم ناهيك عن خارجها .

ويمكن القول بأن فترة لينين مرت بثلاث مراحل تجاه الوطنية والإنتماء

أولا : إنكار الحروب الوطنية واتهام أصحابها بالانتهازية والاستغلال .

ثانيا : تحت ضغط الواقع ، وجود الإنتماء كأمر فطرى داخل النفس البشرية أعلن عن امكانية الحروب الوطنية ضد الامبريالية .

ثالثا : الدفاع عن الوطن وامتداح الوطنية السوفيتية فى مقاومة الأعداء ، وبالتالى سدد لينين الضربة القاضية للأممية القائمة على مصادمة الفطرة الإنسانية فى حب الوطن والإنتماء إليه .

الوجه الخامس : أن ستالين يكاد يكون نسى هذا المبدأ حقيقة وتطبيقا أما نظريا وكلاميا فعادتهم أن لايستحيوا من تصريحاتهم المناقضة لواقعهم .

ومما يدل على موقف ستالين من قضية الأممية والدعوة إلى الوطنية ماحصل فى عهده من حرب ضد المانيا . فإنه ماأكثر من الحديث عن شىء كحديثه عن الوطنية وأهميتها فى دفع العدو . يقول دجيلاس : (ومما تجدر

---

(١) انظر : نشوء وإنهيار الامبراطورية الشيوعية (٣٤٩) ، الحرب العالمية الثالثة (٢٧٨) ومابعدها ، الجنرال فيكتور فرنر ، ترجمة د. هيثم الكيلانى ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

الإشارة إليه أنه لم يجر على لسان "ستالين" أى ذكر للحكومة السوفيتية ، أو للنظام الإشتراكى فى أحاديثه التى وجهها للشعب أثناء الحرب الروسية الألمانية ، بل كان جل ماوقف عليه دوره هو إثارة المشاعر الوطنية ، وضرورة التضحية فى سبيل الوطن الأم دون سواه ...)(١).

لقد (وجد ستالين أن الشعور الوطنى كان من أنجع الأسلحة النفسية التى اقتضتها مرحلة رد العدوان وانقاذ البلد الإشتراكى الأول ، مع ماترتب على ذلك من نتائج فى إذكاء روح الوطنية والقومية على حساب روح الأممية والإنسانية ...)(٢).

الوجه السادس : تراجع الشيوعيون تراجعا واضحا فى الاتحاد السوفييتى عن موقفهم من الأممية والدعوة إلى الوطنية السوفيتية وتنمية الشعور والإنتماء الوطنى ، وقد أجاد كاونتس فى عرض هذه القضية .

وقال نشر (بحث رسمى تحت إشراف اللجنة المركزية لاتحاد الشباب الشيوعيين فى عام ١٩٤٧م ، يؤكد التوجه الجديد للوطنية السوفيتية بالعبارات الآتية : (يقول كل منا فى فخر واعتزاز : إنى مواطن فى الاتحاد السوفييتى ، ونحن نحب بلادنا كما نحب أمهاتنا ، ونحن على استعداد لخدمتها دون أن نضن عليها فى سبيل ذلك بقوتنا أو حياتنا نفسها لأنه لايوجد شعب يبلغ من العظمة مايبلغه شعبنا أو بلد عظيم كبلدنا)(٣).

بل إن حب الوطن أصبح جزءا من الأخلاق التى يربى عليها الفرد الشيوعى ، ولاشك أن هذا مساير للفطرة الإنسانية . فجاء فى الكتب المقررة لتدريب مدرسى المرحلة الإبتدائية أن (غرس روح الوطنية السوفيتية فى

---

(١) الكيد الأحمر (٢١٥) .
فى حين أن ستالين قال عام ١٩٢٤م : (إن من واجب الشيوعى فى كل الأحوال أن يناضل ضد الوطنية العنيفة وأن لايحصر نفسه فى حركته المحدودة الأفق) . القضية الوطنية (٣٨) ، ستالين ، نقلا من كتاب الشيوعية منشأ ومسلكا (١٤٨) .
(٢) تكوين الصهيونية (٢٦٢-٢٦٣) .
(٣) التعليم (١٥٧) .

الجيل الناشيء هو أهم واجبات التربية الأخلاقية فى بلادنا)[١]، وجاء فى كتب التدريب لتدريس المرحلة الثانوية أن (تربية الشباب السوفييتى حسب روح الأخلاق الشيوعية تعنى أولا تربيته حسب روح الوطنية السوفيتية)[٢].

وبعد أن أورد كاونتس ذلك قال : (وهذا التوكيد يحتاج منا إلى شيء من التعليق ، فنقول إن كلمة الوطن وموطن الآباء والأمهات ، والوطنية كانت محرمة من الأعوام الخمسة عشر الأولى من حياة الثورة فقد كانت هذه ألفاظا "برجوازية" مناقضة للماركسية يستخدمها الرأسماليون لتخدير العمال ودفعهم إلى الحروب التى نشبت لصالح الملكية الفردية والمكاسب الخاصة ، وظلت هذه هى الحال حتى ٩ يونيه سنة ١٩٣٤م حين نشرت صحيفة برافدا مقالا بعنوان "الوطنية" تدعو فيه جميع المواطنين السوفييت (الكفاح فى سبيل الوطن ، وفى سبيل شرفه وسمعته ، وقوته ، ورخائه" ، وأعلنت العقيدة القائلة إن (الدفاع عن الوطن هو أسمى قوانين الحياة) وليس ثمة فى تاريخ الدولة البلشفية كله حادثة أخرى تدل على نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد بالوضوح الذى تدل عليه هذه الحادثة ...)[٣].

ومعنى الوطنية السوفيتية (حب الوطن ، والافتخار به ، والاخلاص له حبا وافتخارا وإخلاصا لايقف عند حد)[٤]. و(الشعور بالوطنية السوفيتية مفعم بالحقد المرير نحو أعداء المجتمع الشيوعى)[٥].

وهكذا كانت التربية تقوم على غرس حب الوطن والمجتمع الشيوعى فى نفس الإنسان السوفييتى .

الوجه السابع : أن الإنتماء للوطن غريزة فطرية والدفاع عنه كذلك ، وقد اعترف لينين بأن سبب فشل الأممية هو دفاع عمال كل بلد عن بلدهم كما أن الشيوعيين اعتبروا الحرب التى خاضوها ضد الألمان حرب وطنية

---

(١)،(٢) التعليم (١٧٣) .
(٣) المرجع السابق (١٧٣-١٧٤) .
(٤) المرجع السابق (١٧٥-١٧٦) .
(٥) المرجع السابق (١٧٩-١٨٠) وانظر مابعدها .

كبرى [١].

وقد أثبت الشعب السوفييتى بدفاعه عن أراضيه ، وسعيه الحثيث فى طرد الأعداء أن مبدأ الأممية باطل من أصله ، كما دللت تلك المقاومة على النزعة الفطرية فى الإنسان وحبه لوطنه [٢].

لقد كان الولاء للوطن وراء كثير من الانتصارات التى حققتها بعض الدول ، وقد قدمت التضحيات باسم الوحدة الوطنية (إنها قوة ثورية عظيمة) [٣].

الوجه الثامن : ثم يقال لهم لو كان الأمر كذلك فلماذا لم تترك أراضى الاتحاد السوفييتى دون حماية ولماذا لم يسمح لعمال العالم أن يهاجروا إليها ويشكلوا مع البروليتاريا هناك حزبا واحدا ، ولماذا هذا الحرص على الحدود ، وهل كانت ستسمح القوات السوفيتية وقيادتها الحزبية بالتدخل فى الأراضى الروسية من قبل العمال بحجة الأممية . إن المادة ١٣ من القانون السوفييتى بشان المسئولية الجزائية فى المخالفات العسكرية تنص على أن (رفض حمل السلاح يعاقب عليه بالحرمان من الحرية لمدة تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات) [٤]. يقول فيكتور فرنر : (ذلك زمن السلم أما فى زمن الحرب فإن من الجائز فرض عقوبة الإعدام) [٥].

---

(١) انظر : الحرب النفسة (١/١٣٧) ، د. أحمد نوفل ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، المعجم (٤٥٦) .

(٢) انظر ماذكره الجنرال فيكتور فرنر عن ذلك الدفاع حتى من النساء فى كتابه الحرب العالمية الثالثة (٢١١-٢١٢) ، وانظر (٢٠١-٢٠٣) ، ولمزيد من دفاع الرجل والمرأة عن أوطانهم انظر (٢٠٦) ومابعدها .

(٣) انظر العالم فى القرن العشرين (١٤-١٥) ، دانييل ر.براور ، مركز الكتاب الأردنى ١٩٩٠م دون ذكر لرقم الطبعة .

(٤) نقلا من كتاب الحرب العالمية الثالثة (١٢٥) .

(٥) المرجع السابق (١٢٥) .

الوجه التاسع : إذا دخلت القوات السوفيتية إلى البلدان الأخرى عسكريا هل فكرت فى أن عمال تلك الدولة تربطهم مع عمال الاتحاد السوفييتى رابطة الأممية أم أن التدمير يقع على الجميع ودون سابق إنذار ، مما يدل على أن الشيوعية اصطدمت بالواقع والفطرة فكانت هذه المواقف تنخر فى جسمها والثقة تفقد فيها على مر الأيام بسبب مصادمتها للفطرة والشعور الإنسانى وقضايا الإنسان الحياتية .

الوجه العاشر : أن عالم الحيوان يعطى دليلا على تأصل هذه الفطرة فى النفس الإنسانية حيث (إن الحيوان يدافع بشجاعة وفعالية أكثر كلما إزداد قربه من مركز المكان الذى يقيم فيه)[1].

وهى نزعة غريزية حيث تقوم بالدفاع عن مكانها الذى تعيش فيه وتمنع الغرباء عنه[2].

فإذا كان هذا حال الحيوان فإن الإنسان صاحب الأهداف الوقتية والمستقبلية فى حياته من باب أولى .

وبهذا نرى أن ذلك الزعم لم يقم وفشلت الشيوعية فى تحقيقه ، وبالتالى فشلت كما فشلت فى مصادمتها للفطرة الإنسانية فى جوانبها المتعددة .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن الإنسان فطر على حب التجمع والإنتماء .

ثانيا : أن الشيوعية فشلت فى تطبيق مبادئها القائمة على مصادرة تلك النزعات .

ثالثا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يدل على فشل مثل هذه النظريات لأنها لم تطبق داخله فكيف يمكن تطبيقها خارجه .

رابعا : أن الشيوعية بهذا تكون أضافت أمرا خطيرا على الأمور السابقة فى مصادمة فطرة الإنسان وشكلت تلك المصادمة لهذه الفطرة أحد الأسباب الرئيسية فى سقوط وإنهيار الشيوعية .

---

(١) كتاب الحرب العالمية الثالثة (١٦٨) .

(٢) المرجع السابق (١٦٨) .

مصادمة الفطرة الإنسانية وأثر ذلك فى إنهيار الشيوعية :

كانت مصادمة الفطرةالإنسانية أقوى الأسباب التى أدت إلى انهيار الفكر الشيوعى وسقوطه ، وإن من أعظم مافطر عليه الإنسان الإقرار بوجود الخالق جل وعلا وأن العمل على إبعاد الإنسان عن هذه الحقيقة أو مصادمتها لن يكون بالأمر الميسور بل لايمكن بحال من الأحوال انتزاعه من النفس الإنسانية حتى ولو استخدمت القوة فى ذلك ، وهذا ماحاولت الشيوعية أن تصل إليه بعد أن فشلت فى طرقها الفكرية . فسكت الإنسان على هذه المصادرة ظاهرا ـ وكان قلبه يعترف بتلك الحقيقة رغم شيوعيته أومسيحيته ، فما بالك إذا كان مسلما ـ والذى أجبره على ذلك ، حرصه على تحقيق أمر آخر فطر عليه وهو حبه للدنيا وخوفه من الموت ... ثم عملت الشيوعية على مصادرة كل ماجاء عن ذلك الطريق الذى هو طريق الدين فحرمت الإنسان من ملكيته ، وجردته من شخصيته ، وأوهمته أن الأسرة والزواج والأطفال ليست إلا انعكاسا للأفكار الإقتصادية ، وأن العامل الإقتصادى وراء وجودها ، وتناسوا العوامل الأخرى ، ثم أرادوا أن ينتزعوا منه حبه لوطنه ومسقط رأسه ولكنهم فشلوا فى ذلك كله ، وبقى الشعب يوهم القيادة أنه قد استجاب لمبادئه تلك ، وذلك خوفا من الحديد والنار ، وماكان لما تصادم مع فطرة الله تعالى بقاء ، ثم أن سنن المولى جل وعلا تحق على كل من عاند واستكبر ، أو سار على غير هديه تعالى .

فتبجحت الشيوعية بإنكار الإله ، وصادمت الفطرة الإنسانية ، وسارت على خلاف الطريق الذى إرتضاه الخالق للبشرية ، ومن هنا حقت عليها السنة الربانية ، فأخذها الله تعالى وفرق جمعها ، وشتت أمرها ، ولم تكمل تلك الإمبراطورية قرنا من الزمن ... فإن نيفا وسبعين سنة ليست عمرا طويلا فى تاريخ الدول والإمبراطوريات . خاصة إذا وضعنا فى إعتبارنا أن ماركس وانجلز وزعماء الثورة البلشفية قد أعلنوا عن حتمية سقوط النظام الرأسمالى وحلول النظام الشيوعى مكانه ، ولكن هاهو النظام الشيوعى يسقط وهاهى الرأسمالية باقية ومابقاؤها دليل على صلاحها ولكنها ـ ورغم كفرها ـ تتمشى مع جوانب كثيرة فى النفس الإنسانية .

إن ماحدث فى الاتحاد السوفييتى ، كان صداما للفطرة التى خلق عليها الإنسان ، وسيرا فى غير الاتجاه الذى رسمه الرحمن ، لسير الخلائق فى هذا الكون ، فكان لابد من الإنهيار والسقوط ، وثبت بذلك أن الفطرة لايمكن القضاء عليها . فهاهى الشيوعية عجزت عن تحقيق ماترمى إليه ، فانهارت ، وبقى ماأرادت له الإنهيار ، وسقطت وبقى ماأرادت له السقوط ، وتراجعت وثبت ماأرادت له الفناء .

نعم إن الشيوعية عملت على هدم نفسها بنفسها ، عندما أنكرت وجود خالقها ، وصادمت فطر شعوبها التى فطرهم الله تعالى عليها ، فكان هذا أحد المعاول القوية التى حكمت على الشيوعية بالزوال ، وبقيت الفطرة الإنسانية تتطلع إلى تحقيق رغباتها ، وماتت الشيوعية قبل أن تحقق شيئا من أهدافها تجاه الفطرة الإنسانية . وبعد هذا العرض نسجل هذه الحقائق :

أولا : أن إنكار وجود الخالق جل وعلا من قبل الشيوعيين كان ظاهرا وقد صدر عن بعض قادتهم ومفكريهم مايدل على الاعتراف بالخالق جل وعلا فى بواطنهم .

ثانيا : أن مصادمة الفطرة الإنسانية ، والسير بخلاف السنن الإلهية ينتهى بصاحبه إلى ماانتهى إليه أمر الشيوعية ، وأن ذلك مصير كل نظام يخالف ماأراده الله تعالى .

ثالثا : أن بقاء الشيوعية هذه الفترة كان عن طريق القوة والقهر لاعن طريق الاقتناع بالفكر .

رابعا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يرد على كل مزاعم الشيوعيين وأفكارهم سواء فى إنكار الإله ، أو التملك ، أو الحياة الأسرية ، أو الإنتماء ، وكفى بهذا دليلا على بطلان الفكر وكونه مزاعم ونظريات لايدعمها دليل ، ولايسندها واقع .

خامسا : أن الفرد الشيوعى يتساءل عن هذا التناقض بين النظرية والواقع ، ولأجل ذلك حدث أن كفر بالفكر الشيوعى نفر غير قليل منذ بداية تطبيقه فى الاتحاد السوفييتى ، أما بعد التباعد عن قيام الثورة فإن الهاربين من جحيمها أصبحوا كثيرا حتى من قوادها ودعاتها .

سادسا : أن الشيوعية لم تكتف بمصادرة الفطرة بل أرادت القضاء على الإنسان بالكلية فعملت على مصادرة حريته ، والتى يتطلع إليها من خلال فطرته أيضا فأضافت عاملا آخر فى هدم نفسها بنفسها ، وأظهرت تناقضها أكثر وأكثر بعد أن أعلنت أنها ماقامت إلا لتحقيق الحرية والمساواة والعدل ونأتى الآن للحديث عن القضاء على الحريات الفردية والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بالفطرة الإنسانية .

الفصل الثانى
القضاء على الحريات

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : الحرية الشخصية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث الثانى : الحرية الدينية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث الثالث : الحرية الفكرية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث الرابع : حرية التعلم والتعليم :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث الخامس : الحرية السياسية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث السادس : حرية العمل :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث السابع : حرية التنقل :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

الفصل الثانى
القضاء على الحريات

تمهيد :

إن الشيوعية لم تقم إلا بالقوة والقهر وهذا يتطلب سلب الناس حرياتهم ورغباتهم ، من أجل تقبل ذلك الفكر ، حتى لو تعارض مع نوازعهم الفطرية وتوجهاتهم الشخصية . وأعلن قادة الثورة البلشفية أن هلاك ثلاثة أرباع البشرية فى سبيل أن يبقى الربع الأخير إشتراكيا أمرا لاحرج فيه . ومن هنا لم يعر هذا النظام الإنسان أى اهتمام إلا من خلال زاوية واحدة أن يكون عضوا شيوعيا نافعا يخدم الفكر الشيوعى وأهله .

إن الشيوعية عملت على مصادرة الذات الإنسانية بكل ماتحمله من أمور فطرية وتطلعات إجتماعية .

ودون شك إن العلاقة وطيدة بين الفطرة والحرية ، فكل أمر فطرى يجد الإنسان تحقيق ذاته من خلاله .

فكون الإنسان فطر على الإقرار بوجود الخالق جل وعلا فهو حر فى عبادة ربه تعالى وبالتالى الانعتاق من كل عبودية لغيره جل وعلا ... وكونه فطر على حب التملك فهو حر فى سلوك الطريق الذى يحقق له رغبته تلك شريطة أن تكون منضبطة بضوابط الشرع .. وكونه كرم بالعقل فإنه يتطلع لممارسة الحقوق التى تتعلق بذلك التكريم من خلال منحه حرية الفكر والرأى والقول ، وهكذا ... إن الإنسان يرغب فى الحرية ولايرغب فى تقييدها وتقييد ماتطلبه نفسه وماهو حلال له . بل إن من أهم مايرغب الإنسان فى تحقيقه هو التمتع بحريته وإكرام إنسانيته وعدم سلبه هذه الكرامة.

ويظل الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان وتحت كل نهج ، يأمل فى تحقيق نوازعه ودوافعه .

والأفراد الشيوعيون ليسوا إلا من خلق الله ومن أبناء آدم عليه السلام ، ففطرهم لاتخرج عن ماقدره الله وقضاه. ورغبتهم فى الحرية لاتخرج عن قضاء الله وقدره .

ولابد من القول هنا أن الإسلام بعقيدته وشريعته يرد على كل مذهب وضعى أو فكر مادى ، وإذا كنا بصدد الحديث عن الحريات فإن الإسلام قد جعل الحرية للإنسان فى كل أموره .. الحريةالشرعية المنضبطة بضوابط دين الله تعالى .

وقد أولى الإسلام الإنسان عناية خاصة فى المحافظة على حقوقه وتنظيم رغباته وشهواته(ويعتبر حق الحرية من أهم الحقوق الإنسانية التى أقرها الإسلام للإنسان ، لأن حرية الفرد مرتبطة بحياته وهى حاجة ملحة للإنسان والإنسان الذى يفقد حريته يفقد ذاته وبالتالى فهو مكبل بالأغلال وشعوره بهذا التضييق يشعره بالمهانة والذل ، ويحد من طاقته ونشاطه ، ولهذا فإن من أولى ثمرات الحرية تشجيع الطاقات البشرية الكامنة ، وتفجير القدرات التى لايمكن أن تؤتى ثمارها المرجوه إلا فى ظل حرية باعثة على العمل ، والجهد والإنتاج)[١].

وهذه الحرية (عامة شاملة تعم الحاكم والمحكوم ، وتشمل الشعوب الصغيرة والكبيرة ، ويطلقها الإسلام لكل مسلم ومسلمة ، وتتناول الشعب الفاتح والشعوب المغلوبة على أمرها على السواء)[٢].

إن هذه الحرية التى قررها الإسلام ملازمة للإنسان بوصفه إنسانا ، إذ أنه يولد بها فيجب احترامها وعدم المساس بها أو مصادرتها من الشخص[٣].

---

(١) المدخل للتشريع الإسلامى (٥٨) ، د. محمد فاروق النبهان ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م دار القمة ، بيروت ، وانظر الإسلام يرفض الشيوعية (٥٥) .

(٢) الإسلام يرفض الشيوعية (٥٥) .

(٣) انظر الإسلام وحقوق الإنسان (١١٦) .

وقد وقف الإسلام من الحريات موقفا وسطا بين المذهب الحر وهو الرأسمالية ، والمذهب الدكتاتورى الشيوعى القائم على مصادرة الحرية . فلاالرأسمالية حققت السعادة وسارت مع الفطرة ، ولاالشيوعية استطاعت القضاء على الحرية لأنها مطلب متعلق بالفطرة الإنسانية . وكان الإسلام محققا للحرية الفردية ، ضمن الضوابط الشرعية .

والحريات فى المذهب الفرد يمكن تلخيصها فى :

(١) (الحريات المقصورة على النشاط الفردى .

(أ) الحريات الشخصية والمدنية .

١ - الأمن والحماية من الإعتقال أو الحبس التعسفى .

٢ - حرمة المسكن .

٣ - حرية المراسلات .

٤ - حرية التنقل .

٥ - الحريات الأسرية كحق الزواج .

٦ - حرية التعليم .

(ب) الحريات الإقتصادية وتشمل :

١ - حق الملكية .

٢ - حرية المشروعات الصناعية والتجارية .

٣ - حرية التجارة والصناعة "المنافسة الحرة" .

٤ - حرية تداول المنتجات الوطنية والعالمية .

٥ - حرية تحديد الأسعار والأجور تبعا لظروف السوق .

(ج) حرية الفكر (دينية ، وفنية)[١].

(٢) الحرية السياسية[٢].

---

(١) الحريات العامة فى الإسلام (١٨٨-١٨٩) محمد سليم محمد ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) انظر المرجع السابق (١٨٨-١٨٩) .

لمحة عن الحقوق والحريات :

تعتبر الشرائع السماوية هى السباقة لذلك الحفاظ على الحريات والحقوق ، وليس ذلك غريبا لأن الله تعالى هو خالق الخلق وهو أعلم جل وعلا بما يحقق لهم مصالحهم وبما يكون سببا فى سعادتهم وشقائهم ، ومن هنا حافظت الشرائع السماوية على تلك الحقوق والحريات ، وكان الإسلام الدين الخاتم الذى رفع من قدر الإنسان ، وأعطاه كامل حريته ، ولم يقيد ذلك إلا بعدم الخروج على أوامر الله تعالى التى هى فى الأساس من أجل الحفاظ على هذه الحرية وصاحبها ، فكان الإسلام أسبق من هذه الدعاوى والقوانين التى جاءت تنادى بحقوق الإنسان وحريته .

وماظهرت هذه الدساتير(١)، والقوانين(٢)إلا متأخرة على ماجاءت به الشرائع السماوية . والقانون الدستورى هو : (مجموعة القواعد التى تنظم علاقة الدولة بالفرد من الناحية السياسية أى التى تحدد التنظيم السياسى فى دولة ما)(٣).

---

(١) عبر الغربيون عن الدستور بكلمة "كونستيو" Constitutio اللاتينية التى كانت تطلق فى القديم على أوامر الأباطرة الرومان ، ثم استعملت مؤخرا فى الإيطالية للدلالة على قسم القانون الأساسى وانتشرت منها إلى سائر اللغات الأوربية . أما كلمة الدستور فى العربية ، فهى كلمة دخيلة من الفارسية ومعناها فى الأصل مجموعة قوانين الملك وبهذا استعملها العثمانيون لمجموعة قوانينهم ، واستعملوا للقانون الأساسى كلمة "المشروطية" لأنها تقيد سلطة السلطان بشروط واردة فيها ... ولم تستعمل كلمة الدستور غالبا بمعنى هذا القانون الأساسى فى البلاد العربية إلا منذ أوائل هذا القرن .

انظر أركان حقوق الإنسان (٣٩) ، د. صبحى المحمصانى ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م دار العلم للملايين ، بيروت ، القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الأول (٢٠) ، د. عبد الحميد متولى ، د. سعد عصفور ، د. محسن خليل ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) القانون هو : (مجموعة القواعد التى تنظم الروابط الاجتماعية وتتوفر على جزاء يكفل اطاعتها واحترامها) .

القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الأول (٩) .

(٣) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الأول (٢٢) .

لمحة تاريخية عن القوانين والدساتير وحقوق الإنسان :

عرفت المجتمعات الإنسانية كثيرا من المواثيق والاتفاقيات الدولية وتهدف إلى تحقيق المصلحة الخاصة والعامة .

وصدر عن الدول الأوربية عدة قوانين فصدر عن الانجليز عدة وثائق كان أولها عام ١٢١٥م ثم لحقها عدة وثائق أوضحها وأبينها سنة ١٦٢٨م وسميت عريضة الحق ثم إعلان الحقوق سنة ١٦٨٩م ، ثم قانون التسوية سنة ١٧٠١م ، وقد اشتملت هذه الوثائق على الاعتراف بالحقوق لعامة الشعب وتثبيت الديمقراطية ، ومبدأ الشرعية ، وسيادة القانون ، ومايستتبع ذلك من مساواة وحريات ، وضمانات عملية[١].

وصدر القانون الأمريكى عام ١٧٨٧م وعدل مرارا ونص على حرية العقيدة ، حرمة النفس والمال والمنزل ، حرية التقاضى ، وعدم التجريم بدون محاكمة عادلة ، ضبط القوى المسلحة ، وشروط حمل السلاح ، ونصت تعديلات لاحقة على تحريم الرق ، وتحرير الأرقاء ، وعلى المساواة فى حق الانتخاب ، من دون تمييز لجهة العرق أو اللون أو الجنس[٢].

ثم كانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وصدر (إعلان حقوق الإنسان والمواطن)[٣]ونص على الحرية . ومما جاء فى مواده المادة الأولى (يولد

---

(١) انظر أركان حقوق الإنسان (٤٠) .

(٢) المرجع السابق (٤١) .

وانظر : صحيفة عكاظ العدد (١٠٧٣٥) (٩) ، نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمركية (١١-٣٩) ، بروسترك ، دينى ترجمة د. ودوده عبد الرحمن بدران ، مراجعة شويكار محمد زكى ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، مصر ، وفيه دراسة عن الدستور الأمريكى وأثره فى السياسة الأمريكية ، وكذلك مراعاته للحريات الدينية والصحفية وحرية الرأى ... (إن الكونجرس لن يصدر أى تشريع من شأنه المساس بوجود دين معين أو يمنع من حرية ممارسة هذا الدين أو يحد من حرية التعبير أو الصحافة ، أو حق الأفراد فى التجمع السلمى ، وتقديم التماس للحكومة للتعويض عن الضرر أو الأذى) (٣٥) .

(٣) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الأول (٥٥) ، وانظر (١٨٥) .

الأفراد ويعيشون أحرارا ويتساوون فى الحقوق) .

وجاء فى المادة الرابعة (إن الحرية ، هى القدرة على عمل كل مالايضر بالغير)(١).

كما نص الدستور على حرية الرأى ، والفكر ، وحرمة الملك ، وأن الأصل براءة الذمة ، ولايوقف أحد باتهام ، إلا حسب الأصول القانونية ، ولايجوز الحكم عليه إلا بعد محاكمة قضائية(٢).

وصدر القانون السوفييتى عام ١٩٣٦م وكانت مواده من ١١٣-١١٨ تكريس لحقوق الإنسان وتكرر ذلك فى دستور ١٩٧٧م ونص على المساواة ، والتعليم المجانى ، والحريات كحرية الفكر والتعبير والاجتماع والتظاهر والحرية الشخصية وحرية المراسلات ، بل وتوسع الدستور السوفييتى فى مسألة العدالة الإجتماعية فأكد حق المواطن فى العمل المكفول ، وحقه فى الراحة بواسطة الاجازات ، وتحديد ساعات العمل وحقه فى الضمانات الإجتماعية ضد الشيخوخة والمرض ، والعجز ، والبطالة(٣).

(وقد تعاقب الاهتمام على هذا الموضوع منذ ذلك الحين ، فنتج عنه اهتمام إقليمى ودولى صدرت عنه عدة وثائق ومعاهدات دولية ، لعل أبرزها الاعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م ، والاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان عام ١٩٥٠م ، والاتفاقية الدولية للقضاء على أشكال التمييز العنصرى عام ١٩٦٥م ، والاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان عام ١٩٦٩م ، والميثاق الافريقى لحقوق الإنسان والشعوب عام ١٩٧٩م ، ومشروع الميثاق العربى لحقوق الإنسان عام ١٩٨٦م ، ومشروع ميثاق حقوق الإنسان المسلم (المؤتمر الإسلامى) عام ١٩٧٩م)(٤).

---

(١) الحريات العامة فى الإسلام (١٩١) .

(٢) انظر : أركان حقوق الإنسان (٤٢) ، صحيفة عكاظ العدد (٩/١٠٧٣٥) .

(٣) انظر أركان حقوق الإنسان (٤٢-٤٣) .

وعن القانون الدستورى ومصادره وأقسامه انظر الدراسة الجيدة التى جاءت فى كتاب القانون الدستورى والنظم السياسية ـ القسم الأول ، بقلم د. سعيد عصفور.

(٤) عكاظ العدد ١٠٧٣٥ (٩) .

وقد رفعت أغلب المواثيق والدساتير شعارات الحرية ، والمساواة ، والعدالة ، ولنا هنا وقفة ، وهى أن الإسلام كان أسبق من هذه القوانين والدساتير التى تعمل بها كثير من الدول الآن . يقول المرصفى : (ادعت الأمم الديمقراطية الحديثة أن العالم الإنسانى مدين لها بتقرير حق المساواة ، وحق الحرية! فذهبت أمة إلى أنها أعرق شعوب العالم فى هذا المضمار! وزعمت أخرى أن هذه الاتجاهات جميعا كانت وليدة ثورتها! وأنكرت أمم أخرى على هذه وتلك هذا القول وادعته لنفسها! والحق أن الإسلام هو أول من قرر المبادىء الخاصة بحقوق الإنسان ، فى أكمل صورة ، وأوسع نطاق...)(١).

ومن أكثر المذاهب الأرضية التى تشدقت بالحرية والعدل والمساواة الشيوعية ، وقد أجلبت بخيلها ورجلها فى إنتقاد الفكر الرأسمالى واعتبرته بإقراره للملكية الفردية ، قد جلب الشرور وصنوف الآثام للبشرية ، ولأجل ذلك طالبوا بالغائها منعا لهذا الاستغلال الناجم عن وجودها ، وادعوا أنهم سيحققون الحرية والعدل ، وسيقضون على الظلم والجور ، وأعلنوا ذلك صراحة . إلا أن واقعهم كان لهم بالمرصاد كما سنتبين ذلك من خلال عرضنا للحريات ومصادرة الشيوعية لها . وأود الإشارة هنا إلى أننا سنتحدث بلمحة مختصرة عند حديثنا عن كل نوع من أنواع هذه الحريات عن موقف الإسلام منها وإقراره لها فى نهاية كل حرية ، وفى ذلك بيان للحق ، الذى وافق الفطرة ، ورد للباطل الذى يخالفها ونصل إلى تعريف الحرية .

تعريف الحرية :

فى اللغة : الحر : (نقيض العبد ، والجمع أحرار ، وحرار ، ... والحرة نقيض الأمة . والجمع حرائر ... وحرره أعتقه ... والحر من الناس : أخيارهم وأفاضلهم . وحرية العرب أشرافهم ...)(٢).

---

(١) المادية والروحية فى الميزان (٢٣-٢٤) .

(٢) لسان العرب (١٨١/٤-١٨٢) حرف الراء ، فصل الحاء .

في الاصطلاح : إن مصطلح الحرية لم يرد فى كتاب اللـه تعالى . ولكن وردت الألفاظ التالية : الحر . ضد العبد ، محررا ، تحرير .

وتعـددت التعـاريف للحـرية فى الاصطلاح منهـا أن الحرية (إرادة الإنسان وقدرته على ألا يكون عبدالغير الله)[١].

أو هـى (استعمـال حقك المشـروع بحيـث لايطغـى على حقـوق الآخرين)[٢].

أو هـى (الإذن بإجراء عمل أو بالامتناع عن اجرائه . بدون التعـدى على حقوق الآخرين ، ولامجاوزة حدود القانون)[٣].

ويعرفها صول بادوفر بقوله : (الحرية هى أن تكون للإنسان الخيرة فى أن يفعل مايريد بشرط عدم الإضرار بالآخرين)[٤].

ويعرفها البعض بأنها (مراكز قانونية للأفراد تمكنهـم من مطالبة السلطة بالإمتناع عن القيام بعمل مافى بعض المجالات)[٥].

والحرية عنـد انجلز هى : (الهيمنة على الطبيعة وعلى الـذات ، الهيمنة القائمة على إدراك الضرورة الطبيعية)[٦].

ويظهـر من هذه التعريفات أن كـل منها يميل إلى توجه قـائله إلا أنها اشتركـت غالبا (عدا تعريف انجلـز) فى مسألة القدرة على الفعـل أو الترك ، وعدم إلحاق الضرر بالآخرين .

وعلى هـذا يمكن القول إن الحرية هـى : أن يكون الإنسـان مختـارا فى فعلـه أو تركه ، وبمقدوره ممارسة رغباته وتحقيقها شـريطة انضباطها بضوابط الشرع ولاشك أن الحرية تتعلق بالحق ، وحق الله تعـالى أمره ونهيه ، وحق

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان (٢٩٦) .
(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٨٢) .
(٣) أركان حقوق الإنسان (٧٢) .
(٤) معنى الديمقراطية (١٤١) نقلا من كتاب الإسلام وحقوق الإنسان (٢٩٦) .
(٥) ضمانات الحرية (٢٣) .
(٦) الماركسية ، قضايا أساسية (١٠١) .

العباد مصلحتهم ، ويعرف البعض الحق بأنه (مصلحة لايمنعها الشرع)[١].

ولكون الحرية تتعلق بالإنسان وكل أحد يرغب فى تحقيقها ، ولكون الإنسان يمثل العنصر الأساسى فى إنتشار أو بقاء أى مذهب نجد أن كل صاحب فكر أو مذهب يدعى تحقيق ذلك ، وأن دعوته تقوم من أجل رعايتها .

يقول هيغل : (الحرية والمساواة ، هاتان هما المقولتان اللتان فيهما يلخصون عادة مايجب أن يكون أساس كل تشريع وغايته الأخيرة ونتيجته)[٢].

يقول د. أحمد كنعان : (ربما كانت الحرية من أكثر المصطلحات التصاقا بحياة الإنسان وبمصيره ، وربما كان هذا هو السبب ، الذى من أجله يتعرض مفهوم الحرية لكثير من عمليات التشويه والتلبيس والتلاعب .. ولقد ظلت الحرية على مدار التاريخ عرضه لعمليات "تحجيم" ماكرة يراد منها أن تخدم مصالح بعض أصحاب القرار ، الذين لايؤمنون أصلا بالحرية إلا بمقدار ماتمنحهم هذه الحرية من "سلطات" إضافية تضاف إلى رصيدهم من التسلط والطغيان والجبروت!)[٣].

ومن هنا كان لابد من تحديد مفهومنا الذى نريده من لفظ الحرية .

مقصودنا بالحرية وأهميتها ، وبيان أنها مقيدة وليست مطلقة :

عند الحديث عن الحرية يلزمنا من التفصيل فى المعنى الذى نريده بالحرية ، فالإنسان حر فى أفعاله وتصرفاته ولكنها مقيده بأوامر الله تعالى ونواهيه . فهو حر فى عبادة ربه ولايكون عبدا إلا لله وحده . كما أنه حر فى أفعاله وأقواله إذا لم يتعد أوامر الله تعالى أو حدوده . حرا فى تنقلاته

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان (٨٦) .
(٢) مختارات هيغل (١٢٧/٢) .
(٣) أزمتنا الحضارية (١٠٧) .

وسلوك طرق كسبه منضبطا بقواعد الشريعة . إن الحرية فى الإسلام تعنى أن يمارس الإنسان حقوقه كاملة غير منقوصة من خلال قواعد الإسلام .

وعلى هذا فلانعنى بالحرية ماتعنيه الحضارات المادية (ففكرة الحرية فى الغرب كانت فى صميمها تحررا من سلطان الكنيسة ورجالها فى العصور الوسطى ، ومن سلطان الإقطاعيين فى تلك العصور أيضا)[١].

وإذا كانت الكنيسة تسلطت باسم الدين فإن من البدهى أن تعنى الحرية عند هؤلاء القوم الانفلات من كل تعاليم الكنيسة وبالتالى التحرر من دينها الذى تسلطت باسمه . فقامت الدعوة بفصل الدين عن سائر شئون الحياة الإقتصادية والسياسية والإجتماعية . ومن الغريب أن هذه اللوثة انتقلت إلى أبناء المسلمين وبدأ الفصل بين الدين ومظاهر الحياة المتعددة[٢] ونسى هؤلاء أن مفهوم الحرية فى الفكر الإسلامى (يستمد قداسته من إيمانه بكرامة الإنسان ويعقد الصلة بين الحرية وقيم الدين الكبرى ، لأنه يربط بينها وبين الجزاء الروحى ومصير الإنسان وغاية الوجود ، وهو ربط يرتفع بها إلى أن تكون فريضة اسلامية ، فما حاجة الحرية إذن إلى أن تناقض الدين أو تثور عليه؟ وكيف تثور عليه وهو صاحبها وواهبها خير ماتعتز به...)[٣].

إن الحرية فى المذاهب الوضعية الأرضية تعنى الانفلات من الرقابة ويدور الإنسان مع مصلحته الشخصية حيث دارت دون اعتبار للآخرين . فالمعول عليه هو تحقيق الرغبات الجسدية ، والوصول إلى الغايات الحياتية ، كما هو الحال فى المذهب الفردى الحر ، أما المذهب الشيوعى فإن الحرية لفئة من الناس لاتتعداهم . وهذه الحرية لاتمنح لأعداء الشعب وهذا شعار الشيوعيين و(يعنى فى الواقع : أنه لاحرية لغير الماركسيين (أى غير الشيوعيين) من المواطنين ، أى أنه لامساواة بين المواطنين فى مزاولة

(١) الفكر الدينى فى مواجهة العصر (١٤٠) .
(٢) انظر المرجع السابق (١٤٠) .
(٣) المرجع السابق (١٤٣) .

الحرية)[١].

إن الحرية فى الإسلام ليست عرضة للتبديل والتغيير حسب الأهواء والمصالح ، تعطى حينا وتمنع حينا آخر ، حسب ماتقتضيه مصلحة فرد أو جماعة ، فهى حق ثابت ، طالما أنها لاتتعارض مع أصل من أصول الإسلام المقررة فى الكتاب والسنة المطهرة . ومن هنا فهى تتصل بالعقيدة فليس لأحد سلبها أو إهدارها ، إذا سار بها صاحبها فى طريقها المقرر لها من قبل مانحها.

أهمية الحرية وتقييدها :

إن الإنسان باعطائه حرياته وتحقيقها له يشعر بذاته وكيانه ، ويصبح إنسانا فاعلا فى مجتمعه ، يبذل كل مافى وسعه لتحقيق مصلحته ومصلحة المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن هنا اهتمبها الإسلام .

وبالرغم من هذه الأهمية ، إلا أنها حرية مقيدة فى الإسلام (مقيدة بأحكامه ونظمه)[٢]، (حرية فى حدود القيم والفضائل وفى نطاق الأخلاق والدين الذى يقوم عليه بناء المجتمع .. وهى حرية تسمو بالإنسان وتصونه عن التدنى إلى أسفل)[٣]، (حرية تجد مجالها ... مادامت تؤدى ضمن حدود الآداب والأخلاق الإسلامية ، وتتوخى المصلحة العامة ...)[٤]. (وتقييد الحرية لايعنى شل حركة الإنسان ومنعه من التصرف ، وإنما يراد منه وضع الحدود التى يجب أن يقف عندها ، وهى عدم تجاوز حقوق الآخرين أو مصالحهم بالإضرار بهم ...)[٥]. كذلك كانت الدساتير تنص على هذا التقييد للحرية[٦].

---

(١) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٧٥) .
(٢) ضمانات الحرية (٢٢٨) ، وانظر (١٢٧-١٢٨) .
(٣) الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٨٤) .
(٤) الإنسان وحريته فى الإسلام (١٧٨) ، وانظر (١٤-١٥) د. محمود محمد بابللى ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة ، المملكة العربية السعودية ، الرياض .
(٥) الإنسان وحريته فى الإسلام (١٠٢) .
(٦) انظر : الإسلام وحقوق الإنسان (٣٠٥) ، أركان حقوق الإنسان (٧١) .

مصدر هذه الحرية :

إن مصـدر الحرية التى هـى حق للإنسان ليست هبـة من انسان آخر . بل هـو حق قرره الخالق جل وعلا فى كتـابه الكريم حيـث كـرم ابن آدم ، وهذه الكرامة هى منهل حقوق الإنسان جميعا ومن أبرز هذه الحقوق الحرية.

والإسلام حين قـرر مبدأ الحرية ممثلا فى كتـاب اللـه تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا التقرير نسف لكل من صـادر هذا المبدأ ، أو اقترف الآثام والظلم باسمه . وتقرير الله تعالى لذلك دل على أن بنى الإنسان كلهـم سـواسية تجاهـه . فـالفـرد بفطـرته سـواء كان فى أرض الجزيرة أم فى جمهـوريات الاتحاد السـوفييتى الإشتراكيـة يظـل هو الفـرد صـاحب النزعات الفطرية والتطلعات البشرية ، ولن يستقيم أمره إلا إذا حكـم بأمر الله تعالى وشرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فـ(الإنسـان هو الإنسان شيوعيا كان أو رأسماليا أو غير ذلك ، ولن يكون هذا الإنسان شيئـا فاضلا أبدا إلا إذا غـدا وجدانه محكـوما لابقبضـة القانون والإرهاب ، ولكـن بسلطـان المثل العليا وهيمنة فضائل العدل والمساواة والرحمة ...)[١].

وكان فى الشيوعية دليل على ذلك حيث عجزت رغـم قوتها وجبروتها وتسلطهـا وبطشها ، من مصادرة ماغرس فى فطرة الإنسان ، ووهبـه الله تعالى إياه ، ومـاأن حانت الفـرصـة حتى عبر الفـرد الشيوعـى عـن خفـايا نفسه ، ومطـالب فطرته . وماأن تذوق الشعـب الروسى (نسيم الحرية وطعـم التغيير من ثقب الإبرة الذى أحدثه غـورباتشوف حتى طالب بكسـر الستار الحديدى كلـه والانعتاق من السجن الحديدى الـرهيب إلى رحاب الحرية والـديمقراطية ...)[٢] وهذا مايتفق مع الفطرة الإنسانية ، ويبين أن الحرية هبة إلهية لايمكن أن تؤخذ من الإنسان ولو بالقوة .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (١٣٨) .

(٢) مجلة الحرس الوطنى العدد (١٠٩/١٢-١٣) ربيع الأول ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

بقى أن نقول إن الحرية وحدة متكاملة تعيش بها النفس الإنسانية ولايمكن تحقيق جزء منها دون الآخر ، فلابد من توفر أجزائها كلها كى يشعر الإنسان بكيانه المتكامل .

وبعد هذه المقدمة يمكن القول أن هناك ضوابط عدة يمكننا أن نضعها للحرية وهى :

أولا : أن مصدر الحرية - أى إعطاء حق الحرية - هو الخالق جل وعلا.

ثانيا : أن هذه الحرية مقيدة وليست مطلقة ، والتقييد إنما يكون فى سبيل الوصول بها إلى أعلى درجات الخيرية والعلو .

ثالثا : أن الحرية التى يتحدث عنها الغربيون وغيرهم من أهل الانحلال ليست هى المقصودة بالحق الذى يحافظ عليه ولايمس .

رابعا : إن الحريات لاتتجرأ فكلها مرتبطة بعضها ببعض فلايمكن تحقيق حرية دون أخرى وذلك لأنها تشكل وحدة متكاملة لكيان الإنسان .

الحريات فى النظام الشيوعى

قامت الشيوعية وهى تعد العمال بالحرية ، والمساواة ، والعدل ، بل وأكثر زعماؤها المنظرين والمطبقين من الحديث عن هذه الشعارات ، ونعرض الآن لموقف الشيوعية من هذه الحريات ، ثم مدى توافق الواقع مع النظرية فى تحقيقها . وسيكون حديثنا عن أنواع الحريات كالآتى :

أولا : الحرية الشخصية .

ثانيا : الحرية الدينية .

ثالثا : الحرية الفكرية .

رابعا : حرية التعلم والتعليم .

خامسا : الحرية السياسية .

سادسا : حرية العمل .

سابعا : حرية التنقل .

والآن نتحدث عن هذه الحريات حسب أهميتها وذلك :

أولا : بعرضها من كتبهم ودساتيرهم وأنظمتهم ، ومن خلال العرض يتضح لنا التناقض العجيب بين النظرية والواقع .

وثانيا : عرض موجز عن موقف النظام الإسلامى من هذه الحريات مقرونا بالأدلة الشرعية .

المبحث الأول
الحرية الشخصية

(أ) الحرية الشخصية فى النظام الشيوعى :

ينص الدستور السوفييتى على احترام الإنسان وحرياته وحرمتها ، وعدم جواز التعرض لها . وقد ورد بالمادة السابعة والعشرين والثامنة والعشرين من الدستور السوفييتى مايفيد الحفاظ على الحرية الشخصية للمواطنين وهى حق الأمن ، وحرمة السكن ، وسرية المراسلات ، وعدم اعتقال أحد إلا بقرار من المحكمة(١).

هذه المواد وغيرها تنص على احترام الحرية الشخصية وعدم التعرض لها .

ولكن واقع الاتحاد السوفييتى وحياة الشعوب فيه تبطل ذلك وتنافيه ، إذ أننا إذا عرضنا ماجاء عنالشيوعية نظريا وجدنا أن أفعالهم تتناقض مع أقوالهم ويصدق عليهم حينئذ ماقاله أفلاطون : (امتحن المرء بفعله لابقوله)(٢).

فهذه القوانين كغيرها مجرد إدعاء وتلبيس على الناس . حيث إن هلاك البشر والقضاء عليهم فى سبيل الشيوعية لايعتبر أمرا مستغربا . يقول لينين : (هلاك ثلاثة أرباع البشرية ليس بشىء وإنما الشىء الهام أن يصبح الربع الباقى منهم شيوعيين)(٣).

فهذه حياة الفرد فى سبيل الشيوعية مهدرة فكيف يتمكن من الحفاظ على باقى حرياته الشخصية حيث فقد أعظم مايملكه الإنسان ويدافع عنه .

---

(١) انظر أركان حقوق الإنسان (٤٣) .

(٢) أفلاطون فى الإسلام (١٩٥) .

(٣) حقيقة الشيوعية (٢٥) ، وانظر الإسلام يقينا لاتلقينا (٢٥٤) د. صابر طعيمة ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار الجيل ، بيروت .

وقد تجلى ذلك بأبلغ صوره فى الأعمال الوحشية التى قامت بها الشيوعية من الاعتقالات وحركات التطهير الجماعية التى لم يكن لها مبرر حتى فى نفوس من عاش بين الشيوعيين وكان من أمناء الحزب الشيوعى ، فهذا ليونهارد يقول : (حاولنا مرارا وتكرارا تبرير حركة التطهير حتى نحافظ على نظرتنا المثالية ، واعتقادنا فى الاتحاد السوفييتى ، على أنه البلد الاشتراكى الوحيد . ربما ـ هكذا كنا نقول لأنفسنا ـ كانت هناك أسباب لانعرفها حتمت على السلطة ، اجراء هذه المحاكمات ، وأجبرتها على تنفيذ تلك الاعتقالات الجماعية ، ويحتمل أن يكون المتهمون التزموا السلبية ، فلم يكونوا خونة ، ولاجواسيس ، بل أعاقوا "بدون قصد" تطور الاشتراكية ، ألم يتحدث "ماركس" نفسه عن القوة ، فوصفها بأنها العامل المساعد على ميلاد مجتمع جديد؟ أليس ممكنا . أن بعض المقبوض عليهم كانوا حقيقة جواسيس ، وأنه يجب ـ طالما لم يكن هناك تقارير مضبوطة أن تطهر كل الوزارات والمصالح؟ وأخيرا ، ألم يتعلق الأمر بحماية الدولة الإشتراكية الوحيدة فى العالم؟

كان بعضنا ينظر إلى هذه الأحداث كحتمية تاريخية ، ربما اقتضتها أسباب ضرورية لانعرفها ، ولأهميتها البالغة لايجوز لأحد من المسئولين كشف النقاب عنها وإذاعتها)(١).

يقول بريجنسكى : (لم يعرف التاريخ الإنسانى كاملا ثمن بشرى دفع فى بناء إجتماعى أو أى تجربة أخرى مثلما دفعت البشرية فى مواجهتها مع الشيوعية فى القرن العشرين)(٢).

ولو ذهبنا نتتبع حركات الإزهاق للروح الإنسانية من أجل إقامة الشيوعية لطال بنا المقام ولكن نذكر هذه الحقائق التى تعطى الصورة الحقيقية عن مدى الحفاظ على الحرية الشخصية فى ظل الشيوعية .

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٦٤-٦٥) .

(٢) الفشل الكبير (٣٠٤-٣٠٥) .

أولا : حق الحياة والحفاظ على الروح :

لم تقم الشيوعية وزنا لحياة الناس بل اعتبرت أن تقديم ثلاثة أرباع البشرية فداء من أجل أن يبقى الربع الأخير إشتراكيا عملا مستحسنا .

ولو ذهبنا إلى مبادىء ماركس لوجدنا أن العنف والقتل أسلوبا يتحتم على البروليتاريا استخدامه لتصل إلى غاياتها وكان لينين مطبقا لهذه المبادىء ومن بعده الدكتاتور ستالين . يقول أنور الجندى :

(لو نظرنا إلى التجربة الشيوعية فى روسيا لوجدناها صورة مظلمة فإن آخر التقارير تقول أن ٥٢ مليونا لقوا حتفهم فى الاتحاد السوفييتى فى ٢٦ عاما بسبب المجاعات والاعتقالات والاضطهادات والحرب العالمية الثانية...)(١).

ولاغرابة فى ذلك إذا ماوضعنا فى اعتبارنا أن الشيوعية حركة ثورية . يقول دجيلاس : (إن القاسم المشترك بين كافة الحركات الثورية هو تميزها بالعنف والهمجية ، وقد كان للحركة الشيوعية فى هذا المضمار دورها البارز والمتميز فى التاريخ ، إن حركة "ثورية" تضع نصب أعينها تحويل كل من الإقتصاد والمجتمع بالأساليب والوسائل الاستبدادية ، لابد لها من أن تلجأ بشكل حتمى إلى أساليب العنف والوحشية)(٢).

وعلى هذا الأساس فلابد من العنف من أجل القضاء على المخالفين أو أعداء الثورة واستتباب الأمن لهذه الفئة ، وقد صرح زعماء الشيوعية بأنه يتوجب استخدام القهر والعنف والقتل من أجل فرض النظام الشيوعى ، كما صرحوا بأن الحرية الفردية أخطر مايهدد النظام الشيوعى .

يقول العوف : (ألم يستعمل الإشتراكيون الثوريون أقصى أسباب الشدة والعنف ضد الفئات السياسية الأخرى كما أوصى بذلك لينين عام ١٩٢٢م حيث قال : "إن نظم الحكم التى لاتستند إلى القهر وفرض السلطة

---

(١) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (٤٢) .

(٢) الطبقة الجديدة (٢٠٠) ، ميلوفان دجيلاس ، دار الكتاب العربى للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

على الشعب ، مصيرها الإنهيار الكامل ، ولهذا فإننا نعتمد على القهر وفرض السلطة فى حماية نظامنا" .

بل إن ستالين نفسه قال أيضا عام ١٩٣٨م : "إن الشيوعى المخلص فى الدول غير الشيوعية هو ذلك الذى يعرف كيف يقضى على نظم الحكم غير الشيوعية بلاهوادة وبلارحمة أو شفقة ... وهو ذلك الذى يستعين بكل وسائل التضليل والخداع وسعة الحيلة لفرض النظم الشيوعية على البلاد التى يعمل فيها" .

ألم يكفر الإشتراكيون الثوريون بحرية الفرد؟ ألم ينتهكوها؟ طبقا لما قاله ستالين عام ١٩٣٧م إذ قال مانصه : "دعونى أوضح لكم بصراحة ، إن نظامنا الشيوعى لايؤمن بالحرية الفردية ، فالحرية الفردية تعنى القضاء على "الجماعية" وتعنى الخروج على طاعة القانون وتعنى الانحراف عن الماركسية ، وهذا النوع من الحرية ـ أى الحرية الفردية ـ هو أخطر مايهدد نظامنا)[١].

لقد أصبح التطهير ومصادرة الحرية الشخصية للإنسان سمة بارزة من سمات الشيوعية . يقول كاونتس : (أصبح هذا التطهير سلاحا بتارا فى يد الحكومة فى كل مكان استولى فيه الحزب على الدولة)[٢].

ويقول برزيرنسكى : (التطهير والحكم المطلق قد ارتبطا فى وحدة لاانفصام لها ، وفى وسعنا أن نسمى النظام السوفييتى بحق نظام التطهير الدائم الذى لاينقطع أبدا)[٣].

لقد جعلت هذه الحملات الإنسان فى الاتحاد السوفييتى يعيش فى هلع ورعب ، فكل فرد ينتظر أن يكون الدور عليه فى الاعتقال والمحاكمة بشبهة معاداة الشعب (الشيوعية) ، وأصبح الإنسان يحاسب على أبسط تصرفاته الشخصية[٤].

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٤-٧٥) .
(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٤١) .
(٣) المرجع السابق (٣٤٢) .
(٤) انظر ماذكره ليونهارد عن ردود أفعال المواطن السوفييتى من حركة التطهير فى كتابه حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٦-٥٨) .

وحركة التطهير لم يسلم منها حتى أولئك الذين عملوا لخدمة الشيوعية حيث طالت المجتمع كله ، وأظهر الشيوعيون أن هؤلاء خونة ، عملاء ، جواسيس ، وماإلى ذلك من الألقاب التى وصموا بها كل من أرادوا التخلص منه حتى لايستغرب الشعب تلك الأفاعيل . فصور الشيوعيون أولئك الأعداء بأنهم أعداء للعمال وثورتهم . وفى الغالب أن هؤلاء ـ خاصة الذين عملوا على دفع الفكر الإشتراكى ـ كانوا على خلاف مع قواد الثورة البلشفية (لينين وستالين) لأنهم كانوا يخالفونهم الرأى فى بعض المبادىء الماركسية وتطبيقها فى عالم الواقع[١].

ثانيا : من مظاهر مصادرة الحرية الشخصية من قبل الشيوعية كثرة الاعتقالات والسجن والنفى ، ويلحق بذلك قرارات الإعدام والتى تمارس باسم العمال ومصلحتهم . يقول لينين : (أيهما أفضل الالقاء فى السجن بعشرات أو مئات من المتهمين مذنبين كانوا أم غير مذنبين أو فقد آلاف من الجيش الأحمر والعمال؟ لاشك أن الأول أفضل الأمرين وإنى لأرضى عن طيب خاطر أن أتهم بالخطيئة والاعتداء على الحرية فى سبيل مصلحة العمال)[٢].

ووظف الشيوعيون وسائل الإعلام والمدارس من أجل التأثير على الرأى العام السوفييتى بأن هذه الاعتقالات إنما هى لأولئك الخونة للقضية الشيوعية ، وأولئك الذين يريدون إعادة الرأسمالية فى الاتحاد السوفييتى . لقد أصبح الفرد السوفييتى يعيش حالة من الرعب والخوف[٣].

---

(١) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٧٣) ، وذكر أن الذين قاموا بالثورة مع لينين سبعة لم يبق منهم إلا ستالين حيث شملتهم حركة التطهير ، وكان أعضاء اللجنة المركزية العليا واحد وعشرون عضوا اختفى منهم فى حركة التطهير ستة عشر .

(٢) الشيوعية على حقيقتها (٩٨) عمر الاسكندرى ، نقلا من كتاب فوق أطلال الماركسية (١٦٣) . وسنتبين إن شاء الله تعالى مقدار اهتمام الشيوعية بالعمال ومصالحهم!!

(٣) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٤٣-٤٥) وانظر مابعدها .

يقول ليونهارد : (أطلق على من لم يعتقل اسم "الفضلات" ، ولم يكن حالهم أحسن من حال المعتقلين ، فقد أصيب معظمهم بلوثة نفسية نتيجة وقوعهم تحت تأثير الخوف المستمر ، وكانوا أقرب إلى الحيوان الوحشى الهائج من شدة الخوف من حلقة الصياد التى تضيق عليه الخناق شيئا فشيئا منهم إلى البشر ، وعجزوا عن الوسيلة الصحيحة التى تنقذهم من هذا الخطر الداهم ، ولكن أى الوسائل يمكن أن تؤدى إلى بر النجاة! تفاوتت آراؤهم فى تحديدها فبدت كما يلى : الصمت واجب الآن ، فإن أمكن الإنسان ألا يفتح فمه فليفعل ، وعلى الأخص فيما يمس السياسة ، فلاتبد رأيك اطلاقا ، حتى ولو كنت من المخلصين "للينين" ، الصمت ، والصمت فقط هو النصيحة الذهبية فى هذه الأيام . لايوجد اليوم أشد خطرا على المرء من الصمت ، لأنك بصمتك تشير للمخابرات أنك تحاول اخفاء أمر سرى ، أو تريد عدم اظهار أفكارك المعادية للنظام ، وسوف يقودك هذا إلى أن تصبح عندهم من أعداء الشعب ، فالأحسن فى الظروف الراهنة أن تكون نشطا ، ومتحدثا ، وداعيا بكل ماتملك للأفكار التى تنشرها جريدة برافدا)(١).

ولاشك أن هذه الاعتقالات قد أثرت فى نفوس كثير من أعضاء الحزب الشيوعى أنفسهم وإن كانوا لايستطيعون الإفصاح عنه ، وسبب هذا التأثير عدم وجود المبرر لهذه الاعتقالات التى لم ترع للإنسان حقا ولاحرية ، خاصة وأن بعض المعتقلين والذين وصموا بالخونة كانوا من أنصار الثورة ، فأثرت هذه التصرفات فى نفسيات أولئك الأعضاء سلبا وإن لم يظهر أثرها إلا فى وقت لاحق بعد الفترة الستالينية . يقول ليونهارد وهو أحد أعضاء الحزب الشيوعى ومن الذين كفروا بالنظام بعد رؤيته على حقيقته : (أرغمتنا الأفكار ال"ستالينية" على رفض النظام رفضا تاما ، لكن لم نتمنى سوى أن نستطيع العيش داخل هذا النظام ـ فلم يكن بوسعنا آنذاك أن نتخيل نظاما

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٦-٥٧) ، وانظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٢٨-٣٢٩) وذكر بعض من شملتهم الاعتقالات ومنهم أعضاء الشرطة المسلمة ، رجال الدين ، ملاك الأراضى ، أصحاب الممتلكات .

غيره ـ بشيء من الحرية ، وعدم الارهاب ، وأن ننفتح ثقافيا مع العالم الخارجي)(١).

لقد أصبح الإنسان فى ظل النظام الشيوعى بمثابة العبد الممتهن ماعدا أفراد الحزب ومن فى مستواهم ، وإذا أراد الإنسان أن يظل فى حياة الكفاف فعليه أن يخرس اللسان ، ويطيع الحزب فى كل صغيرة وكبيرة ، ليضمن بقاء حياته .

ولم يقتصر الشيوعيون على الأفراد بل إن مجموع السكان قد صودرت حرياتهم ، فلم تكن التضحية بالأفراد من أجل الجماعة .

لأن الجماعة أيضا كانت تعيش ذلك الوضع فقضية الشيوعية أن يسير الفرد والجماعة فى خدمة الحزب . فالمصير واحد ولم ينعم بالوعود ـ التى أعطيت للعمال ولأفراد الشعب المضطهدين ـ إلا أعضاء الحزب الشيوعى فقطعوا على أنفسهم الوعود وحققوها لأنفسهم دون غيرهم .

يقول محمد الخطيب : (تحت مطارق الشيوعية أصبحت حرية الفرد وصمة تعاب ، وتدعو إلى الاتهام بإنكار حق الجماعة . ثم إذا نظرنا إلى الجماعة التى تهتف بها أبواق الشيوعية نصدم بالدعوى العريضة . فالحقيقة أن الفرد والجماعة فى النظام الشيوعى إن هما إلا مجموعة من العبيد تسخر لمطامع حفنة من الأفراد)(٢).

ثالثا : ومن مظاهر مصادرة الحرية الشخصية فى الاتحاد السوفييتى هو استخدام العامل بالقوة وجعله يعمل للدولة بالمجان دون أن يكون له الحق فى المطالبة بشيء مقابل ذلك . ويلحق بهؤلاء من اعتقلهم الشيوعيون لأنهم أصحاب آراء أو أفكار أو توجهات دينية يعارضون بها الفكر الشيوعى .

يقول "نيكوليفسكى" : (إن فى روسيا أربعة عشر مليونا فرضت عليهم السخرة ويحيون كالبهائم فى حظائر تحيط بها حواجز مسيجة بالأسلاك

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٦٠) .
(٢) فوق أطلال الماركسية (٧٩-٨٠) .

الشائكة محروسة حراسة قوية بجنود يرابطون فى أبراج عالية لايغفلون ثانية عن المراقبة وزودت الأبراج بأنوار كاشفة قوية ، ويطوف آلاف الكلاب الضارية خارج الأسلاك فإذا نجا هارب من رصاص الحرس لم ينج من مطاردة الكلاب تفرى لحمه وهم يقومون بأشق الأعمال التى لايطيقها بشر وهؤلاء هم رجال الدين وأحرار الفكر والأدباء وكل معارضى الشيوعية والمشتبه فى أمرهم)[١].

رابعا : ومن مصادرة الحرية الشخصية فى ظل النظام الشيوعى أن الإنسان متهم حتى تثبت براءته . وهو نتيجة طبيعية لكونه نظاما دكتاتوريا لابد أن يغلب جانب سوء الظن على حسنه حتى يضمن البقاء والإستمرار . والمقياس عند الشيوعيين هو الاخلاص للحكومة الشيوعية فمن ظهر منه ذلك فهو برىء ومن شكوا فى أمره فهو المتهم المراقب طيلة حياته .

وقد تفنن الشيوعيون فى اتهام الأشخاص وتلفيق تلك التهم عليهم ، ووضع الأحكام المسبقة على بعضهم قبل محاكمتهم . ولامجال للسؤال عن الأدلة التى تدين المتهم . يقول لاتيس[٢]: (لاتبحثوا عن الأدلة التى تثبت أن المتهم يعمل بالفعل أو بالقول ضد السلطة السوفيتية ، بل إن السؤال الأول الذى يجب أن توجهوه له هو : إلى أى الطبقات ينتمى ، وماهو أصله ، وكيف تعلم وتدرب ، وماهى مهنته؟ هذا هو مايجب أن يقرر مصير المتهم . وهذا هومعنى الإرهاب الأحمر وجوهره)[٣].

فالدولةومصلحتها والحزب وسيطرته ، هما الغاية عند الشيوعيين ، وإن كانت المصلحة المقصود بها المصلحة لأفراد الحزب ولأجل ذلك فالناس عندهم لاقيمة لهم ولااعتبار إلا بمقدار سيرهم فى الطريق الذى يخطونه لهم . يقول لبيب السعيد : إن (فى الشيوعية نظرية مؤداها أن إرادة الحكومة

---

(١) نقلا من كتاب الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (١٩٧) .
(٢) وهو أحد كبار رجال المخابرات السوفيتية .
(٣) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٨) .

وصالحها فوق إرادة الفرد وصالحه)[١].

والغريب فى الأمر - وليس غريبا على الشيوعية - أنهم ابتكروا طرقا وأساليب عديدة من أجل انتزاع الاعتراف من المتهمين وذلك بتعذيبهم والتشديد عليهم ، أى أن وسائل الإكراه كانت على أوجها . وهذا مايدفع الإنسان إلى أن يعترف بما اتهم به بل يعترف بجرائم لم يرتكبها أبدا .

ويذكر خروشوف شيئا من ذلك فيقول : (إن الشخص كان يعترف بجرائم لم يرتكبها أبدا "لأن أساليب من الضغط البدنى والتعذيب كانت تصب عليه فتؤدى به إلى حال من عدم الوعى ، يحرم معها السيطرة على عقله ، وتسلبه كرامته الإنسانية)[٢]. فعندما يدخل السجين يطلب منه أن يعترف من فوره ، فإذا أبى اتبعت معه الإجراءات المألوفة ، فيجلسونه على مقعد عال ويسلطون على عينيه نورا كهربائيا قويا ، وتلقى عليه طائفة متتابعة من الأسئلة يفحص بها عن ماضيه بلارحمة ولاشفقة ، وتتضمن مسائل تتصل بالتهمة أو لاتتصل بها ، ولكنها كلها تهدف إلى تحطيم إرادته والقضاء على شخصيته . فإذا تبين أنه إنسان عنيد فقد تدوم هذه العملية دون انقطاع ليلا ونهارا عدة أسابيع . ومن العوامل المهمة فى هذا التحقيق مايوجه إليه من تهديد لشخصه وأفراد أسرته . وينتهى الأمر بأن يحيله السم الذى يتولد فى الجسم من فرط التعب وعدم النوم إلى "رجل جديد" مستعد للاعتراف ، ولكنه لايزال يجهل ماهى الجريمة التى يفترض أنه اقترفها فإذا ماسأل عن أى تهم معينة قد اتهم بها أجابه المحقق أنه هو يعرف حق المعرفة ماارتكبه ، وكل مايجده من المساعدة هو قلم رصاص ، وورق ، وأمر يتلقاه بأن يعمل . فإذا كان ذكيا ، عارفا ، واسع الخيال : شرع يدون اعترافاته بأعمال لم يرتكبها قط . ويحدث فى العادة أن يخفق مجهوده الأول فى هذا الشأن ويقال له إنه يخفى حقائق خطيرة كل الخطر ، وإن عليه ألا يحاول خداع الشرطة السياسية بهذه الطريقة . ويؤمر بأن يذكر أسماء

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (١٠٨) .

(٢) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٤٦) ، وانظر الطبقة الجديدة (٢٠٩) .

شركائه فى الجريمة ، فيحاول مرة أخرى . وقد يحاول مرة ثالثة ورابعة ، حتى يكتب اعترافا مقبولا فى مصلحة الحزب . والشعب ، ولعله هو نفسه يصدقه ... إن السجين بعد أن يجتاز محنة التحقيق الطويلة الأمد ، يقبل ، وهو يشعر حقا بالنجاة ، الحكم عليه بعدة سنين يقضيها فى معسكر العمل الإجبارى . وإذا لم يكن السجين مذنبا ، وإذا لم يؤت قدرا كافيا من الذكاء والمعرفة ، والخيال ، فقد يجد نفسه فى ورطة حقة . فقد يرغب فى النجاة من السجن بالاعتراف بذنبه ، ولكنه تعوزه موهبة الخلق والابتكار التى لابد منها لإعداد اعتراف طيب بحق ـ اعتراف بما يرغب فيه المحقق . ومن أجل هذا وجدت فى السجن ، كما يقول جودين[١] جماعة من الأخصائيين تساعد من هم أقل من سواهم موهبة على كتابة اعترافهم . وهذا الإخصائى يجب ألا يكون ذكيا واسع الخيال فحسب ، بل يجب أن يكون أيضا واسع المعرفة بالخطط والأساليب المتصلة بهذا العمل ، كما يجب أن يكون ملما بتاريخ الحزب وتفكيره ، عارفا بالحوادث الجارية . ويجب ـ أن يعرف بنوع خاص جميع "أعداء الاشتراكية" . فإذا لم يكن عارفا مثلا بتلك (الحقيقة الثابتة) وهى أن الولايات المتحدة تعاون شبكة واسعة من الجواسيس فى الاتحاد السوفييتى ، لالمانيا واليابان ، فإنه لن يساعد كثيرا على إعداد اعتراف يصمد للنقد أو يفيد الحزب . وإنا لنعرف ماللموهبة الحقة من قيمة فى هذه الحال ، إذا اطلعنا على قضية جوزف شولمر Joseph Scholmer وهو طبيب ألمانى اعتقل فى برلين الشرقية عام١٩٤٩م ، وحكم عليه أخيرا بالعمل الإجبارى فى فركوتا . وانتهى هذا الطبيب بأن اعترف للمحقق ، بعد أن وجه إليه هذا ماوجهه من الأسئلة ، بأنه كان جاسوسا انجليزيا وأمريكيا معا . ولكن هذا لم يكن كافيا ، فقد طلب إليه أن يذكر أسماء شركائه ، وأن يذكر آخر الأمر مكان المركز العام لهيئة الجاسوسية ، وتفاصيل بناء ذلك المركز . فيسر الأمر

(١) جودين : أستاذ روسى للتاريخ ، اعتقل ، وكتب اعترافا جيدا وبعد أن خرج من السجن التقى بكاونتس وأخبره أنه يجهل إلى هذه اللحظة سبب اعتقاله .

للمحقق بأن رسم صورة قطاع لمنزل فكر يوما فى بنائه ولكنه لم يبنه ، وكان هذا بالضبط هو عين المطلوب(١). ولأجل ذلك كان كثير من ذوى العقول قد كفروا بهذا النظام من التناقض الصارخ فيه . يقول لويس فيشر : (فلاعجب إذا بدت نقط سوداء تلوح فى خاطرى من ناحية السوفييت ونظامهم ...)(٢).

إن الشيوعية كفرت بالشرائع السماوية التى لاتكره أحدا على شىء ، كما أنها كفرت بالقوانين الأرضية التى طالبت بالحرية وعدم ايقاع العقاب دون النص على الجريمة ونوعها واستحقاق العقوبة لها .

فمن (المعروف فى أرجاء العالم الحر أن لاجريمة بدون نص فى القانون على مايرتكب من الأفعال لتكوين أركانها بعكس الحال فى القانون السوفييتى فإنه يكفى فيه لاعتبار أمر ما جريمة ، أن يكون من شأنه أن يجر خطرا على الدولة أو نظام المجتمع وإن لم يكن فى ذاته داخلا فى عداد الجرائم المنصوص عليها فى القانون بل يكفى للقبض على الأشخاص واعتبارهم مصدر خطر إجتماعى أن يكونوا ممن سبق لهم اتصال بنشاط قديم قضى عليه وإن لم تكن هناك جريمة من هذا الجانب)(٣).

إن مجرد الشبهة تكفى فى إيقاع العقاب بالفرد الشيوعى ، وإذا حاول مقاومة ذلك فإنه يكون عدوا ومناهضا للسوفييت(٤)، فأصبح الإنسان فى ظل هذا النظام مسحوقا لايستطيع أن يفكر ولايعمل إلا فى الإطار الذى يرسم

---

(١) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٤٦-٣٤٨) . ولمزيد عن هذه الأفاعيل والأساليب واستخدام وسائل التعذيب حتى لايطول بنا المقام انظر : الطبقة الجديدة (٢٠٩-٢١٠) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٦٨،٨٤،٢٠٠) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٧٢) بأقلام ستة من أعلام رجال الفكر والسياسة ، ترجمة عباس حافظ ، دار الكتب الحديثة دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٨٢) . جاء فى المادة ١١ من الاعلان العالمى لحقوق الإنسان (إن كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا إلى أن تثبت إدانته قانونا فى محاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسه) . أركان حقوق الإنسان (١٠٧) .

(٤) انظر الحريات العامة فى الإسلام (٢٦٧) .

له[١]. لأن ذلك كان هدفا من أهداف الشيوعية الالحادية . وبعد هذا العرض فأين الشيوعية من تحقيق الحرية الذاتية ، وأين الشيوعية من تحقيق الأمن والعدل بين الرعية ، إن الإنسان تحت المظلة الشيوعية أصبح مسلوبا للحرية الشخصية لايملك إلا الانصياع للأوامر وتنفيذها ليحقق المصالح الحزبية .

خامسا : ومن مصادرة الحرية الشخصية إرهاب الافراد وهتك خصوصياتهم بالجاسوسية التى شهدها الاتحاد السوفييتى ، حيث كانت أعظم جاسوسية شهدها التاريخ . (وقد بلغ من شدة الرقابة والحد من الحريات والغاء شخصية الفرد أن أفراد الأسرة الواحدة لايأمن أحدهم الآخر . ولو كان ابنا أو ولدا ، حتى الخدم يعتبرون رقباء على مخدوميهم)[٢]، مما أشاع عدم الثقة والخوف والهلع فى نفوس الناس .

لقد حققت الشيوعية الجاسوسية بكل أبعادها وتفنن الاتحاد السوفييتى فى مراقبة الناس والتجسس عليهم فـ(بالإضافة إلى البوليس السرى السوفيتى م.ف.د. M.V.D. نرى شعبة سياسية فيها الاختصاصيون فى إيقاف الجماعات وكيفية عمليات التطهير ، والمستنطقون والمنفذون لأعمال التعذيب والارهاب والقتل . فالأحرف التى تدل عليهم وتعلنهم للملأ هى : ى.ب U.B فى بولونيا وس.ن.ب. S.N.B. فى تشيكوسلوفاكيا وأ.ف.و.A.V.O. فى هنغاريا م.ى.أ..M.I.A. فى رومانيا ، إلى غير ذلك .

الجيش السرى الداخلى : إن هذا الجيش مؤلف من جيش قوى يساعد البوليس السرى المجهز للقبض على الجماعات بأساليب الحيل الممنوعة ، ويعرف فى بولونيا باسم ك.ب.و..K.B.W. وفى المانيا باسم س.ت.ب..B.T.S. وفى رومانيا باسم ب.أ.ز.أ. P.A.Z.A. الخ .

---

(١) انظر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام القسم الأول (١٥٣) ، إعداد د. على عبد الحليم محمود ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، أشرف على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(٢) فوق أطلال الماركسية (١١٩) .

ميليشيا الشعوب أو الوطنيون : تستخدم غالبا فى إدارة هذه الجماعات وملاحظتها أو مراقبتها أفراد الشرطة والدرك ، وهم دائما فى تصرف البوليس السرى .

حراس الجبهة : أنفار من الجيوش مجهزون بأسلحة الوحدات الثقيلة وواجبهم أن يحفظوا التخوم ويمنعوا المواطنين من مبارحة بلادهم)(١).

حراس قطر الحديد : (منتدبون لتفتيش كل مايختص بالشحن فى القطر الحديدية ، ولايستثنى من التفتيش أحد ما)(٢).

والبوليس السرى : مهمته (الاشراف والملاحظة وخدمة المبادىء الشيوعية ، وتقديم التقارير ونشر الخوف والرعب والارهاب فى قلب كل فرد ، وعلى الجملة فإننا نقول إن مهمة البوليس هو التدخل فى كل الأمور ومد اصبعه فى كل مرفق من مرافق الحياة)(٣).

يقول ليلاند : (لاننسى أن روسيا قد أصبحت منبت الجاسوسية ، فموظفو الفنادق والمنازل وسائقواالسيارات وسعاة البريد وكل عامل فى مرفق من مرافق الحياة هم جواسيس يقدمون تقاريرهم إلى دوائر الشرطة المكلفة باستقبال هذه التقارير السرية ، والقبض على من نظمت بحقهم وسجنهم أو نفيهم بدون سؤال أو جواب ، ويتبجح كثير من الكتبة الذين يحرقون البخور أمام أقطاب السوفييت فيزعمون أن الشيوعية السوفيتية هى نظام الحياة الحرة وقد نسوا أن يقولوا أو (يعلنوا جهرا ، أساليب البربرية والعبودية وخنق الحرية التى يستعملها السوفييت فى تدريب الشرطة السرية مما لاتتأتى معرفته للعالم أجمع)(٤).

وعندما كان هكذا حال البلاد فإن مايمارسه الإنسان من حريات شخصية أخرى كالمأوى والاتصالات والعلاقات داخل الدولة سيكون محط

---

(١) الفتح بالإرهاب (٢٧-٢٨) ، ليلاند ستاوى ، ترجمة عيسى سابا ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها أو دار النشر .

(٢) المرجع السابق (٢٩) .

(٣) المرجع السابق (٣٠) .

(٤) المرجع السابق (٢٦-٢٧) .

أنظار القوم وبالتالى فكل تلك الحريات رهينة بيد تسلط الشيوعية وزبانيتها .

يقول ليلاند : (إن مايضحك ويبكى معا ، من تضاد الأسماء فالستالينيون قد سلبوا البيوت كلها ولاأحد يراقبهم فقد نظفوا البيوت من كل شيء ثمين ، من الأدوات الذهبية والفضية والمجوهرات ذات القيمة الفعلية وماأشبه ذلك من المقتضيات التى لايحق لأحد أن يقتنيها إلا الدولة .

هم مجرمون بعرف القانون السوفييتى .

وأغرب من الغريب أنهم لايسمحون بالأسنان الذهبية وقد أخطر أطباء الأسنان فمنعوا من صياغة الأسنان الذهبية ومن خالف الأمر وفعل يعاقب . ويقدر المبلغ الذى سلبه السوفييت من رعاياهم الأغنياء والمتوسطى الحال بملايين الدولارات فالبوليس السرى قد تمكن من مصادرة كل ماهو ثمين حتى ولو كان ملك حزب شيوعى)(١).

لقد بلغ الأمر إلى أن الإنسان فى داخل داره لايأمن على نفسه ، فالاقتحام متوقع فى أى لحظة ، والرقابة لصيقة فالابن جاسوس على أبيه ، والأب كذلك ، والمسكن من أدنى المستويات . يقول أندريه جيد : (اتفق لى أن زرت مركزا إجتماعيا نموذجيا من أبدع المراكز التى من هذا القبيل فى الاتحاد السوفييتى وأكثرها نجاحا وتوفيقا ، ودخلت عدة بيوت فيه ، وليتنى أستطيع أن أصور لكم فكرة عن الأثر الأليم الذى أحدثه فى نفسى مشهد كل بيت منها ، ذلك الأثر المتشابه العام الذى قام فى خاطرى ، وأعنى به انتفاء الحرية الفردية كل الانتفاء ، والخلو التام من مظاهر الاستقلال الذاتى ففى كل بيت منها قطع الأثاث القبيح ذاته ، وصورة ستالين بعينها ولاشيء غير ذلك ؛ فلاحلية أخرى ، ولازينة من الزينات ، ولامتاع خاص من الأمتعة ، بل يصح تبادل بيت بآخر دون أن يشعر الساكن بأى تغيير ، وكان للسكان بالطبع أيضا مكان للتسلية المشتركة ، أو ندوة واحدة للهو والرياضة ، فكانوا ينفرون من بيوتهم لأنها أشبه شيء بالمغارات وأدنى إلى الكهوف ...)(٢).

---

(١) الفتح بالارهاب (٢٩-٣٠) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٣٦) .

بل وصل الأمر لدرجة أن (انتفاع الأسرة الواحدة بدورة مياه مستقلة أمرا عزيزا)(١).

إن الشيوعية عملت على منع الإنسان حقوقه المشروعة قانونا ، فرغم النص فى القوانين على حرية المسكن واختيار الإنسان المكان المناسب له(٢)، إلا أن الشيوعية قد اعتبرت هذا من مخالفة مبادئها والخروج عن طاعتها ، ولأجل هذاالتضييق على الفرد الشيوعى أصبح كل أحد يتطلع إلى العمل فى المخابرات ليأمن على نفسه ، وليحقق شيئا من رغد العيش . يقول جيد : (إن كنت فيها ... فقد أمنت شر البوليس ، وظفرت بحمايته مادمت فى خدمته ...)(٣).

ويقول فى بيان نتيجة الارهاب والتجسس : (أصبح كل امرىء مستريبا بالآخر ، حتى لتؤدى أبسط الملاحظات . ولو من أفواه الأطفال والصبية . إلى الدمار ، وتعجل بالخراب ، فلاغرو إذا رأيت كل إنسان فى حذر متوجسا لايطمئن إلى أحد . ويخشى أن يذهب فريسة الشبهات)(٤).

أما الرعاية الإجتماعية فماذا بعد أن الشخص الذى لايعمل لايأكل؟ والشخص الذى لايملك البطائق السوفيتية والوثائق الممنوحة له من قبل الحزب فهو محروم من أبسط الحقوق . وجعلوا لكل شخص ثلاث وثائق : (الوثيقة الأولى : تخوله أن يحصل على الطعام . الوثيقة الثانية : تخوله العمل ، وبدونها لايقدر أن يشتغل . الوثيقة الثالثة : تثبت وطنيته ، ينتفع بها فى مطلق الأعمال الحكومية)(٥). فأى حرية بقيت للشخص وهو لايأكل إلا ببطاقة ولاينتقل إلا بها ، وإذا لم يملك هذه البطائق فإن حيلته بيع مايقتنيه من أجل شراء مايحتاج إليه. وعلم الشيوعيون أنهم يستعبدون

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (١٢٣) .
(٢) انظر ضمانات الحرية (٣٥) .
(٣) المعبود الذى هوى (٢٤٠) .
(٤) المرجع السابق (٢٤٠) .
(٥) الفتح بالارهاب (٤٧) .

العمال بهذه الطريقة عندما يفرغ مالديهم[١]. ولم يكتف الشيوعيون بهذا القدر ، بل وصل بهم الأمر إلى أن يوجبوا على الإنسان أحيانا إخفاء اسمه الحقيقى وهويته، وهذا من أبسط مايمكن أن يعد من الحرية الشخصية[٢]. لقد أصبح الفرد الشيوعى يتطلع وينشد المحافظة على هذه الحرية . يقول ليونهارد : (لم يضايقنى التغيير - فيما يتعلق بالماديات ، بقدر ماضايقنى الحجر على حريتى الشخصية .. بأن أخضع خضوعا كاملا لهذه الأنظمة فلايسمح لى بأن أتجول فترة قصيرة للترويح عن النفس إلا بتصريح خاص!! وشاركنى فى هذا كل التلاميذ ، لدرجة أنهم كادوا يذرفون الدموع)[٣].

إن مصادرة الحرية الشخصية نتيجة طبيعية للدكتاتورية التى فرضتها القلة الشيوعية[٤]. يقول هيغل : (لاحرية مع الإرهاب فالإرهاب نفى للحرية وهذا هو التناقض فى الثورة ، لأن الثورة تريد تحقيق الحرية لكنها كثورة تطلبها بالإرهاب ، والإرهاب ينفى الحرية)[٥].

واعترف لينين بهذه الحقيقة فقال : (وواضح أنه حيثما يكون القمع ويكون العنف ، فلاحرية ولاديمقراطية)[٦].

فأين هذا من واقع الاتحاد السوفييتى؟

نعم لقد استخدموا العنف والإرهاب والقمع وبالتالى صادروا كل الحريات بالنسبة للأفراد والجماعات . يقول دجيلاس : (إن الدولة الشيوعية لاتنفك تسعى إلى إلغاء شخصية كل من الفرد والأمة ، بل إنها لاتتوانى عن طمس شخصية ممثليها أنفسهم ...)[٧].

---

(١) انظر الفتح بالارهاب (٥١-٥٢) .

(٢) انظر ماذكره ليونهارد فى كتابه حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٣٠) .

(٣) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٨٠-٨١) .

(٤) وهى دكتاتورية تستخدم باسم الشعب ومن المسلم به أن الحرية لاتجتمع مع الدكتاتورية والإرهاب .

(٥) نقلا من كتاب المثالية والمادية (٧٦) .

(٦) الدولة والثورة (٩٥) .

(٧) الطبقة الجديدة (١٣٦) .

وقد أعلن لينين أن الثورة لن تتحقق إلا بالغاء شخصيـة الفرد فقال : (لكـى تحقق الثورة الإشتراكيـة هدفها ، يجب القضاء على الخصائص الفردية والتشـريعات التى تتيـح الملكيـة الخاصـة ، والحجـر على الحريات التى تضيـق العمل الثورى وتطبيقاته)(١).

وهكذا خنق النظام الشيوعى الشخصية الفردية ، وأصبح الفرد يعيش فى هلـع دائم ، ولكـن هـل يظـل الإنسـان هكـذا مسلوب الإرادة والحرية ، مسلـوبا كـل معانى الإنسانيـة؟ إن الإجابة على هذا التسـاؤل بدهيـة ، فخالق الخلـق منحهـم الإرادة وأعطـاهم الحرية ، وفطرهم على ذلـك فكيـف يسكت الإنسـان على سلبه حقه الطبيعى المغروس فى نفسه من خالقـه؟!! من هنا كان لزاما أن يفكر الإنسان الشيـوعى فى الخروج من دوامـة هذا الفكر ونظامه ، ولأجل ذلـك وجد مـن كفر بهـذا الفكر وهذا النظام ممـن عمـل فى الحزب الشيـوعى ، أو بلغ مناصب عالية فى الإدارات الشيوعيـة ، نظرا لما رأوه من مصـادرة للحرية الشخصية ، وكانت هذه المصادرة تشكـل تراكما خطيرا ضد الفكـر والنظـام على مر الأيام . يقـول ترافتشنكو : (بدأت فى طـوية نفسـى وثنايا ضميرى فكرة أن أعتزل الحزب فالمفازع التى شهـدتها فى الريف تركت فى نفسى جروحا هيهات أن تنـدمل)(٢). فكان الفرد الشيوعى أو المحكـوم بالشيوعية قسرا يريد الخلاص ، لكن القوة والقهر كـانت تجبره على السكوت ورغـم هذا ، ولنزوع الفطرة إلى الحرية بدأ الفرد يحدث نفسـه بالخلاص منذ زمـن بل لـو شئنا لقلنا منـذ بدايات الحكـم الستالينى وخاصـة بعـد حملات التطهير ، غير أنها لم تعبر عنه إلا بعد أن شعرت بالفجوة التى يمكنها الولوج منهـا ، فبعد أن حست الجمـاهير (أن عصا السلطة لـن تضـرب بشدة ، وأن أسلحة القهر والقمع والقوة لن تسحق وتحصد ، على نحو مـاكانت تفعل من قبل ، وأن معسكرات الاعتقال والمصحات النفسية القاتلة لن تستقبل

(١) الإسلام وبناء الإنسان (٩٩) نقلا من كتاب انهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤١) .
(٢) نقلا من كتاب الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٧١) .

أفواجا جديدة .. عندها ، علا صوت الجماهير ، وتجاوز الأبعاد التى كانت مقدرة له ، فطالب بالمزيد ، فوق "الحرية" المحدودة الممنوحة من جهاز السلطة الجديد فى موسكو)(١). ونظرا لأن الكبت كان قويا ، ولكون الإنسان بقى عمرا لايستطيع أن يعبر عما بداخله كانت ثورة الجماهير ضد النظام قوية وعنيفة ، بل وصل الأمر إلى أن أصحاب الفكر الشيوعى المتشددين حاولوا ارجاع الأمور إلى أوضاعها السابقة ، لكن كانت الجموع البشرية لهم بالمرصاد ، إن ماحدث للنظام الشيوعى يعتبر أمرا طبيعيا ، حيث خالف السنن الربانية ، وصادم الفطرة الإنسانية ، وقضى على الحرية الشخصية فكان لابد من سقوطه وإنهياره ، وانتصار الفطرة والإرادة البشرية .

وبهذه المصادرة للحرية الشخصية للفرد ، تكون الشيوعية حكمت على نفسها بالموت ، فإن المجتمع الشيوعى ليس إلا مجموعة من الأفراد لهم نزعاتهم الفطرية ، ورغباتهم الشخصية ، فإذا ماصودرت منهم ، فإنهم لن يسكتوا ولابد من أن يثوروا طلبا فى تحقيق توجهاتهم البشرية ، وتحقيقا لمتطلباهم الفطرية ، فكانت مصادرة الحرية الشخصية - وهى من أعظم الحريات التى يرجوها الإنسان - مع بقية الحريات سببا رئيسا فى انهيار الشيوعية .

وبعد هذا العرض نصل إلى الآتى :

أولا : أن الاتحاد السوفييتى نص فى دستوره على الحرية الشخصية غير أن ذلك كان إدعاء ناقضه الواقع .

ثانيا : أن النظام السوفييتى نظاما دكتاتوريا ولايمكن أن تجتمع الحرية والدكتاتورية ، وخاصة إذا كانت مصادمة للفطرة البشرية .

ثالثا : أن الفرد فى الاتحاد السوفييتى ليس له أدنى اعتبار إلا بمقدار السمع والطاعة العمياء للحزب الشيوعى ولو خالف ذلك فإن مصيره القتل أو النفى إلى مجاهل سيبريا .

---

(١) كارل ماركس وداعا ... أم خداعا (١١) .

رابعا : أن واقع الاتحاد السوفييتي لمصادرته هذه الحرية فيه أبلغ رد على فشل الشيوعية فى تحقيق السعادة للفرد أو تلبية متطلباته وتطلعاته .

وأخيرا ومن خلال عرضنا ـ ولو موجزا ـ عن الحرية الشخصية فى الإسلام يتضح لنا أكثر فشل الشيوعية وإفلاسها فيما يتعلق بهذا النوع من الحرية .

(ب) الحرية الشخصية فى الإسلام :

اهتم الإسلام بالإنسان إهتماما كبيرا ، وكرمه على سائر المخلوقات وفضله تفضيلا . قال تعالى : {**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**}(١).

فهذه شهادة الله تعالى عن هذا المكرم ، ومن هنا كانت نظرة الإسلام له نظرة تقدير واحترام لكيانه وانسانيته ، ولكل مامن شأنه الحفاظ عليه .

ولم يكن الإسلام متسلطا على الإنسان ولامتجبرا عليه ، فلايحمله مالايطيق ولايجبره ، على الاستجابة لشيء لايريده بل ترك له حريته انطلاقا من احترامه لانسانيته وعدم اهدار كرامته .

فحافظ على ذات الإنسان وحرم الإضرار به أو التعدى عليه فى دينه أوفى جسده أو ماله أو عرضه أو عقله . وبالمقابل حرم عليه الاعتداء على الآخرين ليصون لهم هذا الحق .

وليس هناك شريعة أو قانونا حافظ على الكيان الإنسانى وعلى ماتقوم به حياته كالشريعة الإسلامية ، حيث جاءت بحفظ الضرورات الخمس التى يتطلبها كل انسان وهى الدين والنفس والعقل والمال والعرض ، فإذا مأمن الإنسان عليها فإنه يشعر بكيانه وحريته الذاتية . وتعتبر هذه الحرية أساس بقية الحريات لتعلقها بالإنسان ويندرج تحتها الآتى :

(١) حق الحياة حماية النفس الإنسانية .

(٢) براءة الذمة .

---

(١) سورة الإسراء : (٧٠) .

(٣) حرية المسكن .

(٤) حرية المراسلات والاتصال بالآخرين .

أولا : حق الحياة وحماية النفس الإنسانية :

اعتبر الإسلام النفس الإنسانية مقدسة ، فحرم إزهاقها بغير وجه حق . وكذلك اعتبر المن على الرقيق بالعتق من أعظم القربات وماذلك إلا للاهتمام بالإنسان والمحافظة عليه .

فحرم الإسلام القتل بغير حق فقال سبحانه وتعالى : {**ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق**}[١].

وقال عليه الصلاة والسلام : (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)[٢].

وكذلك عمل الإسلام على وضع الحواجز أمام قتل النفس وأوجب إقامة الحدود على مرتكب تلك الجريمة الشنعاء فقال سبحانه وتعالى : {**ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب**}[٣].

وليس بعد هذا اهتمام أعظم منه بالنفس الإنسانية وقدسيتها وتحريم قتلها وإزهاقها .

والإسلام بهذا التشريع يجعل الحياة الإنسانية فى غاية الأمن والاستقرار فيعلم كل أحد المصير الذى ينتظره إذا اعتدى على الآخرين ، وصدق الله تعالى {**ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب**}[٤].

---

(١) سورة الإسراء : (٣٣) .

(٢) رواه مسلم بشرح النووى (١٢١/١٦) ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله .

(٣) سورة البقرة : (١٧٩) .

(٤) سورة البقرة : (١٧٩) .

ويلحق بذلك بقية الحدود الشرعية التى فيها اسعاد للبشرية وتحقيق الأمن لها ، ليضمن كل إنسان أن تتحقق له حريته الشخصية على أكمل وجه دون أن يتعرض لها الآخرون . ويلحق بذلك الحفاظ على ماله وتحريم الاعتداء عليه أو أخذه بغير وجه حق قال تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**}(١).

وقال صلى الله عليه وسلم : (من قتل دون ماله فهو شهيد)(٢).

فجعل صلى الله عليه وسلم الموت دون المال والعرض من الشهادة فى سبيل الله وماذلك إلا لحفاظ الإسلام عليها واعتبارها جزء لايتجزأ من الإنسان كى يحقق له الحرية الذاتية على أكمل وجه .

ومن ذلك حفاظه على العقل الإنسانى حتى يظل الإنسان حرا مختارا فيما يفعل فحرم على الإنسان أن يستخدم مايزيل عقله أو يذهب تمييزه حتى لايقترف الآثام فى حق نفسه وحق الآخرين فحرم الخمر ، قال تعالى : {**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه**}(٣).

إلى غير ذلك من النصوص الشرعية التى جاءت دالة على احترام الإنسان والحفاظ على ذاته وكيانه وعدم جواز المساس بحريته الشخصية وتحريم الاعتداء على روحه ، أو ماله ، أو التعرض لعرضه ، أو التسبب فى إزالة عقله (وهكذا حقق الإسلام لذات الإنسان حقه فى أن يكون آمنا على نفسه وعرضه وماله وشرع لذلك الحدود والقصاص ، والإثم على من اعتدى وظلم وتوقيع القصاص على كل معتد على حرية الإنسان وحرمة ذاته)(٤).

---

(١) سورة النساء : (٢٩) .

(٢) رواه أبو داود (٢٤٦/٤) ، كتاب السنة ، باب فى قتال اللصوص ، والترمذى (٤٣٥/٢) ، أبواب الديات ، باب ماجاء من قتل دون ماله فهو شهيد ، رقم الحديث (١٤٣٩) .

(٣) سورة المائدة : (٦٠) .

(٤) ضمانات الحرية (١١١) ، وانظر الإسلام والحضارة الإنسانية (٣٠) .

ومن الحفاظ على الحرية الشخصية تكليف الإمام أو ولى الأمر بالحفاظ على الأمن ورعاية الناس وأخذ الحقوق لهم إن كانوا مظلومين ، وحث ولاة الأمر على الرفق بالرعايا فقال عليه السلام : (اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به)[١].

وهذا دليل على المحافظة على الإنسان وتحقيق مطالبه دون ضرر ولاإضرار . وهذه الحرية التى منحها الإسلام للفرد لم يطلقها بل قيدها بعدم الإضرار وماعدا ذلك فهو حق له ليس لأحد أن يسلبه إياه .

إن (الحرية الشخصية تعبر عن تحرر الإنسان فى سلوكه الخاص من مختلف ألوان الضغط والتهديد ، فهو يملك إرادته وتطويرها وفقا لرغباته الخاصة ، مهما نجم عن استعماله لسيطرته هذه على سلوكه الخاص من مضاعفات ونتائج ، مالم تصطدم بسيطرة الآخرين على سلوكهم . فالحد النهائى الذى تقف عنده الحرية الشخصية لكل فرد : حرية الآخرين فما لم يمسها الفرد بسوء فلاجناح عليه أن يكيف حياته باللون الذى يحلو له ويتبع مختلف العادات والتقاليد والشعائر والطقوس التى يستذوقها لأن ذلك مسألة خاصة تتصل بكيانه وحاضره ومستقبله . ومادام يملك هذا الكيان فهو قادر على التصرف فيه كما يشاء)[٢].

والحرية الشخصية إذا تحققت للانسان فإن غيرها يسهل تحقيقه ويمكن حصوله ، لأن بقية الحريات تتفرع عنها وتصب فى تحقيقها .

ومن مراعاة الحرية الشخصية فى الإسلام :

ثانيا : براءة الذمة وعدم أخذ الناس بالظنة :

إن من أعظم ماحافظ به الإسلام على حرية الإنسان الشخصية هو عدم المساس به أو إقامة العقوبة عليه لمجرد الظن والوهم . بل وحرم الإسلام

---

(١) رواه مسلم بشرح النوى (١٢/٢١٢-٢١٣) ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق .

(٢) فلسفتنا (١٦-١٧) .

الظـن وأبان جل وعلا أنه لايغنى عـن الحق شيئـا فقـال سبحانه : {**إن الظن لايغنى من الحق شيئا**}[١].

وقال تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظـن إن بعض الظن إثم**}[٢].

وقال تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين**}[٣].

ومـاشتراط الشهود ، أو الإقـرار ، أو القرائن التى تدل على ارتكـاب الخطأ إلا دليل على مراعاة الحرية الشخصية وعدم إهدار كرامة الإنسان بجرم لم يرتكبـه ، وعلى هـذا فإن الإنسـان المسلم المتهم فى نظـر الإسلام برىء حتى تثبت إدانته .

ويلحق بذلك أن الإنسان المسلم لايؤاخذ بما قاله أو فعلـه وهو مكره ، قال تعالى : {**إلامن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**}[٤].

وماذلك إلا احتراما للحرية الشخصية وتحقيقا لها .

ومن الحريات الشخصية التى حافظ عليها الإسلام :

ثالثا : حرية المسكن وحرمته :

حيث صانها الإسلام وحافظ عليها ، وأنزل الأحكام التى تبين الطـريق الأمثل فى استقرارها والرق بها لتحقيق السعادة بين النـاس . فحرم التجسس وحرم دخول البيـوت إلا بعـد الاستئذان ، قـال تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلاتدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم**}[٥].

---

(١) سورة يونس : (٣٦) .
(٢) سورة الحجرات : (١٢) .
(٣) سورة الحجرات : (٦) .
(٤) سورة النحل : (١٠٦) .
(٥) سورة النور : (٢٧-٢٨) .

ومن ذلك :

رابعا : حرية المراسلات وسريتها :

فقد جعل الإسلام للدولة بعض التنظيمات والاجراءات الإدارية التى تحفظ للإنسان المسلم حريته فى مراسلة من شاء وبث مافى داخله دون أن يكون فى ذلك محذور شرعى أو تجاوز يلحق الضرر بالآخرين .

وقد أنشأت الدولة الإسلامية البريد وضمنت حرية المراسلة ، وجعلت ذلك التنظيم فى غاية الدقة وكذلك أولته اهتماما كبيرا لما يحقق من مصالح عديدة . ويلحق بذلك فى الوقت الحاضر ماستجد من وسائل حديثة فى مجال الاتصالات(١).

ومن الأمور التى حافظ عليها الإسلام للشخص : رعايته الصحية والإجتماعية ، وجعل ولى الأمر أو الدولة مسئولة عن ذلك ، لأن الحياة لايمكن استقامتها واستقرارها بدون تحقيق هذين الأمرين(٢).

وبهذا يعلم أن الإسلام قد أقر الحرية الشخصية وحافظ عليها خير حفاظ ، وجعل لها الأحكام الخاصة بها ، ووضع الحدود الصارمة فى التعدى

---

(١) ولمزيد انظر ضمانات الحرية (٣٥-٣٦) .

(٢) ولمزيد انظر المرجع السابق (٤١-٤٢) .

عليهـا ليحفظ الكيان الإنسانى من الظلم والاستغلال ، وليحقـق بينهم السعادة والأمن . وهذه المحافظة والرعاية كانت أسبق مما جاء فى القـوانين الوضعية أو النظـم الـدستورية التى تنـادى باحترام هذه الحريات نظـريا وتفعـل مامن شأنه أن يصادرها فعليا .

بل إن شعـائر الإسلام كلهـا تدل على المقدار الذى يتمتـع به الإنسـان من الحرية وأولها كلمة التـوحيد فهى حرية حقيقية انعتـاق مـن كل عبودية إلا مـن العبـودية لله تعالى المستحـق لذلك وحده جل وعلا . وهكـذا يبـدأ الإنســان حياته بإعلان حريتـه من كل عبودية إلا لله تعـالى ، ومن هنا يأتى الحفـاظ على هذه الحرية الشخصيـة التى أعلنت القطيعـة مع كل شىء إلا من العبودية لله جل جلاله .

وبهـذا نختم حديثنـا عـن الحرية الشخصيـة وننتقـل إلى نوع آخر مـن أنواع الحرية وبيان موقف الشيوعية منها فى المبحث التالى .

المبحث الثاني
الحرية الدينية

(أ) الحرية الدينية فى النظام الشيوعى :

إن النظام الشيوعى قام على عدة ركائز من أهمها إنكار الألوهية ، وعدم الإيمان إلا بما هو محسوس . ومن هنا كان موقفه من العقيدة الدينية موقفا عدائيا دكتاتوريا . قام بمصادرة الحقوق الإنسانية كلها ومن أعظمها حرية العقيدة . هذا فى الوقت الذى لايمكن للإنسان أن يعيش دون عقيدة ومبادىء ينطلق من خلالها بما فى ذلك النظام الشيوعى حيث كان يحمل عقيدة وينافح عنها وإلا لما احتاج الشيوعيون إلى هذه القوة كلها لتنفيذ مخططاتهم واقناع الناس بمبادئهم . وعلى كل فإن الشيوعيين قاموا بوضع القوانين والدساتير التى تحدثوا فيها عن الحرية الدينية وكفالتها للمواطنين .

يقول لينين : (ينبغى أن يكون لكل امرىء الحرية التامة باعتناق الدين الذى يريده ، كما ينبغى أن يكون له أيضا الحرية التامة بنشره أو باعتناق دين آخر)[١].

كذلك نص الدستور السوفييتى على كفالة حرية العبادة . كما يكفل حرية الدعوة ضد الدين[٢].

كما نص الدستور على السماح لرجال الشرطة بالقبض على رجال الدين فى الظروف السياسية المختلفة ، بالاضافة إلى أن تعليم الدين للأحداث فى المدارس أو المعاهد جريمة يعاقب عليها[٣]. وإذا ماضربنا الصفح عن معاداة الدين واعتبار تعليمه جريمة يعاقب عليها القانون .

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٧٤) .

(٢) انظر : كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٢٦) ، القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٥١) ، صحيفة المدينة المنورة (٧٢٤٣) ١٤٠٧/٦/٢٢هـ بقلم رحمة الله رحمى .

(٣) انظر كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٢٦-٢٧) .

فما هى الأفكار التى ضمنها النظام الشيوعى إنها الأفكار المادية الإلحادية .

ومن هنا فإن أى عقيدة تدعو لخلاف هذه الأفكار سيكون مصيرها الرفض مع قتل أهلها ومصادرة كل حقوقهم . وهذا ماحدث مع المسلمين وعقيدتهم حيث كان الإسلام العدو الأول لهذا النظام فذاق المسلمون من ويلاته الكثير والكثير رغم الوعود التى أعلنها قادة الثورة البلشفية بتحقيق الحرية الدينية والحفاظ على المقدسات الإسلامية لمواطنى الاتحاد السوفييتى . علما بأن المسلمين كانوا يسكنون هذه الأراضى من قبل النصارى ، وقد دخلها الإسلام فى القرن الثانى الهجرى ووحد بين قبائلها ، وأصبحت قوة متراصة مترابطة ، ولم يكن هذا النفوذ الإسلامى ليرضى أعداء الله تعالى ، فتعرض المسلمون هناك لهجمات صليبية متكررة حاقدة كان الهدف منها القضاء على المسلمين وابعاد الإسلام من تلك الأراضى[1]، فوقع المسلمون هناك ضحية لتعصب القياصرة النصارى قبل الثورة البلشفية ثم بعد انتصار الثورة كانوا ضحية للإلحاد الذى يكره الدين كله[2].

وسيكون عرضنا هنا لوضع المسلمين منذ قيام الثورة البلشفية وماتلا ذلك ، إلا بعضا مما يتطلبه التقديم لوضع المسلمين فى بداية الثورة البلشفية وإن كان المسلمون قد لاقوا صنوفا من الاضطهاد والظلم والطغيان من النصارى الحاقدين على المسلمين[3].

---

(١) انظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٨٢-٨٤) د. إحسان حقى ، الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) انظر الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١١٠) .

(٣) وللوقوف على بعض ماكان يلاقيه المسلمون فى الأراضى الروسية انظر : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٧٥-١١٠) ، شانتال ، بينيغش ، تعريب إحسان حقى ، مؤسسة الرسالة ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٤٣-٥٤) د. محمد على البار ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ، جدة ، المسلمون أمام التحدى العالمى (٨٤-٨٩،٩١) ومابعدها ، المبين فى بعض أحوال المسلمين فى الاتحاد السوفييتى (١١-١٦) .

وقد جاءت الشيوعية بمثل ماكانت عليه القيصرية بل تفوقت عليها فى محاربة الإسلام والمسلمين لأنها ضمت إلى نفسيتها العداء لكل دين . ومن هنا اعتبر بعض الكتاب والمفكرين أن الشيوعية كانت أشد فتكا بالمسلمين وأكثر امتهانا لهم ولمقدساتهم من القيصرية الروسية السابقة . وإن هذا هو الحق الذى لامرية فيه وذلك ليس تقليلا من شدة مالقيه المسلمون من القياصرة سواء من قتل ، أو تشريد لهم ، أو امتهان لمقدساتهم ، أو مصادرة لأوقافهم . ولكن نعنى أن السوء ازداد حدة وحقدا وفى كل شر .

يقول العقاد : (إن الدولة القيصرية لم تبلغ فى عهد من عهودها المظلمة مبلغ الدولة الشيوعية فى كثرة البلاد التى تحكمها ورهبة الجبروت على محكوميها ...)[١].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن المسلمين كانوا (متمسكين بدينهم تمسكا شديدا شأنهم فى ذلك شأن كل الجماعات الإسلامية المنعزلة فى وسط غريب والتى تزداد تضامنا وتمسكا بعقيدتها بقدر ماتلقاه من ضغط وعداء من غير المؤمنين وكانوا يجهرون بإسلامهم فى مقابلة المسيحيين ...)[٢].

وكان المجتمع الإسلامى هناك محافظا على قدر كبير من الأحكام الدينية تمثل فى مسائل الأحوال الشخصية وغيرها ، وإن كان ذلك متفاوتا من طائفة إلى أخرى . ولاشك أن القوميات كان لها أثر فى العلاقات بين هؤلاء المسلمين . وكذلك اللغة واختلافها إلا أنه رغم ذلك وجدت الألفة والمحبة وكذلك التلاقح بين اللغات ، ولم تشكل الفروق اللغوية كبير عقبة فقد كانت بعض الجماعات والقبائل تترك لغتها إلى لغة أخرى[٣].

ولاشك بأن حياة المسلمين هناك وبقاءهم ذلك الوقت قد أثر على بعضهم فى قضية الأخذ بشىء من المدينة الروسية ، إلا أن الأغلبية رفضوا

---

(١) لاشيوعية ولااستعمار (٢٩) .

(٢) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٤٥-٤٦) .

(٣) انظر المرجع السابق (٤٧-٥٤) .

ذلك (فقد رفضت الجماعة الإسلامية الروسية بمجموعها ، فى القرن التاسع عشر ، الأخذ بأى شىء من المدنية الروسية إلا ماكان فى المنزلة الدنيا أى فى الأرياف ، وانطوى المسلمون على أنفسهم باستثناء فريق ضئيل من النخبة ، الذين قبلوا أن يقلدوا الحياة الروسية وأن يندمجوا فيها بسرعة . غير أن هؤلاء المسلمين المقلدين للروس والذين قبلوا فى المجتمع الروسى أندادا للروس وعوملوا مثلهم قد اضطروا إلى قطع صلاتهم بالمسلمين الذين نبذوهم ، واعتنق آخرون منهم المسيحية ...)[١].

إن المسلمين عانوا من الحكم القيصرى الكثير والكثير ، وحاول قادة الجماعات الإسلامية ، وبعض دعاة الاصلاح أن يغيروا من الأمر شيئا ، ولكن دون جدوى نظرا لما كانوا يلاقونه من النصارى . وقامت عدة حركات إصلاحية كجواب إسلامى على الضغوط القيصرية . ومن ذلك الإصلاح الدينى والتعليمى والثقافى[٢].

ونتيجة لهذه الضغوط وللاضطهاد الذى كان يعانيه المسلمون فإنه من السهولة أن يتطلع المسلمون هناك إلى مايمكن أن يكون أقل خطرا وكذلك أرحم وضعا من الحكم القيصرى . وعندما كانت الأفكار الاشتراكية فى شعاراتها قد حملت مايحلم به كل انسان من قضايا أساسية كالعدل والحرية والمساواة . بالإضافة إلى أن الفكر ماقام - كما زعم أصحابه - إلا من أجل المضطهدين والمغلوبين على أمرهم ، فقد وجدت الأفكار الإشتراكية رواجا بين المسلمين الروس . وكذلك قدم المسلمون الكثير فى سبيل القضاء على القيصرية ظنا منهم بأنهم سيحققون مالم يحققوه فى ظل بقائها .

وقد وجد عدد من الاسباب ساعدت على إمكانية ظهور الإشتراكية منها:

(١) ظهور الفكر الماركسى وانتشاره فى أماكن كثيرة .

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٦١-٦٢) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٦١-٧٥) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (١/٩٢-١٠٠) .

(٢) فشل بعض الحركات الوطنية التى قام بها المسلمون ، واقتناعها باستحالة تحقيق مطالبها[١].

(٣) الرغبة فى الخروج من الظلم الذى كانوا يعيشونه فى ظل القيصرية[٢].

الشيوعية وحرية العقيدة بين النظرية والواقع :

بعد العرض السابق السريع لوضع المسلمين قبيل الثورة البلشفية[٣]، ومـاأثبتناه من وجود للفكر الاشتراكى لدى بعضهم لأنهم وجدوا فيه مذهبا قد يحقق لهم ماعجزوا عن تحقيقه فى فترة من الزمن مضت ، جاء البلاشفة وزادوا الأمل فى نفوس المسلمين وأعطوهم العهود والمواثيق ، ومنوا المسلمين بالشىء الكثير فى سبيل الحفاظ على معتقداتهم ومقدساتهم ، فلم تكد تمضى أيام على استيلائهم على مقاليد الحكم فى روسيا حتى وجه لينين نداء إلى جميع المسلمين فى الأراضى الروسية بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩١٧م وكان يحمل الكثير والكثير مما يحلم به المسلمون هناك من احترام لدينهم وشعائرهم ومقدساتهم وحرياتهم . يقول لينين : (يامسلمى روسيا .. يامسلمى الشرق أيها الرفاق ... أيها الاخوة : إن أحداثا عظيمة تحدث الآن فى روسيا . إن العهد الدموى (الحرب العالمية الأولى) الذى بدأ بسبب أطماع الاستعماريين والامبرياليين فى أرضكم قد قارب النهاية .. وتحت ضربات الثورة الروسية فإن النظام الاستعبادى الاستبدادى يتقوض بناؤه الآن . وإن حكم الطغاة والمستبدين ومصاصى دماء الشعوب يقترب من أيامه الأخيرة الآن . وإن عالما جديدا يولد الآن . عالم العمال والأحرار وعلى رأس ثورة الفلاحين والعمال يقوم مجلس الشعب الممثل بالقوميسار الروس .. إن عهد الرأسماليين والامبرياليين يتداعى وإن الأرض تميد من

---

(١) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٩٤-٩٥) وقد ورد فيه اختلاف المسلمين الروس فى موقفهم من الاشتراكية انظر (٩٥-١١٠) .

(٢) انظر : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (١/٥٥-٥٧) ، صحيفة أخبار العالم الإسلامى العدد (٨/٩٦٣) فى ١٤٠٦/٦/٢٢هـ .

(٣) كمقدمة مختصرة لابد منها .

تحت أرجلهم وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم .. وفى خضم هذه الأحداث العظام نلفت إليكم يامسلمى روسيا والشرق الذين استرقكم الاستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم .

يامسلمى روسيا ، ياتتار الفولجا والقرم ياأيها القرغيز وسكان سيبريا والتركستان ، ياسكان القوقاز الأبطال وقبائل الشاشان وسكان الجبال الأشداء .. أنتم يامن هدمت مساجدكم وحطمت معابدكم .. ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم .. وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم .

ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم فى العبادة .. إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم وإن عاداتكم وتقاليدكم حرة لايمكن المساس بها .. ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون أى معوقات .. ولكم كل الحق فى ذلك .. واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة ورجالها والعمال والفلاحين والجنود وممثليهم .. لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من أجلكم ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية.

يامسلمى الشرق .. يامسلمى ايران وتركيا وبلاد العرب والهند .. أنتم يامن تاجر مصاصوا الدماء الأوربوين المستعمرون بحياتكم وأوطانكم وحرياتكم لعدة قرون من الزمان .. أنتم يامن يتآمر عليكم هؤلاء اللصوص الذين يتقاسمون أرضكم ويشعلون نار الحرب لتكونوا أتونها ثم يستلبون بعد ذلك أرضكم وثرواتكم .

أما نحن فنعلن بأعلى صوتنا أن الاتفاقيات السرية التى أبرمت بين روسيا القيصرية وبين فرنسا وبريطانيا الاستعماريتين والتى بموجبها اقتسموا أراضيكم أيها المسلمون ، واستلبوا ثرواتكم ونهبوا خيراتكم ، نعلن أنها باطلة .. ونعلن أن خطط القيصر المخلوع وحكومته التى أزاحها الشعب للاستيلاء على القسطنطينية (عاصمة الخلافة الإسلامية) باطلة ولاغية .

إن حكومة جمهورية روسيا الثورية ومجلس الشعب الأعلى فيها يعلنون أنهم ضد احتلال أراضى الغير بالقوة .. ونعلن أن القسطنطينية ينبغى أن تبقى بيد المسلمين .. كما نعلن أن الاتفاقية السرية بين بريطانيا

وروسيا القيصرية لاقتسام إيران بينهما لاغية وباطلة .. ونعلن أننا سنسحب قواتنا من ايران بمجرد إنتهاء العمليات العسكرية .. ونضمن إستقلال إيران الكامل . وإننا نعلن أيضا إننا ضد تقسيم تركيا واقتطاع أرمينية منها وأن هذه الاتفاقيات السرية باطلة ولاغية .

ليس من روسيا أيها المسلمون سيأتى استعبادكم بل من الدول الأوربية الاستعمارية .. من هؤلاء اللصوص مصاصى الدماء الذين استعمروا أرضكم واستلبوا ثرواتكم وزجوا بأبنائكم فى أتون حرب لايأتيكم منها إلا الدمار ، وفى مقابل ذلك كله يقتسمون مابقى من أرضكم وثرواتكم وكأنكم وبلادكم غنائم الحرب المنتظرة .

ثوروا ضد هؤلاء الطغاة الكفرة الذين سرقوا ثروات بلادكم واستعبدوا أوطانكم .. نعم ثوروا الآن فى هذا الوقت الذى تشتعل فيه الثورة وينهدم فيه بنيان الطغيان والاستبادد ويتقوض فيه نظام الاستعمار .

ثوروا فإن أى شرارة الآن ستكون حريقا يلتهم بنيان الطغيان والاستبداد والاستعمار . إن الهنود المسلمين الذين ذاقوا الذل والاستعباد لقرون طويلة يثورون الآن ضد بريطانيا العظمى ، ويرفضون أن يبقوا حول أعناقهم الأغلال التى غلتهم بها بريطانيا لعدة قرون من الزمان .

اليوم لايمكن السكوت على هذا الظلم وعلى هذا الاستعباد .. إنه وقت الثورةضد المستعمرين الانجليز الغاصبين لأوطانكم المحاربين لدينكم المستبيحين لمقدساتكم الناهبين لثرواتكم .

الآن ياأيها الرفاق والأخوة هو الوقت المناسب للثورة ولصنع مستقبلكم الحر الباسم بأيديكم .

تقدموا أيها المسلمون لتحرير أوطانكم وارفعوا أعلام ثورتكم فإن أعلامنا وبنودنا قد رفعت من أجل حرية المستعبدين والمظلومين .

يامسلمى روسيا ويامسلمى الشرق هلموا إلينا .. إلى طريق الحرية والعدالة لنبنى هذا العالم من جديد على أسس الحق والخير والعدل .

التوقيع

جوزيف ستالين

فلادمير لينين)[١]

هذا النداء نداء الحرية والدفاع عن المعتقدات والمقدسات كان لغاية وهدف وهو جلب المسلمين ليعملوا مع الثورة وفى صالحها .

إن الناظر فى هذا النداء يعلم بأنه قادر على الخداع والاغراء ، ومن هنا كانت ظنون المسلمين حسنة فى هذه الثورة لما أعطته من الوعود والعهود . والمحافظة على الحرية والمقدسات فهل أعطت الشيوعية ماوعدت به؟

إن حال أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان لايخرج عن الخديعة والغدر بالمسلمين فهم {**لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة**}[٢].

وهذا ماحدث للمسلمين فى الاتحاد السوفييتى بعد هذه الوعود والإدعاءات بكفالة الحريات ، وضمانة ممارسة الشعائر الدينية بكل حرية .

فبعد وصول هؤلاء للسلطة ، وامساكهم بزمام الأمور أخذوا فى الزحف على المسلمين وعلى دويلاتهم وسرعان ماتهاوت فى أيديهم نظرا للعداء المستمر من اليهود والنصارى لهذا الدين . قال تعالى : {**ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم**}[٣].

---

(١) The Soviet union and the muslim world
من كتاب المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٥٧-٦٠) ، وانظر أيضا على تفاوت فى ذكر الخطاب بين الطول والقصر والألفاظ : المسلمون فى وجه الزحف الأحمر (١٢٤-١٢٦) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (١٣٨-١٣٩) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٣١-٣٢) ، حاضر العالم الإسلامى (١٣٣-١٣٤) ، وسقطت الماركسية (١٢٣-١٢٤) .

(٢) سورة التوبة : (١٠) .

(٣) سورة البقرة : (١٢٠) .

وهكـذا سيظل العداء إلى أن يرث الله الأرض ومـن عليها. وقد كشر الأعداء عن أنيابهم وسيظلون كذلك ، فكان ذلك النداء شعاراً براقاً خدع به المسلمون حيث ظهرت الأفعال الشيوعية التى حطمت تلـك الوعود النظرية .

ويمكن إبراز موقف الشيوعية من الحرية الدينية فى النقاط التالية :

أولا : الاستيلاء على منـاطق المسلمين ودويلاتهم كخطـوة أولى وبالتالى يكون ذلك النداء وتلك الحقوق التى قالوا بأنهم سيضمنـونها للشعوب داخل الاتحاد السـوفييتى شعارات وأوهام من أجل الخداع حتى يصلـوا إلى ماأرادوا وبعـد ذلك يفعلون ماكانوا يخططـون له من قبل . يقـول دحيلاس عـن بيان خداع الشيـوعية : (إن الحركة الشيوعية لاتسفر عن وجههـا الحقيقى إلا بعد أن تتسلم السلطة)[١].

وبالفعل بعد أن استتب لهم الأمر وبعد أربعة أشهـر من البيان السابق (أصـدر لينين أمرا بالزحف على البلاد الإسلامية دون سـابق إنذار ، فأخذت الـدبابات تحصد المدن ، وتدك الحصـون والقلاع، وفى سنـة ١٩١٩م استـولوا على جمهورية الإش أوردو)[٢].

وفى عـام ١٩٢٠م (احتلـوا القـرم وهجمـوا على أذربيجـان وحاصـروا جمهـورية جنوة التركمانية مـن ثلاث اتجاهات حتى سقطـت فى أيديهـم آخر عام (١٩٢٠م) بعد دفاع مستميت من أهلها)[٣].

وفى سنة ١٩٢١م هجموا على جمهورية بخارى واستمـر أهلها فى الدفاع عنها عشر سنوات[٤].

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٠٦) .

(٢) وسقطـت الماركسية (١٢٤) ، وانظـر : الإسلام فى وجه الـزحف الأحمـر (١٣٢) ، حاضـر العالم الإسلامى (١٣٤) ، صحيفـة أخبار العالم الإسلامـى العدد (٨/٩٦٣) ١٤٠٦/٦/٢٢هـ .

(٣) وسقطـت الماركسيـة (١٢٤) ، وانظـر : الإسلام فى وجه الزحف الأحمـر (١٣٣) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٦٧/١) .

(٤) انظـر : وسقطـت الماركسيـة (١٢٥) ، الإسلام فى وجه الـزحف الأحمـر (١٣٣) .

ثانيا : واقعهم مع المسلمين : لابد هنا من التنبيه على أن الإسلام عقيدة تنسف الشيوعية من جذورها ، ومن هنا كان العداء مستحكما ضد المسلمين وذلك لأنهم أصفى فطرا من غيرهم ، وأشد تمسكا بدينهم ممن سواهم . فوجد الشيوعيون فى الإسلام عقبة كؤودة (أمام مطامعهم ، ومحاولاتهم فى تقويض القيم الإنسانية ، ونشر الفوضى والكفر والإلحاد فى المجتمعات الإسلامية)(١). ومن هنا كان العداء للاسلام أكثر شراسة وحقدا من بقية الأديان .

يقول شانتال وصاحبه : (إن الدين الإسلامى أشد خطرا من غيره من الأديان على النظام الشيوعى لأن عمل المسلمين بأحكام الإسلام الشرعية والأخلاقية يميز المسلمين عن غيرهم ...)(٢).

إن الإسلام أعظم قوة تجابه الشيوعية ، ويبين زيف أفكارها وكشف أباطيلها ، لأنه دين الله تعالى الذى ارتضاه لخلقه وفطرهم عليه . ولأجل ذلك بذلت الشيوعية - جاهدة وبشتى الوسائل - كامل مافى وسعها لإزالة الدين من نفوس الناس ، ولكن لم تجد تلك الطرق والأساليب شيئا . لأنه دين غرس فى أصل خلقة الإنسان ، فكيف ينفك عنه والله تعالى خلقه كذلك ومن هنا كان المسلمون عرضة للقتل ، والتعذيب ، والتشريد ، والنفى ، وليس ذلك فقط فى الاتحاد السوفييتى بل إن أوضاع المسلمين فى الدول الشيوعية كلها (سيئة للغاية وتحاول السلطات هناك أن تقوم أعمال استفزازية ضد المسلمين كما تحاول إرغامهم بالقوة على الارتداد عن الدين الإسلامى - كما تعمل جاهدة على إخفاء العدد الحقيقى للمسلمين فى تلك البلاد وتمارس ضدهم كثيراً من الأعمال غير الإنسانية وأهمها تحريم تكوين منظمات أو جماعات إسلامية وعدم السماح لهم بالتجمع فى المساجد بل وإغلاق تلك المساجد كلية حتى تحولت معظم المساجد فى تلك البلاد إلى

---

(١) وسقطت الماركسية (٣٩) ، وانظر حقيقة الشيوعية (١٩٣) .
(٢) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٢١) .

مجرد متاحف مغلقة للذكرى والتاريخ ـ والأنشطة الثقافية والدينية ممنوعة تماما فى الدول الشيوعية بالرغم من أن دساتير تلك الدول تنص على حرية العبادة ولكنها فى نفس الوقت تنص على أن للمواطنين كامل الحرية فى محاربة الأديان والمتدينين)[1].

وهكذا فإن الإسلام لكونه عقيدة راسخة فى نفوس أصحابه ، ولكونه خطرا كبيرا يهدد الشيوعية بنقض مبادئها كان العداء السافر من الشيوعيين له ولأهله ، وماتلك الأقوال فى كفالة حرية التدين ، وضمان ممارسة الشعائر الدينية وحفظها ، إلا خداع اقتضاه الوقت ، فـ(على الرغم من أن الشيوعيين الروس ينكرون عداءهم للمسلمين ويتظاهرون بالتودد إليهم فإن الوقائع وتاريخ الشيوعية ومآسيها وآثامها تكذبهم .

وكيف نستطيع أن نصدق أقوالا معسولة يبذلها الشيوعيون فى مناسبات خاصة ونحن نعلم علم اليقين أن الشيوعية عدوة الدين وأن أول هدف للشيوعيين هو مكافحة الدين والقضاء عليه وأن هذا العداء هو مبدأ من مبادىء الشيوعية الملحدة الذى لاتستطيع أن تتزحزح عنه وإلا فإنها لاتكون شيوعية ...)[2].

وقد اعترف الشيوعيون بأن الإسلام يشكل عائقا كبيرا فى طريق انتشار الأفكار الشيوعية . يقول مولوتوف : (لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين)[3].

وبعد هذا فيمكن تلخيص مصادرة الحرية الدينية للمسلمين خاصة فى التالى ، لندرك التناقض بين الإدعاء والحقيقة .

---

(١) المسلمون فى العالم أضواء على توزيعهم ومشكلاتهم (١٠٣) د. عادل طه يونس ، دارالبحوث العلمية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) المسلمون أمام التحدى العالمى (٨٩) .

(٣) الإسلام يرفض الشيوعية (٢٣) ، وانظر الإسلام يقينا لاتلقينا (٢٦٩) .

(أ) القتل والاضطهاد والنفى :

مارس الشيوعيون جميع أنواع الاضهاد والقهر فى محاولة القضاء على الدين ،و مصادرة حرية التدين للمسلمين فى الاتحاد السوفييتى . فكان القضاء على المسلمين فى رأس القائمة التى ينوى الشيوعيون العمل عليها ، خاصة أن المسيحية لاتنهض أمام الفكر الماركسى ، ناهيك عن أنها فرع من اليهودية[١]. ومن هنا كانت الخشية من الإسلام تهز أركان وأعماق دولة الإلحاد ، فاستخدمت ضد المسلمين صنوفا من الأساليب من أجل تحقيق غاياتها والوصول إلى أهدافها ومن ذلك :

القتل الذى تعرض له المسلمون : بمجرد أن تسلم البلاشفة السلطة عملوا على اضطهاد المسلمين وحربهم . ففى سنة ١٩١٧م هاجم الجنود الشيوعيون مدينة خوقند وقتلوا آلافا من المسلمين ، وهدموا بيوتهم ، وصادروا أملاكهم وأموالهم[٢]، وفى عام ١٩١٨م هاجم الشيوعيون طاشقند فقضوا على جيش المسلمين (ونهبوا المدينة ودامت المذابح والنهب ثلاثة أيام متوالية ، وبعد أن هدموا المدينة وجعلوا عاليها سافلها أشعلوا فيها النار)[٣]. وفى العام نفسه قرر السوفييت القضاء على السلطة الإسلامية الموجودة فى سيمفيروبول ، وهزم الجيش الإسلامى فقتل من قتل منه ، وفر بعضهم إلى الجبال ، وبعضهم إلى تركيا[٤]. كما هاجمت القوات السوفيتية الفولغا[٥]، وباكو ودارت فيها مذابح رهيبة ، قتل فيها ثلاثة آلاف مسلم . وبالعموم (لم تأت نهاية ربيع ١٩١٨م حتى كانت جميع المنظمات الوطنية الإسلامية قد تلاشت فى طول البلاد الروسية وعرضها ، وقتل زعماؤها أو سجنوا أو فروا ...)[٦].

---

(١) انظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٩٠-٩١) .
(٢) انظر حقيقة الشيوعية (١٩٨) .
(٣) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (١٤٢-١٤٣) .
(٤) انظر المرجع السابق (١٤٤) .
(٥) انظر المرجع السابق (١٤٤) ومابعدها .
(٦) المرجع السابق (١٤٧) .

(وقد قدرت المصادر الروسية نفسها عدد ضحايا الحكم السوفييتى بين المسلمين فيما بين سنتى ١٩١٧ و١٩١٨ بثمانمائة ألف)[١].

واستمر اضطهاد المسلمين والتضييق عليهم)[٢]وماجاء خريف عام ١٩٢٠م حتى (أضحت بلاد الإمبراطورية كلها تحت سيطرة الحكومة السوفيتية ، ولكن البلاد كلها ، وخاصة ماكان منها على الحدود ، كانت خرابا يبابا وهى تنزف دما ، وبدت حالة المسلمين فى بؤس ليس وراءه بؤس)[٣].

وبعد أن أطمأن الروس ، رأوا أن العداء هذا قد لايؤدى إلى النتيجة التى يرغبون فى الوصول إليها . يقول سلطان غالييف : (إن مكافحة الدين أمر لازم للشيوعيين لأن الإسلام ، مثل غيره من الأديان ، سيظل عقبة فى طريق بناء الاشتراكية ، غير أن هذا الكفاح يجب أن يسير برصانة وحكمة لأن الإسلام ، وهو آخر الأديان الكبيرة ، هو أقواها وأكثرها ديمقراطية ، حتى من المسيحية ، وإن تعاليمه تدخل فى عمق حياة المسلمين الإجتماعية وتحمل عناصر تقدمية من الصعب القضاء عليها)[٤].

وقد واجهت القرم مجاعة كبيرة بسبب أن الروس نقلوا مافى الجزيرة من أقوات ليضطروا المسلمين على التسليم فبلغ عدد الذين أصابتهم المجاعة ٣٠٢٠٠٠ مات منهم ١٤٤١٣ ارتفع عددهم بعد ذلك إلى ٣٧٩٠٠٠ ، مات منهم ١٩٩٠٢ ، ثم ارتفع العدد إلى ٣٨٧٠٠٠ مات منهم ١٢٧٥٤ ، ثم ازداد العدد ووصل إلى ٣٩٢٠٧٢ . وقد كان سكان القرم ٥ ملايين حين قيام الثورة أصبحوا عام ١٩٤٠م ٤٠٠ ألف فقط[٥].

---

(١) حقيقة الشيوعية (١٩٨) .

(٢) انظر فى تلك الأحداث المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (١٤٧-١٦١) .

(٣) المرجع السابق (١٦١) .

(٤) المرجع السابق (٢٢٤) .

(٥) انظر : حاضر العالم الإسلامى (١٣٥) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٦٧-٦٨) ، الفكر الماركسى (٩٥) ، وقال إنهم قتلوا ١٠٠ ألف مسلم فى عام ١٩٢١م ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٥) .

وفى عاصمة داغستان (محج قلعة) حصدوا ٧٥٠,٠٠٠ نسمة اكتشفت مقابرهم الجماعية قبل أعوام قليلة[١]. وفى سنة ١٩٣٤م (قتلوا من التركستان وحدها مائة ألف مسلم بما فيهم من أعضاء الحكومة المحلية ، والعلماء والمثقفون والتجار والمزارعون وبين سنة (١٩٣٧م) وسنة (١٩٣٩م) ألقت الحكومة الروسية القبض على خمسمائة ألف مسلم وأعدمت فريقا منهم ، ووزعت آخرين فى مناطق أخرى من الاتحاد السوفييتى ، واستمر القتل والنفى والطرد من البلاد إلى سنة ١٩٥٠م)[٢].

ولاغرابةفى ذلك أليس لينين هو القائل (إن إبادة ثلث الجنس البشرى ليس بذى بال ، وإنما المهم أن تنجح الشيوعية بأية حال)[٣].

أما النفى : فقد كانوا ينقلون الجماعات تلو الأخرى وهم بهذا يهدفون إلى قطع صلة الإنسان بآبائه وأجداده ، وتنشئته حسب مايراد له لاكما يريد هو .

ففى سنة ١٩٢١م أرغموا ٥٠,٠٠٠ من المسلمين على الهجرة من القرم ، وفى عام ١٩٣٤م قاموا بنفى ثلاثمائة ألف مسلم من التركستان ، وفى سنة ١٩٣٧-١٩٣٩م ألقت روسيا القبض على ٥٠٠ ألف مسلم ، وعددا من الذين استخدمتهم فى الوظائف الحكومية ثم أعدمت فريقا وأرسلت فريقا آخر إلى مجاهل سيبريا . وفى عام ١٩٤٦م نفوا شعبين إسلاميين كاملين شعب جمهورية القرم وتشيس إلى مجاهل سيبريا . وفى سنة ١٩٤٩م هرب ألفان من التركستان الشرقية ومات منهم ١٢٠٠ وهم فى طريقهم إلى الهند . ونتيجة لقانون مزج الشعوب فى الاتحاد السوفييتى نفت روسيا ٤٠٠,٠٠٠ مسلم تركستانى إلى أوكرانيا

---

(١) انظر المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين فى الاتحاد السوفييتى (١٧) ، عبدالحميد داغستانى ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .

(٢) وسقطت الماركسية (١٢٥) ، وانظر : الفكر الماركسى (٩٥) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٨) .

(٣) لاشيوعية ولااستعمار (٤٤) .

وأواسط روسيا فاندمجوا فى تلك الشعوب وفقدوا وطنهم الأصلى[١].

فأين هى المحافظة على الحرية؟

وماهو سبب نفى هؤلاء؟!! ومن قبل قتل غيرهم ليس لهم ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله .

لقد قضى الشيوعيون على الحرية الدينية بكل قوة ، وعملوا على ذلك بشتى الوسائل . ومن وسائلهم الدالة على مصادرتهم لحرية التدين مافعلوه بمقدسات المسلمين .

(ب) هدم المساجد وامتهانها ومصادرة الأوقاف الإسلامية .

إن المسجد يمثل المكان الأول الذى يتعبد فيه الإنسان ويقيم فرائض ربه فيه ، وهو بيت كل تقى ومن هنا عملت الشيوعية على شن الحملات (على المساجد مطالبة باغلاقها فأغلقت الكثير منها وجعلت من بعضها نوادى للسمر ، ودورا للسينما ، وملاهى لاتزال كذلك بعد أن أزالت عنها معالمها الرئيسية ، وكان من نتائج هذه الحملات والإرهاب الذى رافقها أنه لم يبق من آلاف المساجد التى كانت موجودة فى الاتحاد السوفييتى غير ١٣١٢ مسجدا...)[٢].

وفى بعض الاحصائيات ، جاء أن عدد المساجد قبل قيام الثورة البلشفية بلغ ٢٦,٢٧٩ مسجدا باستثناء بخارى وجنوه ، ويقوم على هذه المساجد ٤٥,٣٣٩ رجلا من رجال الدين بين واعظ ، وإمام ، ومؤذن .

---

(١) انظر : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٨) ومابعدها ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٣٣٦،٣٣٥/١) ، وذكر أن مجموع من فر من سكان التركستان الشرقية والغربية ثلاثة ملايين مفرقين فى مختلف أرجاء البلاد الإسلامية خاصة إيران ، أفغانستان ، المملكة العربية السعودية (٣٣٦) ، وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١١٠) .

(٢) المسلمون أمام التحدى العالمى (٩٨) . وانظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٢٩) وذكر أن ذلك العدد سنة ١٩٤٢م .

غير أنه فى مطلع الستينات بلغ عددها قرابة أربعمائة مسجد[١]. وقد حولت هذه المساجد إلى اصطبلات ومراقص[٢]، وحول كثير منها إلى مصانع أو مخازن ، أو زرائب للماشية ، وبقى قليل منها لمتاحف تمثل عهد الرجعية البائد[٣]. لقد قامت الشيوعية بالنيل من مقدسات المسلمين ، وامتهانها، وهم بهذا ينفذون أهدافهم فى القضاء على الدين ، ويعطون صورة حقيقية عن مدى تحقيقهم للحرية الدينية فى بلادهم[٤].

وأما الأوقاف الإسلامية : فإن الشيوعية قامت بمصادرتها ، وكانت تلك الأوقاف تمثل المصدر الأول فى الانفاق على المساجد وصيانتها ، وكذلك المدارس الدينية وغيرها كالمشافى الوقفية . وكانت تلك الأراضى تشكل ٨-١٠٪ من الأراضى الزراعية . وبين مد وجزر تجاه الأوقاف صدر فى عام ١٩٢٥م مرسوم (يقضى بأن تستملك مفوضية الشعب للزراعة ، كل الأوقاف الكائنة خارج المدن باستثناء البساتين والكروم ، وبعد ذلك بقليل صادرت أوقاف المدن وأوقاف المساجد .

---

(١) انظر : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٣٦،٢٧٢) ، قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١١٠) ، فوق أطلال الماركسية (١٩٧) ، صحيفة أخبار العالم الإسلامى العدد (٨/٩٦٣) الاثنين ٢٢ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ .

(٢) حقيقة الشيوعية (١٩٣) .

(٣) المرجع السابق (١٨٧) .

(٤) ولمزيد عن هدم المساجد وطمسها انظر : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٩-١٤٠) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٣٣٧/١) ، المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين فى الاتحاد السوفييتى (٢١) ، وانظر الدراسة التى أجريت عن طريق المؤتمر العالمى السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامى بالرياض ، اعداد د. النقيب ، نشرت ذلك صحيفة المسلمون العدد ١٧٦٤ فى ٢٣ شعبان ١٤٠٦هـ الموافق ابريل/مايو ١٩٨٦م ، ونشرت فى أخبار العالم الإسلامى العدد (٨/٩٦٣،٩،١٤) ١٤٠٦/٦/٢٢هـ ، ونشرت صحيفة الجزيرة دراسة مختصرة عن بحث الدكتور النقيب العدد (٤٩٧١) فى ١٤٠٦/٩/١هـ .

وفى سنـة ١٩٣٠م قضت حكومـة موسكو عمليا ونهائيـا على المؤسسـات الـوقفية الكائنة فى طول الاتحاد السـوفييتى وعرضه وذلـك بوعدها أن توزع الأرضين على الفلاحين وهكـذا فقـد قضى على هذه المؤسسـة الإسلاميـة ، فى بضـع سنـوات ، من غير أن تثير أية مقـاومة . ومنـذ ذاك الحين حرم رجال الدين من أسباب رزقهم ، كما حرمت المساجد والمدارس من الوسائل المادية لدوام بقائها)[١].

(ج) منع المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية .

إن الإسلام يتعـارض مع الشيوعية فى عقيدته وشـريعته ، ولأجل ذلك قام الشيوعيون بمنع المسلمين مـن ممـارسة شعـائرهم الـدينية واعتبروا ذلـك جريمة لاتغتفر . بل إن من الجرائم العظمى (أن يضبـط روسى متلبسا بجريمة الصلاة أو العبـادة)[٢]. ولم يبـق مـن شعائر الـدين الإسلامـى التى يمارسهـا المسلمون شيئا لايدخل فى هذا المنع والتحريم[٣].

فكلمـة التوحيد : يقولها المسلمـون (فى السر ولاتستطيـع السلطات أن تراقب السرائر)[٤].

أما الصلاة : فلم يكونوا يستطيعون أداءها .

والـزكاة : محظـورة إلا بعـض مـايتبرع به المسلمـون لصيـانة أمـاكن العبادة[٥].

أمـا الصيـام : فلم يمنع ولكـن وضعت العراقيل الكثيرة فى سبيـل منـع المسلمين مـن أدائه ومن ذلك صرامة العمل ، والتشديد فى الحملات المعـادية للدين[٦].

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٣٠) ، وانظر حقيقة الشيوعية (١٩٧) .
(٢) حقيقة الشيوعية (١٨٧).
(٣) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٨) .
(٤) المرجع السابق (٢٨٠) .
(٥) المرجع السابق (٢٧٩) .
(٦) انظر المرجع السابق (٢٧٩-٢٨٠) .

والحج : كان مستحيلا وذلك بسد الحدود فى وجوه الناس ، ثم فى سنة ١٩٤٥م بدأ السماح لهم ولكن لايتجاوز العدد عشرين أو ثلاثين فردا ، ويتم اختيارهم بما يحقق المصلحة للسوفييت[١].

إن الإنسان المسلم فى ظل الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى يعجز عن القيام بأداء شعائره الدينية ، ولاشك أن هذا قد أدى إلى آثار سلبية كبيرة ، وصلت فى بعض الأحيان إلى الشرك والوقوع فى المحاذير الشرعية ، فأصبح الإنسان لايعرف إلا أنه من أصول اسلامية ، ولايعى من شرائع الإسلام شيئا وهذا أمر بدهى فكيف يظل الإنسان على عقيدته ، وإيمانه ، وهو لايعرف كتاب ربه ، ولايسمح له باقتنائه أو تعلمه ، ولو حدث ذلك فإن مصيره الجزاء[٢].

لقد كان منع المسلمين من أداء شعائرهم التعبدية أكبر دليل على مصادرة الحرية الدينية فى الاتحاد السوفييتى ، وعدم تحقيق الوعود النظرية التى قطعها الشيوعيون على أنفسهم حين قيام ثورتهم .

(د) اضطهاد علماء الدين والسياسة وقتلهم وممارسة الضغوط عليهم .

لقى علماء الإسلام فى الاتحاد السوفييتى صنوفا عديدة من الاضطهاد والمضايقة . يقول شانتال : (إذا ماقسنا حالة الإسلام الرسمى بعدد علماء الدين الذين يعملون تحت سلطة المراكز الدينية فإنها تبدو حالة مظلمة جدا إذ كان يوجد ، قبل سنة ١٩١٧م ، مالايقل عن ٤٥٣٣٩ عالما باستثناء من كان يوجد منهم فى بخارى وخيوه ، فجاءت أعاصير الإبادة التى عصفت مابين سنتى ١٩٣٢م و١٩٣٨م وقضت على أكثرهم ولم ينشر ، بعد ذلك ، أى رقم رسمى عن عدد من يوجد ...)[٣].

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٩) .

(٢) انظر السرطان الأحمر (٥٣) ، وانظر بعضا من أقوالهم فى القرآن الكريم : المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٤٦-١٤٧) .

(٣) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٢-٢٧٣) .

وقد أمعن الشيوعيون فى التضييق على العلماء فصادروا فى عام ١٩٣٠م (ممتلكات الأوقاف التى كانت مصدر القوة الاقتصادية للعلماء التى تجعلهم لايخضعون للحكام . وقد فطن الأعداء إلى ذلك فقاموا بمصادرتها ، ومالبثوا عامين حتى مارسوا مع العلماء القتل والسجن والتشريد ...)(١).

ولكى يضمن ستالين السيطرة التامة قام بانشاء أربعة مراكز يخضع لها المسلمون(٢) ظاهرها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب (كان هدفها التجسس على المسلمين وتوجيههم لخدمة الشيوعية والاستفادة من هذه الإدارات لتحسين صورة الاتحاد السوفييتى بعد المآسى التى تعرض لها المسلمون)(٣).

وقد أدى هذا التضييق والإضطهاد إلى تناقص عدد العلماء حتى وصل إلى أقل من أربعمائة عالم ، وهذه نتيجة حتمية لما كان يلاقيه العلماء من ويلات الشيوعية(٤). هذا عدا ماقام به الشيوعيون من تشويه لصورة العلماء ووصفهم بأقبح الصفات ، وتنفير الناس منهم .

(هـ) إغلاق المدارس الإسلامية ، واستبدال اللغة العربية ، وفصل الدين والعلم بعضهما عن بعض مع الحرية التامة فى نشر الأفكار الإلحادية .

وإمعانا فى اضطهاد المسلمين ومصادرة حريتهم التعبدية ومنع انتشار الفكر الإسلامى قاموا بإغلاق المدارس وجعلوا الهيئات الدينية منفصلة عن العلم . فـ(أمرت الحكومة السوفيتية باغلاق ثمانية آلاف مدرسة إسلامية بمقتضى مرسوم أصدرته وموهته بدعوى فصل المدارس عن المساجد

---

(١) المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين (٢١) .

(٢) انظر : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٦٨-٢٦٩) ، قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١١٠-١١١) .

(٣) المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين (٢١) .
يقول الأديب الباكستانى راغب أحسن : (ليست مهمة هذه المراكز الروحية نشر الدين ولاإعطاء ثقافة دينية بل مهمتها مراقبة الدين وتنظيمه على هدى حكومة الاتحاد المركزية) . نقلا من كتاب المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٠) .

(٤) عن بعض الشخصيات التى قتلت انظر الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٤٠-١٤١) وانظر حاضر العالم الإسلامى (١٣٥-١٣٦) .

والكنــائس . فــأصابت به المسلمين . والمسيحيين جميعــا . كــذلك سحبت الحكـومة الكتـب العـربية المتـداولة فى روسيـا حتى يتسنى لهـا أن تتم بلشفـة المنـاطق الإسلامية فى جمهوريات الاتحاد الســوفييتى بلشفـة تبعد المسلمين عن الإسلام بهجرهم للغة القرآن ، ثم لم تعد الشريعة الإسلاميــة معترفا بها هناك وفى هـذا المعنى قـالت دائرة المعـارف الســوفيتية "لقـد استـؤصلت الآن شأفة الشريعة الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى ")[١].

وقـد كـان لهذه المدارس تأثير قـوى فى المجتمع الإسلامـى ولـولا أن البلشفيـك دمروها لما استطـاعوا أن يكيفوا المسلم فى شكـل رجل سوفييتى[٢]. وقد قام السوفييت بإغلاق الآلاف من هذه المدارس .

كمــا أنهـم أقـاموا (اللغـة الـروسية مقـام اللغــات القـومية فـأغلب الجمهـوريات الإسلاميــة كـانت تكتـب بالحرف العـربى فحــولوها إلى الحرف الروسى على مرحلتين :

الأولى : ألغوا الحرف العربى وحولوه إلى الحرف اللاتينى .

الثــانية : تركـوا الحرف اللاتينى وانتقلــوا إلى الحرف الــروسى)[٣].

وهـذا سيؤدى إلى ضعف شديد فى اللغـةالعربية ، وهـى اللغة الدينية لهؤلاء[٤].

أما عن التعليم الدينى : فإن الشيوعية اهتمت كثيرا بالتربيــة ولكن أى تربية؟ إنها التربية الإلحادية المعادية لكل دين ، وعلى هـذا فإن التعليم القائم على الدين يعتبر محرما شيوعيا . لأنه يتناقض مع السياسية الشيوعية وأهدافها ويرى الشيوعيون أن الدين يتعارض مع العلم وبالتالى لايتفق مع الشيوعية .

---

(١) مجلـة الاعتصام ، عدد مارس ١٩٧٥م (٢٠) نقلا مـن كتاب فـوق أطلال الماركسيـة (١٩٧) وانظـر عـن إغلاق المدارس : المسلمـون فى الاتحاد الســوفييتى عبر التـاريخ (٣٣٧/١) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٩-١٤٠) .

(٢) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٣٤) .

(٣) المبين فى بعض أحوال الإسلام والسملمين (١٨) .

(٤) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٢) .

يقول شانتال ورفيقه : (يرى الزعماء السوفييت أن علم الدين والماركسية اللينيية والأيديولوجية الدينية لاتتلاءم ولايمكن التوفيق بينها ولذا فإن الحزب لايستطيع أن يقف من الإسلام موقف اللامبالى أو موقف الحيادى بل يجب عليه أن يكافحه حتى يقضى عليه ...)[١]. ولكن هذا الكفاح ينبغى أن يأخذ صورة الكفاح الأيديولوجى أيضا وذلك باعتبار الإسلام أفيونا للشعوب كحال غيره من الأديان ، بالإضافةإلى وسم الإسلام على وجه الخصوص بأنه دين خليط من اليهودية والنصرانية والوثنية ، وأنه دين يدعو إلى التخلف ، وإلى عدم المساواة بين الرجل والمرأة[٢].

فأصبح التعليم الدينى محرما ويمنع منعا باتا ، والعقاب لمن سولت له نفسه القيام بذلك[٣]. والنتيجة الطبيعية لهذا العداء للدين وخاصة الإسلام هى الاهتمام بالإلحاد ونشره ، وتربية النشء عليه .

الاهتمام بالتربية الإلحادية : عمل الاتحاد السوفييتى على غرس الإلحاد فى نفوس الأطفال ، وذلك كأحد الأساليب التى يواجهون بها الدين ، يقول ليونهارد ل(قد تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا ، فعقولنا خاوية من هذا الجانب ، لم يمسسها أى تيار دينى ... إننى لم أقابل - فى مدة العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى - إنسانا واحدا من جيلى ليس ملحدا)[٤].

إن اهتما الشيوعية بالتربية الإلحادية ليس به خفاء ، حيث الاهتمام بالأطفال وإنشاء المدارس والمجمعات السكنية والتعليمية من أجلهم[٥]. وكذلك أخذهم من والديهم وتربيتهم فى المحاضن حسب الطريقة الشيوعية[٦]. وقد اتخذ الشيوعيون كافة السبل والطرق من أجل نشر الإلحاد وخاصة بين المسلمين ومن هذه السبل :

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٤) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٧٤-٢٧٥) .
(٣) انظر دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (١٢٠) .
(٤) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١١٧) .
(٥) انظر المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين (١٩-٢٠) .
(٦) انظر الفتح بالارهاب (٤٥-٤٦) .

(أ) عن طريق أجهزة الحزب ومنظماته فهى فى طليعة المؤسسات التى تقوم بنشر الإلحاد .

يقول شانتال إن (مكافحة الإسلام والعناية بنشر الإلحاد يقعان ، من حيث المبدأ على عاتق كل منظمات الحزب وعلى الكومسومول وكذلك على الفروع الإقليمية لمؤسسة ماركس - انجلز - لينين ، وعلى كل وزارات الثقافة فى جميع الجمهوريات . وأما عمليا فهناك منظمة تعرف باسم : جمعية نشر المعلومات السياسية ، أنشئت أثر الحرب وصلاحياتها شبيهة بصلاحيات (اتحاد من لاإله لهم) ، هى التى تقوم بحملات الدعاية ضد الإسلام . والمركز الرئيسى لهذه المنظمة هو موسكو ولها فروع فى كل الجمهوريات)[١].

كما قامت هذه المنظمات باستغلال بعض ماألصق بالدين وهو منه براء ثم قامت بالتنفير من رجاله وإتهامهم بالجهل والدجل ، ثم بالضغط عليهم ومطاردتهم باعتبارهم أعداء الثورة[٢].

(ب) استخدام الندوات والمحاضرات والتأليف فى محاربة الدين والقضاء عليه ونشر الإلحاد .

اهتم الشيوعيون بالقاء الندوات والمحاضرات ضد الدين ، فقد ألقى خلال ثلاث سنوات من ١٩٤٦-١٩٤٨م ٣٠٥٢٨ محاضرة عامة منها ٢٣٠٠٠ ضد الإسلام ، وألقى فى أوزبكستان سنة ١٩٥١م أكثر من عشرة آلاف محاضرة ضد الإسلام ، وفى عام ١٩٦٣م ألقى فى تركمانستان أكثر من ٥٠٠٠ محاضرة ضد الإسلام .

نشر الكتب : طبع مابين ١٩٥٥-١٩٥٧م أربعة وثمانين كتابا فى ٨٠٠,٠٠٠ نسخة وزعت فى المناطق الإسلامية من الاتحاد السوفييتى[٣]. هذا عدا

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٦) ، وانظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٩٧-٩٨) .

(٢) انظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٩٧-٩٨) .

(٣) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٦-٢٧٧) ولمزيد عن ذلك انظر المرجع السابق (٢٧٨) .

النشـرات ، والمقالات الصحفية ، والأحاديث الإذاعية ، والبرامج التلفـزيونية التى تدعو إلى الإلحاد ونبذ الدين . وقد حاول المسلمـون مقاومة ذلك التيار ولكـن كانت القوات السوفيتية لهـم بالمرصاد[١]. ومما ينبه عليه هنا هـو أن السيـاسة السـوفيتية تجاه المسلمين تتبـدل أحيانا لمراعـاة المصلحـة كما حدث أثناء الحرب العالمية الثانية[٢].

(و) إلغـاء المحاكم الشرعية ومنع المسلمين من التمتع بالنظـم الإسلامية فى دائرة الأحوال الشخصية وإثارة النعرات فيما بينهم .

عملت الشيوعية على طمس الهوية الإسلامية بكل مـاأوتيت من قوة ، فرفضت أن يكون الإسلام حاكما لأحوال الناس فى الاتحاد السوفييتى حتى فى أبسط الأمور .

ففـى ٧ كـانون الأول ١٩١٧م صـدر مـرسوم يلغى النظـام التشـريعى القـديم ، فى روسيـا كلها ، وقـامت الشيـوعية بانشاء المحـاكم المدنيـة بجوار المحـاكم الـدينية واستمر ذلـك إلى سنة ١٩٢٠م ولكـن شـريطة أن لاتتعارض أحكـامها مـع التشـريع السـوفييتى الجديد ... ومنحـت المحـاكم الجديدة صلاحيـات النظر فى قضايا الزواج والطلاق ، والإرث ، والأمـور الجزائية ، ومن هنا لم تدم المحاكم الشرعية . زد على ذلك أن تكـاليف المحاكم الدينية ألقيـت على عـاتق المواطنين ممـا أدى إلى تناقصها ، ثم بدأت تسحـب منهـا الصلاحيات من عام ١٩٢٤م .

وفى سنـة ١٩٢٧م أبطـل التشـريع الإسلامـى والعـرفى ثم منعـت أى مساعدة مالية عن المحاكم الشرعية ، وسلبت كل صلاحيـاتها ولم يبق محكمة شرعية واحدة فى كل المناطق الإسلامية بالاتحاد السوفييتى[٣].

---

(١) انظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٧٧) .

(٢) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٥٨) .

(٣) انظـر : المرجع السـابق (٢٣١-٢٣٣) ، المبين فى بعـض أحوال الإسلام والمسلمين (٢٠) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٤١) .

إن إلغاء المحاكم الشرعية يدل دلالة واضحة على مصادرة كل شيء يربط الإنسان بالإسلام ، خاصة أن المحاكم الشرعية ربما كانت المظهر الوحيد البارز الذى يستطيع الإنسان المسلم إبراز هويته من خلاله ، فإذا ماألغيت فمعنى ذلك إبعاد كل مايربط المسلم بدينه عقيدة وشريعة .

كما عمل الشيوعيون على إثارة النعرات من أجل تمزيق وحدة المسلمين ، وخلق النزاعات العرقية ، والقومية فيما بينهم ، خاصة وأن الاتحاد السوفييتى يضم أكثر من مائة قومية(١).

وبعد هذا فهل بامكان أحد أن يقول بأن الفكر الشيوعى أو النظام الشيوعى حقق الحرية العقدية سواء للشيوعيين أنفسهم أم لغيرهم؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يسمح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية ، وحقوقهم الشخصية المأخوذة منه؟ إن هذا كله يدل على أن حرية العقيدة كانت مفقودة . ولاغرابة فى ذلك لأنها تعادى الدين بل كل فكر يتعارض معها(٢)فهو عدو لها .

إن الشيوعية قضت على الحرية العقدية وصادرت مقدسات المسلمين واعتبرت الإسلام العدو اللدود لها ، لأن النصرانية كانت متهافتة وغير موثوق فيها عند كثير من أصحابها خاصة بعد ارتكاب الحماقات والطغيان . ويمكن القول إن حربهم ضد الإسلام والمسلمين واضطهاد العلماء وهدم المساجد ومنع إقامة الشعائر الدينية بما فى ذلك الانتقال إلى بلد الله الحرام ، وتلقين الإلحاد لأفراد شعبهم وفرضه فى المؤسسات التعليمية ، ومنع الشعب من حرية النظر والتفكر والتأمل فى الكون ، كل ذلك كان برهانا ساطعا على مافعلته الشيوعية تجاه حرية الدين أو المعتقد مهما نافح ودافع أهل الضلال والأذناب ونعقوا بضد ذلك . فهذه الحرية التى هى أعظم أنواع الحريات وأهمها صادرتها الشيوعية ولاننسى أنهامرتبطة بالفطرة الإنسانية فكانت

---

(١) انظر المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين (١٨) .

(٢) انظر حقيقة الشيوعية (١٩٣-١٩٤) .

مصادرتها ذات أثر سيء فى نفسية الفرد فى ظل الحكم الشيوعى ، لأن النفس الإنسانية تنزع إلى الإيمان بإله خالق لهذا الكون ، ومع ذلك يفرض الحكم الشيوعى عليه ماليس موافقا لما يعتقده أو لما هو فى معتقده .

إن هذا الوضع لابد وأن يأتى له نهاية ، لابد أن يثور الإنسان ضد هذا النظام الذى حرمه من ممارسة ماتهفو إليه نفسه ، وإن كانت الثورة ليست إلى الطريق الصحيح البحث فى صحته ، فمن كان يجيء الحق فهذا بداية طريقه ومن كان أساسا على باطل فهى بداية البداية بإذن الله تعالى .

إن القوة هى التى أجبرت الإنسان فى تلك البقاع على السكوت فترة من الزمن فـ(الناس يرضون عن الحكومة يوم تكون مصالحهم فى ظلها مكفولة نامية ، ويوم تكون عقائدهم وآراؤهم محترمة مصونة ، فإذا نظر انسان فرأى الحكم الشيوعى قد قلل دخله وضيق عيشه ، وإذا نظر فرأى أنه قد أهان دينه وصادر حريته فما الذى يحمله على الرضاء بذلك الحكم المشئوم)؟(١).

إنه القوة والقهر والنار ولكن بعد زوال تلك المؤثرات أو على الأقل الإقلال منها ، مالبث أن انفك الشعب من عقاله مكسرا تلك القيود والأغلال متجها إلى خالقه معترفا به سواء كان بطريق الحق أم بطريق الضلال .

إن الحكم الشيوعى عمل كثيرا من أجل القضاء على الدين ومصادرة حرية التدين ، ولكنه مازداد بذلك إلا إسراعا نحو السقوط والهلاك .

لقد ركلت الشيوعية هذه الحرية بقدمها ، وظنت بأنها ستتخلص من السبب الحقيقى الذى يهدد كيانها ، ولكنها أخطأت فى اعتقادها ، لأنه مامن أحد يستطيع أن يعيش دون عقيدة حتى ولو كانت فاسدة .

إن الشيوعيين أنفسهم قدموا تضحيات عديدة كما يذكرون فلماذا قدموها إذا لم يكونوا يعتقدون صلاح وانتصار ماقدموا أرواحهم من أجله ..

---

(١) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٦٤) .

ولم تقف الشيوعية عند هذا الحد بل زادت عنادا واستكبارا وواصلت مصادرتها للحريات الإنسانية لتحكم القبضة (فى نظرها) على الناس حتى يتسنى لها الوصول إلى غايتها .

إن من يفطن لحقيقة الحكم الشيوعى وخفاياه ويعيش واقعه نجد أنه يتنصل من ذلك الواقع ويفر منه ويعلم أن الخير فى تركه - بغض النظر عن ذلك الخير الذى يقدره ذلك الهارب من ذلك النظام - .

فهذا ليونهارد يقول فى مقدمة كتابه حقائق عن نظام الحكم الشيوعى : (لقد حاولت - وأنا مدرك تماما ماأقدمت عليه - أن أقدم صورة المقابلات والمناقشات والأحداث والتجارب التى عشتها ، كما رأيتها آنذاك . وتصورتها ، وكما شعرت بها ، وفكرت فيها . وأعتقد أن القارىء سيفهم من خلال هذا كله ، معنى الكفر بمذهب "ستالين" بالنسبة لانسان تربى على هذا المذهب ، فهو حكم فى قضية الشك التى اعترتنى سنين طويلة ، وسببت لى من الآلام ، والمضايقات ماناء به كاهلى . لقد كان صراعا داخليا بين الضمير المتألم ، والمبررات التى تحاول تهدئته ، ولكن عندما وصل المد والجزر بين الطرفين إلى ذروته ، أغلق باب التراجع وعجزت المبررات ، عن كبح جماح صاحب هذا الضمير عن التحرك تجاه الحد الفاصل - وإن كان فى أثناء ذلك يعانى من صداع داخلى حاد - الذى يصل من يعبره إلى تصور العالم الحر ، عالم لايسيطر عليه مذهب "ستالين")(١). فهاهم أهلها كفروا بها ، وتبرأوا من أباطيلها فكيف يأتى بعض المسلمين وينادى باشتراكية الإسلام أو شيوعية الإسلام؟!!

إن (الإسلام دين والماركسية مذهب مخالف لهذا الدين ، ولذلك فإنه من الاستحالة بمكان الجمع بينهما ...)(٢).

---

(١) وغيره كثير ومن هؤلاء أصحاب كتاب الصنم الذى هوى .

(٢) شهادتى للتاريخ (٢٤٧) ، وانظر : هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٢) ، لاشيوعية ولااستعمار (٦٤) .

إن الإسلام قـائم (بذاته لـه جذوره وقواعده ، وشمـوله ومنطلقـاته ، ولـه قانونه ودستوره وشرعه وقرآنه ... الإسلام ليس اشتراكيـة ، بل الإسلام اسلام ، وهو اسلام فقط . ففى الإسلام عدالة اجتماعيـة شاملة ، لاحقد فيها ولاضغينة ولاظلم ولااستئثار ، ولاتسويد طبقة ولاتذويب طبقـة . وفى الإسلام حرب على الجشع والاحتكار واكتناز المال ، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان وفى الإسلام شمول اجتماعى روحى مادى متكامل لايدانيه مذهب مكتوب ، ولايرقى إلى مستواه نظام موضوع)[١].

والغـريب أن الشيـوعيين يعـادون الـدين ويعترفـون أنه يمثـل العـدو اللدود لهم[٢]، ومع ذلك تظل هذه الإدعاءات ممن يدعى الإسلام إما بحسن نيـة ، أو لتحقيـق رغبة . لقـد أعلنت الشيوعية الحرب على الـدين . يقـول لينين : (لقد حاربنا الدين ونحاربه حقا)[٣].

ومـع ذلـك يبقى الإدعاء بوجود الإشتراكيـة فى الإسلام ، ومـاذلك إلا دليل على الانهزام الذى يعانيه بعض المسلمين .

وبعـد فنقـول : هذا غيض مـن فيـض مما لقيه المسلمـون تحت الحكـم الشيـوعى فى الاتحاد السوفييتى البلد الأم للشيوعية فـأين هى الحرية العقدية (الـدينية) التى قال السوفييت بأنهم سيكفلونها للشعـوب . لقد أصبحت هذه الأفـاعيل منهم أكبر برهان على حقيقة قضائهم على حرية التـدين . ولم يفلح الشيوعيون فى تحقيق مآربهم فرغم هذا الاضطهاد ومصادرتم لحرية التدين إلا أن المسلمين بقـوا هذه الفترة على دينهـم الذى فطروا عليـه بغـض النظر عن درجة التمسك لديهم به .

فـالتأثر أمـر بدهى فى ظـل النظام الشيوعى ، ومـع ذلـك حافظوا على هويتهم الإسلامية وبقوا على دينهم ، رغم أن بعضهم كان يتظاهر بالشيوعية

---

(١) إشتراكيتهـم وإسلامنـا (١٣٤-١٣٥) ، وانظـر (١٥٥،١٥٧) ، الاتجاهـات الفكـرية المعاصرة (١٦٧) ، الشيوعية والأديان (٦٣) .

(٢) انظر صحيفة اليوم العدد (٥٦٤٩) الجمعة ٢٣ ربيع الآخر ١٤٠٩هـ ٢ ديسمبر ١٩٨٨م

(٣) مقالات وخطابات بمناسبة أعياد ثورة أكتوبر (٦٦) .

خوفا على نفسه ، وضمانا لبقائها[١]. وقد اعترف الشيوعيون أنفسهم بهذا الأمر[٢]. هذا عدا الحفاظ على بعض الشعائر الإسلامية كالحفاظ على الحجاب لدى بعض نساء المسلمين ، وعدم خروجهن إلى أعمال المصانع وماشابه[٣]. وكان الاختلاط مرفوضا فى الأسرة المسلمة وخاصة فى الأرياف[٤]. كما أن شعيرة التعدد كانت موجودة وغالبا مايكون الزواج من الثانية على يد أحد رجال الدين[٥]. كذلك من حفاظهم على بعض شعائر الإسلام تجنبهم أكل لحم الخنزير[٦].

ولأجل ذلك الإصرار على التمسك بشعائر الإسلام ، تنبأ شانتال ورفيقه بأن مسلمى الاتحاد السوفييتى سيكونون أحد المواضيع الكبيرة فى السياسة العالمية (بعد أن كانوا فيما مضى ، موضع تطور داخلى فى الاتحاد السوفييتى)[٧].

(إن الإيمان فى صفوف المسلمين لايزال يستعصى على كل موجات الإلحاد ومغريات الفساد)[٨]. ونتيجة لهذا الكبت والعداء للدين مع نزوع النفس الإنسانية إليه كان لابد من الثورة على هذا النظام والمطالبة بالانفلات منه . لأن الفرد مهما كان انتماؤه الوطنى أو العرقى لابد له من عقيدة توجهه ويأنس بها حتى ولو كانت باطلة . ولقد ضرب الشيوعيون أمثلة

---

(١) انظر اللقاء بين أحمد عبد الغفور عطار وأحد المسلمين الذين يتظاهرون بالشيوعية وقد أعلن هذا المسلم أنه على عهد الله تعالى باق وسأل الله تعالى أن يغفر له تظاهره بالكفر والإلحاد . أورد ذلك اللقاء فى كتابه الشيوعية (١١-١٢) .

(٢) انظر : أجنحة المكر الثلاثة (٤٣٦) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٨٥-٢٨٦) .

(٣) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٩٩-٣٠١) .

(٤) انظر المرجع السابق (٣٠٢-٣٠٣) .

(٥) انظر المرجع السابق (٣٠١-٣٠٢) .

(٦) انظر المرجع السابق (٣١٥-٣١٦) .

(٧) المرجع السابق (٣٦١) .

(٨) الإسلام والمناهج الاشتراكية (٢٦٢) .

لبعض الشخصيات التى قدمت أرواحها فى سبيل الشيوعية فلماذا قدم هؤلاء أعز مايملكون ، إن ذلك فى سبيل عقيدة باطلة لاتصمد أمام الحقائق العلمية ولاالنوازع الفطرية فكيف بمن يملك عقيدة صحيحة ، أو جزء من عقيدة تحفظ للانسان كرامته وتعامله بالنظر إلى إنسانيته . إن ذلك الفعل من الشيوعية بمصادرة الحرية الدينية كان وبالا على الشيوعية منذ قيامها ، ظهرت آثاره على مر الزمن إلى أن ظهرت فى الآونة الأخيرة بصورة التمرد على الفكر المادى والإلحادى بصورة كبيرة ، حتى أصبح الشيوعيون الذين ينادون بالأفكار الشيوعية يرفضون الإلحاد ، وينكرون مبادىء ماركس ولينين عن الدين . وعندما كانت العقيدة الشيوعية أساسا لاتقدم شيئا للناس فإنهم بدأوا يبحثون عن خلاصهم عبر آفاق أخرى ومنها الدين[1]، وهو أقرب شىء لقلب الإنسان مهما كان تصوره وتفكيره ، وهكذا يظهر لنا أن الشيوعية قامت بمصادرة الحرية الدينية ، وبالتالى عملت على مصادمة الفطرة الإنسانية ، وتكون بهذا قطعت شوطا نحو الهاوية والسقوط .

ومن العرض السابق نصل إلى الآتى :

أولا : أنه لاالتقاء بين الإسلام والشيوعية بحال من الأحوال .

ثانيا : أن الشيوعية تعادى الأديان وخاصة الإسلام .

ثالثا : أن الشيوعية قامت بمصادرة حرية التدين (حرية العقيدة) رغم ماجاء فى دساتيرها من نص على حريتها وضمانتها .

رابعا : لو افترضنا أن الشيوعية حققت ذلك أى أقرت الحرية العقدية فمعنى ذلك أنها تجنى على نفسها وتعجل بإنهيارها ، فكان لابد من القضاء على الدين وعلى كل مظاهره وخاصة الدين الحق الإسلام .

خامسا : أن السياسة الشيوعية تجاه الدين تتبدل مع المصلحة أحيانا ، فقد تهادن المسلمين بناء على هذه المصلحة .

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٥٢) ، ارنست ماندل ، ترجمة بولا الخورى ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار الواحة ، بيروت ، لبنان .

سادسا : رغم مابذلته الشيوعية فى سبيل منع المسلمين من ممارستهم شعائر دينهم إلا أنهم بقوا محافظين على هويتهم الإسلامية ، ولولا الكبت الذى يعيشه الإنسان داخل الاتحاد السوفييتى لعبر هؤلاء عما بداخلهم ولكن كانت الشيوعية تقوم بمصادرة حرية الرأى والتعبير وهذا ماجعلهم يمارسون مااستطاعوا من شعائرهم سرا .

ونعرض الآن لحرية العقيدة فى الإسلام ومن خلال ذلك يتبين لنا بجلاء ووضوح الفارق الكبير بين مصادرة الشيوعية لهذه الحرية ومحافظة الإسلام عليها .

(ب) الحرية الدينية فى الإسلام :

إن من أعظم مايتميز به الإسلام هو تحقيقه الحرية العقدية للناس . فليس لأحد أن يكره أحدا على ترك دينه أو عقيدته ويجبره على الدخول فى الإسلام (الدين الحق) والأصل فى ذلك كتاب الله تعالى حيث قال عز من قائل : {**لاإكراه فى الدين**}[١].

يقول ابن كثير فى تفسير الآية : (أى لاتكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لايحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لايفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا)[٢].

ومن الآيات التى تدل على إثبات حرية العقيدة والدين حسب اختيار الإنسان قوله تعالى : {**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**}[٣].

وقوله جل وعلا : {**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**}[٤].

فدلت هذه الآيات على ضمان الحرية الدينية للإنسان ، وهذا بالطبع يكون مندرجا تحت أحكام الإسلام التى قررها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فى معاملة من هم على غير دين الإسلام من أهل الذمة وأهل الحرب.

---

(١) سورة البقرة : (٢٥٦) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣١٠/١) .
(٣) سورة الكهف : (٢٩) .
(٤) سورة يونس : (٩٩) .

ومما يؤكد هذه الحرية هو أن الله تعالى عندما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه إلا من أجل دعوة الناس إلى التوحيد وعبادة الله تعالى دون اكراههم ومن ثم تذكيرهم ونفى الله تعالى أن يكون بيد المصطفى صلى الله عليه وسلم الحساب أو الهداية ، فقال تعالى : {**وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**}(١).

وقال تعالى : {**فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**}(٢).

فإذا كان هذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ليس لهم من الأمر شىء إلا تبليغ الدعوة ، فإن غيرهم من الناس من باب أولى . أى لايكرهون أحدا على الدخول فى دين معين ، حتى ولو كان حقا ، ولايجبرونه على الخروج منه وإن كان باطلا . ويمكن أن نتلمس تكفل الإسلام بهذه الحرية فى التالى :

أولا : أن هذه الحرية التى منحها الله تعالى للعبد هى غاية فى العدل والرحمة حتى لايكون لأحد حجة على الله تعالى(٣).

ثانيا : مما جعله الله تعالى للانسان حرية البحث عن الحقيقة ، ولأجل ذلك ذم المولى جل وعلا التقليد ، وهذا يدل على حرية الاختيار ، قال تعالى : {**وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون**}(٤).

ثالثا : فصل الإسلام أحكام التعامل مع الأعداء حتى لو بقوا على دينهم وقد أعطى أهل الذمة حرية بقائهم على دينهم ، واحترامهم ومراعاتهم ، وعدم الاعتداء عليهم ، بل والدفاع عنهم إذا تعرضوا للاعتداء ووصل الأمر إلى ترك أماكن عبادتهم على ماهى عليه ، إذا لم يكن من

---

(١) سورة الرعد : (٤٠) .
(٢) سورة الغاشية : (٢١-٢٢) .
(٣) انظر عن ذلك العدل فريضة إسلامية (٦٩-٧٠) .
(٤) سورة البقرة : (١٧٠) .

بقائها ضرر على المسلمين[١].

رابعا : ومما يدل على مدى احترام الإسلام لهذه الحرية هو (تعايش المسلمين وغيرهم من قديم الزمان فى بلاد الإسلام دون أن يفرض المسلمون دينهم على أحد ، أو أن يتعرضوا لهم بشعائرهم الخاصة مهما كانت تتضارب وتختلف مع شعائر المسلمين)[٢].

مما جعل كثير من الكفار يدخلون فى دين الله تعالى لما وجدوا فيه من حرية وسماحة[٣]. (لقد بلغت الشريعة الإسلامية أعلى درجات السمو واحترام الإنسان حينما قررت حرية العقيدة للناس عامة . ثم تكفلت بحماية هذه الحرية لغير المسلمين فى بلاد الإسلام ...)[٤]. وعلى هذا فإن عقيدة الإسلام هى (العقيدة الوحيدة التى تسمح بقيام مجتمع عالمى لاعزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ...)[٥].

خامسا : عندما منح الإسلام الحرية الشخصية للإنسان ، فإن من مكملاتها عدم إكراهه على الدخول فى دين محدد معين وهو مع ذلك لايجيزالدعوة إلى الشرك أو الفساد . يقول محمد سليم إن (كل فرد حر فى

---

(١) اختلف العلماء فى هدم الكنائس . ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (وفصل الخطاب أن يقال : إن الإمام يفعل فى ذلك الأصلح للمسلمين ، فإن كان أخذها منهم أو إزالتها هو المصلحة ـ لكثرة الكنائس أو حاجة المسلمين إلى بعضها وقلة أهل الذمة ـ فله أخذها أو إزالتها بحسب المصلحة . وإن كان تركها أصلح ـ لكثرتهم وحاجتهم إليها وغنى المسلمين عنها ـ تركها) .
أحكام أهل الذمة (٢/٦٩٠) . ولكن ليس لهم أن يبنوا كنائس جديدة فى بلاد المسلمين .

(٢) الإنسان وحريته فى الإسلام (٥٥) .

(٣) انظر المسلمون فى تاريخ الحضارة (٦١-٦٢) ، ستانوودكب ، ترجمة محمد فتحى عثمان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة.

(٤) فوق أطلال الماركسية (٦١) .

(٥) الفكر الدينى فى مواجهة العصر (١٦٤) .

أن يتبع مايشاء ويؤمن بما أراد ، وله أن يمارس حريته فى العبادة والإيمان الكامل ، شريطة ألا تمس هذه الممارسة لشعائر ملته ماتقتضيه صوالح المسلمين ومشاعر دينهم أو تكون هذه الممارسة دعوة لشرك أو فساد أو تعطيل لأداء المسلمين لشعائرهم أو طعنا فيها . فهى حرية مكفولة ومسئولة لامطلوقة)[١].

سادسا : أن الإسلام حينما شرع الجهاد لم يكن المقصود منه إكراه الناس للدخول فى الدين بل من أجل حماية حرية العقيدة[٢]. وتمكين كل إنسان أن يختار مايريده دون ضغوط بشرية[٣]. ومن هنا فإن مايثار حول الإسلام وكونه فرض نفسه بالقوة والسيف كلام باطل يدحضه كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وواقع الأمة فى تعاملها مع الأمم التى حاربتها . ونعرض لتلك الشبهة ونرد عليها باختصار .

شبهة وردها :

إن بعض الأعداء وبعض من خفيت عليهم حقائق النصوص قالوا إن هناك تعارض بين حقيقة حرية العقيدة التى كفلها الإسلام وبين الجهاد فى سبيل الله تعالى لنشر دينه جل وعلا فيقال لهم :

إن الله تعالى قد أبان فى كتابه العزيز أن القتال إما لدفع الظلم أو حماية الدعوة .

وقد شرع الله تعالى القتال للمسلمين بعد أن أمعن الكفار فى ايذائهم وتعذيبهم من أجل إرجاعهم عن دينهم .

وغاية هؤلاء الأعداء إخماد الدعوة ، وسد الطريق فى وجه الدعاة ، فكان القتال لنشر دين الله تعالى ورد كيد المعتدين .

---

(١) ضمانات الحرية (١١٥) ، وانظر الإنسان وحريته فى الإسلام (١٤) .
(٢) انظر الفكر الدينى فى مواجهة العصر (١٦٣) .
(٣) انظر الإسلام يرفض الشيوعية (٢١) .

قال تعالى : {**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**}[(١)].

وقال تعالى : {**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين**}[(٢)].

فالإسلام لم يجبر أحدا على الدخول فيه ولكن طلب من الأعداء ألا يعترضوا طريق الدعوة وإبلاغها إلى الآخرين وأن لايصدوا عن سبيل الله تعالى أحدا إذا رغب فى طريق الإسلام .

وإلا استخدمت القوة فى الدفاع عن الحرية التى اختارها الفرد . ثم إذا تأملنا مايقصه الله تعالى من أسباب القتال لعلمنا أنه لم يشرعه جل وعلا لأجل إراقة الدماء أو تيتم الأطفال وإنما شرعه تعالى مع علمه جل وعلا بما فيه من أضرار لدفع ضرر أشد[(٣)].

ويبقى الأصل أنه لاإكراه فى الدين (لأن الإكراه إنما يقع على ماتنفر عنه القلوب ويتنافى مع الحقيقة والحق أو لما تخفى براهينه وآياته)[(٤)].

ومن هنا فإن الجهاد لالحمل الناس على الدخول فى الدين بالقوة ، بل كان لنشر دين الله تعالى ، ولدفع اعتداء المعتدين . وعلى هذا فلامنافاة بين الآيات الواردة فى الجهاد ، وبين قوله تعالى {**لاإكراه فى الدين**}[(٥)(٦)].

وبالعموم فإن هذه شبهة تردها الحقائق التالية :

---

(١) سورة الحج : (٣٩) .

(٢) سورة البقرة : (١٩٠) .

(٣) انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى (٤١٩) محمد أحمد العدوى ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٤) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان (٣١٦/١) ، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى ، ١٤١٠هـ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .

(٥) سورة البقرة : (٢٥٦) .

(٦) انظر : فتح القدير (٢٧٦/١) ، تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان (٣١٧/١) .

أولا : أن الجهاد الإسلامى إنما شرع (من أجل إزالة العقبات التى تقف فى طريق القلب البشرى وتمنعه من الاستماع إلى كلمة الحق ... فإذا أزيلت فالناس أحرار بعد ذلك يختارون لأنفسهم ماشاءوا ، يدخلون فى الإسلام إن أحبوا ، أو يبقون على دينهم)[١]. يقول أحمد العدوى : (أذن الله لرسوله بالقتال حتى تكون الدعوة إلى الله حرة لايقف أحد فى سبيلها وحتى يكون الناس آمنين على أنفسهم وعقائدهم من سلطان الباطل وزلزلة الطغيان ولذلك جعل الله للقتال غاية وهى أن لاتكون فتنة للناس فى عقائدهم ويكون الناس أحرارا فيما يختارون ﴿**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾[٢]فلايقف شىء فى سبيل الدعوة إليه)[٣].

ثانيا : أن واقع البلاد التى دخلها الإسلام وحياة شعوبها يدل دلالة واضحة على عدم الإكراه فى تغيير عقائدهم طالما أنهم قد فعلوا واحدا مما طلب منهم . فهم باقون على دياناتهم ومحفوظ لهم أمنهم . والعدل محقق فيهم ، ويمارسون حياتهم وشئونهم الخاصة من تجارة وزراعة وقضايا إجتماعية وعلمية وصحية على أكمل وجه ، بل وأكثر طمأنينة من قبل ، وهذا الواقع شهدت به الدول التى دخل إليها الإسلام .

يقول كب : (لم يكن انتصار العرب مصابا لأسبانيا لقد قدم مزيدا من العدالة والفرص لجمهرة الناس ...)[٤].

وانتشرت الصناعة المعدنية ، ونشطت التجارة ، ونال العلم التشجيع فى كل مكان من الأندلس[٥].

ثالثا : أننا لو تتبعنا بعض أحكام الجهاد فى الإسلام لوجدنا حقائق كثيرة تدل على أن الإسلام لايأمر بقتل أولئك الذين لاحول لهم ولاقوة .

---

(١) دروس تربوية من القرآن الكريم (٤٧) .
(٢) سورة الأنفال : (٣٩) .
(٣) دعوة الرسل إلى الله تعالى (٤١٩-٤٢٠) ، وانظر ضمانات الحرية (٢٢٩) .
(٤) المسلمون فى تاريخ الحضارة (٦٣) وانظر (٦١-٦٢) ، وانظر دروس تربوية من القرآن الكريم (٤٧) .
(٥) انظر المسلمون فى تاريخ الحضارة (٦٤-٦٥) .

وأولئك الذين لايعترضون طريق الدعوة . إنما القتال لمن جعلوا أنفسهم عائقا فى تبليغ شرع الله تعالى إلى كافة البشر . ويظهر لنا ذلك فى بعض الحقائق منها :

(أ) اتفق جمهور المسلمين على أنه لايحل قتل النساء والصبيان والرهبان والشيخ الكبير . أى لايقتل من لم يشارك فى قتال المسلمين .
فلو أن القتال والجهاد فى سبيل الله تعالى كان لأجل الإكراه وحمل الناس على إجابة الدعوة حتى لايوجد مخالف فى الدين ماساغ استثناء هؤلاء ، فاستثناؤهم دل على أن القتال لمن يكون عائقا فى طريق الدعوة أو مقاتلا للمسلمين دفعا لعدوانه .

(ب) أن وسائل الإكراه والقهر ، ليست من طريق الدعوة إلى الدين ، فإن الدين أساسه الإيمان ومحله القلب ، وهذا الأساس تكونه الحجة لاالسيف .

(ج) السلوك الفعلى والواقعى الذى فعله النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده فلم يقاتلوا لغرض الدين على الناس أو إكراههم عليه(١).

(د) أن إرسال الرسل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وبعثه البعوث إلى مختلف الأمصار ينفى أن يكون الجهاد لإكراه الناس من أجل الدخول فى دين الله تعالى(٢).

(هـ) كذلك كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعده أقروا حرية العقيدة لكل فرد . وكانت وصية الخلفاء لجنودهم وجيوشهم - التى يسيرونها للدعوة إلى الله تعالى - تقوى الله عز وجل ، وعدم

---

(١) انظر الحريات العامة فى الإسلام (٨٦-٨٧) .

(٢) انظر زاد المعاد (١/١١٩-١٢٤) حيث ذكر مجموعة من هذه البعوث الإمام ابن القيم تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ، الطبعة الخامسة عشر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

التعرض للعجزة ، والضعفاء ، والنساء ، والصبيان ، وأولئك الذين انقطعوا للعبادة فى صوامعهم .

وكذلك ماكان من إبرام الصلح ، وأخذ الجزية ، والدفاع عن أهل الذمة وهم على دينهم فهو دليل على بطلان هذه الدعوى ، وأن الإكراه للدخول فى الدين ليس من سبيل شريعة رب العالمين .

(و) ثم إن التخيير الذى يمنحه المسلمون لأعدائهم ، لدليل على أن الإسلام لايكره أحدا على تغيير دينه ولم يذكر (التاريخ شاهدا واحدا على أن المسلمين فرضوا على غيرهم اعتناق الإسلام بالقوة ، بمعنى أن من لايسلم يقتل)[١].

(وجملة القول أن القتال لم يشرع لحمل الناس على الإسلام بسلطان القوة ، فإن العقيدة ليس من شأنها أن تعتمد الإكراه ، وإنما تعتمد الاقناع ، ولو كان طريق الدعوة إلى الإسلام هو السيف كما يزعم خصوم الإسلام فليحدثونا أين كان ذلك السيف أيام إقامة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمكة وسيف التعذيب مصلت على رقاب أصحابه - رضى الله عنهم - من قريش ، والناس تدخل فى دينه على الرغم من ذلك البطش القاهر .

وأين كان ذلك السيف وهو يمر بأصحابه - رضى الله عنهم - وهم يعذبون فلايستطيع أن ينقذهم من العذاب ، ويأمرهم بالصبر ، ويعدهم الجنة .

نعم كان مع محمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين قوة فوق قوة السيف ، وسلطان لايعلوه سلطان ، ألا وهو قوة الحق الذى أتى به ، وسلطان الحجة والبرهان الذى تملك القلوب فاستخف بكل شىء ينالها فى ذلك السبيل ، فإن كان هناك إكراه على الدين فهو ذلكم الإكراه ، وإن كان فى يد محمد - صلى الله عليه وسلم - سيف فهو ذلكم السيف الصارم الذى لاتستطيع قوة فى الأرض أن تقف فى سبيله)[٢].

---

(١) الإنسان وحريته فى الإسلام (١٥٣) .

(٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى (٤٢٠) .

ومن العرض السابق نصل إلى الآتى :

أولا : أن الأصل فى الحرية العقدية فى الإسلام كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ثانيا : أن الإسلام كفل هذه الحرية حقا وأصبحت واقعا ملموسا لامجرد دعوى كما هو حال الأنظمة الأرضية والقوانين الوضعية .

ثالثا : أن الأمثل دعوة الناس ليدخلوا فى دين الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، فمن أبى الدخول فيه فعليه أن يعطى الجزية نظير مايقدمه المسلمون له من الحفاظ عليه من أعدائه .

رابعا : أن الجهاد فى سبيل الله تعالى ليس لإكراه الناس فى دخول الدين أو فرضه عليهم بالقوة ، بل هو لتحقيق هذه الحرية كى يعيش هذا الإنسان فى ظل الدين الذى يختاره مع الأحكام المترتبة على ضمان هذه الحرية له تجاه المسلمين(١).

خامسا : هناك ضوابط شرعية يجب مراعاتها عند الحديث عن هذه الحرية فهى ليست على إطلاقها ، كما أنه ليس من حق المسلم أن يغير دينه ، وكذا ليس من حق الكتابى تغيير دينه إلا إلى الإسلام . ويدخل أهل الكتاب فى الخيارات الثلاثة أما العرب فليس لهم إلا أحد الخيارين : الإسلام أو القتال .

سادسا : أن حرية العقيدة فى الإسلام من أهم الحريات وأجلها لإتصالها بالعلاقة بين الخالق عز وجل والمخلوق(٢).

ومن هنا أولى الإسلام هذا النوع من الحرية اهتماما كبيرا ومنح الإنسان هذه الحرية ، وفى ذلك دعم كبير وحفاظ على الحرية الشخصية للإنسان .

---

(١) انظر عن ذلك الأمر كتاب الإسلام يرفض الشيوعية (٣٤) .

(٢) انظر كتاب ضمانات الحرية (٣٣) .

المبحث الثالث
الحرية الفكرية

(أ) الحرية الفكرية فى النظام الشيوعى :

أكثر الشيوعيون من الحديث عن الحرية وضماناتها فى المذهب الشيوعى ، بل والأكثر من ذلك أن الشيوعية رفعت شعارات العدل والمساواة والحرية ، وهى نفس الشعارات التى رفعت من أجل الثورة على الإقطاع . وقد نص الدستور السوفييتى على هذه الحرية فجاء فى المادة ٢٥ : (أنه وفقا لمصالح الطبقة العاملة وتوطيدا للنظام الإشتراكى يضمن القانون لمواطنى الاتحاد السوفييتى حرية الكلام ، وحرية الصحافة ، وحرية عقد الإجتماعات الصغيرة والكبيرة ، وحرية السير فى مواكب والتظاهر فى الشوارع)(١).

ومع هذه النصوص المقررة لحق حرية الكلمة إلا أن واقع الاتحاد السوفييتى كان يرفض ذلك كله جملة وتفصيلا .

ومن هذه الحقائق التى سنذكرها يتضح لنا صدق مانذهب إليه .

أولا : لم يطبق الاتحاد السوفييتى مانص عليه دستوره بل صادر الحرية الفكرية وكمم الأفواه أن توجه أو تنتقد النظام ، واعتبر كل من حاول ذلك بأنه معاد للحزب وللتعاليم الماركسية واللينينية ، على أن النص السابق فى الدستور يفهم منه أن الحرية إنما هى للطبقة العاملة ، ويؤخذ ذلك من قولهم (وفقا لمصالح الطبقة العاملة) . كما يفهم من قولهم (وتوطيدا للنظام الإشتراكى) إن الرأى والقول الذى يقبل إنما هو ذلك الذى يشرف عليه الحزب الشيوعى ويؤيده فى أفعاله ويدافع عن سياسته . وإذا جاء عن أحد الكتاب أو المفكرين قولا يخالف النظام أو يدعو إلى تحرر الإنسان أو يفهم منه الحزب الشيوعى أنه يثير المواطنين ضده فإن مصيره إلى السجن أو

---

(١) نقلا من كتاب الحريات العامة (٢٦٠) .

الاعدام أو النفى . يقول عبد الحميد متولى : (إن حرية الرأى فى الاتحاد السوفييتى ومايتفرع عنها لاتمارس إلا عن طريق المنظمات التى تشرف عليها كالحزب الشيوعى والبوليس السرى . وبالتالى فإن المواطن الذى يباشرها بوصفه عضوا فى منظمة تخضع لإشراف الدولة وتوجيهها ، وهذا مايبدو واضحا فى عهد "ستالين" الذى كان يعاقب بشدة كل من ينتقد النظام ...)(١).

ولاشك أن كبت هذه الحرية وسلبها من الإنسان يؤدى إلى آثار سلبية خطيرة (بل هو دعوة إلى الإرهاب ونداء إلى الطغيان)(٢).

ثانيا : أقوال الشيوعيين فى المفكرين واضطهادهم لهم ، وهى تدل دلالة واضحة على مصادرة حرية الفكر والرأى .

فقد كان لينين مولعا على الدوام بالسخرية من رجال الفكر واتهامهم بأنهم عناصر من السكان مذبذبة غير موثوق بها فقال : (إن أحدا قط لايجرؤ على أن ينكر أن رجال الفكر وهم طبقة خاصة من المجتمعات الرأسمالية القائمة اليوم يتصفون جماعة وأفرادا اتصافا لاشك فيه بالنزعة الانفرادية ، وكان بينهم طبقة المتعلمين والمفكرين بالتراخى والكسل وذلك لميلهم إلى إحلال المناقشات محل الأفعال ووضع الأقوال مكان الأعمال) .

(ووصف لينين رجال الفكر المرة تلو المرة بأنهم "مخربون" ، "متزلفون للرأسماليين" ، "خدام لأصحاب النفوذ" ، "عمال للحرس الأبيض")(٣).

ولكن لماذا هذه الحملة على المفكرين من قبل الشيوعيين؟

إن المفكرين والمثقفين يهددون الحكم الشيوعى وفكره ذلك أن هؤلاء يشكلون خطرا حقيقيا عليهم بسبب أفكارهم ، ومايتوصلون إليه من حقائق خاصة إذا وضعنا فى الحسبان أن الحقائق العلمية ترفض الفكر الشيوعى . كذلك لأن هؤلاء المفكرين أقدر من غيرهم على كشف الباطل والزيف فى

---

(١) نقلا من كتاب الحريات العامة (٢٦١) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٤٤) .

النظرية الشيوعية ، ومن هنا دأب الشيوعيون على محاربتهم واعتقالهم بل واعدامهم ليستقيم لهم أمرهم . ناهيك عن الإشكال الأكبر لو اتصل هؤلاء المفكرين بالعالم الخارجى ، ومن هنا عمل الشيوعيون على إيجاد مفكرين من نوعية خاصة وتعمل بتوجيه من قبل الحزب الشيوعى .

يقول (Allen Wdulles) فى كلمة ألقاها فى جامعة كولومبيا فى أول يونيه عام ١٩٥٥م : (إن تعليم الشعب فى الاتحاد السوفييتى قد يصبح خطرا حقيقيا يهدد نظام الحكم الشيوعى فى تلك البلاد ... ذلك أن زعماء السوفييت الحيارى المضطربين حين أدخلوا فى البلاد التعليم الشعبى العام قد أطلقوا فيها قوى تهددهم بأعظم الأخطار ، وسيكون من أشق الأمور عليهم بعد الآن أن يحولوا بين شعبهم وبين إدراك مافى العالم الخارجى من حقائق)(١).

ويعترف خروشوف بأن الكتاب والمفكرين لايتركون شيئا إلا وتحدثوا عنه وهذا مالايريده الحزب الشيوعى ، فيقول : (إن الكتاب ينقبون دوما عن مسائل الفلسفة والأيديولوجيا تلك المسائل التى يود أى حزب حاكم ، وكذلك الحزب الشيوعى أن يحتكرها)(٢).

لقد أوجد الكاتب والشاعر والفنان والروائى وغيرهم مشكلة معقدة لزعماء الثورة البلشفية إذ أنهم لايرغبون فى نقدهم ، ولايرغبون فى إطلاع هؤلاء على ماعند غيرهم(٣).

ومن هنا ضيق الشيوعيون على الكتاب والمفكرين واضطروهم إلى أن يكتبوا مايريد الحزب ويفكروا كما يريد أيضا ، والكاتب المحظوظ هو الذى يمجد الماركسية واللينينية ، يقول خروشوف : (أحسن ستالين ، كسائر

---

(١) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٥-١٦) .

(٢) الوصية الأخيرة (٧٢) ترجمة زهدى جار الله ، ١٩٧٥م ، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٣) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٨٨-٢٨٩) ، وانظر (٢٠٨) .

الحكـام المستبدين ، معاملـة الكتاب إذا كانت كتاباتهـم تملقـا له ولحكمه)[١] وإذا لم يكـن كـذلك فإن مصيره إلى الاعتقـال ، والفصـل مـن عمله ، وبين جيد ذلك بصورة متكاملة فيقول : (لعل الكاتب هو فى روسيـا أكثر المنتجين والصنـاع وأرباب المهـن حظـوة ، وأوفـرهم قسطـا من التـدليل ، حتى لقـد أدهشتنى المزايا التى عـرضت على وروعت خاطرى ، وبت يومئــذ أخشى أن أقع فريسة الإغراء ، وأن أذل للرشوة والفساد . وماذهبت إلى روسيا لأحظى بمزايا ، أو أظفـر بمنافع وفوائد ، وكان ماشاهدته مـن مختلف صنوفها وعديد ألوانها فاتنا يسترق القلب ، ولكن هذا لم يمنعنى أن أنتقـد ، لأن أشد الحظوة وأكبرها قدرا إنما يستمتع فى روسيا بها الكتاب أكثر مـن استمتاعهم بمثلها فى أى بلد آخر من بلاد العالم ، وإنما تعطى لقاء التفكير فى الحدود التى ترضـى السلطـات عنها ، والأفق الـذى تجيزه . وكان هذا وحده كـافيا لتنبيهـى إلى الخطـر ، وتبصرتى بالعاقبة ، فأخذت يومئذ حذرى ، وناديت حكمتى وصبرى لأن الثمـن المطلوب نظيرها هـو التخلى الكلى عن كل نقـد حر ، أو معارضة صريحة . وتبين لى أن عضوا بارزا مـن أعضـاء المجمـع العلمـى أفـرج عنـه أخيرا ، وكـان قد زج به فى غيـابة السجن ، لالذنب اقترفـه سـوى استقلال الـرأى ، وحرية الحكم على الأشيـاء ، وكان العلماء الأجانب كلمــا حاولوا الاتصـال به ، قيل لهم إنه مـريض معتكف مع أنه فى السجـن يومئـذ مقيم .

وقيل أيضا إن آخر فصل من "أستاذيته" وحرم من كل تسهيلات كان من قبل يجدها فى المعمل ، لالشىء سوى أنه أبدى آراء علميـة لاتجارى تيار العقيـدة السوفيتية ، حتى لقد أرغم على أن يكتب خطـابا مفتوحا إلى الرأى العام يتراجع فيه عنها اتقاء الإبعاد ، وخشية من التشـريد . وأن تعلم أن من خواص الطغيـان عجزه عن احتمـال الاستقلال الفكرى ، ورضـاه عن المهانة والاستضعـاف والخنوع ، والـويل للمحامى الروسى الـذى ينهـض فى ساحة القضـاء للمـرافعة عن متهم تريد الحكـومة إدانتـه ، مهمـا تكـن مرافعته من

(١) الوصية الأخيرة (٧٣) ، وانظر (٧٤) .

العدالة بمكان . إن ستالين لايسمح بغير المديح والاستحسان والتحبيذ ، ولن يلبث أن يجد نفسه محاطا بقوم لايملكون تبصرته بخطأ ، أو تنبيهه إلى ضلاله إذ ليست لهم آراء على الإطلاق . إن صورة ستالين أصبحت تشاهد فى كل مكان ، واسمه أمسى على كل شفة ، وإزجاء المديح إليه ظاهر فى كل خطبة أو كلام ...)[١].

إن المفكرين والكتاب فى الاتحاد السوفييتى كانوا يفكرون كثيرا قبل الإقدام على الكتابة والنقد ، أو المطالبة بالحقوق ، وإذا ماقدر لأحدهم أنه كتب شيئا لم يوقع عليه خوفا من المصير الذى ينتظره فإما أن يوضع فى أحد المصحات العقلية لأنه متخلف!![٢]أو أن يطبق عليه قانون الخيانة العظمى للفكر الشيوعى وهو الإعدام[٣]. وتبين فيما بعد أن هؤلاء الذين أعدموا من الكتاب والمفكرين والمبدعين لم يكونوا مجرمين ولاأعداء للشعب[٤]غير أنهم قد جاءوا بما لايريده الحزب الشيوعى ويتعارض مع عقيدته . ومع هذا الاضطهاد والإعدام إلا أن بعض المفكرين كانوا يصرون على آرائهم ، ويرفضون المغالطات التى يشاهدونها خاصة فى نهايات الحقبة الستالينية ومجىء خروشوف إلى رئاسة الحزب[٥]. وقد أدخل خروشوف كثيرا من التعديلات فى سياسة الاتحاد السوفييتى الداخلية والخارجية ومنها الإذن والبدء فى توجيه النقد لأعضاء الحزب . ثم جاء بريجنيف وكان الخوف والإرهاب أقل من ذى

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٤٧-٢٤٨) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٨) .

(٣) انظر إسلام لاشيوعية (١٠٥) ، وانظر عن بعض الشخصيات التى أعدمت كتاب الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٦٥-٢٦٦) ، وانظر الوصية الأخيرة (٤٣) حاشية رقم (٢) . ولمزيد عن الكتاب وأوضاعهم وبعض القصص الذى وقع لهم انظر ماكتبه ستيفين سبندر فى كتاب المعبود الذى هوى (٣٣١-٣٣٥،٣٣٧-٣٤٠) وانظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٢) .

(٤) انظر الوصية الأخيرة (٧٤) .

(٥) انظر : المرجع السابق (٦٦-٧٧) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٧-١٧٩) .

قبـل ، إلا أن النفـى والاعتقـال والاعـدام بقـى ولـو أنه بصـورة أقـل من السابق(١).

وهكـذا عمـل الشيـوعيون على مصـادرة حرية الكلمـة والتضييـق على المفكـرين واعتبارهم أعداء الثـورة والشعب إذا وجهـوا أى نقد أو معارضة للحزب الشيوعى ورجالاته .

ثالثا : مصـادرتهم للمؤلفات ومايكتبه المفكرون والانتقـاص منه وإبقاء مايخدم الفكر الشيوعى .

وقد اعترف بعض الكتاب الذين قدر لهم الخروج من الاتحاد السوفييتى بذلـك ، ومـن هؤلاء الكـاتب السوفييتى أناتولى كـوزنتسوف(٢)حيث قال :

(١) (إن جميـع ماكتبته قد تم تحريفه وتوجيهه لخدمة العقيـدة الشيوعية .

(٢) إن الأدب والفكـر هنـاك يخضعـان لمراقبـة الجهلـة مـن أعضـاء الحزب الشيوعى .

(٣) إن الحرية هنـاك هـى حرية تمجيـد النظام الشيوعـى فقـط ، فعلينا أن نمتـدح ستـالين عندما يكـون ستالين هو الزعيم ، ونكتـب فى مـوضوع زراعة الذرة عندما يريد الحزب من الشعب أن يزرع الـذرة ، ونعرض جرائم ستالين إذا شاؤا هم أن يعرضوا هذه الجرائم)(٣).

ويظهـر مـن هذا النص أن الكـاتب هنـاك والمفكر يكـون بمثـابة الآلة توجه حيـث يريد أصحابها لهـا ، فمهمته الكتابة وإنتـاج مايطلب منه . أى يفـرض عليه الموضوع ثم يتحـدث فيه ولنا أن نتخيـل كيـف يكون مستوى تلـك الكتـابة؟ وكيـف يؤثر ذلـك على العطـاء الفكـرى؟ ويبين أناتولى بأن كتـابات الأديب أو المفكـر يحتفـظ بها تحت الأرض خشيـة أن يصيبـه بسببها القتل أو النفى ، غير أن مايخدم الفكر الماركسى وأهـداف الحزب فإنه يظهر

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٤-١٧٥) .

(٢) أديب سوفييتى هرب إلى انجلترا .

(٣) الماركسية فى أبعادها المختلفة (٧٦) ، نقلا من كتاب إنهيـار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٢) .

فيقـول : (إن الكـاتب الحر هنـاك لايحتفـظ بما يكتـب على مكتبه خوفـا من المداهمـة ، وإنما يحتفـظ به فى مكـان تحت الأرض ، وأمـا التى تظهـر فهـى المؤلفات التى يكتبها الكاتب رغما عنه وإرضاء للرقابة)[١].

ولأجل هـذا فـإن الكاتب الهـارب تبرأ مـن كل مـاكتب وقـال : (أنا أعلن بحرية بأن كوزنتسوف هو مؤلف جبان وغير شريف وأنا أتخلى عن هذا الإسـم . وجميع كتاباتى التى سأنشرها ابتداء من اليـوم ستحمل اسما جديدا هو أناتولى)[٢].

وإذا كـان الـوضع لما يكتبـه أعضـاء الحزب سيئـا فـإن هؤلاء سيكون حالهم أسوأ ولاغرابة فى ذلك فى ظل الدكتاتورية حيـث أن خروشوف كتب شيئـا مـن ذكـرياته فلم تتسـرب إلا بالسـرية إلى الخارج ، ومـع ذلـك دعـى خروشـوف وحقـق معـه واعترف بوجود المذكـرات وصـرح بأنه لم يسلم المذكرات إلى أحد وطلب منه أن يوقع على أن المذكرات ملفقة[٣].

إن سيطـرة الحزب الشيوعـى قد بلغت كل شىء يكتـب ويذكر أندريه جيد بعضا من ذلك وعلى سبيل المثال عدم قبول عامل التلغراف الرسالة منه لأنهـا بصيغة المفرد وهى موجهة لستالين وأصر على إضـافة عبارات أخرى ، وكـذلك الحذف والتعديل فى النصـوص الخطابية التى تلقـى على الآخرين[٤].

ويقـــول : (ودعيـت وأنا فى لينتجـراد إلى إلقـاء خطـاب فى جمعيـة للطلاب وحملـة الأقلام فعرضـت مسودة الخطبة على اللجنـة التى تتولى تنظيم الاجتمـاع ، ولكنها أبلغتنى أن مـاسوف أقوله لن يبـدو مقبـولا ولامستحسنا لأنه يخالف تعاليم الحزب وسياسته . وقد أدى ذلك إلى متاعب وصعاب كثيرة

---

(١) الماركسيـة فى أبعادها المختلفة (٧٣) نقلا مـن كتاب إنهيار الشيـوعية أمام الإسلام (٣٤٢) .

(٢) الماركسيـة فى أبعـادها المختلفـة (٧٦) نقلا مـن مـن كتاب إنهيـار الشيـوعية أمـام الإسلام (٣٤٢)

(٣) انظر الوصية الأخيرة (١٤) ، مقدمة بقلم جارولد شختر .

(٤) انظر المعبود الذى هوى (٢٤٩) .

حملتنى فى النهاية على العدول عن إلقاء الخطاب)[١].

وبالفعل يصدق على حال الاتحاد السوفييتى أنه (إذا تمكن الواحد أن يقول الصدق ، فإنه لايستطيع أن يقول الصدق كله)[٢].

رابعا : أن الشيوعية تخشى على نفسها من الإبقاء على هذه الحرية لأنها ستكشف عوارها ، بالإضافة إلى أن الإبقاء عليها سيؤدى إلى زيادة البحث والكشف عن الحقيقة التى لاترغب القيادة الشيوعية فى الوصول إليها حتى يستقيم لهم الأمر ويظل الناس على شيوعيتهم وولائهم للحزب الشيوعى . فحرص الشيوعيون على تفشى الجهل وبقاء الناس عليه إلا من الإلحاد ، وأفكارهم الباطلة .

وهكذا كان النظام الشيوعى يريد أن يجعل رعاياه فقراء من كل شىء إلا من العقيدة الشيوعية ، ففرضوا الإلحاد بالقوة وصادروا الحرية العقدية ، ومنعوا الإنسان من حرية التعبير والتفكير ، وأرادوا (تغليف العقل الإنسانى بغلاف النظرية الماركسية . فلايسمح له بالتفكير فيما سواها)[٣]. وإن منحت الحرية الفكرية أو توفرت فى الاتحاد السوفييتى فهى تلك الكتابات التى تمجد الماركسية ، وتؤيد نظرياتها وتتحدث عن السلطة السوفيتية وإنجازاتها . فإن العلم وحرية الفكر عدوان لدودان للشيوعية القائمة على القوة والقهر .

خامسا : ومن مظاهر مصادرة الحرية الفكرية والتعبير عن الرأى أن كل مايكتب أو يطبع يخضع خضوعا تاما لمراقبة الحزب .

قام الاتحاد السوفييتى بمنع الكتاب والمؤلفين من طبع ماتجود به قرائحهم على نفقاتهم الخاصة ، وذلك حتى لايطبع إلا ماتقره السلطة المختصة التى لها حرية القرار فيما يطبع ويترك[٤].

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٤٩-٢٥٠) . انظر الخطاب الذى أراد أن يلقيه (٢٥٠-٢٥٢) .
(٢) الإشتراكية فى التجارب العربية (١٨٠) .
(٣) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٥٢) .
(٤) انظر فوق أطلال الماركسية (١١٨-١١٩) .

وقد نص الدستور (على أن توضع ـ تحت تصرف "البروليتاريا" الحاكمة ـ المطابع وكل أدواتها ومستلزماتها)[١].

ويصل الامر إلى أن الكتب والمجلات والصحف والتى يستأثر بها أعضاء الحزب دون غيرهم كان يطمس منها كثير من العبارات والأفكار التى لاتتناسب وتوجه الحزب فى الاتحاد السوفييتى وخاصة فى الكتب والمجلات الوافدة من الدول الإشتراكية الأخرى ، وكأن الطمس يتم بطريقة فنية لايشعر بها القارىء[٢].

وعن الرقابة على الفن والأدب يقول دجيلاس : (إن العمل بمبدأ الرقابة على الأدب والفن فى الاتحاد السوفييتى وسواه من بلدان المعسكر الشيوعى ، قد دفع حتى الفنانين المبدعين إلى الانضباط تحت الرقابة الذاتية ، بسبب أوضاعهم الشخصية وعلاقاتهم الاجتماعية .. وهذه الرقابة الذاتية تمثل الطبيعة الأساسية للهيمنة المذهبية للحزب فى الدول الشيوعية .

إن الأوضاع القائمة حاليا فى بلدان المعسكر الشيوعى تشابه إلى حد كبير أوضاع القرون الوسطى ، حيث كان الناس يضطرون إلى تمثل أفكار الكنيسة والعمل على هديها ، أما اليوم فإن على المواطنين الخاضعين للسيطرة الشيوعية أن يحاولوا تفهم الدور المعطى لهم ، والعمل حسبما يفرضه عليهم الرأى العام الرسمى والتأكد من أن نشاطاتهم لاتتنافى مع ذوق رجال الحكم .

إلا أن المسئولين يعملون على إظهار الرقابة والرقابة الذاتية بمظهر اتجاه يرمى إلى تقديم المساعدة العقائدية للوصول إلى "الهدف الأسمى" الذى ترمى إليه الشيوعية فى تحقيق السعادة على الأرض ، وغالبا ماتجد الكثير من التعابير التى يستخدمها الشيوعيون بافراط كعبارة الشعب العامل بالرغم من كل ماتحمله هذه الكليشهات الكلامية من غموض ، فى مجالات الفنون .

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (١٠٩) .

(٢) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٣٩-٤٠) .

والجدير بالذكر أن كل أشكال الاضطهاد وبسط السيطرة على الآراء والأفكار والتحقير والإذلال ، وواقع تحكم البيروقراطيين الجهلاء بعباقرة العلم والفن ، إن كل هذه الأشياء تحدث باسم الشعب وفى سبيل عظمة الشعب)[١].

وإذا لم يوجه الكاتب أو الفنان إنتاجه إلى خدمة الفكر الشيوعى فإنه عرضة للامتهان والتعذيب وإنزال العقوبات عليه[٢].

بل إن الفنان إذا لم يكن يخدم بفنه العقيدة الشيوعية فإنه لايعتبر ولاينظر إليه ، ومع ذلك كان الفنان والمبدع يظل فى فنه مستمرا يرضى السلطات بعمله ، وهو يبطن خلاف ذلك ويسكت حفاظا على نفسه[٣].

إن الحزب الشيوعى سيطر على كل شىء وأصبح كل صغير وكبير تحت ملاحظته ومراقبته ، فوسائل الإعلام كلها بيده ولايعرض فيها شىء إلا بإذنه[٤]. ولم يكتف بالسيطرة الداخلية بل كان حالهم مع الكتب والصحف الأجنبية كذلك فمنعوا الفرد السوفييتى من الاطلاع على نتاج الفكر الخارجى وقيدوا ذلك تقييدا شديدا وجعلوه متفاوتا بين الناس تفاوتا طبقيا .

يقول أحد الأعضاء فى الحزب الشيوعى : (لايستطيع الإنسان الغربى أن يتصور صعوبة مناقشاتنا فقد كنا نعجز عن مواصلتها لأننا لانقرأ سوى مايكتب فى الصحافة عن قضايا الاتحاد السوفييتى . لم نسمع صوتا واحدا معارضا بل لم نقرأ مرة واحدة ملاحظة نقد فلانقرأ من الجرائد إلا برافدا . ولامن الكتب إلا تلك التى تسير مع الخط الاشتراكى السوفييتى ، وعلى هذا الأساس سمحوا بدخولها وليس لدينا امكانية سماع الاذاعات الأجنبية حيث يسمع المرء تحليلات وآراء حول هذا الموضوع[٥]. ولم نعلم أن كل الجرائد

---

(١) الطبقة الجديدة (١٩٠-١٩١) .

(٢) انظر : الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٠) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر

(٣) انظر ماذكره جيد فى كتاب المعبود الذى هوى ولقائه مع أحد الفنانين فى الاتحاد السوفييتى (٢٤٥-٢٤٦) .

(٤) انظر إسلام لاشيوعية (١٠٥-١٠٦) .

(٥) يقصد الاعتقالات ومصادرة الكتب والنفى .

السيـارة فى الخارج مهتمـة بالقضـاء ، وبالاعتقـال الجمـاعى داخل الاتحاد السـوفييتى ، وأن كثيرا من الكتب عالجت هذه الظاهـرة ، وحللت النظريات المختلفـة لهـذه القضية . كنـا ندور فى أفكـارنا ، ومنـاقشاتنا حول أنفسنـا ، وعلاوة على هــذا ، لم نتكلم ـ حتى فى جلسـاتنا الخاصـة التى لاتضـم غير الأصـدقاء ـ بصـراحة ، بل أخذت أحاديثنـا ـ بدون إرادة ـ طـابع الـرمز ، والإشارة)[١].

وسيـاسة الاتحاد السـوفييتى تهـدف مـن ذلك إلى عـدم اطلاع الإنسـان السـوفييتى على مايكتب ويقـال عن نظامهم أو الأنظمـة الأخرى ومـافيها من كفـالة للحـريات وتحقيـق للـرغبات ليبقـى الشعـب على ود مـع النظـام لأنه لايعـرف غيره ، وبالتـالى لايتـوقع أن هناك نظاما أفضـل منـه فيرضى بواقعه ولايتطلـع إلى غيره . يقول البهـى : (تمنع السلطات الشيـوعية دخول مختلف الكتـب إلى بلادهـا ، حيث تتـولى بنفسهـا اختيار قوائم الكتـب التى تسمـح بقـراءتها ، وتحظر على شعبهـا حرية اختيار الكتب الممثلـة للأفكار الأخرى . ومـن الطبيعى فى مثل هذا الجو أن يرضـى الشعب نسبيا بالنظـام القائم لأنه لايعرف بديلا عنه)[٢].

تقـول مجلـة بالمين التشيكيـة : (ولما كـان الطلاب لم يعـرفوا أى نظـام إجتمـاعى آخر ، فإنهم يعتبرون نظـامنا طبيعيا للغاية ، بل ويعتبرونه عـاديا أيضا)[٣].

فمنـع الفرد الشيوعى من الدرجة (العادية) من (الاطلاع على الثقـافة الأجنبية أو سماعها أو قراءتها)[٤]، فى حين كان أعضاء الحزب يطلعون على ماأرادوا وبصورة متدرجة بين الأعضـاء كـل بحسـب نشـاطه ونشـأ عـن ذلك (طبقات هرمية فى تلقى المعلومات)[٥].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٦٤) .
(٢) لاللرأسمالية .. لاللماركسية ، نعم للإسلام (١٩٤) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (١٩٤) .
(٤) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٢١) .
(٥) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٥٥) ، وانظر (٢٥٤) .

بل إن الفرد الشيوعى حرم من الاستماع للإذاعات الأجنبية بل قد تسحب منه أجهزة الراديو كما فى بداية الحرب العالمية الثانية(١). وإذا وجدت الأجهزة فالمتوفر منها أجهزة محلية لاتتمكن من إلتقاط أصوات الإذاعات الأخرى ، هذا عدا أن أجهزة التشويش تعمل بصورة كبيرة مستمرة(٢).

وكذلك الأمر بالنسبة لوسائل الإعلام المرئية تخضع خضوعا تاما للرقابة ولايشاهد بها إلا ماتقرره سلطة الحزب الشيوعى(٣).

سادسا : مصادرة حرية القول بالنقد أو التوجيه .

إن من أعظم مافرضته الدكتاتورية السوفيتية هو الجام الأفواه وعدم التجرؤ من الآخرين لنقد الحزب أو سياسته ، فأصبح الفرد السوفييتى يرتعد خوفا من أن يتكلم بكلمة بعيدة عما يدور فى خلد الحزب فتكون نهايته السجن أو القتل .

إن النقد أصبح من الجرائم التى لاتغتفر .

يقول الدكتور محمد البهى : (ليس من المساواة الإنسانية فى شىء حظرها النقد والمعارضة لأعضاء الحزب سواء فى الصحف أو الإذاعة أو فصول الدراسة أو فى قاعة المحاضرات بالكليات أو الجامعات بينما تجعل مقررات الحزب أشبه بتعاليم الكتاب المقدس وماتعلنه من أكاذيب واختلافات فيما يسمى بيانات الحزب تعتبر بمثابة سطور تتلى منه يجب تصديقها إنها إذ ترفع بعض أفراد المجتمع وهم عصابة الحزب الشيوعى فوق مستوى الإنسان فى القداسة والطاعة تعيد عبادة الأوثان وتمجيد الوثنية كطريق فى الحياة بينما تكفر بدين الله وتسخر من حملة رسالته)(٤).

---

(١) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٤٧-١٤٨) .
(٢) انظر لا للرأسمالية لا للماركسية ، نعم للإسلام (١٩٣-١٩٤) .
(٣) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٨٦) .
(٤) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٣٢٣) .

(يحكى أنه خلال تقديم خروتشوف تقريره أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى قوطع بصرخة من القاعة : "وأين كنت أنت عندما ارتكبت جميع هذه الجرائم؟" فما كان من خروشوف إلا أن استهجن السؤال وقال بلهجة متوعدة : "من المتكلم؟" وأعقب هذا الكلام صمت مطبق وأكمل : تفهمون الآن لماذا صمت أنا آنذاك)(١).

سابعا : مصادرة الحرية الصحفية(٢) وجعلها مقصورة على قضايا الحزب وتوجهاته ، واستخدامها فى نشر الالحاد .

يقول لينين : (الصحافة أقوى سلاح بيد الحزب)(٣).

ويقول : (إن الجريدة هى مانحتاج إليه بالدرجة الأولى فبدونها يستحيل القيام بتلك الدعاية والتحريض المنظمين الشاملين الثابتين ...) .

وبعد أن بين النقص الموجود فى حركته والتشتيت الذى تعانى منه فى أفكارها قال : (إن الخطوة الأولى لتصفية هذا النقص . وتحويل الحركات المحلية المتفرقة إلى حركة واحدة لعموم روسيا هى إيجاد صحيفة لعموم روسيا أخيرا . فإن مانحتاجه بالضبط هو صحيفة (سياسية) فبدون صحيفة سياسية ، لايمكن فى أوروبا الراهنة تصور وجود حركة جديرة بهذا الاسم . وبدون مثل هذه الصحيفة يستحيل كليا تحقيق مهمتنا ألا وهى تركيز جميع عناصر الاستياء والاحتجاج السياسى ونفخ الحيوية والنشاط فى الحركة الثورية للبروليتاريا . وقد خطونا الخطوة الأولى . وأيقظنا فى الطبقة العاملة الشغف بالفضح "الإقتصادى" المصنعى . وينبغى لنا أن نخطو الخطوة التالية : ينبغى لنا أن نوقظ بين جميع فئات السكان الواعية سياسيا شغفا بالفضح الاقتصادى ولاينبغى أن نتهيب حيال مانراه اليوم من ضعف وندرة ووجل

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٥٠) الحاشية ، وانظر مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٢) .

(٢) وإفرادها هنا لاهتمام الشيوعيين بها .

(٣) نقلا من كتاب النار والجلد (٥٩) ، وعن الاهتمام بها قبل الثورة البلشفية انظر كتاب الصحافة (١٦٩) .

إزاء الفضح السياسى)[١].

وعـن الأهمية الصحفية للبروليتاريا يقول لينين : (يجب على الأحزاب الشيوعية أن تخلق نوعا جديدا من الصحافة الدورية للتـوزيع الجماهيرى بين العمـال : أولا ، مطبـوعات علنيـة يجب دون تسميـة نفسهـا شيـوعية ودون الإعلان عن ارتباطها بالحزب ، أن تتعلم الاستفادة من كل فرصة قانونية مهما كانت ضئيلة ، كما فعل البلاشفـة تحت ظـل القيصـر عـام ١٩٠٥م ، ثانيـا ، منشـورات سرية حتى أكثرها اختصـارا ، وتنشر فى فترات غير منتظمـة ولكن يعـاد طبعهـا فى مطـابع عديدة مـن قبـل عمال (بصورة سـرية أو إذا كـانت الحركـة قـد أصبحـت قوية مافيـه الكفـاية فبالاستيلاء الشـورى على المطـابع) وتزويد البروليتـاريا بمعلومـات ثورية صريحة وبشعارات ثورية . إن الإعـداد لدكتاتورية البروليتاريا مستحيـل بدون نضـال ثورى تزج فيـه الجمـاهير من أجل حرية الصحافة الشيوعية)[٢].

هـذا عن أهمية الصحافة للبروليتاريا ، فماذا عن الصحـافة البرجوازية فى نظر الشيوعيين؟

إن الشيوعيين غالبا مايقارنون بين فكرهم والفكر البرجوازى من أجل البرهنة على أن فكرهم يخلو مما هو فى البرجوازية . وقد قرر الشيوعيون أن الفرد فى ظل النظام البرجوازى يعانى من عدم تحقيق حرية الكلمة[٣]. واعتبر لينين الحرية الصحفية عند الرأسماليين حرية تجعل الأثرياء أكثر ثراء . وهى حرية خاصة بهـم[٤]، ثم اعتبر لينين أن البلاشفــة هـم الــذين سيحـررون الصحافة من المتاجرة . يقول لينين إن البلاشفة (أنشأوا أول صحافة متحررة من الرأسماليين وأنهم أقامـوا فى بلـد عملاق من أول مـرة صحـافة لاتعتمد

---

(١) الصحافة (٧٦) .

(٢) المرجع السابق (٣٢٠-٣٢١) .

(٣) انظـر فى الاستعمـار (٢٧٤) ومابعـدها ، كارل ماركس ، فردريك انجلـز ، ترجمـة د. فـؤاد أيوب ، دار دمشق للطباعة والنشر ، دون ذكر لـرقم الطبعة أو تاريخها .

(٤) انظر الصحافة (١٩٤-١٩٥) .

على حفنة من الأثرياء وأصحاب الملايين ـ صحافة مكرسة برمتها للنضال ضد رأس المال ، النضال الذى ينبغى أن تخضع له كل شىء . فقط بروليتاريا المصانع قادرة على قيادة جماهير الفلاحين غير الواعية طبقيا ، وحدها التى تستطيع أن تكون قائدة ، طليعة للشغيلة فى نضالها)(١).

ويقول : (النظام السوفييتى هو تحطيم ذلك الزيف البورجوازى المسمى "حرية الصحافة" ، أى حرية رشوة الصحافة وحرية الأثرياء)(٢).

ويقول : (إن حرية الصحافة فى نظر حكومة العمال والفلاحين تعنى تحرير الصحافة من الاضطهاد الرأسمالى وإقامة الملكية العامة لمعامل الورق ومطابع الصحف ...)(٣).

إن الشيوعيين أولوا الصحافة اهتماما كبيرا ويدل على ذلك مايصدره الاتحاد السوفييتى من صحف ، حيث يبلغ عددها ٨٠٠٠ صحيفة ، و٦٩٠٠ مطبوعة دورية ، وأهم هذه الصحف البرافدا الناطقة باسم الحزب يوزع منها ١٠,٦٠٠,٠٠٠ نسخة ولها أكثر من ٤٠,٠٠٠ مراسل . وهى تعنى بالقضايا الداخلية . ومن أشهرها أيضا الازفستيا الناطقة باسم الحكومة ويوزع منها ٨,٦ مليون نسخة وتعنى بالقضايا الخارجية(٤).

وبعد هذا الاهتمام بالصحافة لخدمة القضايا والفكر الشيوعى ، فهل من المعقول تركها فى أيدى الآخرين أو اعطاءهم الحرية فى استخدامها كيف يشاؤون؟

إن ماصرح به قادة الاتحاد السوفييتى ، ثم ماطبق فى عالم الواقع يدل على أن الحرية الصحفية قد تلاشت نهائيا فى ذلك المجتمع وإليك البراهين :

---

(١) الصحافة (١٩٧) .
(٢) المرجع السابق (٢٠٣) .
(٣) المرجع السابق (٢٠٦) .
(٤) انظر النار والجليد (٥٩) ، ولمزيد عن عدد الصحف والمجلات انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٢-٢٧٣) .

أولا : إخضاع هذه المؤسسات للحزب وجعلها تحت تصرفه .

يقول لينين : (إن الصحافة الدورية وغير الدورية ، وكافة مؤسسات النشر ، يجب ، وعلى المنوال ذاته ، أن تكون خاضعة تماما للجنة المركزية للحزب ... وينبغى عدم السماح لمؤسسات النشر باساءة استخدام استقلالها الذاتى وانتهاج أية سياسات لاتتفق اتفاقا تاما مع الحزب)[١].

ويقول ستالين : (يجب أن تخضع الصحافة ودور النشر خضوعا مطلقا لاتساهل ولاتسامح فيه للأجهزة الشيوعية)[٢].

ويقول : (نحن لانمنح حرية الصحافة إلا للطبقة التى تحكم باسمها)[٣].

وعلى هذا فإن الصحافة الشيوعية تسير (برأى جهة محددة معينة ، يرتبط بها برباط التبعية المذهبية أو السياسية .. ولايستطيع أن يخرج عن توجيهات هذه الجهة وإن كان محرر الصحيفة له رأى آخر ، لأنه غير حر فى عرض مايراه .. مادام موجها من قبل من له حق فرض مايراه عليه)[٤].

ومن هنا أصبح الشعب الشيوعى لايردد إلا مايقرأه فى الصحافة الموجهة من قبل الحزب (حتى يخيل للمرء أنهم يرددون نصوصا بأعيانها ، ويتلون قطعا إنشائية محفوظة)[٥].

ثانيا : أن أقوالهم فى ضمان الحرية الصحفية كانت تمويها وتهريجا لم ير النور كغيرها من الأقوال التى كذبتها الأفعال . يقول كاونتس : (مامن شىء يطبع فى الاتحاد السوفييتى صحيفة كان أو مجلة أو نشرة أو كتابا دون

---

(١) الصحافة (٣٢٥) .
(٢) نقلا من كتاب إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٩) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (٨٠) .
(٤) الإنسان وحريته فى الإسلام (١٧٢) .
(٥) المعبود الذى هوى (٨٢) .

موافقة الحزب أولا)[١].

ثالثا : مما يدل على مصادرة الحرية الصحفية ، وبالتالى مصادرة الحرية الفكرية ، أن الصحافة السوفيتية لاتنشر إلا مايريده الحزب ويخدم الفكر الشيوعى .

جاء عن الحزب الشيوعى إن (للصحافة فى الظروف الحاضرة شأن عظيم غير عادى بوصفها سلاحا لتربية الجماهير وأن أهم أهدافها هو تربيتها بروح البلشفية وأنه لابد من أن يبدأ العمل بايجاد أدب خاص بالأطفال يشرف عليه الحزب أتم إشراف وينظمه أدق تنظيم)[٢].

كما أن رؤساء التحرير ليس من حقهم نشر أى شىء حتى تأتيهم الطرق التى ينشرون بها الموضوعات[٣].

ومن هنا كما يقول أندريه جيد : (إنه ليس ثمة غير رأى واحد فى أى موضوع مهما يكن شأنه ، أو وجه الحكمة فيه ، وأن هذا الرأى هو الصحيح ، حتى لقد دأبت جريدة "برافدا" على أن تبين للشعب فى كل يوم ماهم بحاجة إلى معرفته ، ومايتحتم عليهم تصديقه ، أو التفكير فيه ...)[٤].

ومما يدل على تحكم الحزب فى الصحافة إصداره المراسيم المختلفة من أجل احتكار المؤسسات الصحفية ، واغلاق مالايريدونه منها ، وتحويل هذه

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٧١) .
ومر معنا تندر الشيوعيين بالحرية الصحفية فى البرجوازية ، بينما الواقع يدل على خلاف ماذهب إليه الشيوعيون ويضرب الكتاب مثالا بعزل الرئيس الأمريكى نيكسون حيث اعتبروا أن الصحافة لعبت الدور الأكبر فى فضحه . انظر محاضرات فى الندوة الدبلوماسية الثامنة (٢٠) ، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م ، إشراف د. إبراهيم الغيص ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، وزارة الخارجية ، الإدارة العامة للشئون السياسية قسم البحوث والمعلومات .

(٢) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٧١) ، وانظر النار والجليد (٥٩) .

(٣) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى التعليم (٢٧٣) .

(٤) المعبود الذى هوى (٢٣٦-٢٣٧) .

المؤسسات وتوابعها لملكية الدولة[١].

رابعا : ومن مظاهر مصادرة حرية الرأى والقول ، السيطرة التامة على وسائل الإعلام والاتصال ، وتوظيفها لخدمة الإلحاد .

جاء فى المعجم إن (الصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون الإشتراكية ، هى وسائل قوية لتربية الشغيلة تربية فكرية سياسية وتكوين الأيديولوجيا والأخلاق الشيوعية فى نفوسهم)[٢].

فكل هذه المرافق توظف لخدمة الشيوعية ، وبالتالى لابد من السيطرة عليها لتعطى الثمرة المرجوة منها[٣]. وعن السيطرة على البرق ونظامه ووسائل الاتصال - وفى هذا دليل على مصادرة الحرية الشخصية وكذلك الفكرية - جاء فى قرار اللجنة المركزية لمندوبى سوفياتات العمال والجنود والفلاحين التالى :

(١) (استنادا إلى القرار ، السابق للجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا ومجلس قوميسارى الشعب القاضى بدمج المكتب الإخبارى للجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا ووكالة البرق فى بتروغراد ، قررت اللجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا أن يطلق على المؤسسة المراد تشكيلها (وكالة البرق الروسية) التابعة للجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا . ومختصرها (روستا).

(٢) تكون وكالة البرق الروسية التابعة إلى اللجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا جهاز الإعلام السوفييتى المركزى لعموم جمهورية روسيا الاتحادية الإشتراكية .

---

(١) انظر الصحافة (٢٠٧-٢٠٨) . ولمزيد انظر من أين نبدأ (١٣٩-١٤٠) حيث ذكرت صحيفة البرافدا بأنه لاتوجد حرية للكلمة ، ولاللصحافة ، ولالأعداء الشعب ، وإنما هى للحزب الشيوعى .

(٢) (٤٥١) .

(٣) وعن سيطرتهم على وسائل الإعلام انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٦٢) .

(٣) تندمج كافة مكاتب الأعلام التابعة لوكالة البرق فى بتروغراد السابقة والمكاتب الصحفية الإخبارية المتفرقة فى الأقاليم وفى الخارج لتشكل مجتمعة المكتب الإخبارى المحلى لوكالة البرق الروسية .

(٤) تصبح جميع مكاتب الأعلام فى الأقاليم والتى كانت تعمل حتى الآن بصورة مستقلة عن وكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى الصحفى تابعة إلى وكالة البرق الروسية وتكون بمثابة مكتبها الإخبارى المحلى . وتلغى الوكالة الصحفية للجنة الشمال الثورية فى بتروغراد لتصبح مكتب بتروغراد لوكالة البرق الروسية .

(٥) يكون العنوان البرقى لوكالة البرق الروسية كالآتى : موسكو - فستنك.

(٦) ينقل جميع المراسلين السابقين لوكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى إلى وكالة البرق الروسية .

(٧) يعدل النظام الداخلى لوكالة البرق الروسية بما يتفق والتعليمات الواردة فى محضر الاجتماع الذى حضره أعضاء المجلس والعمال التنفيذيين لوكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى الصحفى فى ٢٤ آب ١٩١٨م .

(٨) تحول كافة العقود التى أبرمت من قبل وكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى الصحفى مع الأطراف الأخرى إلى وكالة البرق الروسية ، وتنطبق نفس هذه الأحكام على الاتفاقيات التى وقعتها وكالة البرق فى بتروغراد مع وكالات البرق الأجنبية .

(٩) يحول كل النقد تحت اليد والحسابات الجارية فى البنوك وكذلك المخصصات المقررة لوكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى الصحفى إلى حساب وكالة البرق الروسية)[١].

---

(١) الصحافة (٢١٠-٢١١) .

وإذا كـان التأليف والنشر والطباعة مرتبطة بالإعلام فـإن الحزب كثيرا مايعدل ويحذف ويضيف فى الموسوعـات والمؤلفات[١]، ولاغرابة فى ذلك فإن دور النشر كلها تحت سياسة اللجنة المركزية[٢].

خامسا : أن الشيوعية ادعت بأن الحرية الفكرية ستكـون للعمال دون غيرهم .

ربطـت الشيـوعية بين قراراتهـا وأفعالها وبين مصـالح العمـال ، ولكن الحقيقة أن العامل هو الضحية فى كل الأحوال ، سواء كـان ذلك نظريا لأن الأمر علق عليه ، أوفعليا ، لأن العامل كان الضحية الحقيقية فى ظل الأنظمة الشيوعية .

يقـول آرثر كاستلر وهو شيوعى ألمانى : : (إن مـن القواعد الأساسية فى النظـام الشيـوعى أن أى انتقـاد يوجه إلى قرار اتخذه الحزب تجاه مشكلـة معينـة يعتبر نزعة إلى الانحراف والتخريب . إنه من المسمـوح به من الناحية النظـرية منـاقشة أى موضوع قبـل صـدور القرار فيـه ولكـن لما كـانت كل القـرارات تفرض علينا من فـوق من البرج العاجى دون استشـارة أية هيئـة تمثـل عامة الناس فقد كان من نتيجة ذلك أنه لم يعد للعـامل العادى أى أثر سيـاسى بل لم تعد له أية فرصة للتعبير عن رأيه فى أمـر من الأمور ...)[٣].

أثر القضاء على هذه الحرية :

إن الحرية الفكـرية مـن أهـم الحريات المتعلقـة بكيـان الإنسـان ، فإذا ماسلبت منه أصبح موجها حتى فى تفكيره وأقـواله ، وهــذا مـاتأباه العقـول السـوية ، ومـايتميز به البشـر عن سائر الخليقة . غير أن الشيـوعية لم يكـن يهمهـا الفـرد ، فكيف يهمهـا حريته الشخصية والفكـرية ، وإن اهتمـت بها

---

(١) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٧-٢٧٨) .
(٢) انظر النار والجليد (٥٩-٦٠) .
(٣) الصنم الذى هوى (٢٢٤) .

فلمصلحة الشيوعية . إلا أنه بعد أن شعر زعماء الحزب بتذمر الإنسان الشيوعى من ذلك بدأوا فى تخفيف حدة الخناق عليه كسبا لوده ، وخاصةفى الحقبة الخروتشوفية حيث قال خروشوف : (إن من الواجبات الكبرى التى تواجه الحزب أن يرفع مستوى الأعمال الفكرية فى جميع منظمات الحزب وتجاربه اتقانا يمكنهم من الخلق والانتاج)[١].

وإذا كانت هذه التحسينات والتطورات التى أدخلها خروشوف القصد منها خدمة الدعوة الشيوعية ،إلا أنها نقطة تحول على كل حال ، أقدم عليها خروشوف بسبب تردى الوضع الذى وصل إليه الاتحاد السوفييتى فى ظل غياب الحرية الفكرية والإبداع .

ويصور دجيلاس أهمية الحرية الفكرية وأن مصادرتها مصادرة للإنسان ككائن عاقل مفكر فيقول : (وأقسى ضروب الاستبداد هى التى ترمى إلى سحق الإنسان عن طريق الاستبداد بفكره ، بل يمكن القول أنه يشكل المنطلق والنهاية لكل أشكال الظلم الأخرى فحين يتجه الاستبداد للقضاء على مجموعة الآراء والأفكار الأخرى فإنه يتجه إلى فرض آرائه وأفكاره عن طريق البطش والارهاب .

إن الاستبداد بالفكر يشكل أخطر شكل من أشكال الطغيان والإرهاب الشموليين اللذين يصعب تصور شدة عنفهما . فالفكر هو القوة المبدعة والطاقة الخلاقة لدى الجنس البشرى ، فهو يشكل أداة الكشف عن كل ماهو جديد ، كما أن الإنسان لايستطيع أن يعمل وينتج إذا لم يفكر فى أوضاعه وطريقة حياته ، غير أن الشيوعيين يدأبون للقضاء على الفكر حين لايسمحون لأى فكر آخر غير فكرهم أن يحيا ويسود .

إن الإنسان قد يتخلى عن أشياء عديدة ويتنازل عنها مرغما ، إلا أنه فى جميع الحالات يجد نفسه بحاجة إلى التفكير والتعبير عن آرائه وأفكاره ، وأن أكثر الأشياء ضررا بحياته ، أن يرغم على السكوت فى الوقت الذى

---

(١) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٠٠) .

يشعر بحاجته الملحاح إلى التعبير عن آرائه . ولاريب فى أن أشد الاضطهاد وهو ارغام الناس على الكف عن التفكير كما يرغبون ، أو دفعهم للحديث عن آراء وأفكار لايؤمنون بها ولاتمت إليهم بأية رابطة أو صلة فكرية وحياتية فى ظل الارهاب والظلم ، أن الاعتداء على حرية الفكر لايشكل اعتداء على الحقوق السياسية والاجتماعية للفرد فحسب ، بل تعديا على الإنسان ككائن مفكر عاقل)[١].

ونظرا لكون هذه الحرية فى غاية الأهمية للإنسان ، نجد أن كل مافعلته الشيوعية من أجل كبتها ، ومنعها لم يولد إلا الحقد والبغضاء فى نفوس الشعب ، كما أن ذلك يولد الآثار النفسية السيئة التى قد تظهر فى وقت من الأوقات ضد أى نظام يصادرها أو يمنعها . يقول كاونتس : (نعم إن الحزب قد وضع يده على جميع الهيئات ، وسيطر على جميع العمليات المنظمة التى تعمل لتشكيل العقول . وإن الفنون التطبيقية قد زادت زيادة كبرى عدد هذه الهيئات والعمليات ، وضاعفت قوتها أضعافا كثيرة ، ولكن سلطة الحزب عليها لايمكن أن تكون مطلقة . فالذى لاشك فيه أن بعض مناحى الحياة وتجاربها ستكون حتما بعيدة عن متناول أقسى الدكتاتوريات فى العالم . ففى أعماق قلب المرء وعقله الخفية يكمن بعض الحنين ، وتكمن بعض الأفكار الإنقلابية المكبوتة ، التى لابد أن تثور فى يوم من الأيام . ومامن شك أيضا فى أن الناس سيلتقون فى جماعات ، على الرغم مما يعرفونه من العقوبات ، وبالرغم من أعين عمال الشرطة السياسية الساهرة ، وسيعبر هؤلاء الناس عن المناهضة للعهد القائم ، سواء استعانوا على ذلك بمشروب الفودكا أو لم يستعينوا به . فنحن نعرف مثلا معرفة أكيدة أن الشعب فى أنحاء البلاد - حتى فى أحلك أيام حكم ستالين - كان يتناقل فكاهات ضد السوفييت وضد ستالين ، ونحن نعرف أيضا أن طفلا فى مدرسة مفروضة عليها رقابة شديدة قد يسأل فى سذاجة الأطفال وبراءتهم سؤالا

---

(١) الطبقة الجديدة (١٩٦-١٩٧) ، وانظر الفكر الأوروبى (٤٤/١-٤٥) .

مربكا . ويثير فى عقل غيره سلسلة من الأفكار تولد الشك فى "الحقائق السوفيتية" الأساسية . يضاف إلى هذا أنه وإن كانت الدكتاتورية قد اتخذت التعليم سلاحا بتارا تسيطر به على العقول . فإن الشخص الذى يستطيع القراءة قد يقلب مصادفة أو عمدا صفحات كتاب مقرر فيعثر فيها على أفكار غريبة تفسد عليه تفكيره ، ولعل أهم من هذا ماعسى أن يكون للعقل المدرب من تأثير فى الحكم نفسه ، وهو أمر مرجح كل الرجحان ، ومع أن القوة التى يصيبها العقل فى ميدان من الميادين لاتنتقل من تلقاء نفسها إلى ميدان آخر فإن العقل المستنير الذى هذبته قوانين الحقائق العلمية ، سينزع إلى تطبيق هذه القوانين نفسها فى الميادين الإجتماعية والسياسية ، حتى ولو فعل هذا فى صمت وسكون)[١].

ومن هنا فإن الشيوعية بمصادرتها لهذه الحرية تكون جنت على نفسها ، وأعلنت لشعبها أنها غير واثقة فيما تقول أو تعد به ، فولد ذلك كرها شديدا لفكرها ، ورغبة جامحة فى الانفكاك من عقالها ، ولأجل ذلك تنازل زعماء الشيوعية عن هذا التسلط وخاصة منذ عهد خروشوف إلى أن فتح باب النقد والمعارضة على مصراعيه فى وقت لاحق ، فولج منه الناس يمارسون حرياتهم التى تتوافق مع فطرهم ، وكانت النتيجة الثورة على النظام الشيوعى واجتياحه بكل قوة من هذه الجموع التى كانت مكبوتة بالقوة والجبروت . وهكذا غدا القضاء على الحرية الفكرية أحد المعاول القوية التى كانت تشارك فى هدم وإزالة الفكر والنظام الشيوعى .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : قامت الشيوعية بمصادرة الحرية الفكرية بكل أبعادها سواء كان تأليفا ، أو كتابة ، أو نقدا . وهذا أمر مرتبط بالحرية الدينية فإن التوجهات كانت مختلفة فلو ترك الأمر هملا فى نظر الشيوعيين للزم منه الدعوة إلى الدين وهذا ماتأباه الشيوعية ، لأنه لايمكن بحال من الأحوال سلب الإنسان

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٢١-٤٢٢) .

التفكير فى الدين[١].

ثانيا : أن مصادرة الحرية الفكرية جعلت الفرد الشيوعى يشعر بفقدان كرامته وإنسانيته ، ويشعر بعدم الثقة فى الفكر الذى وعده بتحقيق أمانيه ومطالبه ، كما يشعر بعدم صدق القائمين على النظام وزبانيته ، فولد ذلك الشعور فى نفسه الرغبة فى التخلص والانعتاق من ربقة ذلك النظام وفكره .

ثالثا : أن مصادرة الحرية الفكرية ولد وعلى المدى البعيد الحقد التام فى نفوس الشعوب السوفيتية مما كان له أثره الواضح فى الاندفاع الجارف الذى حصل فيما بعد فى الاتحاد السوفييتى .

رابعا : أن الشيوعية أبقت على الكتابات والآراء التى تخدم الفكر الشيوعى وتوجهات الحزب فقط ، ولأجل ذلك كانت هذه الكتابات إما غير صادقة ، وإما ناقصة ، فلم نر الابداع الفكرى الروسى يخرج لحيز الوجود نتيجة لذلك الكبت . يقول تفارشوفسكى : (الزور فى الكلمة كالخديعة فى الغزل ، كلاهما سيفضحه الزمن!)[٢].

خامسا : أن هذه المصادرة قد أثرت على أصحاب الفكر من الابداع والاختراع والاكتشاف ، لأن كل أحد كان يحتاط ألا يصدر منه أو عنه شىء حتى لايفسر بمعاداة الشيوعية وبالتالى يكون ذلك المبدع ، أو المخترع ، أو المكتشف الضحية . ومن هذا نصل إلى الحديث عن حرية الفكر والرأى فى الدين الإسلامى . وكما قال المثل بضدها تتميز الأشياء .

---

(١) انظر فلسفة الأنوار (٢٨-٢٩) .
(٢) الإشتراكية فى التجارب العربية (١٨٠) .

(ب) الحرية الفكرية فى الإسلام :

احترم الإسلام الإنسان وكفل له كامل حرياته وحقق له كافة رغباته الفطرية وجعلها تسير فى مسارها الصحيح ، وعندما منح الإسلام الإنسان حرية المعتقد ، فإنه جعل له حرية الفكر والرأى والتعبير ، حيث إن هذه الحرية مرتبطة بالحرية العقدية . فالإنسان من حقه التعبير عن معتقده وكذلك من حق الإنسان البحث عن الحقيقة ، ومن حقه الاستفسار عنها .

وليس غريبا أن يحترم الإسلام الفكر الإنسانى ويضمن له الحرية طالما أنه أكرم الإنسان إذ أن الفكر أثمن مواهبه (وأعظمها أثرا فى مظاهر مدنيته ، وانطلاقه دليل الحضارة ، وسبيل العلم والنور والهداية والحكمة . وهو من نتاج العقل وقوة التمييز ، ومن أدوات حرية الإرادة واختيار الأعمال والفضائل والرذائل ، ومايستتبع كل ذلك من جزاء ومسؤوليات ومن سعادة أو شقاء .

وقد كانت حرية الفكر ولاتزال من حقوق الإنسان الأساسية ، التى انتصرت ، بعد جهاد طويل ، على ماكان معروفا فى بعض العصور المظلمة القديمة من اضطهاد دينى وفكرى ...)(١).

(ولم يدخر الإسلام جهدا فى إعطاء هذه الحرية جل عنايته وإهتمامه باعتبارها الوسيلة المثلى لنشر الدعوة وإعلانها وإعلاء شأنها عن طريق تفهم جوانبها ومواجهة الناس بها ، يقول تعالى : {**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**}(٢))(٣).

إن هذه الحرية مرتبطة بحرية العقيدة ، وهى حرية (تنسجم مع الطبيعة الفطرية التى خلق الإنسان بها ، فالإنسان مخلوق يتميز بالعقل ، وقد ارتبط التكليف بالعقل ، ومن مقتضى الاعتراف بسيادة العقل وسلطانه أن

---

(١) أركان حقوق الإنسان (١١٩) ، وانظر ضمانات الحرية (٣٦) .
(٢) سورة آل عمران : (١٠٤) .
(٣) ضمانات الحرية (١١٨) .

يكــون هـذا العقـل حرا فى التجـول فى الآفـاق المحيطـة به والمشـاكل التى تواجهه)[١].

حرية الرأى والفكر فى الكتاب والسنة :

إن الإسلام كـرم ابن آدم على سـائر المخلـوقات وممـا جعلـه سببا فى تكـريمه وتفضيله عقله وتفكيره الذى يتميز به عن كل مخلـوق ، قال تعالى : {**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**}[٢].

وقـد ذكر العلماء أسبابا كثيرة فى سبـب التكريم والتفضيـل وإن كان جماعها هو العقل الذى عن طريقه يتم التفكير .

يقـول الشوكانى فى تفسير هذه الآية : (هذا إجمال لـذكر النعمة التى أنعـم الله بها على بنى آدم أى كـرمناهم جميعا وهذه الكـرامة يدخل تحتهـا خلقهـم على هـذه الهيئـة الحسنـة وتخصيصهـم بما خصهـم به مـن المطـاعم والمشـارب والملابس على وجه لايوجد لسـائر أنواع الحيـوان مثله ... وأعظم خصال التكريم العقل)[٣].

وبهـذاالعقل يصـل الإنسان إلى أعلى درجات الإيمان وذلـك بتفكـره فى مخلـوقات الله عز وجل ، وتدبره فى آياته المتلـوة والمشهـودة . قـال تعالى : {**إن فـى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التـى تجرى فى البحـر بما ينفـع الناس ومأأنزل الله مـن السماء مـن ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصـريف الريـاح والسحاب المسخـر بيـن السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**)[٤].

---

(١) المدخل للتشريع الإسلامى (٥٩) ، وانظر (٦٠) .
(٢) سورة الإسراء : (٧٠) .
(٣) فتح القدير (٢٤٤/٣) .
(٤) سورة البقرة : (١٦٤) .

كما ذم الله تعالى أهل التقليد أولئك الذين عطلوا إعمال فكرهم ، وقلدوا آباءهم وأجدادهم فى عبادتهم .

ويلحق بهذه الحرية الفكرية ويلازمها حرية القول والتعبير ، وأقرها شرع الله تعالى ، قال سبحانه : {**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**}(١). فأعطى الإسلام الحرية التامة فى قول الحق ، والأمر به ، ومنع تكميم الأفواه ، أو مصادرة الآراء ، فحقق للفرد حرية الرأى والتعبير على أكمل وجه .

ومما يؤيد هذه الأحقية ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم : "الدين النصيحة"(٣)وذلك لايتأتى إلا لم بإقرار هذه الحرية والمحافظة عليها . وإلا كيف تقال كلمة الحق إذا كممت الأفواه؟ وكيف يقضى على الظلم؟ وكيف يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ وكل ذلك يكون بالطرق المشروعة ، والأساليب الحكيمة . ومما يدل على أن الإسلام أقر هذه الحرية هو جواز محاورة أهل الكتاب ومجادلتهم ، والنقد البناء الهادف ، الذى لايمكن ممارسته إلا مع حرية الرأى(٤).

---

(١) سورة آل عمران : (١٠٤) .

(٢) رواه مسلم بشرح النووى (٢/٢٢،٢٥) ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ، والترمذى (٣/٣١٧-٣١٨) ، أبواب الفتن ، باب ماجاء فى تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب ، حديث رقم (٢٢٦٣) بألفاظ مختلفة .

(٣) رواه مسلم بشرح النووى (٢/٣٦-٣٧) ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة .

(٤) انظر : محاضرات فى الندوة الدبلوماسية (٢٢) ، الإسلام وحقوق الإنسان (٧٧-٧٨) ، تحت راية الإسلام (٨٩) ، نجيب الكيلانى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

واقع المسلمين وحرية الفكر والرأى :

إن الحرية الفكرية فى التعبير عن الرأى متممة للحرية العقدية إذ بدونها لايستطيع الإنسان أن يفصح عن رأيه ويعبر عن عقيدته التى فى صدره.

وبدون شك أن القضية الفكرية تمثل أيضا العقيدة التى فى نفس الإنسان ومن هنا قرر الإسلام هذه الحرية ، وطبقها المسلمون فى واقعهم منذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأحداث والشواهد كثيرة .

فلم يحجر الرسول صلى الله عليهوسلم على أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول برأيه فى أسرى بدر ، وكذلك الحال مع عمر الفاروق رضى الله عنه ، ثم نزل الوحى مبينا ماهو أولى .

وكذلك ماكان من مشاورات بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى قضايا القتال وغيرها مما هو فى أمور الدنيا ، أو المصلحة المفضية إلى تحقيق مصلحة شرعية لم يرد فيها وحى . ثم كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم من بعده عليه السلام مطبقين لذلك المنهج ، مقرين بهذه الحرية ، تاركينها للرعية ، كما أقرها لهم خالقهم . والتاريخ الإسلامى ملىء بالحوادث التى تدل على ضمان هذه الحرية ، وإن وجد فى بعض الأزمنة التضييق عليها ، أو الحجر عليها نهائيا .

إن حرية التعبير والرأى منسجمة مع الفطرة الإنسانية[1]، تحتاجها العقول البشرية ، من أجل التفكر فى ملكوت الله تعالى للوصول إلى الإيمان ونبذ التقليد والأفكار الخرافية[2]. فهى متممة للحرية العقدية[3]، وكثير من الأمور لاتتم إلا بها وعن طريقها كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإسداء

---

(١) انظر عن ذلك المدخل للتشريع الإسلامى (٥٩-٦٠) .
(٢) انظر عن ذلك : أوضاعنا السياسية (٢٦٦-٢٦٧) ، فوق أطلال الماركسية (٦٠-٦١)
(٣) انظر أركان حقوق الإنسان (١٤٢) .

النصيحة[١]. ومن هنا أقرها الإسلام ، ومنحها للانسان[٢]، واعتبر أن من صفات المؤمنين الجهر بالحق وعدم الخوف إلا من الله تعالى[٣].

إن كلمة الحق يجب إبلاغها ولايتم ذلك إلا عن طريق توفر هذه الحرية وإقرارها . فلابد من قولها وعدم كتمانها طالما أنها تفضى إلى الاصلاح ولايقصد صاحبها من ورائها إلا الحق والخير فليس لأحد أن يمنعه من أن يصدع بقول الحق والدعوة إليه بإحسان ، قال تعالى : {**وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن . إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا**}[٤].

ومع هذا كله فهل أطلق الإسلام العنان لهذه الحرية؟ لا بل وضع القيود عليها لما يوجهها إلى الخير العميم كالعادة مع بقية الحريات ، فهى حرية (مقيدة بأن لايكون مايكتب أو يقال خارجا عن نصوص الشريعة وروحها)[٥].

فالإسلام منح الإنسان حرية الكلمة فى إعلان الحق ، سواء كان كتابة أو عن طريق الوسائل الحديثة ، من أجل النصح ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبذل النصيحة .

كما أنه لم يحجر على الكتاب أو يصادر كتاباتهم إذا لم تكن داعية إلى الشرك ، أو الإباحية ونشر الرذيلة .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن الحرية الفكرية أقرها الإسلام وطبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده رضى الله عنهم أجمعين ، وكان الأمر كذلك

---

(١) انظر : أركان حقوق الإنسان (١٤٣-١٤٤) ، أوضاعنا السياسية (٢٦٩) .
(٢) انظر عن ذلك الإنسان وحريته فى الإسلام (٥٦) .
(٣) انظر عن ذلك ضمانات الحرية (٢٣٠) .
(٤) سورة الإسراء : (٥٣) .
(٥) أوضاعنا السياسية (٢٦٩) .

فى الأزمان التالية من بعدهم وقد مارسها العلماء والدعاة رغم الضغوط والاضطهاد من أجل حرمانهم إياها .

ثانيا : مما يدل على احترام الإسلام لهذه الحرية وإقراره لها نعيه الشديد على المقلدين .

ثالثا : أن الحرية الفكرية فى الإسلام لم تكن (مجرد شعارات ترفع ، أو كلمات جوفاء يتشدق بها الناس ، وإنما كانت واقعا حيا ملموسا ، وسلوكا عمليا يراه الناس ويمارسونه، ولم تكن الحريات مجرد نصوص فى دساتير ومواثيق ، وإنما كانت تطبيقا مؤثرا ، ودافعا قويا للابداع والخلق ...)[1].

وهذا كله منضبطا بضوابط الريعة الإسلامية فهى حرية مقيدة وليست مطلقة .

وهكذا حافظ الإسلام على حرية الفكر والرأى وضرب المسلمون أروع الأمثال فى تحقيق هذه الحرية وخاصة إذا كان الفكر معمول به فى مجاله فإنه لاحجر عليه ، وإذا كان صاحبه يعرض مالديه من أفكار ويطرحها بغية الوصول إلى الحق فلاشىء عليه . ومن هنا عاش الفرد المسلم متمتعا بكل حرياته معبرا عنها دون أى تضييق عليه ولاغرابة فدين الله تعالى هو عتق للمسلم من كل عبودية وتحرر من كل الضغوط البشرية القائمة على النوازع الفردية المادية .

ونصل الآن إلى الحديث عن حرية أخرى لها صلة وثيقة بحرية الفكر وهى حرية التعلم والتعليم .

---

(١) تحت راية الإسلام (٩٢) .

المبحث الرابع
حرية التعلم والتعليم

(أ) حرية التعلم والتعليم فى النظام الشيوعى :

يفاخر الشيوعيون بأن الشيوعية التى ينتسبون إليها شيوعية علمية . وهذا مايميزها عن غيرها من الأفكار الإشتراكية ، ومن يستمع لهذا القول فإنه يسارع إلى الإعتقاد بأن هذا الفكر يحرص على العلم ، ويكفل للرعية حق طلبه بكل حرية ، وأنه لامجال للحجر على العقول أو تكميم الأفواه فيه .

وبالفعل اهتم الفكر من حيث التنظير بمسألة التعليم ، وكذلك كان واقع الاتحاد السوفييتى يولى التعليم اهتماما خاصا . وقد عرف الاتحاد السوفييتى ثلاثة أنواع من المدارس :

أولا : مدارس الشعب .

ثانيا : نظام المدرسة الوسطى .

ثالثا : المدارس العليا .

وهذه لمحة مختصرة عن كل نوع :

مدارس الشعب : يتبع فى تكوينها النظام الغربى وأخذت بطريقة السلم التعليمى مدارس الحضانة ، الملاجىء ، رياض الأطفال .

المدارس الوسطى : ونظامها يعلم النشء تعليما عاما مدة الدراسة عشر سنوات ، وأعمار طلابها من ٧-١٧ سنة ، وهى مدرسة ابتدائية ٤ سنوات ، مدرسة ثانوية صغرى ثلاث سنوات ، مدرسة ثانوية كبرى ثلاث سنوات .

المدارس العليا : مدة الدراسة فيها ٤-٦ سنوات[١].

ومدرسة الشعب تسترشد بأربعة مبادىء :

(١) مبدأ انعدام الطبقات .

(٢) مساواة الذكور بالإناث .

---

(١) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٨٢-٨٣) .

(٣) المساواة بين الشعوب والقوميات .
(٤) أن يجتث النفوذ الديني بأكمله وبجميع أشكاله من المدرسة .
(٥) بذل كل الجهود لغرس النظرية المادية الإلحادية فى نفوس وأبناء الجيل الناشىء[١].

أما المدرسة الوسطى : فهى ذات نظام العشر السنين ويلقى عليها أكبر التبعات فى تشكيل عقل الرجل السوفييتى الجديد ، وغرضها الأساسى أن تلقن جميع أفراد الجيل الناشىء طائفة مشتركة من المهارات والمعلومات والأفكار والقيم وضروب الولاء[٢].

ومرت هذه المدرسة بدورين :
(١) من عام ١٩٢١-١٩٣١م الدور الأول .
(٢) من عام ١٩٣١-١٩٥٣م الدور الثانى .
(أ) دور التجربة أو الدور الابداعى فى الاتحاد السوفييتى .
(ب) استحواذ الشعب على المدرسة والتلميذ والمعلم[٣].

وبهذا العرض المختصر نجد أن المدارس تقوم على :
(١) إزالة الدين من النفوس .
(٢) غرس الإلحاد فى نفوس الطلاب .
(٣) الاختلاط بين الجنسين .
(٤) سيطرة الحزب على التعليم ، وجعله يسير حسب رغباته .

اهتمام الاتحاد السوفييتى بالتربية والتعليم :

من المسلم به أن الاتحاد السوفييتى قد اهتم بالتربية والتعليم ، وحقق أعلى درجات الحرية فى تعليم الناس وتربيتهم . ولكنها كانت حرية مقيدة بتعليم الإلحاد والتربية عليه .

---

(١) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٨٣) .
(٢) انظر المرجع السابق (٨٥) .
(٣) انظر المرجع السابق (٨٨-٨٩) .

ولأجل ذلك يرون أن التربية الشيوعية تعنى (تكوين أناس مخلصين للشيوعية ، متطورين من جميع النواحى وبصورة متناسقة ، ويتميزون بتبنى العقائد الشيوعية وممارسة النشاط الرامى إلى بناء المجتمع الشيوعى ، تكوينا هادفا ، منتظما ، منهاجيا)(١).

والتربية الإلحادية هى (التأثير الهادف فى الناس لأجل تكوين العقيدة العلمية المادية عندهم ، وتذليل الأوهام والخرافات الدينية)(٢).

مصادر التربية والتعليم فى الاتحاد السوفييتى وأهدافها :

إن المصدر الأساسى الذى يقوم عليه التعليم فى الاتحاد السوفييتى هو تعاليم ماركس ، وقد جاء فى تنظير ماركس : أن يفتح باب العلم للجميع ، وأن يشرف عليه الشعب ، وأن يكون العلم محررا من قيود الطبقات والحكومة والكنيسة ، وأن يكون مثله الأعلى هو الحرية الفكرية . وعمله تنمية مواهب الأفراد ، وغرس المبادىء الخالدة فى نفسه من حرية وعدالة ، مسترشدا فى ذلك بالحكمة القديمة التى هى أساس جميع ضروب المساواة وهى أن من لايعمل لايأكل(٣).

أما الأهداف الأساسية من التربية والتعليم ف ىلاتحاد السوفييتى فهى :

أولا : الاهتمام بالتربية الإلحادية فى كافة المستويات التعليمية .

ومن هنا نظر القادة الشيوعيون فى أهمية المدرسة واستخدامها كسلاح فى يد البروليتاريا فجاء فى المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى عام ١٩١٩م (تحول المدرسة من سلاح لسيطرة الطبقة البرجوازية إلى سلاح يستخدم للقضاء على انقسام المجتمع إلى طبقات سلاح لبعث المجتمع بعثا شيوعيا جديدا)(٤).

ولأجل ذلك اهتمت المدارس السابق ذكرها بالتربية الإلحادية ، فكانت المدرسة الدنيا والوسطى تهدفان إلى التربية الفلسفية الشيوعية(٥). ومن أهم

---

(١) المعجم (١٢٨) .
(٢) المرجع السابق (١٢٨) .
(٣) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٣) .
(٤) المرجع السابق (٨٠) .
(٥) انظر المرجع السابق (٢٢٨-٢٢٩) .

أهداف التعليم العالى فى الاتحاد السوفييتى :

(١) (تربية الطلاب والمعلمين تربية أساسها تعاليم ماركس وانجلز ولينين) .

(٢) (القيام بالبحوث العلمية التى يقصد بها المساعدة على حل أهم مشاكل البناء الاشتراكى)[١].

ثانيا : تسخير التربية والتعليم ، والطالب والمعلم ، لخدمة الأهداف والأفكار الشيوعية وهذا لايتم إلا بالسيطرة التامة على التعليم ومرافقه .

يقول ستالين : (يجب أن تكون الآداب والفنون والعلوم ، أسلحة فى أيدى الحزب ، فعن طريق سيطرة الحزب على الآداب نستطيع أن نربى مشاعر الناس ، وعن طريق السيطرة على الفنون نستطيع أن نسيطر على سلوكهم ... يجب أن يكون الرأى العام مجرد انعكاس لمبادئنا وآرائنا وسلوكنا)[٢].

ويقول غورباتشوف : (وتمثلت المحنة بالنسبة للاتحاد السوفييتى فى أنهم علموا الناس القراءة والكتابة من أجل أن يفرضوا عليهم برنامجا مصطنعا للتطور وإثارة كراهيتهم لكل مالايتشابه مع هذا البرنامج وعزلهم عن العالم الخارجى وعن التقدم والحضارة . ونتيجة لذلك فقد أصبح الشعب سلاحا فى أيدى المغامرين السياسيين الذين كان هدف حياتهم يتلخص فى السلطة المطلقة واخضاع الناس لإراداتهم ، والتعسف الكامل بما لايتفق مع قواعد الأخلاق وحقوق الإنسان)[٣].

ويقول كاونتس : (إن هذا الحزب قد حشد جميع قوى التعليم النظامى أكثر مما حشدته أية دولة أخرى فى التاريخ كله كى ينال بها أغراضه ويتقدم نحو أهدافه المستقبلة البعيدة ...)[٤].

---

(١) التعليم (٢٣٣) ، وانظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١١٧) .

(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٨-٧٩) .

(٣) الإنقلاب (١٣٤) ، ترجمة د. سامى عمارة ، الشركة السعودية للأبحاث والنشر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٤) التعليم فى الاتحاد السوفيتى (٩) .

كما طالب الشيوعيون المعلم بأن يغرس الأفكار الشيوعية فى نفوس الطلاب من بنين وبنات[١]. ومن هنا فالتعليم لابد أن يكون تحت ملاحظة أعضاء الحزب ، وأن يصب فى تحقيق مصلحة بناء الإشتراكية[٢].

ثالثا : من أعظم الأهداف التى يرغب الشيوعيون تحقيقها غرس الأخلاق الإلحادية فى الشعب الروسى . يقول ألبرت ب.بنكفيتس : (إن الهدف الأكبر لنظام التربية السوفييتى هو تغيير أخلاق الشعب الروسى)[٣].

والشيوعيون لايقيمون للأخلاق أى اعتبار ، ويعتبرونها غير ثابتة ، وأن هناك ظروفا اقتصادية اقتضت وجودها ، وقد أكثر الشيوعيون من حديثهم عن الأخلاق ومفهومها فى الشيوعية ونأخذ أمثلة على ذلك .

يقول انجلز : (إن الأخلاق قد كانت على الدوام أخلاقا طبقية ، فهى إما أن تبرر سيطرة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، وإما أن تمثل ، حالما تحوز الطبقة المضطهدة مايكفى من القوة ، التمرد على تلك العقيدة ومصالح المضطهدين المقبلة فى الوقت نفسه)[٤].

ويقول : (إن البشر يستقون بصورة واعية أو غير واعية ، أفكارهم الأخلاقية فى آخر تحليل من العلاقات العملية التى تقوم أوضاعهم الطبقية على أساسها - من العلاقات الاقتصادية التى يقومون فيها بالإنتاج والمبادلة)[٥].

وينكر الشيوعيون المصدر الإلهى للأخلاق . يقول لينين فى خطاب ألقاه عام ١٩٢٠م فى مؤتمر منظمة الشباب الشيوعى الثالث : (الحقيقة أننا ننكر ماتدعيه البرجوازية ، من أن مبادىء الأخلاق ، هى أوامر من عند الله فنحن لانؤمن بالله ، ونعلم بأن الملوك ورجال الدين والبرجوازية قد

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٣-١٤) .

(٢) انظر مسائل بناء الإشتراكية (٨٨-٨٩) ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٦٠) .

(٤) انتى دوهرنغ (١١٥) .

(٥) المرجع السابق (١١٤) .

نسبوا الأمور إلى اسم هو : الله ، لتحقيق مآربهم الاستغلالية .. وعندما يتكلم الناس أمامنا عن مبادىء الأخلاق ، نرد عليهم أن الأخلاق عندنا معشر الشيوعيين ليست سوى النظام الموحد أو التكتيل اليقظ ، لمكافحة الاستغلاليين . نحن لانعتقد بوجود أخلاق أزلية ، وكل القصص الخرافية التى ترمى إلى غرض أخلاقى لانقبلها لتربية النشء الشيوعى بالقاء الخطب الأخلاقية ، أو دروس الوعظ ، بل بإشراكه فى الميدان العلمى القائم لتشييد ودعم صرح الشيوعية ، بكل الوسائل ، ومهما بدا للمستغلين أنها أخلاقية فالأخلاق عندنا أن ننتصر)(١).

ويقول لينين : (إن كل مايساعد على بناء مجتمع شيوعى خير وصالح وكل مايعوق هذا البناء شر ومناف للأخلاق)(٢).

ويدعون بأن الأخلاق هى التى تحقق مصالح البروليتاريا حيث يقول لينين : (إن أخلاقنا خاضعة تماما لمصالح نضال البروليتاريا الطبقى)(٣).

وهذه الأخلاق تتحقق عن طريق الغش والخداع والكذب والحيل والمناورات(٤).

وعلى هذا الأساس فالأخلاق غير مستمدة من الدين ، وهى متطورة ، ومرحلة الشيوعية ليس فيها مايوجب بقاء هذه الأخلاق المصطنعة ، ومن هنا كان لابد من الاهتمام بالتربية الأخلاقية وغرس الأفكار الماركسية فى نفوس

---

(١) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٤٢) ، وانظر : الكيد الأحمر (٤٠-٤١) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٤٩) ، التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٦٠) .

(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٦٤) .

(٣) لينيننا (٥٨) ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
وحتى لايطول بنا المقام فى سرد أقوال الشيوعيين عن الأخلاق يمكن الرجوع إلى كتاب إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٦-٣٧) ، الكيد الأحمر (٣١،٤٠-٤١) ، التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٤-٥٥،٤١٨-٤١٩) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٤٦-٤٨) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٥٨) .

(٤) انظر : إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٨) ، الكيد الأحمر (٤٠) ، حقيقة الشيوعية (١٩٠) .

النشء . ولأجل ذلك وتحقيقا لأفضل النتائج فى تربية الطفل على الخلق والثقافة التى تختار له اهتموا بالأطفال كثيرا لأنهم أيقنوا أن التأثير عليهم يكون بصورة أكبر وأسرع ممن عداهم[١]، من أجل غرس الأخلاق الشيوعية فى نفوسهم .

رابعا : من الأهداف الأساسية للتربية والتعليم فى الاتحاد السوفييتى غرس تعاليم الماركسية ، واللينينية فى نفوس الفلاحين ، واخراجهم من الجهل الذى هم فيه ، بالإضافة إلى تثقيفهم سياسيا ليتمكنوا من القيام بالمهمة التى ستوكل إليهم .

وأعلن لينين أنه يستحيل السير قدما إذا لم يكن هناك (درجة من الثقافة لدى الفلاحين [بل] ثورة ثقافية كاملة .. لكى تغدو بلادنا إشتراكية تماما)[٢].

وقال : (إن الشخص الأمى يقف خارج نطاق السياسة ولهذا يجب أولا أن يعلم الأبجدية)[٣].

يقول كاونتس : (لقد كان خلق طبقة جديدة من رجال الفكر تنتمى (إلى طبقة البروليتاريين لحما ودما) من أكثر مايشغل بال رجال الحزب خلال السنين العشرين الأولى من الحكم السوفييتى ، وكان هذا العمل من المبادىء اللينينية الخالصة فقد يبدو مؤسس البلشفية الذى ربط مصيره بمصير كفاح الطبقات ، كان يؤمن بأن نجاح الثورة موقوف إلى حد كبير على تدريب عمال الصناعة وفقراء الفلاحين لكى يصبحوا معلمين وأطباء ومهندسين ومديرى أعمال وفنانين وكتاب وعلماء . ذلك بأن هؤلاء وحدهم هم الذين

---

(١) انظر : التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٧٨) ، الحريات العامة فى الإسلام (٢٥٩) . وذكر أن مما جاء فى دساتير الشيوعية (التعليم الإلزامى لكافة الاطفال ، وربط تعليم الجيل الناشىء وتربيته بالحياة وبممارسة البناء الشيوعى) .

(٢) مسائل بناء الاشتراكية (٧٠-٧١) ، وانظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٥٤-٢٥٥).

(٣) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٦٢) .

يوثق بأنهم يخدمون المثل العليا للإشتراكية والشيوعية دونما تحفظ ويخدمون قضية الجماهير الكادحة ودولة البروليتاريا ، ومامن أحد ينكر أن مجهودا جبارا قد بذل فى هذه الناحية عن طريق مختلف الهيئات وبكافة الوسائل المستطاعة ...)[١].

خامسا : من أهداف التربية والتعليم فى الاتحاد السوفييتى إزالة مابين الجنسين من حياء حتى يتسنى لهم تطبيق مايريدون من مبادئهم . وقد وجدت قرارات متناقضة فى ذلك فتارة يفتخرون بأنهم طبقوا نظام التعليم المشترك بكل معانيه وكان الهدف من ذلك إعلان مبدأ التكافؤ بين الجنسين وتحرير المرأة من المجتمع البرجوازى ، وتارة يصدرون القرارات بالتفرقة بين الجنسين لاختلافهما فى التكوين الجسمى وخاصة من أجل الإعداد العسكرى[٢].

ومن هنا فإن الأهداف باختصار :

(١) استئصال جميع الأفكار المتعلقة بالدين ، والملكية ، والطبقات .

(٢) تكوين العقلية الشيوعية فى الميادين السابقة كما يراه ماركس وانجلز .

(٣) جعل الفرد فى غاية الولاء للحزب الشيوعى[٣].

(٤) رفع المستوى العلمى لدى الشعب السوفييتى[٤].

(٥) جعل التعليم والتربية سلاحا فى يد طبقة البروليتاريا[٥].

(٦) إزالة حواجز الخجل بين الجنسين .

لمحة عن مناهج التعليم فى الاتحاد السوفييتى :

ربط الشيوعيون بين مناهج التعليم ، والفكر الذى يرغبون فى نشره ووظفوا هذه المناهج كلها فى خدمة القضية الشيوعية ، والفكرة المادية .

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤١٩-٤٢٠) .

(٢) انظر المرجع السابق (١١٨-١١٩).

(٣) انظر فى هذا المعنى المرجع السابق (٦٨) .

(٤) انظر فى هذا المعنى المرجع السابق (٦٩) .

(٥) انظر فى هذا المعنى المرجع السابق (٧٠-٧١) .

فاللغة : لابد أن تكون اللغة الروسية ، حيث كتبت صحيفة الكتاب السوفييت تقول : (مامن أحد يستطيع أن يسمى نفسه عالما بالمعنى الحقيقى الكامل لهذا اللفظ إذا لم يكن يعرف اللغة الروسية ويدرس كتب المفكرين الروس بلغتها الأصلية)[١].

ولابد أن لايغيب عن أذهاننا أن الإشتراكية ستعم الأرض فلابد من أن تكون هذه اللغة لغة أهل الأرض كلهم .

الجغرافيا : ويتم فى هذا المنهج تسليح التلاميذ بالمعلومات المنظمة عن الموارد الطبيعية والسكان واقتصاديات الجمهوريات الإشتراكية ، والبلدان الرأسمالية وإظهار أثر النشاط الآدمى فى تبديل الطبيعة ، غرس حب الوطن وتنمية روح الوحدة الأخوية والصداقة بين الشعوب ، والكشف عن أحوال الشعوب المستعمرة وأحوالها ، والشعوب المحرومة من حقوقها والتى ترهقها وتستغلها الدول الاستعمارية[٢].

كما أن هذا المنهج يشمل رسوما تظهر حالة البؤس والحاجة فى البلدان الرأسمالية[٣].

التاريخ : يهتمون بالتاريخ اهتماما كبيرا . يقول كايروف : (التاريخ فى أرض الإشتراكية المنتصرة سلاح قوى من أسلحة التربية الشيوعية ، فهو يزود التلاميذ بأجوبة قائمة على أساس علمى عن الاتجاه الذى يسير فيه التطور البشرى ، وعن الوسائل التى يستطيع بها بنو الإنسان أن يعجلوا مولد مجتمع جديد وييسروا مولد هذا المجتمع ...) .

ويهدفون من دراسة التاريخ إلى :

* تزويد التلاميذ بمعلومات عن الحياة الاجتاعية والحوادث التاريخية .
* فهم القوانين الأساسية التى تطرح على المجتمع الإنسانى .

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٨٦-١٨٧) ، وانظر الفتح بالإرهاب (١٠٣).
(٢) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٣٩) .
(٣) انظر : الفتح بالإرهاب (١٠٣) ، حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٣) .

* الكشف عن أن جوهر الحركة التاريخية هو كفاح الطبقات .

* دراسة تاريخ الجمهوريات ، ومالأعمال المجيدة التى قامت بها الثورة الاشتراكية من قيمة عظمى حتى يقدروا ماقام به آباؤهم وأجدادهم فى سبيل الحرية .

* بث الحب فى نفوس التلاميذ بدراسة تاريخ لينين وستالين وكفاحهما الكبير فى انتصار الاشتراكية[١].

الدستور السوفييتى : كذلك الأمر بالنسبة لدراسة الدستور يوضح فيه ماحققته الإشتراكية من تحرير للعمال ، ومنحهم حقوقهم السياسية مما يجعل الشباب أكثر إيمانا بالفكر وتعلقا به[٢].

هذا بالإضافة إلى أن الشيوعيين قاموا باستغلال المدرسة والكتب والمكتبات فى الدعوة إلى الشيوعية .

فالمدرسة عندهم (لابد أن تغرس فى مدارك الجيل الناشىء المبادىء الشيوعية وتشكل التلاميذ حسب النظرة العالية الماركسية اللينينية وتغذيهم بروح الوطنية السوفيتية والمثل العليا البلشفية)[٣].

الكتب والمكتبات : إن ترتيب المكتبات والكتب التى توجد فيها أخذ أهمية قصوى عند الشيوعيين ، فسار الشيوعيون على خطة التطهير المستمر فى ميدان الكتب .

وكانت الكتب المعروضة عرضة لآراء الحزب فمتى تغيرت آراؤه رفعت الكتب ووضعت غيرها مكانها .

والكتب لايصح تداولها بين الجمهور ، توضع تحت تصرف طوائف خاصة من الشعب كأعضاء الحزب الذين وصلوا إلى درجة خاصة ، أو العلماء الموثوق بهم من قبل الشيوعيين ، وصدر فى عام ١٩٥٥م مقال فى

---

(١) انظر : التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٣٩-١٤٠) ، الفتح بالإرهاب (١٠٣) .
(٢) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٤٠) .
(٣) المرجع السابق (٦٨) ، وانظر (١٣٩) ، وانظر لينيننا (٨٣) .

صحيفة نادر هكستانا الشيوعية وكان عنوان المقال (لقد نبذت المكتبة السوفيتية النزاهة والموضوعية فى الفهارس) .

واحتوى المقال على الفقرة الآتية : (إن فهرس المكتبة السوفيتية أداة لتربية الجماهير الشيوعية ، ولهذا لابد من العناية الشديدة باختيار المواد التى توضع فى الفهارس ، وأن تنشر أرقى الآداب فى العالم وهو مؤلفات قادة العلم العظماء ماركس وانجلز ولينين وستالين ، وقرارات الحزب والحكومة ، وأكثر آراء العاملين فى ميدان الخدمة العامة تقدما . إن هذا النشر يتطلب الدقة فى اختيار الكتب التى تحتويها فهارس القراء ، وإذا كانت المكتبة عنصرا من عناصر النظام السوفييتى لتربية الشعب فقد أصبحت بهذا الوصف سلاحا سياسيا ، ولهذا فإنها لايمكن أن يجاز لها أن تنمو وتتطور وفقا لقوانينها الخاصة ، بل يجب أن تكون على الدوام فى قبضة الحزب)[١].

كما أن اختيار الكتب التى توضع على الرفوف فى المكتبات من أهم المسائل الحيوية التى عنى بها الحزب من ناحية تربية الشعب فتكون العناية خاصة بالقراءة السياسية (وهذا يدخل ضمن إطار الاهتمام بالتربية السياسية عند الشيوعيين) .

والماركسية واللينينية وتاريخ الحركة السياسية وحركات الشباب والرواد ومسائل العمال والنساء ومايكتب عن الحملات العسكرية والعلوم الطبيعية والدعاوى اللادينية[٢].

السينما : عمل الحزب الشيوعى على توظيف السينما فى الدعوة إلى العقيدة الشيوعية ، وقد جاء فى المؤتمر الثالث عشر الذى عقد عام ١٩٢٤م قرارا يقول : إن (السينما يجب أن تصبح أداة قوية فى أيدى الحزب يستخدمها فى التربية الشيوعية واستثارة الشعب ويجب أن تنفذ إلى أكبر طائفة من جماهير الدهماء وإلى منظمات الحزب والعمال)[٣].

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٨٦-٢٨٧) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٨٥) .
(٣) المرجع السابق (٢٨٨) .

استغلال الأدب والفن عموما فى نشر الفكر الشيوعى : جاء عنهم إن (الكتاب السوفييت يهتدون فى عملهم الابداعى بخطة الحزب البلشفى والدولة السوفيتية وهذا هو مصدر قوة الأدب السوفييتى)(١).

ولم يدع السوفييت شيئا إلا استغلوه فى سبيل الوصول إلى نشر مبادئهم وبسط سلطانهم ، فمثلا استغلوا المطبوعات حتى وصل الأمر إلى استخدام التقويم فى تحقيق أهدافهم .

يقول كاونتس : (قد يظن الإنسان أن التقويم يمكن أن يترك وشأنه ليكون غير سياسى فى محتوياته فيقتصر على ذكر الأسابيع والشهور وفصول السنة والأحوال الجوية والمعلومات الكلية وحركات الأجرام السماوية ، وهو فى الواقع يشمل هذه المسائل ولكن يبدو أنها مسائل عارضة جاءت فى سياق الهدف الرئيسى ، ذلك أنه يبذل عناية أكبر من التى يبذلها فى هذه الموضوعات إلى حركات الشيوعيين وإلى التفكير فى البرامج الشيوعية . والحق أن التقويم يعكس عكسا صادقا السياسة الداخلية والخارجية التى يعرضها الحزب على شعوب الاتحاد السوفييتى والعالم أجمع وقت نشره ...) .

وتمتلىء صفحاته (بالصور والمقتبسات والرسوم البيانية وذكريات الحوادث ويحتوى ألفى موضوع اختير كل واحد منها بحيث يخدم مصالح الحزب ...) .

(وهو التقويم الوحيد الذى يوزع على الجمهور باللغة الروسية ...) .

وهذا التقويم يحمل الذكريات لكل أفراد الشعب الذين يتكلمون الروسية ويملكون هذا التقويم لما فيه من ذكر للأشخاص وصور لهم ...الخ كما أن (عليهم أن يعرفوا أن كل مايظهر على صفحاتها يحمل طوابع الصدق لأنه مؤيد من أعلى سلطة فى ميدان الثقافة ، أو أن زعماء البلاشفة على أية حال يرجون بلاشك أن يكون هذا شأنه)(٢).

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٩٠) ، وانظر (١٩١) .
(٢) المرجع السابق (٢٨٠-٢٨١) .

وهكـذا جعـل الشيوعيون كـل مرافق الحياة لخدمـة أهـدافهم الفكرية والسياسية ، ولأجل هذا اهتموا بالتربية والتعليم اهتماما كبيرا[١].

وبعد هذا ماهو موقف الشيوعية من الحرية العلمية؟

وللإجابة على ذلك نسجل النقاط التالية :

أولا : من العرض السابق يتبين لنا أن الدولة الشيـوعية تبسط سلطانها ونفوذها على المؤسسات العلمية بكاملها . وكان الطالـب فى مدرسته أوجامعته لايستطيـع أن يتحرك إلا كمـا يراد له[٢]. تقـول رايسا غورباتشوف : (كـان كل شىء فى الكليات مسيطـرا عليـه سيطرة تامة . كـل شـىء مسموح به أو غير مسموح)[٣].

ثانيا : السيطرة التامة على المناهج الدراسية ، وجعل المادة العلمية فيها مليئة بالأفكار الشيوعية المأخوذة من ماركس ولينين ، كما أن كل مادة تربط بخدمة الفكر الإشتراكى وتسير فى فلكه .

ثالثا : كفلت الدولة حرية الدعاية اللادينية ، وأجلبـت بخيلها ورجلها فى سبيل نشر الالحاد ، فى حين منعت تعليم الدين ، والـدعوة إليه ، وضيقت على كل من اشتبهت فى أمره وبالتالى فإن أكثر المتضـررين من سياسة الاتحاد السـوفييتى تجاه العلم والعلمـاء هـم المسلمـون ، هذا فى حين أن اليهـود قـد منحوا الامتيازات العديدة من قبل الحكومة السوفيتية بما فيها المدارس الخاصة بهم[٤].

رابعا : التراجع عـن مجانية التعليم .يقول ليونهارد : (بعـد أن قالوا إن العلم مجانى جاء القــرار فى ٣ أكتــوبر ١٩٤٠م بالغـاء المنـح الـدراسية وأخذ المرسوم فى التعليم العالى :

---

(١) انظـر بعض ماذكره كاونتس فى كتـابه التعليم فى الاتحاد السـوفييتى على سبيل المثال (٩-١١،٧٢-٧٣،١٠٩-١١٧،١٩٦،٢٤٨) .

(٢) انظـر ماذكره ليونهارد فى كتـابه حقائق عن نظام الحكـم الشيـوعى (٢٨٧-٢٩٤) .

(٣) أملى (٧١) ، كتاب الشرق الأوسط ، الشركة السعودية للأبحاث والنشر .

(٤) انظـر عـن ذلـك : إنهيـار الشيـوعية أمـام الإسلام (١٨٨-١٩٠) ، ستـالين (٦٩) .

(أ) فى المعاهد العليا التى مقرها فى موسكو ، ولينينجراد ، والمدن الرئيسية فى الاتحاد السوفييتى - ٤٠٠ روبل فى السنة .
(ب) فى المعاهد العليا التى يكون مقرها فى مدن أخرى ، غير ماسبق ذكرها فى البند السابق - ٣٠٠ روبل فى السنة .
(ج) فى المعاهد العليا ، للموسيقى ، والفن ، والمسرح - ٥٠٠ روبل فى السنة .

وتدفع المصاريف فى المعهد الذى يدرس فيه الطالب على قسطين : الأول ١ سبتمبر ، والثانى ١ فبراير)[١].

كما أن المنح الدراسية ألغيت فحرم كثير من مواصلة دراستهم[٢].

خامسا : إن أعظم مايدل على أن حرية التعلم والتعليم كانت مفقودة - بغض النظر عن حرية التعليم اللادينى - هو مالقيه المسلمون من ويلات على يد الزعماء الشيوعيين وزبانيتهم ، فقد منعوا المسلمين من تعلم القرآن وامتلاكه ، وأغلقوا المدارس الإسلامية ، ودمروا المساجد وهى الانطلاقة الحقيقية للتعليم فى الإسلام ، واضطهدوا العلماء المسلمين ، وقاموا بنفى كثير منهم ، وقتل الكثير[٣].

سادسا : مما يدل على أن الحرية العلمية مفقودة فى الاتحاد السوفييتى هو ماكان يعانيه هذا البلد من التخلف التكنولوجى والعلمى ، وعدم بروز العلماء والمفكرين الروس ، رغم أننا نجزم بوجود الكثير منهم . والسبب فى ذلك ، الحجر على العلماء ومصادرة نتاجهم الفكرى .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٢٣) ، وانظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٢٢) .
(٢) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٢٤) .
(٣) ماذكرناه سابقا عن موقف الشيوعية من الحرية الدينية يرد به على إدعاء الشيوعيين تحقيق الحرية العلمية ، إذ أن العلم مرتبط بالدين .

أولا : انعـــدام حرية التعلم والتعليم فى الاتحاد الســـوفييتى إلا التعليم اللادينى .

ثانيا : أن أعظـم المتضررين بالسيـاسة السوفيتية تجاه العلم والتعلم هـــم المسلمون .

ثالثا : أن ماسبق تقريره من مصادرة الشيوعية لحرية العقيدة ، والحرية الفكرية ، يدل دلالة واضحة على أن حرية التعلم والتعليم لن تخرج عن ذلك لارتباطها بتلك الحريتين ، وهذا يؤكد ماذكرناه بأن الحريات لاتتجزأ .

وننتقل الآن إلى نظرة الإسلام إلى حرية التعلم والتعليم .

(ب) حرية التعلم والتعليم فى الإسلام :

إن شـريعة الإسلام أولـت العلم اهتماما مميزا وأثنـت على العلماء ورفعت منزلتهم ، كما أقرت الشـريعة الحرية فى طلب العلم وسلوك الطريق الموصل إليه شريطة أن تكون الوسيلة والغاية متسقة مع النصوص الشرعية.

إن الإسلام لم يقر حرية التعلم وطلب العلم فحسب ، بل اعتبرها واجبا فى حق كل أحد فما كان ليوجب شيئا ثم يمنع الإنسان الحرية فيه . ولاغرابة فى اهتمام الإسلام بالعلم وثنائه على العلماء إذ أن ذلك من مقاييس المدنية والحضارة ، وهذه الحرية متصلة بما سبقها ، حيث تتم تنمية المواهب وزيادة الإبداع والانتاج . ولو ذهبنا نتتبع الآيات والأحاديث الواردة فى بيان فضل العلم وامتداح العلماء لطال بنا المقام ، ولكن هذه نماذج منها .

إن أول آية نزلت فى كتاب الله تعالى تدعو إلى العلم والقراءة قال تعالى : {**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم**}[١].

وأقسم سبحانه وتعالى بالقلم {**ن . والقلم ومايسطرون**}[٢].

وأثنى المولى جل وعلا على العلماء وأبان أنهم أكثر الناس خشية له تعالى ، قال سبحانه : {**إنما يخشى الله من عباده العلماء**}[٣]لأن من كان بالله أعرف كان منه أخوف .

وقال جل جلاله فى رفع أهل العلم : {**يأأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير**}[٤].

---

(١) سورة العلق (١-٥) . (وهى دعوة إلى القراءة على أوسع مدى ، والقراءة هى سبيل العلم ولاسبيل له إلا بها ...) . الإنسان وحريته فى الإسلام (١٢) .
(٢) سورة القلم : (١) .
(٣) سورة فاطر : (٢٨) .
(٤) سورة المجادلة : (١١) .

ويقـول تعـالى فى بيان عـدم المساواة بين الجهـال والعلمـاء : {**قـل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون . إنما يتذكر أولوا الألباب**}(١).

هـذا بالإضـافة إلى الآيات التى دلـت على امتـداح التفكـر والتـدبر والتأمل وإعمال الفكر ومجملها تدور فى فلك العلم .

وقـد جعـل المولى جل وعلا للعقـل حدودا يقف عنـدها ولايتجـاوزها حتى لايضل وبالتالى يشقى(٢).

أمـا السنـة النبوية : فقد كـان رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم المعلم الأول لهـذه الأمة ، وكان يحث أصحابه رضى الله عنهم على التعلم والتعليم وكثرت الأحاديث التى جاءت عنـه عليه السلام فى بيـان فضل العلم وطلبه ، والثناء على طالبه ، ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله :

(من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقـا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السمـوات ومن فى الأرض ، والحيتـان فى جوف الماء . وأن فضـل العالم على العـابد كفضـل القمـر ليلة البـدر على سـائر الكواكب ، وإن العلمـاء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولادرهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)(٣).

والعلم فى الإسلام غير محجور عليه شريطة أن لايدعو إلى شرك أو كفر أو انحلال خلقى . أما ماعدا ذلك من أنواع المعارف المختلفة فإنه لايناصبها العداء ، ولايحكم على أصحابها بالزندقة ، وإن كانت تحقـق المصلحة أقرها ، وإن كانت تدعو إلى مفسدة أو متعارضة مع حقيقة مقـررة فى أصوله ردها ، وأبان سبـب ذلـك الـرد . والعلم فى الإسلام يجمـع بين الأصـول والفـروع .

---

(١) سورة الزمر : (٩) .

(٢) عن هذا المعنى انظر الإسلام دين الفطرة (١٣٩-١٤٢) .

(٣) رواه أبو داود (٣١٧/٣) ، كتـاب العلم ، باب الحث على طلـب العلم ، رقـم الحديث (٣٦٤١) ، والترمـذى (١٥٣/٤) ، أبواب العلم ، باب فى فضـل الفقه على العبادة ، رقم الحديث (٢٨٢٣) .

يقول ابن عبد البر : (أجمع العلماء على إن من العلم ماهو فرض متعين على كل امرىء فى خاصيته بنفسه منه ماهو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع واختلفوا فى تلخيص ذلك والذى يلزم الجميع فرضه من ذلك مالايسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لاشريك له لاشبه له ولامثل لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد خالق كل شيء وإليه مرجع كل شيء المحيي المميت الحى الذى لايموت ، والذى عليه جماعة أهل السنة أنه لم يزل بصفاته وأسمائه ليس لأوليته ابتداء ولالآخريته انقضاء وهو على العرش استوى . والشهادة بأن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه حق وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال والخلود فى الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة فى الجنة ، ولأهل الشقاوة بالكفر والجحود فى السعير حق وأن القرآن كلام الله ومافيه حق من عند الله يجب الإيمان بجميعه واستعمال محكمه وأن الصلوات الخمس فرض ويلزمه من علمها علم مالاتتم إلا به من طهارتها وسائر أحكامها ، وأن صوم رمضان فرض ويلزمه علم مايفسد صومه ومالايتم إلا به وإن كان ذا مال وقدرة على الحج لزمه فرضا أن يعرف ماتجب فيه الزكاة ومتى تجب وفى كم تجب ويلزمه أن يعلم بأن الحج عليه فرض مرة واحدة فى دهره إن استطاع إليه سبيلا إلى أشياء يلزمه معرفة جملها ولايعذر بجهلها نحو تحريم الزنا والربا وتحريم الخمر والخنزير وأكل الميتة والأنجاس كلها والغصب والرشوة على الحكم والشهادة بالزور وأكل أموال الناس بالباطل وبغير طيب من أنفسهم إلا إذا كان شيئا لايتشاح فيه ولايرغب فى مثله وتحريم الظلم كله وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذكر معهن وتحريم قتل النفس المؤمنة بغير حق وماكان مثل هذا كله مما قد نطق الكتاب به وأجمعت الأمة عليه ثم سائر العلم وطلبه والنفقة فيه وتعليم الناس اياه وفتواهم به فى مصالح دينهم ودنياهم فهو فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه فإذا قام به قائم سقط فرضه على الباقين لاخلاف بين العلماء فى ذلك وحجتهم فيه قول

الله عز وجل : {**وماكان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**}[(١)])[(٢)].

(ولم تلق حرية من الحريات فى الفكر الحديث مانالته حرية التعليم فى الفكر الإسلامى من التمجيد والتمييز ومن الحث عليها ، كحرية التعليم)[(٣)].

(ولاغرو ، فإن العلم والمعرفة مدخل الإيمان ، ومفتاح كل تهذيب روحى)[(٤)].

واقع الأمة المسلمة مع حرية التعليم : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع الأمثال فى تبليغ العلم وكيفية التعليم ، كما أنه لم يلزم أحدا بأن يتعلم شيئا محددا أو يمنعه من تعلم شيءيريده طالما أنه لايتعارض مع مافى كتاب الله تعالى ، أو ماجاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم . ثم سار الصحابة رضى الله عنهم من بعده صلى الله عليه وسلم على هذه الوتيرة فلم يمنعوا المسلمين من التعلم ، ولم يحجروا عليهم السفر والانتقال فى طلبه ، كما لم يحددوا لهم العلم الذى يتعلمونه .

وهكذا سارت الأمة المسلمة من بعد فوجد العلماء فى مختلف أنواع المعارف من طب ، وكيمياء ، وفيزياء ، ورياضيات ، وهندسة ، وفلك ...الخ وبهذا فإن الإسلام قد أقر هذه الحرية . ويظهر ذلك مختصرا فى التالى :

أولا : الحرية المطلقة للانسان فى أن يتعلم مايشاء شريطة عدم تعارضه مع كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : أباح الإسلام أخذ النظريات العلمية ودراستها والاستفادة منها بضابط عدم الخروج على مافى الكتاب والسنة .

---

(١) سورة التوبة : (١٢٢) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/١٠-١١) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) ضمانات الحرية (١١٩) ، وانظر الإسلام وأوضاعنا السياسية (٢٧١-٢٧٢) .

(٤) أركان حقوق الإنسان (١٩٦) .

ثالثا : أباح الإسلام للمخالفين ، ومن لديهم شبهات أن يعرضوها ثم يوضح لهم الحق . فحقق الإسلام الحرية لأهله بسماع هذه الشبهات وردها ، كما حقق الحرية للآخرين بعرض أقوالهم ونظرياتهم وشبهاتهم حتى لو كانت باطلة من أجل إظهار الحق ، وهذا يتمشى مع الحرية العقدية ، وكذلك حرية الرأى والتعبير .

رابعا : ومما يدل على الحرية العلمية فى الإسلام جواز ترجمة نتاج الفكر المخالف إذا وجد حق أو نفع ، أو كان القصد من ذلك توضيح بطلانه ، ورد زيفه، وكشف شبهته .

خامسا : جعل الإسلام التعليم مجانا ، وتكفلت دولة الإسلام بدفع أجور المعلمين لتعليم المسلمين .

أهمية هذه الحرية : تمثل هذه الحرية أهمية بالغة للانسان حيث من خلالها تنمى المواهب وتوجه فى سبيل الانتاج والإبداع(١). ومن هنا اهتمت الشرائع السماوية بالعلم والحرية فيه ، وكذلك الدساتير والقوانين نصت على الاهتمام بالعلم ومنح الحرية فى طلبه(٢).

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : اهتم الإسلام بالعلم والعلماء ، وحقق الحرية فى طلبه .

ثانيا : جعل الإسلام التعلم مجانا ، بل وطالب كل من لديه علم أن يبذله للآخرين ولايكتمه .

ثالثا : أن الإسلام لايحجر على البحث العلمى إذا كان ضمن الضوابط الشرعية .

رابعا : أن الإسلام حقق الحرية العلمية فى الواقع .

خامسا : أن الإسلام لم يجبر المخالفين على تسليم أولادهم للمسلمين من أجل تعليمهم الإسلام .

---

(١) انظر أركان حقوق الإنسان (١٩١-١٩٢) .

(٢) انظر : المرجع السابق (١٩٣-١٩٤) ، ضمانات الحرية (٤٠-٤١) .

المبحث الخامس
الحرية السياسية

(أ) الحرية السياسية فى النظام الشيوعى :

إن النظام السياسى الشيوعى مبنى على التصورات الفكرية لديهم "المادية التاريخية" .

فهم يرون أن تاريخ المجتمعات ليس إلا تاريخ الصراعات الطبقية بين الطبقة المستغلة والطبقة المستغلة ـ بالفتح ـ فكان الصراع بين العبيد وأسيادهم قد ولد نظاما إجتماعيا هو النظام الإقطاعى ، وعندما كان النظام يحمل أسباب إنهياره بين جنباته كذلك حدث الصراع بين المضطهدين وهم الأقنان الذين كانوا يعملون فى الأراضى وبين أصحاب الإقطاع ونتج عن ذلك وجود نظام جديد هو ظهور طبقة البرجوازيين الرأسماليين . وكذلك وحسب قوانين الجدل يحمل هذا النظام الجديد أسباب إنهياره وزواله بين جنباته (التناقض) نتيجة للصراع والتطور بين الرأسماليين وطبقة العمال المضطهدة من قبل هذا النظام ، ويحصل هذا الصراع فيطالب العمال بتحسين أحوالهم المعيشية ويرتقى إلى أن يكون صراعا أيديولوجيا أى بالقضاء على كافة الأفكار المنبثقة من ذلك النظام ، ثم فى نهاية المطاف يجعل الصراع السياسى من أجل القضاء على النظام الرأسمالى وإقامة النظام الإشتراكى مكانه . ومن هنا تقع السلطة فى يد هذه الطبقة من أجل تحقيق ذلك البناء الجديد "الإشتراكية" ، ثم ماتلبث هذه الدولة البروليتارية أن تضمحل وتتلاشى بسبب زوال الطبقات من المجتمع إذ لاحاجة لوجودها حيث عمت الشيوعية الأرض وأصبح الناس فى غير حاجة إلى الحكومة .

ومن هذا المنطلق فالدولة عندهم ليست إلا سلطة فى يد الطبقة المستغلة تقهر بها سائر الطبقات الاخرى . وعندما تصبح السلطة فى يد البروليتاريا ستتحقق الديمقراطية على أكمل وجه فى الانتخابات ، والترشيح ، وحق الاضراب ومالإلى ذلك ، كما أنها ستحقق الحرية السياسية كاملة للعمال ، تلك الطبقة المضطهدة ، وستقضى على البرجوازية نهائيا .

ونعرض الآن لبعض الأفكار النظرية التىيراها الشيوعيون ، ثم نعرض باختصار لوضع التنظيم السياسى فى الاتحاد السوفييتى بحكم أنه الدولة التى فجرت فيها الثورة الشيوعية بداية ، وحاولت تطبيق تلك الأفكار النظرية ، ثم نرى هل كان الواقع كما قالوا وصوروه فى آرائهم النظرية أم لا؟

أولا : الهدف المباشر هو ظفر الطبقة العاملة بالسيطرة السياسية .

اهتم الشيوعيون اهتماما كبيرا بالمسألة السياسية ، بل إن المذهب فى آخر أيامه القديمة ـ أعنى النظرية ـ كان سياسيا أكثر منه فلسفيا أو إقتصاديا وقد أعلن ماركس وانجلز أن هدف الشيوعيين المباشر هو : (تنظيم البروليتاريين فى طبقة وهدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية)[١].

ويقول ماركس ورفيقه : (إن الخطوة الأولى فى ثورة العمال هى كما رأينا ، تحول البروليتاريا إلى طبقة سائدة ، والظفر بالديمقراطية . وستستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لأجل انتزاع الرأسمال من البرجوازية شيئا فشيئا ، ومركزة جميع أدوات الإنتاج فى أيدى الدولة ، أى فى أيدى البروليتاريا المنظمة فى طبقة حاكمة ، وزيادة كمية القوى المنتجة وإنمائها بأسرع مايمكن . ولايتم ذلك طبعا فى بادىء الأمر إلا بخرق حق التملك وعلاقات الانتاج البرجوازية بالشدة والعنف ...)[٢].

---

(١) البيان الشيوعى (٥٦) .
(٢) المرجع السابق (٦٥-٦٦) .

وكـان ذلـك إعلانا أوليا عـن مهمة الفكر الشيوعـى وهـو إيجاد طبقة واحدة والإبقـاء عليهـا وتسليمهـا زمـام الأمـور وعبروا عنـه "بدكتـاتورية البروليتاريا" . ويكون ذلك عن طريق العنف والثورة .

ومـر معنـا الأقـوال العـديدة عـن دكتـاتورية البروليتـاريا وسيطـرتها السيـاسية وأن المقصود بالـدكتاتورية هو جعل السلطة السيـاسية فى يد طبقة العمال . وقد أكثر لينين من بيان مهام سلطة السوفييـت وعلى عاتق من تقع مهمة نشر الفكر الإشتراكى وتطبيقه .

ثانيا : أن سلطـة الدولة فى الاتحاد السوفييتى إنما قـامت على يد العمال وهـى لهـم دون سواهم . يقـول لينين عن جوهر السلطـة السـوفيتية : (إن جوهرها الذى يجتذب العمال من جميع البلدان أكثر فـأكثر ، هو أن الدولة فيمـا مضى كان يحكمها الأغنياء أو الرأسماليون بهذا الشكـل أو ذاك وأنها اليوم للمرة الأولى ، إنما تحكمها على نطاق جماهيرى ، تلك الطبقات بالذات التى كانت تضطهدها الرأسمالية ...) .

(ولأول مـرة فى العالم ، بنيت سلطة الدولة عندنا فى روسيـا ، بطريقة يؤلـف فيهـا العمـال وحدهـم ، الفلاحون الشغيلـة وحدهـم ، باستثنـاء المستثمـرين ، المنظمـات الجمـاهيرية ، السوفيتات ، وهـذه السـوفيتات مخولة كامل سلطة الدولة . ولهذا رغم الافتراءات التى يلفقها ممثلوا البرجوازية فى جميع البلدان حول روسيا ، غدت كلمة "سوفيت" فى كل مكان من العالم ، لامفهومة وحسب ، بل أيضا شعبية وعزيزة على العمال ، على جميع الشغيلة ولهذا أيضا ، لابد أن تنتصر سلطة السوفييت فى العالم أجمع ، لامحالة ، وفى مستقبـل قـريب ، رغم جميع الاضطهـادات ضـد أنصار الشيـوعية فى مختلـف البلدان)[١].

---

(١) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٣٠) .

ثالثا : تحقيق الحرية السياسية للعمال ، وبالتالى تحقيق الديمقراطية على أكمل وجه .

اعتبر الشيوعيون أن النضال من أجل الحرية السياسية هو الهدف من الحركة العمالية الروسية فكتبت صحيفة "رابوتشا ياغازيتا" : (إن النضال ضد الحكم المطلق وفى سبيل الحرية السياسية هو هدف الحركة العمالية الروسية المباشر)[١].

ويبين لينين أن الديمقراطية السوفيتية تمثل حقيقة فى طبقة العمال ، وأن لهم الحرية فى الانتخابات والترشيح فيقول : (إن الطابع الإشتراكى للديمقراطية السوفيتية ، أى الديمقراطية البروليتارية ، فى تطبيقها الملموس ، الحالى ، ينحصر فيما يلى :

أولا : الناخبون هم الجماهير الكادحة والمستثمرة ، والبرجوازية مشطوبة .

ثانيا : كل الشكليات والقيود البيروقراطية فى حقل الانتخابات ملغاه ، الجماهير تحدد بنفسها طريقة الانتخابات ومواعيدها وتتمتع بكامل الحرية فى سحب منتخبيها .

ثالثا : يتكون خير تنظيم جماهيرى لطليعة الشغيلة ، لبروليتاريا الصناعة الكبيرة ، تنظيم يتيح لها قيادة أوسع جماهير المستثمرين واشراكها فى الحياة السياسية المستقلة ، وتربيتها سياسيا بتجربتها الخاصة ، وهكذا ، تبدأ للمرة الأولى الحملة من أجل أن يتعلم السكان بأسرهم حقا الحكم ويبدأوا الحكم . تلك هى العلائم المميزة الرئيسية للديمقراطية المطبقة فى روسيا ، وهى ديمقراطية من نموذج أرقى ، تقطع كل صلة بالتشويه البرجوازى للديمقراطية ، وهى انتقال إلى الديمقراطية الإشتراكية وإلى

---

(١) المختارات (٤٩٣/١) لينين ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥م دون ذكر لرقم الطبعة .

الظروف التى يمكن أن تبدأ فيها الدولة بالاضمحلال)[١].

رابعا : تحقيق حق الاضرابات والتظاهرات للعمال . وقد أجلب لينين بخيله ورجله فى بيان أهمية الاضرابات فقال :

(١) (إن الحقيقة البارزة فى تاريخ حركة الطبقة العاملة والثورة الروسية خلال عام ١٩١٢م ، قد تمثلت فى التطور الملحوظ لحركة كل من الاضراب الإقتصادى والاضراب السياسى للبروليتاريا . فقد وصل عدد المضربين السياسيين إلى مليون مضرب .

(٢) إن طابع الحركة الاضرابية لعام ١٩١٢م يستحق منا انتباها خاصا . ففى عدد من الحالات ، تقدم العمال بمطالب إقتصادية وسياسية فى وقت معا ، وكانت تتبع فترة الاضرابات الإقتصادية فترة من الاضرابات السياسية ، والعكس صحيح أيضا . إذ أن النضال ضد الرأسماليين من أجل مكاسب ١٩٠٥م ، والتى سلبتها الثورة المضادة ، والارتفاع المتزايد لتكاليف المعيشة ، قد استثار قطاعات أوسع فأوسع من العمال ، مواجها إياهم بالمسائل السياسية فى أكثر أشكالها حدة . إن جميع هذه الأشكال من الترابط والتضافر بين النضال الإقتصادى والسياسى ، هى فى آن معا شرط من أجل قوة الحركة وعلامة على هذه القوة ، الأمر الذى يفضى إلى ظهور الاضرابات الجماهيرية الثورية .

(٣) إن بداية تفجرات السخط وحركات التمرد فى البحرية وفى الجيش ، التى ميزت عام ١٩١٢م ، قد ارتبطت ، بلاريب ، بالاضرابات الجماهيرية الثورية للعمال ، كما كانت مؤشرا على الغضب والسخط المتناميين بين القطاعات الواسعة من الديمقراطيين ، وخاصة بين الفلاحين ، الذين يشكلون الجانب الأعظم من القوات .

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (٧) .

(٤) فى ظل هذه الظروف ، تكتسب الاضرابات الجماهيرية الثورية أهمية استثنائية أيضا ، إذ أنها تشكل وسيلة من أعظم الوسائل تأثيرا من أجل التغلب على اللامبالاة واليأس وعلى إنعدام الوحدة فى صفوف البروليتاريا الزراعية والفلاحين ، ومن أجل تحريضهم على الانخراط فى نشاط سياسى مستقل ومن أجل جذبهم إلى النشاطات الثورية الأكثر تماسكا وتزامنا واتساعا .

(٥) أن على تنظيمات الحزب ، وهى توسع من نطاق تحريضها وتزيده قوة من أجل المطالب الفورية لحزب العمال الإشتراكى الديمقراطى الروسى - جمهورية ديمقراطية ، يوم عمل من ثمان ساعات ، مصادرة الممتلكات الزراعية لصالح الفلاحين - عليها أن تضع ضمن أعمالها ذات الأولوية أن توفر الدعم بكافة صوره للاضرابات الجماهيرية الثورية ، وأن تطور وتنظم جميع أشكال النشاط الثورى للجماهير ، وبوجه خاص ، فإن من بين المهام الأساسية الراهنة ، تنظيم تظاهرات الشارع الثورية سواء فى ارتباطها بالاضرابات السياسية أو بوصفها أنواعا مستقلة من النشاط الجماهيرى .

(٦) وحقيقة أن بعض الرأسماليين يلجأون إلى إغلاق أبواب مصانعهم أمام العمال (الصرف الجماعى) لمقاومة المضربين ، تواجه الطبقة العاملة بمهام جديدة ، فمن الضرورى أن تدرس بعناية الظروف الإقتصادية للاضرابات فى كل منطقة ، وفى كل صناعة ، وفى كل حالة معينة ، وأن نتوصل إلى أشكال جديدة للنضال (الاضراب فى صورة اعتصام على سبيل المثال) لمواجهة إغلاق المصانع ، وأن نستبدل الاضرابات السياسية بالاجتماعات الثورية وتظاهرات الشارع الثورية .

(٧) تشن بعض الصحف الحزبية الشرعية حملة عنيفة ضد الاضرابات الجماهيرية الثورية ، بصرف النظر عما تبديه من تقدير لهذا الاضراب أو ذاك . فإلى جانب الصحافة الليبرالية ، يجرى شن هذه الحملة ، من جانب مجموعة دعاة التصفية ، على سبيل المثال ، على صفحات صحيفة

ليتش Luch ، ضد إرادة قطاع أساسى من أولئك العمال الذين يساندون تلك الصحيفة بصورة أو بأخرى . وفى هذا الصدد ، فإن مهمة المتعاطفين مع حزب العمال الديمقراطى الإشتراكى تتمثل فى الآتى :

١ ـ أن يخوضوا نضالا صلبا ضد تلك المجموعة .

٢ ـ أن يشرحوا للعمال ، شرحا منظما ومتمهلا ، أضرار الحملات السالفة الذكر ، وذلك بصرف النظر عن ميولهم الخاصة .

٣ ـ أن يحشدوا كل قوى البروليتاريا من أجل تعزيز التحريض الثورى ، والنشاط الثورى للجماهير)[١].

وبين لينين أن الترابط قائم بين الاضراب الإقتصادى والسياسى فيقول (إن كلا من الاضراب الإقتصادى والسياسى يدعم كل منهما الآخر ، ويمثل كل منهما مصدر تعزيز بالنسبة للآخر ...)[٢]. بل إن الاضراب فى بدايته يكون إقتصاديا ثم مايلبث أن يتحول ليكون اضرابا سياسيا . يقول لينين : (إن كثيرا من العمال خلال المرحلة الأولى ، يضعون النضال الإقتصادى فى المحل الأول بينما يتحولون ، عندما تبلغ الحركة قمتها ، فى الاتجاه الآخر)[٣].

وذكر أن هذه الاضرابات (تجتذب الجيش بطريقة لاتقاوم إلى الحياة السياسية)[٤].

---

(١) نصوص حول الاضرابات (١٣١-١٣٤) ، ترجمة إسماعيل محمود ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .
وقد أفاض لينين فى تقييم حركات الاضراب ودورها وعلاقة الإضرابات الإقتصادية بالسياسية والعكس ، وبعض الأسباب التى أدت إلى فشل بعض الاضرابات على سبيل المثال (١٣٥-١٣٨) ، وانظر فى بيانه الاضرابات السياسية ووجودها (١٠٧-١٠٨) ، ويكاد الكتاب أن لايخرج عن الاضراب وأحواله وأحقية العمال به.

(٢) المرجع السابق (٩٨) .

(٣) المرجع السابق (٩٩) .

(٤) المرجع السابق (٤٧) .

ولكــن مــاهى أسبــاب الاضــرابات؟ يقــول لينين : (السبــب هــو أن الـرأسمالية تؤدى بالضـرورة إلى الصـراع بين العمــال وأصحـاب العمـل ، وعنـدما يكون الإنتاج على النطاق الكبير يتخذ الصـراع - بالضرورة - شكل الاضرابات)[١].

ومن هنا يعتبر لينين أن الاضراب وسيلة (من الوسائل التى تناضل بها الطبقة العاملة من أجل تحررها)[٢].

وأفـاض لينين فى التنـدر بالـرأسمالية وظلمهـا للعمـال ، وبين أسبـاب نجاح الاضـرابات وجعل من ذلـك : الوعى الطبقى لدى العمـال ، والتربيـة الإشتراكيـة لهم ، والثورة ضد الحكـومات المستغلة[٣]. وامتدح لينين وأشـاد

(١) نصوص حول الاضرابات (٨) .

(٢) المرجع السابق (١٨) .

(٣) انظر المرجع السابق عن الرأسمالية والتندر بها (٨-١٠،١٦-١٧) ، وانظـر عن نجاح الاضـرابات (١٩-٢٠،٢٩-٣٠) ، ويقـول ستـالين فى المؤتمر التـاسع عشـر للحـزب الشيـوعى السـوفييتى : (كانت البرجوازية فيمـا مضى تسمـح لنفسهـا القيام بدور الليبراليـة كـانت تدافع عن الحريات الـديمقراطية البرجوازية وتخلـف لنفسهـا بهذا شعبية ، أما الآن فلم يبق أى أثر لليبرالية . "فالحريات الشخصية" المزعومة لم يعد لهـا وجود وأصبح لايعترف بحقـوق الفرد الآن إلا لهؤلاء الـذين يملكـون رأسمالا أمـا بقية المواطنين فلايعتبرون أكثر من مادة بشرية حاميـة صالحة للاستثمار فقط . لقـد ديس مبـدأ المساواة بين النـاس والأمـم فى الحقوق ليقـوم على أنقـاضه مبدأ يعطـى القلة المستثمرة كل الحقوق ويحرمها على غالبية المواطنين المستثمـرين . لقد أطاحوا بعلم الحريات الديمقراطية وأظن أن عليكم أنتم يامملى الأحزاب الشيـوعية والـديمقراطية أن ترفعـوا هـذا العلم وتسيروا به إلى الأمـام إذا كنتم تريدون أن تلتف غالبية الشعب حولكم ولايمكن لأحد غيركم أن يرفعه) .
شيوعيون أمام المحاكم (٥١) مجهول المؤلف .
وممـا جاء عـن الشيوعيين قولهـم : (فتش عن الاستعمار فتـش عنـه تجده فى كل حرب عـدوانية ، فى كل نظـام يستبـد بالشعـوب ، فى كـل سلطة تخشـى الحرية والـديمقراطية ، فى كـل بيـت يحرم أطفـاله ونسـاءه وشيـوخه مـن الأمـن والدعة والسرور ، فى كل سجن يزخر بالأحرار ، فى كل مشنقة تختطف المؤمنين بشعوبهم فى كل أقبية التعذب والإرهاب) . المرجع السابق (١٧٣) .

بمطالب العمال التى تقدموا بها إلى القيصر سنة ١٩٠٥م وجاء فيها المطالبة بالتخفيف من بؤس الشعب ، اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة اضطهاد رأس المال للعمل المأجور ، الحفاظ على الحرية الشخصية ، حرية الكلام والاجتماع والرأى ، التعليم الالزامى على نفقة الدولة ، المساواة بين الجميع أمام القانون[١].

ويرى لينين أنه لايمكن أن يكون هناك حرية سياسية دون أن يكون هناك حقا فى الاضراب[٢].

ويبين الدكتور عبد الحميد متولى أن الانتقادات التى يوجهها الماركسيون للديمقراطية[٣]البرجوازية يمكن تلخيصها فى ثلاثة أمور يتصل بعضها ببعض :

الاول : أن (الديمقراطية الغربية ليست ديمقراطية كاملة ذلك لأنها - كما يقول الماركسيون - ديمقراطية سياسية فحسب ، ومن أجل أن تكون ديمقراطية كاملة كان يجب أن تكون كذلك ديمقراطية إقتصادية - إجتماعية ، أى أن يكون من خصائصها كذلك أن تكفل للفرد مايطلق عليه فى العصر الحديث "بالحقوق الاجتماعية" (Droits Sociaux) ويقصد بها تلك الحقوق التى تقرر للفرد لتحريره من الناحية الإقتصادية ، ولذلك يطلق عليها أحيانا "الحقوق الإجتماعية - الإقتصادية" ...)[٤].

الثانى : (إن الشعب ليس هو الذى يحكم فى الواقع فى مجتمع رأسمالى - فيما يرى لينين - لن تكون الديمقراطية إلا أداة خدمة الطبقة الحاكمة ، أو على حد تعبيره "ديمقراطية لصالح الأقلية" ، أى لطائفة أصحاب الأملاك :

---

(١) انظر نصوص حول الاضرابات (٣٧-٣٨) ، وانظر (٤٠) ومابعدها .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٨-٢٩) .

(٣) تتكون كلمة ديمقراطية من لفظتين يونانيتين هما (Demos) ومعناها الشعب و (Krates) ومعناها السلطة ويكون معنى الديمقراطية (سلطة الشعب) . القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٢٨) .

(٤) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٣٩) .

الأثرياء ، بعبارة أخرى أن السيطرة على شئون الحكم إنما هى لطبقة الرأسماليين)(١).

الثالث : أن (الحرية فى الديمقراطية الغربية مسألة صورية "شكلية" هذه الظاهرة تعد بمثابة نتيجة طبيعية لما تقدم بيانه "فى النقدين السالفين) ، فالحرية هنالك ـ فيما يقول الماركسيون ـ ماهى فى الواقع سوى مجرد سراب خداع فى أعين الطبقة العاملة ، فما هى مثلا قيمة حرية الفرد فى أن يرشح نفسه للانتخابات النيابية إذا لم تكن لديه ـ .. الثروة ولاالتعليم ولاالفراغ ولاغير ذلك من الوسائل التى تمكنه من منافسة المرشحين من أصحاب رؤوس الأموال ومن الوصول إلى المقاعد النيابية . وماقيمة حريةالصحافة مثلا إذا كانت كبريات الصحف فى أيدى أصحاب رؤوس الأموال ، وتحت سيطرتهم)(٢).

خامسا : التربية السياسية .

اهتم السوفييت كثيرا بالتربية السياسية لما تحققه لهم من راحة وعدم عناء فى فرض آرائهم وسلطانهم على الناس . وفكرة التربية السياسية (فكرة واسعة المدى ، فهى لاتعنى فقط تدريب الأهلين على أن يكونوا مواطنين تحت حكم دكتاتورى ، بل تتضمن لذلك الواجب السلبى ، واجب استئصال "آثار الرأسمالية من مدارك الشعب" ؛ ثم إنها تتضمن أيضا قبول أساليب الشيوعية وعقائدها فى صورتها التى تطورت إليها وظهرت بها فى الاتحاد السوفييتى ، وتطبيقها تطبيقا إيجابيا ، متسما بالحماسة ، مجردا من النقد . وتعنى بالإضافة إلى هذا كله أن يقبل المواطنون بلاتردد النظرة العالمية المعروفة بالعقيدة "المادية الجدلية" والنظرة التاريخية المعروفة بالعقيدة "المادية التاريخية" . ولعل أهم من هذا كله لسائر العالم أنها تعنى قبول أسطورتين عظيمتين عن "نحن وهم" ، أى عن الاتحاد السوفييتى ومايسمونه الديمقراطيات

---

(١) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٤٠) .
(٢) المرجع السابق (٤٠) .

الشعبيـة مـن جهـة ، وجميـع الأقطـار الأخرى وخاصـة الـولايات المتحـدة الأمريكية من جهة أخرى)[١].

واهتم الشيـوعيون بهذه التربيـة لأنها تحقق الانتصـار وتدفع الجنود إلى الكفاح بالقوة[٢]، كما أنها تربط الجندى بالولاء للحزب ، وعدم الخروج عن أفكاره أو سياسته ، واتخذوا عدة تدابير لتحقيق ذلك :

(أ) الحذر فى عملية التجنيد فيختار فيه أعظم العناصر ثباتا .

(ب) إدخال مجموعة كبيرة من أعضاء الحزب فى التجنيد .

(ج) وضع نظام تربوى لكل طبقات الجيش .

(د) إنشاء رقابة داخلية لمتابعة عدم الولاء[٣].

ولأجل ذلـك اعتبر لينين أن الـولاء السيـاسى هـو أهـم مـايسأل عنه بالنسبة للرفيق[٤]. وربط لينين بين قيـام الإشتراكيـة وبين تعلم العمـال أمـور الحكـم والسيـاسة فقال : (لايمكـن للإشتراكية أن تتكـون وتتـوطد إلا عندما تتعلم الطبقـة العاملة الحكم والإدارة ، عنـدما يترسخ نفـوذ الجمـاهير العمالية وهيبتها . وبدون هذا ، تظل الإشتراكية مجرد أمنية)[٥].

سادسا : التصـريح المباشر بوجوب إعطاء الحرية السيـاسية للمواطنين ، وخاصة العمال .

جاءت بعـض مـواد الـدسـتـور السـوفييتى تنص على منـح الشعـب حق الحرية السياسية[٦]، وقال لينين عنها : (إن الحرية السياسيـة ، إنما هى حرية الشعـب بتصـريف شئونه المشتركـة ، الشؤون العامة . إن الحرية السيـاسية ،

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٢٤) .
(٢) انظر المرجع السابق (٣٥٠) .
(٣) انظر المرجع السابق (٣٦٣) .
(٤) انظر لينيننا (٥٤،٥٦) .
(٥) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (١٣) .
كمـا أن الشيـوعيين ربطـوا بين شعـارات الشيـوعية وكـل مـايمارسـه الطلاب فى مدارسهم أو نواديهم . انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٣٤) .
(٦) انظر سقوط الماركسية (١٤٢) .

إنما هى حق الشعب بانتخاب نوابه إلى دوما الدولة (البرلمان) . إن دوما الدولة هذا (البرلمان) الذى ينتخبه الشعب بنفسه ، هو الذى ينبغى له وحده أن يناقش ويسن جميع القوانين ، وأن يقر جميع الضرائب والرسوم إن الحرية السياسية ، إنما هى حق الشعب فى أن يختار بنفسه جميع الموظفين وأن ينظم شتى أنواع الاجتماعات لمناقشة جميع الشؤون العامة ، وأن يطبع دون إذن ، مايشاءه من الكتب والصحف)[١].

ويقول : (الحرية السياسية ضرورية بوجه خاص للعمال والفلاحين)[٢].

سابعا : لمحة عن الهيئات السياسية السوفيتية .

الحزب : ويعرفونه بأنه (منظمة سياسية للطبقة العاملة والشعب السوفييتى بأسره ، وطليعتهما الفكرية والسياسية ، والقوة القائدة والموجهة فى المجتمع الإشتراكى ، ونواة نظامه السياسى وجميع هيئات الدولة وجميع المنظمات الإجتماعية)[٣].

وعندما تطلق كلمة الحزب فإن المقصود بها "الحزب الشيوعى السوفييتى" فهو القلب بالنسبة لنظام الحكم هناك[٤]. ويهدف الحزب إلى خدمة مصالح الشيوعية ، وتوجيه سير حركة واسعة النطاق لتشمل العالم كله[٥].

وقد نص الدستور على اعتبار الحزب (قوة توجه وتقود المجتمع السوفييتى)[٦].

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٢٠) .
(٢) المرجع السابق (٦٦) .
(٣) المعجم (٢٠٥) .
(٤) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٣٠) .
(٥) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٧) .
(٦) مجد الأمم (١٤٩) ، وانظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٨٥) .

ويردد الشيوعيون أن الحزب الشيوعى وجد من أجل الشعب وخدمتهم[١].

ويتكون الحزب من هيئتين :

(أ) مؤتمر الحزب . (ب) اللجنة المركزية .

(أ) مؤتمر الحزب : (السوفييت الأعلى) هو الهيئة العليا للحزب الشيوعى ويتكون من مندوبين عن الهيئات السفلى للحزب . وتتركز فيه كامل سلطة الدولة[٢].

(ب) اللجنة المركزية : يجرى انتخاب هذه اللجنة عن طريق مؤتمر الحزب ومهمتها توجيه شئون الحزب فى الفترات مابين انعقاد مؤتمر وآخر[٣].

المبادىء التي يقوم عليها الحزب :

الأول : مبدأ يتعلق بتكوين الحزب (المركزية الديمقراطية) .

الثانى : الديمقراطية الداخلية فى الحزب .

والمبدأ الأول : وهو المركزية الديمقراطية يشمل مايلى :

(أ) انتخاب جميع هيئات الحزب المختلفة من القاعدة إلى القمة . أى بشكل هرمى .

(ب) تقديم اللجان الإدارية لكل هيئة حسابا عن أعمالها فى أوقات دورية إلى تلك الهيئة .

(ج) نظام صارم داخل الحزب بحيث تخضع الأقلية للأكثرية .

(د) القرارات من الهيئات العليا واجبة الاحترام من الهيئات السفلى[٤].

---

(١) انظر المعجم (٢٠٦) .

(٢) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (١٣٣) ، النار والجليد (٤٨،٦٠) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٦٢) .

(٣) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (١٣٣) .

(٤) انظر المرجع السابق (١٣٣-١٣٤) .

المبدأ الثانى : الديمقراطية الداخلية .

وهذه الديمقراطية يعبر عنها بالمناقشة الحرة والجادة للمشاكل السياسية داخل المنظمات المختلفة للحزب . وتشمل هذه المناقشات حق النقد ومايطلق عليه : النقد الذاتى (أى نقد الهيئة نفسها بنفسها) .

مهمة الحزب ومركزه فى الدولة :

(١) الحزب هيئة كفاح Organisme de combat أعضاؤها شيوعيون تربطهم فكرة واحدة هو مذهب ماركس ولينين .

(٢) الحزب هو الممثل للمذهب وعلى ضوئه يعمل الحزب على تنظيم المجتمع السوفييتى .

(٣) الحزب هو الذى يتولى "قيادة الدولة" .

ولقد أقر الدستور لسنة ١٩٣٦م بهذا المركز للحزب حيث قرر بأنه "طليعة الطبقة العاملة" .

(وأنه مركز هيئة القيادة لجميع منظمات الطبقة العاملة سواء كانت إجتماعية أو حكومية) .

وتبدو مظاهر مهمة القيادة هذه فيما يلى :

(أ) أن القرارات الهامة المتعلقة بالشئون السياسية والإقتصادية تتخذ بواسطة اللجنة المركزية للحزب ومجلس الوزراء مجتمعين .

(ب) اختيار الأفراد لأهم مناصب الدولة .

(ج) يراقب الحزب سير أعمال المصالح الحكومية .

(د) يقدم الحزب التوجيهات العامة التى تساعد تلك المصالح على رسم مناهج أعمالها .

(٤) الحزب هو الذى يكفل الوحدة بين مجموع أجزاء الإدارة الحكومية السوفيتية . وتبدو مظاهر ذلك فيما يأتى :

(أ) يعمل الحزب على أن يرشح للانتخاب (أى ينتخب) بعبارة أصح بعضوية مختلف المجالس (السوفييت) أكثر أعضاء الحزب الشيوعى نشاطا وإخلاصا .

(ب) يعمل الحزب على مراقبة نشاط هذه المجالس . عن طريق لجنة المراقبة (وهى إحدى لجان الحزب) وكذلك عن طريق لجان الحزب الفرعية (المحلية) والهيئات المحلية (الكمسمول Komsomol) .

(ج) يقوم الحزب بوضع مشروعات البرامج أو الخطط الإقتصادية ومشروعات التربية السياسية وتثقيف الجماهير(١).

والسوفييت الأعلى هو الهيئة التشريعية فى الاتحاد السوفييتى ، ويضم مجلسين : مجلس الاتحاد ، ومجلس القوميات .

ومجلس الاتحاد ينتخب أعضاؤه من بين ممثلى الجمهوريات المتحدة حسب عدد سكان كل جمهورية .

ومجلس القوميات : يضم ممثلى الجمهوريات ذات الحكم الذاتى ، وممثلى المقاطعات ذات الحكم الذاتى(٢).

ومن المسائل التى تقوم بها هذه المجالس (حق المبادرة التشريعية ومناقشة كافة المسائل المتعلقة بصلاحية السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى على نحو متساو فى جلسات كلا المجلسين وإقرار القوانين والأعمال القانونية الأخرى بالتصويت فى كلا المجلسين ، ووجود نظام موحد لعمل المجلسين ،

---

(١) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٣٥-١٣٨) ، النار والجليد (٤٦) .
وانظر الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٦٩-٢٧٠) بمراجعة د. يحي الجمل ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
ومما جاء فيه أن تنظيم الحزب يقوم على مبدأين أساسيين :
أولا : القيادة الجماعية التى تعنى عدم انفراد شخص واحد بالقيادة .
ثانيا : الديمقراطية المركزية التى تعنى الأمور الأربعة الآتية :
(أ) تكون كل تنظيمات الحزب من القاعدة إلى القمة بواسطة الانتخابات .
(ب) مسؤولية تنظيمات الحزب أمام التنظيمات الأعلى .
(ج) النظام الجديد وخضوع الأقلية للأغلبية .
(د) الخضوع الكامل من قبل أجهزة الحزب الدنيا لقرارات الأجهزة العليا .
المادة (١٩) من نظام الحزب (٢٦٩) .

(٢) النار والجليد (٤٨) ، وانظر : القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (١٣٨-١٣٩) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٦٢) .

وانتخاب كل من المجلسين هيئاته القيادية الداخلية وهيئاته المساعدة ، وإقرار نظام الرئاسة الدورية لرئيسى مجلسى الاتحاد والقوميات ونوابهما فى الجلسات المشتركة للمجلسين ، ينبغى أن تعقد دورات المجلسين مرتين على الأقل فى العام ، وعند الضرورة تستطيع هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى أن تدعو إلى عقد دورة طارئة وهى ملزمة بالدعوة لعقد دورة طارئة حتى لو طلبت ذلك جمهورية متحدة واحدة . وتعقد الدورات فى قصر الكرملين الكبير)(١).

الرئيس : يقوم (السوفييت الأعلى) بانتخاب الرئيس ، ومع ذلك فإنه لايحكم بمفرده بل إن (مجلس الرئاسة) هو الذى يدير شئون الدولة وسياستها أى أن القيادة جماعية وليست فردية(٢).

ومجلس الرئاسة أو هيئة الرئاسة له عدة اختصاصات منها السلطة التنفيذية ، والتشريعية ، والقضائية ، ومنها حق منح الأوسمة ، ألقاب الشرف ، وحق العفو غير الشامل ، تعيين القادة فى الجيش ، وحل مجلس البرلمان ، إعلان الأحكام العرفية ، تفسير القوانين ، تعيين الوزراء وإقالتهم(٣).

ويقرر الدستور السوفييتى أن (اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية هو دولة إشتراكية للشعب بأسره ، تعبر عن إرادة مصالح العمال والفلاحين والمثقفين ... كل السلطة فى الاتحاد السوفييتى للشعب)(٤).

---

(١) النار والجليد (٤٨-٤٩) ، وانظر الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٦٣) .

(٢) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (١٤٣-١٤٤) .

(٣) انظر : المرجع السابق (١٤٤-١٤٥) ، التيارات السياسية المعاصرة (٢٦٣-٢٦٥) ، د. عبد الحميد البطريق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .
ولمزيد من المعلومات عن الهيئات السياسية والتنظيم السياسى فى الاتحاد السوفييتى انظر النار والجليد (٤٩-٥٢) .

(٤) النار والجليد (٤٧) .

تقسيم الدولة عند الشيوعيين :

أولا : دولة البروليتاريا (دكتاتورية البروليتاريا)[١].

ثانيا : زوال الدولة (فى المرحلة الشيوعية) .

يقول الشيوعيون عن الدكتاتورية فى المرحلة الأولى بأنها :

(١) مؤقتة وهى فترة انتقال إلى المرحلة الثانية .

(٢) أنها دكتاتورية أغلبية (الطبقة العاملة) ضد أقلية وهى طبقة البورجوازية أو الرأسمالية .

(٣) لابد من ظلم الرأسماليين كما ظلموا العمال . ويقضى على مقاومة البرجوازية بالقوة[٢].

وأما المرحلة الثانية فإنه يستحيل الجمع بين الدولة والحرية . يقول لينين من السخافة (الجمع بين كلمتى "الحرية" و"الدولة" . فما بقيت الدولة لاوجود للحرية ، وعندما تحل الحرية تنعدم الدولة)[٣].

وبعد هذا العرض المختصر نصل إلى التالى :

أولا : أن العمال يؤلفون السلطة الحقيقية فى الاتحاد السوفييتى .

ثانيا : لكون السلطة السوفيتية فى يد طبقة العمال فإن انتصارها مؤكد كما صرح لينين .

---

(١) يقول لينين : (لابد للبروليتاريا من سلطة الدولة ، ومن تنظيم القوة المركزية ، ومن تنظيم العنف سواء أكان لقمع مقاومة المستثمرين ، أو لقيادة جماهير السكان الفقيرة ،من فلاحين وبورجوازية صغيرة أو أشباه بروليتاريين ، فى أمر ترتيب الإقتصاد الإشتراكى) .
وقال لينين : (إن تعاليم دكتاتورية البروليتاريا هى الشىء الرئيسى فى الماركسية). لينين (٢٥٣) . وانظر السرطان الأحمر(٨٦) عن ماركس ، وقوله إن البروليتاريا ضرورية لتصفية الرجعية والبورجوازية .

(٢) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٦٣) .

(٣) الدولة والثورة (١٠١) .

ثالثا : أن السلطة السوفيتية ستحقق الديمقراطية الحقيقية ، والحرية السياسية ، بكافة أشكالها من انتخاب واضراب ، وتشكيل الأحزاب ...الخ .

رابعا : أن الحكم فى الاتحاد السوفييتى باسم الشعب وللشعب ، والقيادة جماعية لافردية .

خامسا : أن الرأسمالية تقوم على الاستغلال والظلم ولم تحقق الديمقراطية للناس ، وقد أكثر الشيوعيون من انتقادهم لها .

سادسا : أن الدولة البرجوازية يقضى عليها ، ودولة طبقة العمال تضمحل وتزول حيث لم يعد المجتمع بحاجة للدولة لوجود الحرية .

وبعد هذا نأتى للتعرف على الحرية السياسية بين النظرية الشيوعية والواقع السوفييتى .

الحرية السياسية الشيوعية بين النظرية والواقع :

إن عرض واقع الاتحاد السوفييتى هو أكبر برهان فى بيان مصداقية هذه الأفكار والنظريات السياسية من عدمها ، وسوف نعرض لبيان بطلان المزاعم التى رددها ماركس وانجلز عن الدولة ومن بعدهما قادة الثورة البلشفية ، وذلك من خلال النقاط التالية :

أولا : قولهم بأن السلطة السياسية فى يد طبقة البروليتاريا ، وأنها صاحبة الدكتاتورية دون غيرها ، وأنها دكتاتورية أغلبية ضد أقلية .

فيقال لهم إن هذا شعار رخيص ، أخفيتم وجوهكم من خلفه لتصلوا إلى تحقيق مآربكم وأهدافكم . ونسلم معكم بأنه كان هناك طبقة دكتاتورية ، ولكنها ليست طبقة العمال أو الشغيلة ، بل هى أعضاء الحزب ، والذى وصل بهم الأمر إلى احتكار كل شىء مما كان يمثل دكتاتورية حقيقية . يقول دجيلاس : (تعتبر الحركة الشيوعية شكلا من أشكال الحكم الاستبدادى مؤلفا من ثلاثة عوامل أسياسية تخوله السيطرة الكاملة على الشعب . وهذه العوامل الثلاثة هى : السلطة والملكية والعقائدية . إلا أن الحزب المنفرد بالحكم هو الذى يحتكرها جميعها ، أو حسب ماسبق لى وأطلقت عليه تعريف "الطبقة الجديدة" .. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن العوامل

الثلاثة تلك ، محتكرة فى عصرنا الراهن من قبل مجلس الكهنوت الحزبى أو الطبقة البيروقراطية الجديدة . ولم يسبق لأى نظام من أنظمة الحكم الاستبدادية فى التاريخ القديم والمعاصر - بإستثناء الشيوعية - ، أن سيطر على الشعب بمثل السيطرة الاستبدادية التى فرضها النظام الشيوعى)[١].

فمامن صغيرة ولاكبيرة فى دولة الاتحاد السوفييتى إلا ومرجعها إلى الحزب الشيوعى ، وربما يظهر ذلك ويزداد وضوحا فى الآتى :

(أ) أن الحزب الشيوعى هو المسئول عن التفسير لكل ماهو مقدس عندهم ونعنى بذلك العقيدة الماركسية اللينينية!!

يقول كاونتس : (ومما يزيد كثيرا فى الواجبات الملقاه على عاتق الحزب أنه هو الحامل ، والحارس ، والمفسر لطائفة من العقائد المقدسة عند البلاشفة[٢]. ونقول مقدسة لأنه مامن دولة فى التاريخ اللهم إلا الدول الدينية قد أظهرت من الاخلاص لتعاليم زعمائها وأنبيائها مثل ماأظهره البلاشفة لزعمائهم . ذلك أن العقيدة الشيوعية تقرر أن الماركسية اللينينية تراث لايستطاع تقدير قيمته ، لأنها هى التى قادت البلاشفة إلى النصر فى عام ١٩١٨م ، وإلى إقامة "دكتاتورية البروليتاريات" وهى التى تضع الأسس النظرية للمجتمع السوفييتى ، وتكشف عن القوانين العالمية الخاصة بالتطور الاجتماعى ، وتوضح كل الخطط والمناهج ، وتضمن النجاح فى داخل البلاد وخارجها ، وتهدى إلى الطريق المؤدى من الرأسمالية إلى الإشتراكية ، وتحقق النجاح النهائى للشيوعية فى جميع أنحاء العالم . فهى والحالة هذه (علم العلوم) و(الحقيقة التى تتراءى للجماهير الكادحة) فى جميع الأرض ، وهى سلاح بتار لايفل له حد فى يد من يستخدمونه بشجاعة وحسن إدراك . ومن ثم فإن من واجب كل عضو من أعضاء الحزب أن يعمل جاهدا وبلاانقطاع لإتقان هذا التراث . ولماكانت الماركسية اللينينية هى عبارة عن طائفة من

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٢٠-٢٢١) .

(٢) قارن ذلك مع فعل الكنيسة المذكور فى المقدمة العامة (٢٦) ومابعدها .

العقـائد المجردة غاية التجريد ، ولما كـانت مليئة بالمتنـاقضات ، فقد لايكون ماتعنيه من الأفكار لهداية معتنقيهـا فى عملهـم فى وقـت مـا واضحـا كـل الوضوح . ولهذا وجب أن تقوم سلطة تخول حق تفسير هذه العقيدة تفسيرا لايتعرض للخطأ ، وهذه السلطة هى لجنة الحزب المركـزية ، وخاصة الزعامة الجمـاعية ، أى اللجنة الدائمة التى تتولى رياستها ، بل قـد يتولى هذه السلطة فرد قوى كما تولاها ستالين .

ولقـد ابتعد لينين بطبيعة الحال عـن تعاليم ماركـس وانجلز الأولى حين كيفها لتتفق مع ماطبعت عليه بلاد أهلها من الفلاحين)[1].

وبنـاء على هـذا الانفـراد بمعـرفة الأسـرار القدسيـة للأفكـار الماركسيـة اللينينية!! كانت هناك تبعات تلقى على عضو الحزب يقول عنها كاونتس بأنها (كثيرة مجهـدة فمن واجبه أن يدأب جاهـدا دون توقف لإتقـان الماركسيـة - اللينينية فى ماضيها وحاضرها ، وعليه أن يكون قادرا على أن يجيب الجواب الصحيـح عن جميع الأسئلة الهـامة الخاصة بهذه النظـرية حتى وإن لم يفهـم لهـذه الأجوبة معنى . ولابد أن يكـون قادرا على تكرار الحجـج النظـرية التى تؤيد جميـع خطط الحزب ولو لم يكـن ممن يؤمنون بهـا . ويجب عليه طالما كان عضوا فى الصفوة الممتازة الحاكمـة من المجتمع السـوفييتى أن يعـد نفسه جنـديا فى صفوف الجيش السيـاسى الذى يسير بالاتحاد السـوفييتى وبجميع بنى الإنسان إلى أرض الشيوعية الموعودة .

فإذا انضم إلى الحزب تخلى عن جميع المطالب الفردية المعـارضة لمطالب الحزب ، وتعهـد بأن يسير فى جميع الأمور على الخطة التى تضعهـا الزعامة ، بل إنه يجب أن يكون مستعدا للتخلى عن أعز العقائد عنـده ، ماعدا العقيدة الأسـاسية القـائلة إن الحزب على حق وأنه يقـود البلاد إلى النصـر . ومـن واجبـه أن يضـع الولاء للحـزب فـوق كل ولاء سواه ، ولـو أدى هـذا إلى هلاكه وإذا ماطلب إليه أن يقوم بمهمة خطرة من مكـان بعيد ، فليس له أن

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٨٣) .

يتردد أو يتملص ، وإن أدت إلى فراق أسرته وأصدقائه . ومن واجبه أن يقبل بهذه الروح نفسها كل تعديل وكل تخفيض فى درجته ، وكل عقاب يوقع عليه ، وكل إذلال يصيبه . وعليه أن يعترف بما وقع فيه من أخطاء فى التفكير والعمل ، وأن يكرر هذا الاعتراف المرة بعد المرة ، وأن يتعهد فى حماسة أن يصلح من شأنه . ذلك نظام صارم ، لاتحتمله بلاشك قوى الكثيرين من أعضاء الحزب . ولهذا إنهار ملايين من الأعضاء فى الطريق ، لهذا السبب أو ذاك ، أو ألقوا من حافة الهاوية . لكن هذا هو المثل الأعلى الذى يرتبط به العضو . ومن الحقائق الواضحة أن تربية الشيوعى من الأمور الهامة والأعمال الشاقة ، ولكنه يخالجه الأمل على الدوام بأنه سيدعى فى آخر الأمر ليعمل مع الصفوة المختارة الممتازة فى لجنة الحزب المركزية)[١].

وبهذا يظهر أن الحزب هو المتسلط لتفسير الأسرار البلشفية كما أنه متسلط على من يرغب الانضمام إليه ويحمله من التبعات ماقد يعجز عنه ، ويظل هؤلاء الأعضاء فى إرتقاء هرمى حتى مايصل الأمر بالرئيس أو المسئول الأول فى الحزب . وكل أحد من الأعضاء يخشاه ويحاول جاهدا الوصول إلى رضاه .

(ب) كما أن الحزب قد جعل من السير وفق مبادىء ماركس ولينين أسلوبا لايمكن مناقشته أو انتقاده . فسيطر الحزب بهذه الأفكار على الآخرين . يقول فارغا : (إن نظام المركزية البيروقراطية فى الحزب الذى هو أس الحياة السوفيتية كان لابد أن ينعكس على أيديولوجيته . فأيديولوجيا العهد القائم لامهمة لها بالفعل سوى تبريره فى نظر المجتمع عن طريق الإشادة بجوانبه الإيجابية والسكوت عن مظاهره السلبية . والأيديولوجيا فى الدولة السوفيتية

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٨٣-٣٨٤) .
وبالطبع فإن (من أيسر الأمور أن يكون المرء وزيرا فى الحكومة الشيوعية اليوم ثم يعزل غدا ، ثم يرمى فى السجن ثم يقتل لأنه خان الحزب) . المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٧٤) .

لاتصاغ وتذاع بين السكان إلا من قبل قيادة الحزب البيروقراطية التى تحكم البلاد بأساليب دكتاتورية قائمة على أساس نظام السرية فى كل مايمت بصلة إلى الإقتصاد والسياسة . المركزية الأيديولوجية هى السائدة إذن فى البلاد ، فهناك أيديولوجيا وحيدة تنفى وتقمع كل ماعداها . فالصحافة والرقابة محصورتان فى مجملهما بين يدى الحزب والدولة الموضوعة تحت تصرفه . وحق الاجتماع والإعلام العام مقصور عليه وحده ، وهو وحده الذى يتصرف به . وحرية الكلام مرفوضة فى جميع أشكالها . ولهذا السبب بالتحديد تجهل الأيديولوجيا السائدة مبادىء البحث والروح النقدية ، فالنقد لايمكن أن يوجه إلا إلى بعض الوقائع أو بعض الأشخاص المفردين، وهذا بشرط ألا يكونوا من ذوى المناصب العالية . ومن المحظور تحت طائلة العقوبة الصارمة ، انتقاد النظام القائم ومبادىء تنظيم السلطة وتسيير الحياة الإجتماعية . ولهذا السبب لم تجر قط أى مناقشة علنية لافى المجتمع ولاحتى فى الحزب . فعهد المناقشات السياسية كتلك التى دارت فى عام ١٩٢٠م يبدو الآن خرافيا تماما . وهذا كله يحول الأيديولوجية إلى عقيدة رسمية معصومة وإلى حد كبير لفظية شكلية ، مبنية على هوس الاستشهادات والرجوع إلى الثقات . لكن مؤلفات ماركس وانجلز ولينين لايختار منها إلا الأطروحات القمينة بتبرير الوضع القائم ، فى حين يضرب نطاق النسيان على الأطروحات الأخرى . وهذا الأسلوب يستخدم بوجه خاص مع مؤلفات لينين وتصريحاته بالرغم من أن التصور السائد يتسمى باسم "الماركسية - اللينينية" . وتاريخ الحزب يكتب بطريقة مغرضة جدا بغية نفع سلطة قيادة الحزب ونشاطها ، وتسويد صفحة كل معارضة وجميع خصوم تلك القيادة . وبسلوك هذا المسلك ، يسقط عدد كبير من الأحداث والأسماء فى بئر النسيان ، وتنسب إلى أولئك الذين يراد تشويه سمعتهم أفعال وأفكار لم يأتوها قط)[١].

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧١-٧٢) ، ترجمة جورج طرابيشى ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .

وهكذا يظهر لنا أن الحزب قد استأثر بكل شيء ، ومنع الآخرين من كل شيء ، وحقق الدكتاتورية له ولرجاله . ولم تكن الطبقة العاملة إلا ستارا حقق من ورائه هؤلاء سيطرتهم ورغباتهم الذاتية .

ثانيا : تقسيمهم للدولة . زعم باطل ينقضه واقع الاتحاد السوفييتي ذاته.

فالمرحلة الأولى ثابتة ولم تتبدل ، كما أنها لم تكن فى يد الطبقة التى حددت لتكون صاحبة السلطة السياسية .

وإذا نظرنا لواقع الاتحاد السوفييتى الذى فجرت فيه الثورة البلشفية نجد أنه لم يأخذ فى التطور ومحاولة التخلص من الدولة بل على العكس من ذلك تماما ، فالمرحلة الستالينية - على سبيل المثال - كانت قمة فى الدكتاتورية الفردية ، بل اعتبر الشيوعيون أنفسهم أن فترة حكمه تمثل أحد عهود حكم الإرهاب[١]. وبالتالى فإن الدولة السوفيتية بقيت على الحالة الأولى أكثر من سبعين عاما ثم زالت من على الخارطة السياسية نهائيا .

أما المرحلة الثانية : وهى زوال الدولة .

فإن هذا زعم باطل يرده التالى :

أولا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يدل على أن هذه الفكرة كانت بمثابة الخيال ولايمكن تطبيقها ، ثم إن الوضع العالمى العام يأبى مثل هذا التنظير[٢]. ومن هنا تغدو هذه الفكرة خرافة[٣]، بل حلما لايمكن تحققه[٤].

---

(١) انظر فى ذلك القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٦٣-٦٥) .
(٢) لمزيد انظر المرجع السابق (٦٥-٦٦) .
(٣) انظر الطبقة الجديدة (٢١٤) .
(٤) انظر إسلام لاشيوعية (٩٩) .

ثانيا : أن هذه المرحلة يحوطها الغموض الشديد ، وقد اعترف لينين بذلك وقال : (يعوزه الوضوح ، وأنه لايوجد فى الواقع فى روسيا مايؤيده)[١].

كما أنهم عجزوا عن وصف كيفية هذا الذبول والزوال[٢]. وهم يرون أن زوال الرأسمالية سيكون بداية من التناقض الذى بداخلها ، وهنا نوجه إليهم هذا التساؤل ، هل هذه المرحلة هى النهاية؟ فإن أجابوا بالإيجاب ، قلنا لهم : وماذا عن قانون التطور والتناقض؟!! وهنا من حقنا أن نقول بأن التطور يقف عند حد معين لايتجاوزه وهذا يلزم منه بطلان مزاعمهم التى أثبتوا من خلالها تطور كل شىء .

وإن أجابوا عن التساؤل السابق : بأن هذه المرحلة ليست هى النهاية وأن التطور مستمر . قلنا لهم إذا ماهو نقيض الشيوعية ، وأنتم تعتقدون أنها نهاية المطاف .

وهكذا نجد أن نظرياتهم بعضها ينقض بعضا . وأن القول بزوال الدولة لايؤيده دليل ولايدعمه برهان .

ثالثا : أن تطبيق هذا المبدأ لايتأتى إلا إذا خلت التجمعات من كل أنواع الصراع والخلاف ، وهل بالإمكان خلو مجتمع إنسانى من هذه الصراعات والنزاعات . إن هذا أقرب إلى الخيال . ومن هنا تحتم وجود سلطة أو دولة لتساعد فى تخفيف ذلك الصراع . إن ماركس تخيل (البشر وقد تحولوا إلى ملائكة كل واحد منهم يؤدى واجبه دون تقصير ودون خروج على الأوامر وارتكاب للنواهى ، فلامنازعات بين الناس ولامشاكسات ولاغير ذلك مما يستدعى الدولة والقانون ، وهذا ضرب من الخداع والتمويه والضحك على عقول السذج لأنه والحالة هذه يتصور الإنسان قد تخلص من إنسانيته بما تحويه من ضعف وخطأ وقصور وتحول إلى ملاك طاهر

---

(١) نقلا من كتاب القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (٦٧) .
(٢) انظر المعبود الذى هوى (٣٤٢-٣٤٣) .

لايعـرف الشر ولايرتكبه ولايعـرف المعصية ولايقربها ، وبما أن الإنسـان هـو الإنسان بقصوره وخيره وشره هو الذى يعيش على هذه الأرض فلابد لـه من قوانين ونظم ودولة وحساب وعقاب)[١].

وإذا كـان الإقتصاد السوفييتى يقـوم على التخطيـط والتنظيم فـإن ذلك يتطلب هيئة معينة تقوم عليه لتسير به إلى ماينشده أصحابه[٢].

رابعا : اعترافهـم بأنه لابد مـن وجود سلطة تقوم على الأمـر ، وتعمل على تحقيق الإصلاح .

حيـث أشار لينين إلى ضرورة سيطرة الحزب الواحد وأوحدية السلطـة فقـال : (لابد بطـريقة أو بأخرى مـن الطـاعة غير المشـروطة لإرادة أوحدية...)[٣].

واعتبر لينين أن طبقـة العمـال غير قادرة على قيادة المجتمـع ، إذ لابد من صقلها أولا وتعليمها ، ومـن هنـا كـانت "دكتـاتورية الصفـوة الممتـازة" كضرورة مؤقتة ولكن حقيقة الأمر أن هذه الصفوة ظلـت مسيطرة على شئون الدولة[٤]، إلى أن انهارت نهائيا .

وكتبـت إحدى الصحـف السـوفيتية فى شهر سبتمبر عـام ١٩٥٥م تحت عنوان "خطة لينين لبناء الشيوعية فى إتحاد جمهوريات السوفييت الإشتراكية" (إن وحدة الحزب الشيـوعى وقـوته لهما الشرط الأسـاسى لاستقـرار الدولة الإشتراكية ونجاحها فى أداء وظائفها داخل البلاد وخارجهـا . ذلك أن الحزب هو القوة الهادية الموجهة لـدكتاتورية البروليتـاريات "الـدهماء" وهـو الذى يقود الشعب السوفييتى ويعلمه)[٥].

---

(١) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٨٧) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٨٨) .
(٣) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٢) .
(٤) انظر التيارات السياسية المعاصرة (٢٤٦) .
(٥) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٦) .

وفى هـذا دليل على أن البروليتـاريا أساسا لاتسير إلا بتـوجيه الحزب .
فأين دعوى تحقيق مطالبها ودكتـاتوريتها بعـد القضـاء على بقيــة الطبقـات؟!!

ذكـرت صحيفة برافدا فى ٦ يوليو ١٩٥٦م فى مقال لهـا بعنوان "الحزب الشيـوعى يلهـم الشعـب السـوفييتى وزعيمـه" : (أمـا فى بلادنا فـإن الحزب الشيوعى كان ولايزال وسيظل المسيطر الوحيد على العقول والمعبر عن أفكار الشعـب وآماله وقائده ومنظمه فى كفاحه الجامع من أجل الشيـوعية والحزب الشيوعى المسلح بالنظرية الماركسية اللينينية والقوى بوحدته وتضامنه ونظامه والذى لاتضارعه أى هيئة أخرى فى قدرته على تنظيم آلاف الآلاف من أفراد الجمـاهير وقيادتهم فى أعقد الظروف هذا الحزب الشيـوعى هو الذى يوجه - منـذ إستيلاء السـوفييت على زمـام الحكـم فى ثقة - سفينـة حيـاتنا السيـاسية والإجتماعية نحو الشيوعية)[١].

ويقول لويس فيشر : (وكان الحزب الشيوعى هو أبرز هيئـة فى روسيا السـوفيتية حتى ليشبه نظام "الأديرة" إذا ذكـرنا التقشـف ومطـالبه ، والتفانى المطلـوب من أعضائه وعترته ؛ فقـد جعلته تقاليده ، وهـى الطـاعة المطلقة ، والسرية ، والنظام المتين ، والضبط والربط ، أشبه مـايكون بهيئة "عسكرية" وكـان يبدو كأنه "الدينامو"المحرك أو الكلب الراصد الحارس المترقـب ، أو هو وحى النظام الجديد وإلهـامه ، وكـان مصدر كـل سيـاسة توضع ، وكل خطـة تنتهج ، والمظهر الأوحد للسلطة السياسية وإن لم يبـاشرها فى الظاهر ، أو يمارسهـا بالفعـل ، تاركـا قيـادها للحكـومة البيروقـراطية ذاتهـا ، مكتفيـا بالتـوجيه والرقابة والإشراف ؛ وذلـك لأن توزيع المهـام على هذا النحو من شأنه أن يمنع من إغراء المنــاصب الكبيرة ، وفتنـة السلطــان ؛ وكـــان أكثر الموظفين فى الحكومة أعضاء فى الحزب ...)[٢].

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفيتى (٣٠) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٦١) وحتى لايطول بنا المقام فى نقل النصوص الدالة على أن الحزب الشيـوعى قد سيطر على كـل شىء وباعتراف أصحابه انظـر : المسلمـون فى الاتحاد السـوفييتى (٢١٦-٢١٧) ، الطبقـة الجديدة (١٩٢) ، فـوق أطلال الماركسيـة (١٦١) ، نشوء وإنهيار الامبراطورية الشيوعية (١٢) .

ثم إن (سيرة الأمناء السبعة تظهر أن همهم الأساسى يتمثل بالاستيلاء على السلطة)[١]. وأعلن ستالين (أن سلطان الدولة لايمكن ولايصح أن يضمحل أو يزول بل لابد من بقائه يحمى العدوان عليها)[٢]أى العدوان على الشيوعية من قبل الرأسمالية .

خامسا : ثم يقال للشيوعيين هل بإمكانكم ترك حزبكم السياسى ، وتسليم الأمر لأى حزب آخر ليقوم بالمهمة عنكم طالما أنه لن يكون هناك هيئة أو سلطة سياسية ؟!!

إن الجواب الفعلى لاالنظرى هو فى ماأقدم عليه الشيوعيون حيث أسقط هؤلاء جميع الأحزاب السياسية ، وهذا من أكثر الأمور مصادرة للحرية السياسية فى بلد يدعى الديمقراطية .

يقول كاونتس : أخذ الحزب (يعمل بسرعة فائقة لتدعيم سلطانه ، فتغلب على عدد كبير من الأحزاب الثورية المؤتلفة ، واستحوذ على جميع أدوات السلطة والنفوذ ومظاهرها ، وسيطر على جميع الإدارات الحكومية ، وأسقط حقوق "الأهلين السابقين" ، وحل جميع المنظمات المنافسة له ، وأعلن أنه هو الهيئة المشروعة الوحيدة فى ميدان النشاط السياسى ، ووضع نظاما لدولة ثورية تعمل فى غير تحفظ لخدمة الطبقة الحاكمة الجديدة ، وجعل المحاكم والقوانين أدوات للدكتاتورية التى تعمل على الدوام باسم "الكتلة العاملة الكادحة" ، وأنشأ الجيش الأحمر "لحماية الثورة" من أعدائها فى داخل البلاد وخارجها . وضمن الحزب ولاء هذا الجيش بإنشاء نظام متغلغل واسع النطاق من المندوبين السياسيين والجنود الحزبيين يعملون كلهم بروح "اليقظة الثورية" وأنشأ الحزب "التشيكا"[٣]"سيف الثورة المسلول"

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٢) .

(٢) نقلا من كتاب القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (٦٦) .

(٣) (التشيكا شرطة سياسية لم يكن هدفها القضاء على الأعداء الظاهرين فحسب بل وبث الرعب فى قلوب الطبقات الإجتماعية المعادية للإشتراكية حسب العقيدة اللينينية) . التعليم فى الاتحادالسوفييتى (٥٧-٥٨) .

للخلاص من معارضيه والقضاء على من يخرج عليه فى داخل الأقاليم التى يحكمها)[١].

سادسا : يتذرع الشيوعيون بأن المجتمع القديم لم يكن فيه دولة ، وهم يريدون العودة بالمجتمع إلى تلك المجتمعات البدائية .

فيقال لهم : إن المجتمعات تلك كانت صغيرة ، وهى لم تخل من سلطة يرجع إليها الناس لفض نزاعاتهم وخصوماتهم ، وكانت تتمثل فى رئيس القبيلة ، أو من يرشحه القوم ليكون مسئولا بينهم يرجعون إليه ، ثم إن واقع الاتحاد السوفييتى يرد على هذه الافتراءات كلها التى تتخذ من المجتمع القديم وسيلة لها لبث أفكارها وتأصيلها حيث تم الإبقاء على الملكية ، والدولة ، والطبقية . ونختم هذه الجزئية بقول لينين عام ١٩٢٠م (نحن لانستطيع أن نأخذ بآراء المجنونين والأغبياء الذين يطالبون بالحرية ، فنحن فى ظل ديكتاتورية البروليتاريا لانستطيع أن نمنح المواطنين حريتهم السياسية خشية أن يستخدم أعداء الشيوعية هذه الحرية فى القضاء علينا)[٢].

فكأنهم أرادوا أن تكون القوة السياسية والسيطرة الكاملة فى يد البروليتاريا ، ولكن حقيقة الأمر أن هذه الطبقة نحيت واستبدلت بالحزب وزعمائه أولئك الذين ماقاموا إلا على أكتاف المستضعفين .

لقد كانت مسألة حكم الحزب الشيوعى مستترة تحت نقاب الشرعية القانونية والعقائدية ، وتمارس جميع أنواع التسلط باسم طبقة العمال .

بالطبع والحال هذه لابد أن تظهر الدكتاتورية التى تحكم بكل قوة ، فكانت الدكتاتورية التى تحدث عنها الشيوعيون ولكن ليست لطبقة العمال بل دكتاتورية لسحق هذه الطبقة ، وكافة طبقات المجتمع ، إلا أصحاب هذه الدكتاتورية .

ونبين الآن بطلان زعمهم أنها دكتاتورية أغلبية ضد أقلية .

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٧-٥٨) ، وانظر شهادتى للتاريخ (٣١١-٣١٢) .

(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٤) .

بطلان مزاعمهم فى الدكتاتورية :

أولا : قولهم أنها دكتاتورية أغلبية ضد أقلية .

وهذا زعم باطل من وجوه :

(أ) أن التاريخ لايعرف فيه أن الدكتاتورية حكم أغلبية ضد أقلية ، فكل دكتاتورية يرزح تحتها الشعب بمختلف طبقاته إلا أقلية من أعوان الحاكم . وواقع الاتحاد السوفييتى يدل على أن الطبقة العاملة لم تنج من نير الدكتاتورية .

(ب) أن الدكتاتورية تظل هى الدكتاتورية سواء صدرت من أكثرية أو من جماعة أو من فرد .

(ج) أن الحكم فى الاتحاد السوفييتى بيد أقلية وكذلك فى سائر بلدان أوروبا الشرقية(١).

ثانيا : زعمهم أنه لابد من تلك الدكتاتورية حتى يردون على ظلم الرأسمالية لها .

فيقال لهم : إن توقيع الجزاء بالقوة والعنف ، لايولد عدالة أو حرية ثم إن تحقيق العدالة والحرية لاتبيح ظلم الظالمين أو الاستبداد بالمستبدين ، إنما يتطلب محاكمتهم ومحاسبتهم وتوقيع العقاب عليهم . ولابد أن يكون ذلك العقاب عادلا ، وأن لايكون من قام بايقاع المحاسبة عليهم ظالم لهم ، وليس دين سماوى أو وضعى يقر بأن (ظلم الظالمين عدالة)(٢).

ثالثا : أن الدكتاتورية كانت موجودة بالفعل ، ولكن ليست فى الطبقة التى حددت الشيوعية أن تكون لها السلطة السياسية .

يقول فارغا : (منذ زمن بعيد والبلاد تعانى من دكتاتورية حلقة ضيقة من كبار قادة الحزب وتلبس هذه الدكتاتورية عادة بشكل دكتاتورية بعض

---

(١) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (٦٧-٦٨) .
(٢) انظر المرجع السابق (٧) .

شخصيات تحيط بهاماتها هالة سلطة مطلقة يسهل إساءة استعمالها...)[١].

إن الحزب الشيوعى هو الدكتاتور الأول ويقف على رأسه ويتزعمه الدكتاتور الفردى رئيس الحزب .

و(الشيوعية حين تسنم دست الحكم تصرف تجاه المجتمع الإنسانى بصورة مناقضة لمبدأ التسليم بالقوانين الموضوعية ، لتفرض أساليبها الإرهابية ونظريتها الخاصة . بينما يدعى الشيوعيون من جهة أخرى بأنهم محققون للآمال الموضوعية للمجتمع ، بذلك يتجاوزون بديكتاتوريتهم أشد الأنظمة الديكتاتورية المستبدة ، إرهابية)[٢].

وهذه الدكتاتورية من قبل الشيوعيين كانت تمثل لهم أسلوبا أساسيا من أجل الحفاظ على الشيوعية .

يقول دجيلاس : (فى تاريخ الثورات السابقة ، كانت القسوة واحتكار السلطة تدوم بقدر دوام الثورات نفسها . أما فيما يتعلق بمفهوم الثورة الشيوعية ، فإنه لايمكن لها أن توطد وتستمر إلا من خلال الأساليب الديكتاتورية وعبر السلطة الاستبدادية المطلقة للحزب ، وهذا مايجعل من العسير ، تقدير ديمومة التسلط على الحكم)[٣].

ويضيف : (ولقد اتجهت الثورات السابقة بما فيها سلطة الإرهاب "الثورى" فى فرنسا ، للقضاء على الخصوم السياسيين وقوى المعارضة الحقيقية ، إلا أنها لم تتجه البتة ـ كما يحدث فى الثورات الشيوعية ـ للقضاء على القوى التى يمكن أن تتحول إلى قوى معارضة للحكم الاستبدادى فى المستقبل القريب أو البعيد .

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٦٨) .
(٢) الطبقة الجديدة (٢١) .
(٣) المرجع السابق (٣٩) .

أمـا الشيـوعيون فإنهم ينطلقـون من خلال مفاهيم الحرب الطبقيـة إلى تشديد القتال مع كافة الطبقات والقوى السياسية والعقـائدية الأخرى . فهم لايكتفـون بمحـاربة قوى المعـارضة الراهنة وإنما يتجهـون مـن خلال الأحقاد الطبقيـة إلى القضاء على كـل القوى التى يفكرون بامكـانية تحولهـا إلى قوى معارضة لهم فى المستقبل)[١].

ومـن هنا بالغ الحزب فى القبضـة على زمام الأمور ، حتى أصبـح الفرد فى الاتحاد السـوفييتى (يتجه دائمًا حيث يراد لـه، لاحيث هويريد)[٢]، ولأجل ذلـك كـانت القـوانين التى يصـدرها الحزب هـى فى صـالحه وتدعـم نفـوذه وتصطبغ بصبغة أنها موضوعة للجميع[٣].

تقـول روزا لكمسبـورغ : (وبكبـت الحيـاة السياسيـة فى جميـع أرجاء الـدولة ، يزداد استرخاء الحيـاة عنـد السـوفييت باضطـراد مستمـر ، فبـدون الانتخـابات العامة ، وحرية الإجتمـاعات والصحافة المطلقـة ، ونضال الآراء الحرة ، تموت الحيـاة فى كـل مـؤسسة عامة ، وتصبح حيـاة ظـاهرية ، تكون البيروقـراطية فيهـا هى العنصـر الـوحيد الذى يعمل ، فتجمـد الحيـاة العامة تدريجيـا ، ويحكـم ويوجه فيهـا حفنـة من زعماء الحزب المتـوقدين نشـاطا ، الـذين تستولى عليهم مثاليـة لاحد لها ، وتقود حفنـــة مـن بينهم - يتمتعون بذكـاء خارق - جماهير العمال من وقت لآخر إلى المؤتمرات للتصفيـق لخطب الزعيم ، وللتصويت بالإجماع على القرارات التى تعرض عليهم ، وفى الحقيقة هى مجموعة نفعية ، وهو ديكتـاتور لاشـك فى هذا ، ولكـن ليـس ديكتـاتور البروليتاريا ، بل ديكتاتور حفنة من السياسيين)[٤].

---

(١) الطبقة الجديدة (٣٩) .
(٢) الإنسان بين المادية والإسلام (١٢٣) .
(٣) انظر فوق أطلال الماركسية (١٦٢) .
(٤) نقلا من كتاب حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٨٠-٥٨١) .

رابعا : أن أكثر الطبقات ضررا هى الطبقة التى قامت من أجلها الشيوعية - كما زعم أصحابها - فلاهى التى أصبحت دكتاتورية ، ولاهى التى سعدت بالحرية ، وإنما كانت الضحية ، وعاشت حقيقة الوعود الكاذبة ، وزيف الشعارات البراقة .

يقول دجيلاس : (إن دور الحزب الشيوعى ومعاركه الطويلة فى مرحلة الصراع على الحكم ، وبالرغم من قيادته للطبقة العاملة ، وترويجه الشعارات بأنه يسعى لتحقيق مصالحها التاريخية ، فدوره هذا لايعنى إلا شكلا من أشكال هجمته الصاعقة لاستلامه الحكم . ومع أن الحزب الشيوعى يدعى أنه يعمل لإرضاء الطبقة العاملة ، بيد أنه لايسعى إلا لتوطيد حكمه ، ودفع زعمائه إلى دست الحكم وتقوية الطبقة الجديدة التى تكون فى أطوارها الجنينية الأولى .

ومأأن يصل الحزب الشيوعى إلى الحكم ، حتى يفرض سيطرته المطلقة على كافة السلطات ، ويضع يده على جميع مقدرات الأمة ، رافعا عبقريته بأنه يمثل مصالح الطبقة العاملة ، والجماهير الكادحة . على حين أن البروليتاريا لاتساهم فى هذا الأمر - باستثناء المعارك الدائرة فى إبان الثورة وأثناء الحرب الأهلية - كما أنها لاتقوم بأى دور أكبر من أدوار الطبقات الأخرى . وعلى الرغم من أن بعض الأفراد أو الفئات البروليتارية قد تساهم فى دعم سلطة الحزب ، تظل الحكومة بعيدة عنهم ، وليس لهم فيها أية نسبة تذكر ، يمكن لها أن تؤثر على سير حركة التطور الإجتماعى فى ظل الأنظمة الشيوعية . وفى الوقت نفسه ، لايبذل أى مجهود حقيقى فى سبيل تحقيق الشعارات الزائفة التى تفرض وصول الطبقة العاملة إلى الحكم ، واستخلاص حقوقها . فالطبقات الكادحة والجماهير الشعبية تظل أبعد ماتكون عن مزاولة السلطة ، ولكن يبقى من المفيد الإشارة إلى أن الحزب الشيوعى يمارس الحكم ويزاول السلطة باسمها ...)[1].

---

(١) الطبقة الجديدة (١١٢-١١٣) .

ولاشك أن الشيوعيين قد عملوا على الخداع وماقامت شوكتهم بهذه القوة إلا لكثرة الوعود والعهود التى قطعوها على أنفسهم وخاصة للعمال .

يقول دجيلاس : (لقد تأثر كارل ماركس بالأجواء العلمية ، وحمله طموحه الشخصى إلى تقديم قاعدة علمية ظاهريا لتضليل الحركة العمالية . بينما تأثر خلفاؤه بمناخ مغاير ، دفعهم إلى تحويل آرائه إلى مذهب عقائدى ، يرتبط مع الاحتياجات السياسية الكاذبة لحركة الطبقة العاملة الأوربية . واستطاعت هذه الفلسفة أن تبنى قوتها ليس على قوة الحقائق العلمية ، وإنما على قدرتها على تشويه الواقع وإثارة الطبقة العاملة وتضليلها . وهذا مايفسر ضعف نفوذها فى كل من بريطانيا وأمريكا ، لعدم توافر الظروف المناسبة التى تسمح لها بالقدرة على التضليل السياسى ، بينما استطاعت أن تشكل عقيدة للطبقات الجديدة المضطهدة ، فانتقلت من أوروبا إلى روسيا ، ومن ثم إلى آسيا لتكون أساسا لحركة سياسية جديدة ، وقاعدة لنظام إجتماعى إرهابى جديد)(١).

ويقول : (إذا مادرس المرء تاريخ الثورات الشيوعية ، فسرعان ماتبدو له فى معظمها سلسلة من الأضاليل والخدع التاريخية ...) .

ويضيف : (إن الزعماء الشيوعيين غير قادرين البتة على تحقيق مايعدون به ، بل إنهم عاجزون عن تنفيذ مايؤمنون به - هم أنفسهم - الإيمان المتعصب الأعمى .

وبطبيعة الحال فإن القادة الشيوعيين هم أعجز عن الإقرار بهذه الحقيقة حتى ولو وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تنفيذ سياسة جديدة مناقضة كل المناقضة للوعود التى قطعوها للجماهير قبل اندلاع الثورة ، وفى أثناء تأجيجها . فلو قام الشيوعيون بإقرار تلك الحقيقة السابقة فإنهم - ولابد -

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٢) .

سيجدون أن إقرارهم الجديد هذا سيكون بمثابة اعتراف واضح بعدم جدوى الثورة ، وبأنهم هم أنفسهم أضحوا من الأمور التى لالزوم لها ، ولاشىء يبرر - عندئذ - بقاءها فى الحكم . وطبيعى جدا ألا يقبلوا بمثل هذا الاعتراف)[١].

ويقول : (إن الثورة الشيوعية تروج لأعظم الأوهام ، وأكثرها استمرارا وديمومة ، وهى بذلك لايمكن أن تحقق أيا من هذه المثل العليا ، التى تكشف الأيام حقيقتها ، وإنها لم تكن سوى أسلوب من أساليب الخداع وتضليل الجماهير ، بأنها تضع الأسس المادية لبناء مجتمع جديد قائم على الحرية والعدل ، والذى لم يكن له من ترجمة عملية سوى وضوح الطابع الاستبدادى الرهيب للثورة الشيوعية)[٢].

فأين الحرية التى تحققت للعمال؟!!

إن كانت (حرية التصفيق والتأييد لما يقرره الزعماء)[٣]فنعم .

إن الشيوعية عندما قامت نادت بأنها ستقضى على الدكتاتورية القيصرية ، فانساق العمال خلفها ينشدون الحرية والعدل ولكنها عندما قضت على تلك الدكتاتورية أقامت مكانها دكتاتورية من نوع جديد أشد وأنكى من سابقتها[٤]. وللحفاظ على هذه الدكتاتورية جعل الشيوعيون السلطة كلها فى أيديهم ، وجمعوا بين السلطات التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية[٥]. ولاشك أن الفصل بينها يحقق ميزات كثيرة منها :

* صيانة الحرية ودفع الاستبداد لأن تركيز السلطة فى يد واحدة يفضى إلى القضاء على الحريات .

---

(١) الطبقةالجديدة (٤٥-٤٦) .
(٢) المرجع السابق (٤٤-٤٥) ، ولمزيد انظر (١١٣-١١٤) .
(٣) الإسلام وحقوق الإنسان (٢٥٨) .
(٤) انظر : حقيقة الشيوعية (١٩) ، الطبقة الجديدة (٢١٦-٢١٧) .
(٥) انظر : الشيوعية فى موازين الإسلام (١٠٣) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٧٧)

* إتقان وظائف الدولة وحسن سير العمل .

* احترام القوانين وحسن تطبيقها ، على خلاف أن تكون السلطة مجتمعة فى يد واحدة ، فإن سن القوانين وتعديلها يكون طبقا للحالات الفردية لاطبقا لما ينبغى أن تتسم به القوانين من عمومية وتجريد[1]. ولكن الشيوعيين إمعانا فى دكتاتوريتهم جعلوا الحزب الشيوعى هو الحزب الوحيد وبالتالى دعم ذلك من بقاء دكتاتوريتهم ، مما أدى إلى القضاء على الحريات ومنع العمال من أبسط الحقوق التى كانوا يتطلعون إليها من وراء الشيوعية يقول مكاوى : (نظام الحزب الواحد هو الوسيلة لبقاء الديكتاتورية ولكن تحت ستار ديمقراطى زائف ... فالحزب الواحد كما أثبتت كل تجاربه وهى مازالت تؤكد كل يوم ليس حزب الصفوة الممتازة بقدر ماهو طبقة مميزة ترتبط بالنظام وتتمسك به حفاظا على ماتتمتع به من مزايا مادية ومعنوية ، والاخلاص للحاكم الديكتاتورى هو جواز المرور إلى مراكز الحزب بغض النظر عن الكفاءة والمقدرة ... ونظام الحزب الواحد يقوم على قسر الآراء ويقوم على افتراض خاطىء باحتكارالسلطة لديكتاتورية طبقة العمال وتجاهل باقى الطبقات والواقع أن المجتمع اللاطبقى أى الذى يعيش بدون طبقات لم يوجد حتى الآن إلا فى مخيلة أنصار الفكر الماركسى ... وليس صحيحا مايزعمه مفكرو الاتحاد السوفييتى من أن المجتمع السوفييتى أصبح طبقة واحدة ، وإنما الصحيح أنه أقام ديكتاتورية الحزب الواحد ليقف حارسا يمنع ظهور الطبقات التى دمرها وقضى عليها من أن تعود ونظام الحزب الواحد يتنافى والديمقراطية ، فهو كالطريق ذى الاتجاه الواحد الذى لاينفذ لاتجاهه المضاد ، ومعنى إنفراد حزب واحد بالحكم ، استئثار نفسى بالسلطة وعدم قبول النقاش أو الجدل أو المعارضة .. وهكذا تصبح حرية الرأى وسائر الضمانات التى يكفلها شبحا وصورة بعيدة عن الواقع ، والواقع أن نظام الحزب الواحد يقضى على حريات الأفراد وحقوقهم ويخضع كل أنواع

---

(١) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (١٤٣) .

النشاط الضرورى لنشاط الحزب فلاحرية رأى ، ولاحرية إجتماع ولاحرية تكوين الجمعيات ولايسمح بوجود معارضة داخل الدولة ويقيد الحريات بقيود عنيفة تصل إلى درجة إلغائها ، ولايسمح إلا بقيام حزب واحد يكون سناد الديكتاتور وعماده فى تنفيذ سياسته ... ويلجأ أنصار النظام الواحد فى الأنظمة الديكتاتورية إلى اتباع وسائل معينة يقصد منها أن تنسى الشعوب آلامها وتتلهى عن حقوقها المهضومة وحالتها الأليمة إذ الحزب يعلن بين الحين والآخر عن مبادىء خلابة تؤجج حماس الأفراد وتزكى الحمية فى نفوسهم وتدفعهم إلى الالتفاف حول الحزب إلى أن تنكشف حقيقته ...)(١).

وبناء على هذا فإن مايدعونه من قولهم بأن العمال هم أصحاب الحكم لاأصل له . فلو نظرنا إلى من يحكم الاتحاد السوفييتى لوجدناه أحد خريجى المعاهد المتخصصة فى الدراسات الشيوعية ، فلم يكن لينين عاملا ولاستالين ولاخروشوف ولابريجنيف ولايتوقع أحد أن يأتى عامل من المصنع أو المزرعة إلى الحكم ، إنما هو استغلال لهم ودغدغة لأحلامهم وتكون الشيوعية بحق هى أفيون الشعوب(٢).

وهكذا يثبت أن هذا النظام كان دكتاتوريا ويمثل هذه الدكتاتورية الحزب الشيوعى ، وإن مادعوه من تحقيق دكتاتورية الطبقة العاملة كان خداعا وزيفا يرتقون من خلاله إلى تحقيق غاياتهم .

ومما يجدر بنا ملاحظته هو أن النظام الدكتاتورى لايمكن استمراره وبقاؤه وذلك لأن الناس لايمكن أن يسكتوا جميعا كل الوقت على الظلم والاعتداء على حرياتهم وحقوقهم التى فطروا عليها .

---

(١) شهادتى للتاريخ (٣١٣-٣١٤) ، وانظر المعبود الذى هوى (٢٤٠) .

(٢) انظر : فوق أطلال الماركسية (٥٢) ، أفكار ماركسية فى الميزان (٨٠-٨١) ، طارق حجى ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، مطبوعات الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية وقد أجرى استفتاء فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٦م وكان السؤال (مصالح من يمثل الحزب الشيوعى حسب رأيك؟ فكان نصيب مصالح العمال ٢٪ ، والفلاحين ٢٪ ، والمثقفين ٢٪ ، ومصالح الجهاز ٨٥٪ . انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٤٢٨) ولاحظ أن تاريخ الاستفتاء كان متأخرا .

و(بانهيار هذه الفكرة تنهار السياسة الماركسية ، وينهار التنظير السياسى الأساسى الذى صاغه ماركس وانجلز ولينين وسائر الماركسيين لأكثر من قرن من الزمان ، فبدون دكتاتورية البروليتاريا لن تصفى الطبقات الأخرى ومن ثم لن تصل البشرية إلى عدم الطبقية)(١).

خامسا : أن النظام الدكتاتورى سواء كان فى يد الطبقة العاملة ، أو فى يد الحزب الشيوعى فإنه نظام فاسد نظرا لما يحمله بين جوانبه . ومن مفاسد هذا النظام :

(أ) استبداد الحاكم واغتصابه لإرادة الأمة . ويعتبر الاستبداد السياسى من أخطر الأمراض التى تصيب الأمم فى مقتلها وتقعدها عن التقدم والازدهار .

(ب) الحكم الاستبدادى يستمد قوته من نشاط وقوة البوليس السرى والعلنى مما يذهب ميزانية الدولة على مؤسسات خاصة يمكن الاستغناء عن كثير منها وانفاق مايوجه لها على مايعود بالنفع على الشعب(٢).

(ج) من مفاسده الظلم والطغيان والاجرام وارتكاب الحماقات وهذا ماحصل فى الاتحاد السوفييتى حيث إن ستالين قتل من كان مشاركا فى إنجاح الثورة ، كما قتل مجموعات كبيرة فى حركات التطهير فى الثلاثينات . كما أن هذا النظام لايعرف الأواصر ولاالروابط ويربى الإنسان فيه على خدمة هذه الدكتاتورية .

(د) أن الدكتاتورية ضد الديمقراطية ولايمكن أن يجتمعا . وبالتالى فإنه لاحرية مع دكتاتورية .

يقول لويس فيشر : (ولن تجد دكتاتورية فى العالم منطوية على شيء من الديمقراطية ، وليست فى الدكتاتوريات إطلاقا بذور الحرية ... إن الدكتاتورية السوفيتية ظلت مقفرة من البقول والأغذية ، لأنها قد ظلت

---

(١) أفكار ماركسية فى الميزان (٨٣) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٨٣).

مقفرة من الحريات ، إذ لاسبيل إلى ضمان مادى ، ولاإلى ديمقراطية إقتصادية مالم تتوافر الديمقراطية السياسية . وإن اعتقال ملايين من الخلق فى معسكرات السوفييت وسجونه عقب انصرام ثلاثين عاما على بداية الثورة لهو فى الحق سخرية من كل إدعاء بأنه توافرت فيه الديمقراطية السياسية والإقتصادية . وليس ثمة أيضا أقل بادرة على أن هذه الدولة "البوليسية" آخذة فى الذبول والفناء بل ، بالعكس ، كل تطهير فيها يخلق ساخطين جددا ، ويستوجب تطهيرا آخر ، وهكذا ينقلب التطهير غير المشروع سلاحا دائما فى يد الدكتاتور ضد الشعب .

ولاتتوافى الحرية فى ظل الدكتاتورية . إذ ليست هناك حقوق ثابتة لاتبديل فيها ولاتحويل . فإن للدكتاتور من كثرة القوة . وللفرد من ضآلتها مايبيح للأول أن ينزع أى حق يعطيه . ويسترد أى شيء هو واهبه ...)[١].

ويقول : (إن الدكتاتورية مستوية على بحر من الدماء ، واوقيانوس من الدموع ، وعالم من الآلام ، وهى كلها نتائج وسائلها القاسية فكيف إذن يتوافى لها أن تكفل الرغد أو الحرية أو الطمأنينة ظاهرة وباطنة.؟؟ بل كيف يتهيأ للخوف والإرغام والكذب والعسف أن تصنع إنسانا أحسن حالا ...؟؟

لقد علمتنى الأعوام التى قضيتها فى مناصرة السوفييت أنه لايصح لامرىء يحب الناس ويريد السلام أن يناصر دكتاتورية ما ، وأن قيام نظام إجتماعى ينادى بالحرية ولكنه مع ذلك يحد منها ليس سببا يبرر اعتناق مذهب يدمر الحرية تدميرا ، ويقضى عليها قضاء مبرما ...)[٢].

إن الدكتاتورية سبب مباشر فى مصادرة حرية الرأى والفكر ، والتعبير[٣]، وتكميم الأفواه ، وتؤدى إلى فقدان الثقة بين الشعوب

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٩٤) ، وانظر : الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٧٤) شهادتى للتاريخ (٢٥٩) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٩٥) .

(٣) انظر : سقوط الماركسية (١١١) ، ولمزيد عن ذلك انظر : إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٨٤) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٥٦) .

والحكام[١].

(هـ) فى ظـل هـذا النظـام يشيـع الخوف ، والـذل ، والمهـانة ، والخداع ، والخنوع[٢].

ولأجل ذلك لايستطيع أحد أن ينتقد السياسة أو القـادة خشية البطش به . فمثلا لم يكـن فى مقـدور أحد أن يقـوم بعزل ستالين (ولاتجرأ أحد على كشـف أخطائه فى حياته بل ظلـت أبواق الشيوعية تعـرض مظـالم عهده بأنها "العدل التاريخى العظيم" ونعتوه بأنه الملتزم الحقيقى بالماركسيـة الكلاسيكية ، ولكـن الصحـافة الإشتراكية نفسهـا اعترفت بعد مماته بأنه كـان أكثر النـاس ظلمـا فى تاريخ البشـرية و(إن أنانيتـه كـانت قد اكتسبـت أبعـادا منفـرة فى أواخر عهـده ، فظـن أنه فوق الحزب وفـوق الشعـب ، ولم يعـد يعبأ بآراء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وأخذ يحكم بالأسلـوب الدكتاتورى)[٣].

(و) أن الـدكتاتورية توغـل الصـدور بالأنانيـة الفردية وتقضـى على كـافة الفضائل الأخلاقية .

يقـول عبد الرحمن حبنكة : (لما كـانت الحركة الشيـوعية تعتمـد على عنصـرى الاستبداد المطلق "الدكتاتورية المتناهية" والـوسائل غير الأخلاقية ، فإنها غير مؤهلة بطبيعتها لأن تحقق أهدافا خيرة لصالـح الإنسانية ، مهما طال بهـا العهـد ، ومهمـا توطن لهـا الحكـم ، هذا شأن الشيـوعية حتى لـو سـار الشيـوعيون بقناعة إلى تحقيـق أهداف يتصورونها إنسانيـة نبيلـة . فالاستبداد المطلـق لايكون إلا خادما للأنانيـة الفردية ، وسلاحا فتـاكا فى أيدى مصـالح المستبـدين الشخصية ، لاسيمـا إذا لم يكن لهم من الإيمان باللـه والخوف من عقابه عاصم .

---

(١) انظر أوضاعنا السياسية (٢٠٤-٢٠٥) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٨٦) .

(٣) مجلة Soviet Land "الـرسمية" عـدد ١ يونيـو ١٩٥٦م نقلا مـن كتـاب سقـوط الماركسية (١٢٢) ، وانظر الإسلام وحقوق الإنسان (٢٦٢-٢٦٣) .

واستخـدام الوسائل غير الأخلاقية المناقضة للفضائل بالهمجيـة المجرمة تورث نفـوس مستخـدميها شـراسة سـوداء ، وتقتلـع منهـا جذور الأهـداف السـامية والغايات النبيلة ، لأنهـا مناقضة لها ، فهى لاتجتمـع معهـا بحال من الأحوال)[1].

(ز) أن الـدكتاتورية تفضـى إلى وجود الطبقـات وإلى البـذخ والإسـراف والمبالغة فيه .

وهـذا مـاحدث فى الاتحاد السـوفييتى حيـث كـان قـادة الحزب فى برج عاجى بينما أفراد الشعب لايكـادون يملكون قوت يومهـم . وهم بهذا - أعنى الشيـوعيين - يشكلون طبقـة وبقية المجتمع ينقسمـون إلى عـدة طبقات.

يقـول دجيلاس : (وقمين بالـذكر أن الزعماء الشيـوعيين ينزعـون إلى الإسـراف والبـذخ ، والقـابضين على أزمـة الحكـم يشعـرون بالحاجة الـدائمة للظهـور بمظهر أصحاب السلطـان ليميزوا بمكانتهم كنمـاذج للعظمة والذكاء . وهـذا مـايقود كنتيجة منطقيـة لنزعـة الزعماء إلى الظهـور والنفعيـة ، وحب السلطة ، وتفشى الفساد التى هى من الأمور الطبيعية فى الأنظمـة الشيوعية . وهـذا الفسـاد المستشرى ليس مـرده فسـاد ذمم الموظفين نتيجـة الفسـاد العام فحسب ، وإنما علته الكبرى تمركز سلطة الحكومة فى أيدى فئـة سياسية معينة وإن هـذه الحكومة هى صاحبـة جميع الامتيازات ، ونتيجـة لكـون الحكومة والحزب متماثلين مع الدولة ، ويعنيان حق التمتع بالممتلكـات ، فإن الدولة الشيـوعية تنفسـخ بصورة ذاتيـة ، وتفسد أجهزتها بشكـل تلقـائى ، لأنها تجد نفسها مضطرة لإنشاء امتيازات ومناصب لفئات طفيلية . هذا وقد وصف أحد الشيـوعيين اليـوغسلاف الجو الـذى يعانيه الشيوعى النظـامى بقـوله : (إنى أجد نفسـى مقطعـا إلى ثلاثة أشلاء : إنى أسـرح نظـرى بمن لـديهم سيـارة أفضـل مـن سيـارتى ، فـأجدهـم ليسـوا أكثر إخلاصـا وتفـانيا منى للحـزب وللإشتراكيـة ، ولكـن عنـدمـا أتطلـع إلى أولئك الذين ليـس بمقـدورهم أن

---

(١) الكيد الأحمر (١٩) .

يقتنوا السيارات فأجد نفسى موفور الحظ بالسيارة التى أملكها)[١].

ولو نظرنا إلى خصائص الدكتاتورية لوجدناها إجمالا كما يلى :

(١) شخصية السلطة[٢].

(٢) نظام جديد مؤقت[٣].

(٣) تركيز السلطة[٤].

(٤) انعدام الرقابة والمسئولية[٥]على الجهة المتسلطة .

(٥) سياسة القوة والعنف[٦].

(٦) النظام الجماعى الموجه لصالح الدكتاتور[٧].

(٧) نظام الحزب الواحد[٨].

(٨) القضاء على حقوق الأفراد وحرياتهم[٩].

(٩) وترى الأنظمة الدكتاتورية أن الدولة هى القيمة الوحيدة المطلقة فى الحياة الإنسانية ، وهى إرادة الله تعالى فى الأرض وأوجز عبارة عن الدولة عندهم (لاشىء خارج الدولة ، ولاشىء ضد الدولة ، ولاشىء فوق الدولة)[١٠].

---

(١) الطبقة الجديدة (١١٥-١١٦) .

(٢) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (١٨-١٩) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٥) .

(٣) انظر المرجع السابق (١٩) .

(٤) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (١٩) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٥) .

(٥) انظر المرجع السابق (٢٠-٢١) .

(٦) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (٢١) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٨) .

(٧) انظر المرجع السابق (٢١) .

(٨) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (٢٢) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٧) .

(٩) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (٢٢-٢٣) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٧) .

(١٠) الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٠-٢٣١) .

(١٠) من خصائص الدكتاتورية أنها تقوم على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة[١].

وهكذا يتبين فساد هذا النظام سواء كان فى يد أقلية أو أغلبية ، فى يد فرد أو فى يد الدولة .

بطلان مزاعمهم فى دعوى تحقيق حق الانتخاب :

ومما يدل على مصادرتهم حق الحرية السياسية أنهم ادعوا أن الأنظمة الأخرى الديمقراطية لم تحقق ذلك فعلا ، وإن ادعت تحقيقه ، بينما الشيوعية نصت على ذلك فى دستورها وطبقته فى واقعها ، غير أن هذا القول لايقوم عليه دليل ولايسنده واقع . ويمكن كشف زيفه وخداعه بالآتى :

أولا : أن الدستور ينص على أن الحزب هو الذى يمتلك حق الترشيح للانتخابات النيابية . (إذ أن المواطن هناك لايملك حق ترشيح نفسه بنفسه)[٢].

فالحزب هو صاحب السيطرة والكلمة فيما يتعلق بالترشيحات ، وقد مر أن الحزب الشيوعى قضى على سائر الأحزاب .

ثانيا : تصريحات القادة الشيوعيين وإجراء الانتخابات الصورية المغلوطة أو الموضوعة سلفا .

يقول لينين عام ١٩٢٢م : (يجب أن يعرف شعبنا ، أننا لن نسمح بقيام مجالس نيابية يستطيع خصومنا أن يجدوا لهم مكانا فيها ... فنحن لانمنح الحرية السياسية ، لخصومنا وأعدائنا)[٣].

ويقول ستالين : (إن دستورنا السوفييتى ينص على منح الحرية للمواطنين ولكن يجب أن يكون مفهوما ، أن هذه الحرية لاتعنى حق الوقوف فى وجهنا ، أو حق تقويض نظامنا ، أو حق الثورة ضد النظام الشيوعى ، أو حق انتقاد المبادىء الماركسية ، أو حق تكوين الهيئات المناهضة لنا ...

---

(١) انظر الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٨) .
(٢) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٣٣) .
(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٤) .

إن هذه الحرية التى ينص عليها دستورنا السوفييتى ، لاتعنى إلا شيئا واحدا ، هو حق "ديكتاتورية البروليتاريا" فى الاستمتاع بالحرية التى تكفل لها تحقيق الأهداف الشيوعية)[١].

وقد ثبت لنا أن الدكتاتورية قد تحققت فعلا ولكن لمن؟ إنها لأعضاء الحزب ، لاللعمال المستضعفين الذين قامت الشيوعية من أجلهم!!

ثالثا : عندما كان الحزب الشيوعى يقبض بيد من حديد على كل المنظمات السياسية وغيرها ، فإنه من المستحيل أن تكون هناك حرية ونزاهة فى الانتخابات ، ولأجل ذلك كانت الصحف السوفيتية تقوم بالاعلان للانتخابات وتطلب من المواطنين الإدلاء بأصواتهم ويختاروا مرشحيهم ، ولايدع أحد الفرصة تذهب عنه فى اختيار حكامه وتوجيه سياسة حكومته ، وفى يوم الانتخاب يدلى ٩٩٪ ممن لهم حق الاقتراح حسب ماتقول المصادر السوفيتية بأصواتهم ، ويدلون بها جميعا بلااستثناء تقريبا لمرشح واحد لأنه لاتوجد إلا قائمة واحدة أمام الناخبين ويتحول الانتخاب إلى عمل مسرحى يعرض على المواطنين[٢]. بل إن بعض حكومات الدول الإشتراكية تعلن أنها حصلت على مائة فى المائة من الأصوات فى الانتخابات ثم تزج بألوف مؤلفة من المواطنين فى غياهب السجون . وماذلك إلا دليل على أن تلك الدول قد قضت على حرية البشر وأن كل الأبواب القانونية والديمقراطية قد سدت فى وجه المواطن[٣].

ويصور فارغا ذلك الوضع فيقول : (إن هؤلاء النواب لايرشحون من قبل السكان أنفسهم ومنظماتهم الإجتماعية ومن قبل رأى الشغيلة العام ،

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٦) ، وانظر (٧٣-٧٤) .

(٢) انظر : التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٠٥-٣٠٦) ، الحريات العامة (٢٦٥) ، سقوط الماركسية (١٤٠-١٤١) .

(٣) انظر سقوط الماركسية (١٤٥) .

وإنما يرشحون سرا من قبل هرم الحزب البيروقراطى ، أما السكان فيلزم عليهم أن يدعموهم وأن يصوتوا لهم . ولاتتألف السوفيتات من بيروقراطى الحزب فحسب ، وإنما أيضا من نواب آخرين ترشحهم الأرستقراطية مكافأة لهم على ماقد يكونون أدوه من خدمات للمجتمع وعلى استعدادهم للانصياع للسلطة وهؤلاء النواب أعضاء فى مختلف شعب اللجان التنفيذية ، وهم يشاركون فى مناقشة هذه أو تلك المشكلات التى تكون قد طرحتها وحلتها سلفا قيادة الحزب البيروقراطية التى على رأس تلك الشعب واللجان التنفيذية وأحيانا الدوائر الحاكمة العليا بنفسها ، والنواب العاديون عاجزون مطلق العجز عن تغيير أى شىء ، كائنا ماكان ، بمبادرتهم وفطنتهم ، ووظيفتهم الأساسية أن يكونوا صلة الوصل مع السكان ، وأن يتلقوا الطلبات والشكاوى ذات الطابع الشخصى فى غالب الأحيان ، وأن يرفعوها إلى السلطة البيروقراطية ، من دون أن تلبى أصلا بصورة آلية .

والشىء نفسه ينطبق على النواب المنتخبين لمجلس السوفييت الأعلى ، فهم يحضرون جلساته ويدلون بكلمات بصدد مشكلات مقدمة ومعدودة سلفا من قبل دوائر الحزب . ودورهم الدائم أن "يوافقوا دائما على رأى الآخرين" بصورة شكلية محضة أو أن يكيفوا القرارات مع حاجات مجالاتهم الإقليمية والمهنية ، هكذا تتحول انتخابات هؤلاء النواب بالذات إلى شكليات محضة ، خاوية من كل مضمون ، وإلى محاكاة سافرة للديمقراطية السوفيتية .

فالسكان ينتخبون مرشحين اختارتهم سلفا دوائر الحزب ، ثم إنهم ينتخبون نائبا واحدا عن مرشح ممكن واحد . ولما كان الشعب يفهم ذلك كله ، أو على الأقل يتحسسه ، تراه يذهب بكل وداعة إلى صناديق الاقتراع ليؤدى واجبا مدنيا شكليا من دون أن يكترث البتة بنتائجه)[1].

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٦٦-٦٧) ، وانظر (٦٨) ، وانظر ماذكره غورباتشوف فى كتابه الإنقلاب (٨٢) .

وعلى هذا فنتيجة الانتخابات كما أرادها ذلك الفرد أو أولئك الأفراد لاكما أراده الشعب .

رابعا : أن الشيوعيين لو سمحوا بحرية الانتخابات ، واختيار الشعب من يريد فمعنى ذلك أنهم يحكمون على أنفسهم بالزوال .

يقول عبد القوى مكاوى : (لقد حكمت الشيوعية روسيا نصف قرن من الزمان ، ولى خلاله جيل وترعرع جيل ، وتاح لها من الوقت والمال ماتستطيع أن تبنى به العالم الذى تريد .. فهل تقدر على إجراء انتخابات حرة يقول الناس فيهاكلمتهم ضد هذا النظام أو معه؟ كلا .. لأن النظام فى روسيا يفرض نفسه بالتشريعات القاسية والأوامر العسكرية ولو تم الاحتكام إلى مشيئة العمال والفلاحين لأيقن النظام زواله من الوجود!!)(١).

ويقول وحيد الدين خان : (إن القادة الروس الشيوعيين لايجدون فى أنفهسم الجرأة لإجراء انتخابات حرة ، وذلك لأنهم على يقين بأنهم لو سمحوا بالانتخابات الحرة ، فسوف يطيح بهم الشعب بإدلاء ٩٩٪ من الأصوات ضدهم)(٢).

خامسا : أن مما يدل على القضاء على الحرية السياسية فى الاتحاد السوفييتى هو أن الإنسان لايستطيع ترشيح نفسه (مقارنة بالأنظمة الديمقراطية) وإنما يرشح من إحدى الهيئات التابعة للحزب . وعلى هذا الأساس فلاوجود للمعارك الانتخابية(٣). ثم إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الشيوعية ماقامت إلا من أجل قضية العمال ، فكم يمثل العمال من نسبة أعضاء الحزب؟!

سادسا : ومما يدل على أن الحرية السياسية كانت مفقودة فى الاتحاد السوفييتى ، هو رغبة كثير من معتنقيها الفكاك من أسرها والهروب إلى

---

(١) شهادتى للتاريخ (٢٣٢) .

(٢) سقوط الماركسية (١٢-١٣) .

(٣) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٤١-١٤٢) وانظر (٦٩).

دول أوروبا الغربية (الرأسمالية)[١]. وإذا وجد أن أحدا أثنى على ذلك النظام أوبقى فيه فإنما هولحصوله على المصلحة ، أو الرغبة فى الحصول عليها.

يقول آرثر كوستلر : (وقد أعانى عامل نفسى آخر على مواصلة العمل فى خدمة الشيوعية عقب عودتى من روسيا ، وهو الاعتقاد الذى كان يشاركنى فيه صفوة صحبى وخيرة أصدقائى الذين تركوا الحزب اليوم أو فصلوا منه فقد كنا معصوبى الأعين، ولكننا لم نكن عميانا ، ولم يكن أشد المتعصبين للشيوعية بيننا يستطيع أن يغفل عن الواقع الملموس أمامنا ، وهو أن حركتنا لم تكن تسير بخير ، ولكنا مع ذلك لم نحاول يوما أن نتناجى أو نتكاشف بما كان يخالجنا من الشعور بأن الحزب لايحتاج إلى تطهير من الخارج بل هو أحوج مايكون إليه من الداخل . وأنت قد تستطيع أن تستقيل من ناد أو من حزب عادى إذا لم تعد سياسته تروقك ؛ ولكن الحزب الشيوعى كان شيئا يختلف عن سائر الأحزاب كل الاختلاف ؛ فقد كان بمثابة المقدمة أوالطليعة من الطبقة الكادحة أو إرادة التاريخ ذاته مجسمة ماثلة ؛ فإن أنت خرجت عليه عددت طريدا أو منبوذا "خلف الأسوار" ، ولن يكون لأى كلام تقوله أو عمل تحاوله أمل ما فى تغيير مجراه أو إحداث أثر فيه ، فمن الخير لك أن تبقى فى حظيرته، مقفلا فمك مخفيا مضضك ، مرتقبا اليوم الذى تصبح فيه روسيا والكومنترن بعد دحر عدوهما وانتصار الثورة العالمية على استعداد لأن يصبحا "ديموقراطيتين" ؛ وعندئذ يصح أن يدعى الزعماء للمحاسبة على تصرفاتهم ، من هزائم كان ممكنا تجنبها ، وتضحيات لم يكن شىء يستوجبها ، وحملة دسائس ومكائد قضت على خيرة رفاقنا وذهبت بأرواح الصفوة من إخواننا .

أما قبل هذا اليوم المرتقب ، فما عليك إلا أن تؤدى لهذه اللعبة حقها ، فتؤكد وتنفى وتقول وتردد ، وتأكل كلامك أكلا ، وتلعق بصقتك

---

(١) انظر الفشل الكبير (٣٠١) .

لعقـا ، فذلك هو الثمن الـذى قضى عليك أن تدفعه لكـى تظل تشعر بأنك النافع المجدى ، ولكى توفر على نفسك احترامها ...)[١].

ومـن هنا فلاغرابة من اهتمـام الشيوعيين بالتربيـة التى يريدهـا الحزب حتى يكـون العضو والمسئول الشيـوعى على قدر كبير مـن الولاء والاخلاص لتأمن الحفنة المتسلطة على نفسها من خروج الشعب عليها[٢].

الـرد علـى زعمهـم توافـر حق النقـد فـى الهيئـات السيـاسية ومـايسمونه "الديموقراطية الداخلية" :

إن هـذا زعم باطل يرده واقـع الحزب ودكتاتوريتـه . والأحداث التى كان يشهدها الواقع العام لدولة الاتحاد السوفييتى فيقال لهم :

أولا : أن هـذا كلام نظرى لم ير النـور وإذا طبق فهـو يطبق فى نطاق ضيـق (فهنـاك مواضيع لايجوز لـه أن يتنـاولها : ذلـك شـأن مـوضوع نطاق

---

(١) المعبود الذى هوى (٩٠-٩١) .

(٢) عـن التربية فى مجال الحفاظ والتضحية من أجل الحزب انظـر كتاب شيوعيون أمام المحـاكم ، حيث وردت به عدة أقـوال واعترافات ممن تعـرضوا للقبض عليهم ، أو محاكمتهـم تدل على تفـانيهـم فى خدمـة الحزب والسير وفـق رغبـاته . انظـر (١٩،٢٢،٣٨،٤٢-٤٤،٨١) ومابعدها .
ومـن الاهتمام بالفكر الشيـوعى وبجعل العضو يعمل لصـالح الحزب وضع الحزب الشيـوعى شـروطا وقواعد يسير عليهـا الشخص إذا وقع فى قبضـة العـدو ، ومن ذلك :
عـدم اخبـار العدو بما يجهله عـن الحزب . انظر شيوعيون أمـام المحـاكم (١١٣) .
لاتفضى بشىء ولاتعد إلى إنكار شىء . انظر المرجع السابق (١١٤) .
تقليـل الكلام فـ(بقـدر مانقلـل مـن كلامنا تقل حماقاتنا) . انظـر المرجع السـابق (١١٧) .
عـدم التجـاوب مـع الشرطة والمحققين . انظـر المرجع السـابق (١١٩) ومـابعدها .
معرفة الاقنون والاتهام معرفة عميقة .
جعل طابع الدفاع سياسى . انظر المرجع السابق (١٢٣) ومابعدها .
رفض المحامى المسخر . انظر نفس المرجع (١٣٢) ومابعدها .
(مـن الخطـأ والحماقة أن لانتحـدث إلا بعبارات شيوعية وأن نشتم المحكمـة ...) . المرجع السابق (١٣٥) .

الحكم ذاته والسياسة العامة للحكومة ، والزعماء ، فهذه المواضيع جميعا لايجوز أن يتناولها ذلك النقد . إن النقد ـ كما يقولون ـ يجب أن يكون "بناء" وهم يقصدون بذلك أن يكون مقبولا فى أعين الهيئات الحاكمة)(١).

ثانيا : ماهى الحادثة التى ثبت فيها الانتقاد لسياسة الحزب أو أحد زعمائه ولم يكن مصير صاحبها النفى أوالاعدام أو السجن أو الاضطهاد؟ لم يذكر تاريخ الاتحاد السوفييتى وبالذات فى سنواته الأولى وتحديدا فى حكم ستالين الدكتاتور أى مثال يدل على تحقيق هذه السياسة . وإذا ماقدر أن سمح بالنقد فإنه يكون لأمور تافهة لاتمت إلى السياسة بصلة فينفخ فيها حتى تنسى القضايا الكبار ، ثم يستنتج من تلك المسائل التافهة أمور يشيب لها الولدان(٢).

ثالثا : إذا كان الحزب الشيوعى يرى أحقية النقد ويعلن أنه يحققه للفرد ، فلماذا يعتبر الناقد لسياسة الحزب مخربا ، محرفا ، إنتهازيا .

يقول آرثر كوستلر : (كان من القواعد الأساسية فى روح النظام الشيوعى أن كل انتقاد يوجه إلى قرار اتخذه الحزب ، بشأن سياسة معينة ، أو تصرف من التصرفات ، فى مسألة من المسائل ، يعد "تخريبا" ، ويوصف الناقد بأنه من "المنحرفين" أو "المنشقين" ، وكانت المناقشة مسموحا بها جائزة قبل صدور القرار ، ولكن القرارات إنما تأتى من فوق ، وتهبط من السماء ، دون الاستئناس بآراء أية هيئة تمثل الدهماء ، أو عامة الأعضاء ، فليس لهؤلاء إذن نفوذ ما أو شأن فى السياسة وتكييفها ورسم خططها ولاأمل لهم فى التعبير عن آرائهم ، ولكن لاتنس أيضا أن الزعامة محرومة من الوسائل التى تستطيع بها أن تقيس نفسية الجماهير وتتعرف وجهتها ، حتى لقد أصبح من الكلام السائر قولهم "إن الخط الأمامى ليس مكانا للمناقشات" ، أو

---

(١) القانون الدستورى والنظم السياسية (٧٣) .

(٢) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٧٠-٢٧١) .

قولهم "أينما يقف شيوعى ، فهو أبدا فى الخط الأمامى ")[١].

كما أن السلطات الشيوعية اعتبرت كل من يعارض أى أمر صادر عن الحزب يعد مصابا بمرض عقلى.[٢]

إبطال دعواهم فى دفاعهم عن أنفسهم بانتقادهم الديمقراطية الغربية[٣]:

انتقد الشيوعيون الديمقراطية الغربية ، وذكروا أنها ليست ديمقراطية حقيقية . ولكن وكما يظهر من الواقع أن الديمقراطية الغربية حققت لشعوبها أكثر مما حققته الشيوعية لرعاياها ، وبالتالى فإن انتقادهم ذلك ليس فى محله للتالى :

أولا : قولهم أنها ليست ديمقراطية كاملة بل سياسية فقط .

فيقال لهم : وماهى الديمقراطية التى حققتموها أنتم؟!! فعلى الأقل وجد نوع من الحرية تحقق للإنسان فى ظل النظام الرأسمالى ، أما أنتم فلم تحققوا لشعبكم ولاجزءا من حرية واحدة اللهم إلا الدعوة ضد الدين . فالديمقراطية الغربية حققت شيئا ونظامكم الشيوعى لم يحقق شيئا .

ثانيا : قولكم إن الديمقراطية الغربية الذى يحكم فيها هم طبقة البرجوازية المستغلة . هذا عين ماوقعتم أنتم فيه فإن طبقة الحزب أشد الطبقات سيطرة وظلما .

ثالثا : قولكم أن الديمقراطية البرجوازية كانت مجرد إدعاء ، فنحن نقول لكم إن واقعكم كان مناقضا لنظرياتكم بل إن الواقع دوما أحد الأسباب التى تبطل كثيرا من أفكاركم .

وعلى العموم فإن (الشيوعية بتطرفها والديمقراطية بعدم كفايتها عجزتا عن تحقيق الهدف ، حيث غاب عن كل منها ماتوصل إليه الآخر وتمسك

---

(١) المعبود الذى هوى (٦٩-٧٠) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٦٧) .

(٣) وهذا ليس دفاعا عن الديمقراطية ولكن لنتبين أن النظام المعاكس للشيوعية كان أكثر رحمة ورأفة بالناس من النظام الشيوعى الذى ماقام ـ كما زعم أصحابه ـ إلا لإزالة الظلم وتحقيق العدالة .

بموقفه من الحرية ومفهومه لها ، ووصل كلاهما إلى أحد جوانب الحرية دون الجانب الآخر ، مع أنه كان الواجب أن تراعى كل منهما أن الحرية لاتحقق إلا باحتـواء المعنى السياسى والقانونى إلى الجانب المادى والإقتصـادى معا)[١].

وبعد هذا نقول إن الدولة السوفيتية أصبحت شبحا مخيفـا بعد الإدعاء بأنهـا ستكون حامية العمـال والمدافع عنهـم وعـن حقوقهم[٢]، حيث أصبح الأمر بيد القلة والاضطهاد والظلم واقع على الكثرة ، والغريب أنه يقع عليهم باسمهم .

وإمعـانا فى بيان مصادرة الحرية السيـاسية من قبـل الشيوعية أبين هذه الجوانب المختصـرة فى النظـامين الشيـوعى والإسلامــى لنرى الفـارق وعـدم الالتقاء بين الإسلام والشيوعية .

أولا : أن الحاكـم فى الإسلام هـو اللـه تعـالى وبيـده الـرزق والحيـاة والموت ، ومـاالإنسان الذى يقـوم برعاية أمور الناس إلا عبـد مأمور للقيام بتنفيـذ أوامر الله تعالى وحكـم الناس بها وتحقيق العـدل الذى أراده المولى جل وعلا .

أمـا فى النظام الشيوعى فـإن الحاكم والمعبود هـو الحزب الشيوعى أو صاحب السلطة الدكتاتور إن كـان استطاع كسر وقمـع كل صوت قد يرتفع ضده كحال ستالين .

يقـول د. السيد صالح : أما (الإنسان فى ظل الأنظمـة الشيوعية ، فهو إنسان مهين ، لأنه يؤمن أن الأمور كلها بيد الحاكم ، رزقـه وأجله وسعادته وشقاوته ، ومن هنا يتنازل عن حقوقه ، ويأخذ الحاكـم فى نظره مكان الإله ومـاأتعس هـذا الإنسان الذى يستـذل نفسه لبشر مثله لايملـك مـن أمر نفسه شيئـا . ومـن هنـا فلامسـاواة بين النـاس ، ولاكـرامـة لأحد سـوى الحاكـم وحكـومته ، وأما سائر الناس فهم عبيد لسيدهم الذى يقـرر لهم مايراه من حقوق ويسلب منهم مايريد من هذه الحقوق)[٣].

(١) ضمانات الحرية (٨٩) .
(٢) انظر عن هذه المعانى المزعومة ، التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٠٩-٤١٠) .
(٣) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٠١-٣٠٢) .

ثانيا : اختيار الحاكم .

فى نظام الإسلام السياسى يكون الاختيار حسب ماقرره جل وعلا : {**وشاورهم فى الأمر**}(١).

وقوله تعالى : {**وأمرهم شورى بينهم**}(٢).

وأما فى النظام الشيوعى فالحاكم يفرض فرضا ومهمة الشعب أن يؤيد وينتخب ويوافق عليه إذ أنه ليس أمامهم غيره أصلا ، ولقد كانت تكاليف وصول الشيوعيين للسلطة كبير جدا ، وهذه التكاليف دفعتها الشعوب المظلومة المغلوبة على أمرها وكان للحزب الشيوعى الثمار ، ومن هنا نلحظ أن قيام الحاكم وحاشيته كان بالقوة والقهر والعنف والقتل والتشريد(٣).

---

(١) سورة آل عمران : (١٥٩) .

(٢) سورة الشورى : (٣٨) .

(٣) يقول بريجنسكى عن التكلفة البشرية للشيوعية : (لقد ضمت الكلفة البشرية الأصناف التالية :

١ ـ مجمل الاعدامات أثناء عملية الاستيلاء على السلطة ويمكن تقدير هذه الاعدامات ، بدون حساب لقتلة معارك الأعمال الحربية المدنية والثورية ، على الأقل بمليون شخص فى الاتحاد السوفييتى ، وعدة ملايين فى الصين ، وحوالى مائة ألف فى أوروبا الشرقية ، ومائة وخمسون ألف على الأقل فى فيتنام .

٢ ـ اعدامات المعارضين السياسيين والمقاومين بعد الاستيلاء على السلطة ، وتحدث هذه الاعدامات بالعادة خلال عدة سنوات أثناء تعزيز الشيوعيين سيطرتهم على البلاد . ويجب وضع تقدير تقريبى لهذه الأرقام على نفس مستوى الصنف الأول ، مقدمة مجموع على مركب للصنفين الأولين بحوالى ٥ مليون إنسان .

٣ ـ إعدام أشخاص ينتمون إلى أصناف مختلفة من المجتمع ويعتقد أنهم معادن للنظام داخليا ، وبصرف النظر عن المواقف الحقيقية لهؤلاء الضحايا . وتضم هذه المجموعات الضباط العسكريين السابقين ، والمسؤولين الحكوميين السابقين ، الأرستقراطيين ، أصحاب الأرض ، الكهنة ، والرأسماليين . فقد أعدم معظمهم ، ووضع آخرون فى معسكرات الاعتقال ، حيث اختفت أكثريتهم . ويجب أن تكون التقديرات كبيرة ، حتى أن الكشوفات السوفيتية والأوربية الشرقية والصينية تظهر أن المجموعات الاجمالية كانت ضخمة ، وبالتأكيد لاتقل عن ٣ ملايين إلى ٥ ملايين إنسان . =

....

= ٤ ـ تصفية الفلاحين المستقلين . وكان هذا النوع من التصفية الجسدية للمزارعين الأغنياء المالكين فى الاتحاد السوفييتى من خلال الاعدامات ، والموت فى معسكرات الاعتقال . وأقل تقدير لهذا النوع من المصائب ، بالنظر إلى الأرقام السوفيتية والصينية والتى تصل إلى عدة ملايين ، والأرقام الكورية الشمالية والفيتنامية والتى تصل إلى عدة مئات من الآلاف يجب أن يزيد عن ١٠ ملايين إنسان .
٥ ـ المصائب المترافقة مع الترحيل الشعبى ، وإعادة الاستيطان القهرى . فلقد أفرزت هذه السياسات ، والتى أحدثت فى سياق عملية التجميع فى الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية ، وخصوصا فى الصين أثناء الحملة ضد أصحاب الأراضى الزراعية ، وأثناء إنشاء الكنتونات الفلاحية فى سياق عملية الخطوة الكبيرة إلى الأمام ، المجاعات الكبيرة والأمراض الوبائية ، وكوارث أخرى مختلفة . ويجب أن يؤخذ أى تقدير فى الحسبان ، السياسة السوفيتية فى ترحيل الأشخاص المشبوهين من غير الروس ، مثل العديد من الليتوانيين والأيستونيين والاتفانيين ، من جمهوريات البلطيق ، والبولنديين من المناطق الغربية للاتحاد السوفييتى ، والتشاد من القرم ، وغيرهم إلى مناطق بعيدة من سيبريا . وتتراوح التقديرات السوفيتية الأخيرة لعدد الضحايا بين سبعة ملايين إلى عشرة ملايين انسان فى الاتحاد السوفييتى فقط ، بينما وضعت بعض التقديرات الأخيرة فى الصين الرقم الإجمالى بحوالى ٢٧ مليون إنسان ، ويمكن أن يصل المجموع إلى رقم حذر ولكن بنفس الوقت مرعب على الأقل ٣٠ مليون إنسان .
٦ ـ الاعدامات والموت فى معسكرات الاعتقال للشيوعيين غير المرغوب فيهم ، ويمكن تقدير عدد الشيوعيين المعتقلين فى الاتحاد السوفييتى فى مجال الصراعات على السلطة والتنظيفات المختلفة ، وبعد ذلك التصفيات الجسدية بين عامى ١٩٣٦م و١٩٣٨م بأكثر من مليون شخص دون شك . ولقد اعتقل وقتل عشرات الآلاف فى أوروبا الشرقية فى أواخر الأربعينات ، وبداية الخمسينيات . ولقد لقى عدة ملايين نفس المصير فى الصين ، وخصوصا أثناء الثورة الثقافية .
٧ ـ الفزع والذعر الجسدى والنفسى من الاعتقال والأشغال الشاقة الطويلة الأمد فقد أظهر العفو العام فى الاتحاد السوفييتى فى أواسط الخمسينيات اطلاق سراح عدة ملايين من الأشخاص الذين أمضوا فى بعض الحالات مددا تصل إلى عشرين سنة مسجونين تحت ظروف قاسية وأليمة . وقد حدثت اعفاءات عديدة فى أوروبا الشرقية بعد إدانة خروشوف لستالين عام ١٩٥٦م ، وكذلك حدث فى الصين بعد انتهاء الثورة الثقافية فى بداية السبعينيات . =

ثالثا : العقوبة .

إن النظام السياسى الإسلامى ينظر إلى أفراد الشعب أن الأصل فيهم براءة الذمة . وبهذا فالمتهم برىء حتى تثبت إدانته . وإذا ثبتت فالعقوبة على قدر الخطأ لاأكثر .

وقد أفاضت الشريعة الإسلامية فى تقدير الجنايات ووضع العقوبات لها لتستقيم حياة الناس . ومالم يرد فيه شىء فترك الأمر إلى القاضى أو الإمام ليقيم العقوبة الرادعة (التعزير) .

أما فى النظام الشيوعى فالفرد مذنب حتى تثبت براءته . ويؤخذ الفرد بالظنة ويعاقب ، وبعد عقوبته يصبح مراقبا مطاردا . وإذا لم يعترف فالويل له لأنه متهم معاند مصر . وإن اعترف فالعقوبة والشبهات تلازمه ماعاش وكل صغيرة أو كبيرة من فعل أو قول لابد وأن تفسر سياسيا ، وتفسر بأنها خيانة للحزب الشيوعى .

يقول د. سيد الصالح فى ظل النظام السياسى الشيوعى (المتهم مدان حتى تثبت براءته ، وحتى بعد ثبوت براءته يظل مطاردا ، يعانى من تهمته الباطلة حتى يقضى نحبه ، هذا على الرغم من أن العدالة كانت هى الشعار الأساسى الذى نادى به ماركس وتغنت بها الثورة البلشفية ومازالت ترددها الأحزاب الشيوعية المتابعة لها فى كل البلدان ، إلا أن الواقع اليوم فى روسيا وسائر المجتمعات الشيوعية هو نوع من الظلم السياسى والإجتماعى ولذلك يقول الكاتب الآسيوى "مينوماسانى" (ونستطيع القول أن الشيوعية

= ٨ ـ اضطهاد عوائل ضحايا النظام . فلقد كانت عائلات ضحايا الأصناف الستة الأولى ، هدفا للعقوبات والتى تتراوح بين الاعدام ، والسجن ، الترحيل ، والتمييز فى السكن ، والبطالة .

٩ ـ انتشار مناخ إجتماعى من الخوف والعزلة السياسية والشخصية .

لقد كانت الأصناف الإجتماعية ـ ماعدا العمال والفلاحين الفقراء ـ معرضة لمظاهر عدائية من طبقة المسؤولين خلال عهد إعادة بناء المجتمع الشيوعى القهرية) . الفشل الكبير (٣٠٥-٣٠٧) .

فى الوقت الحاضر قد أدارت ظهرها لكل فكره تمت عن التسامح والتقدم اللذين نادت بهما ثورة اكتوبر ، بل على العكس تماما نجدها قد استعاضت عن الحرية والمساواة الإجتماعية بنظام طبقى جديد يتميز بالبعد عن المساواة)[١].

رابعا : العدل .

النظام الإسلامى يوجب على الحاكم أو الوالى أن يحكم بالعدل بين الناس ولايفرق بين صغير ولاكبير ، ولاحقير ولاأمير . فكلهم سواسية لأنهم عند الله سواء لافضل بينهم إلا بالإيمان والتقوى .

أما النظام الشيوعى فإن الثورة البلشفية حملت فى شعاراتها تحقيق العدل ثم نصت عليه فى دساتيرها فهل حققت هذه العدالة للعمال؟!

إن واقع الاتحاد السوفييتى يرفض الإجابة بالإيجاب ، وكيف بالإمكان أن يتحقق العدل ، والفئة القليلة تتحكم بمصائر الخلق والدكتاتورية سبيلها والسيطرة وتحقيق الأهداف الذاتية غايتها؟! إن هذه التوجهات تمنع من قيام دولة عادلة ، ومن هنا غدت الشعارات التى رفعت أساليب خادعة ، وحيل ماكرة ، كان الهدف منها استنفاذ طاقات الطبقة العاملة ، لتحقيق الغايات للطبقة الحاكمة .

هذا بالإضافة إلى أنه من غيرالمنطق أن يوجد العدل فى دولة تسيطر فيها الطبقة الحاكمة على جميع السلطات سواء التشريعية أو التنفيذية ، أو القضائية .

إن الشيوعيين (زعموا أنهم إنما جاءوا لتطبيق العدالة الإجتماعية والقضاء على الظلم والاستغلال والاحتكار ، فإذا بهم يعيشون الظلم بأبشع أنواعه ، والاستغلال فى أسوأ صوره ، والاحتكار فى أردأ أقسامه)[٢].

---

(١) الماركسية من أبعادها المختلفة (٤٢) نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣١٢) .

(٢) وسقطت الماركسية (٢٠) .

لقد كانت العدالة الشيوعية تتمثل فيما تعتبره الدولة أو أجهزة الدولة[١]، فالعدالة ماأقره الحزب وأمر به دون النظر فى نتائجه .

إن انعدام العدالة فى الحكم الشيوعى كان نذير سوء لها فـ(إن الناس يرضون عن الحكومة يوم تكون مصالحهم فى ظلها مكفولة نامية ، ويوم تكون عقائدهم وآراؤهم محترمة مصونة .. فإذا نظر إنسان فرأى الحكم الشيوعى قد قلل دخله ، وضيق عيشه وإذا نظر فرأى أنه قد أهان دينه ، وصادر حريته فما الذى يحمله على الرضا بذلك الحكم المشئوم؟)[٢].

إن العدل فقد فى الاتحاد السوفييتى ، وأصبح الشعب يمثل مجموعة من العبيد يقومون بخدمة سيدهم[٣](الحزب) ، وكل أمر يصدر من هذا العبد يفسر سياسيا[٤]. فكيف سيكون حال هذا الشعب؟!

إن هذا الوضع الذى كان يعيشه الإنسان تحت النظام الشيوعى فى ظل انعدام العدالة ، جعله يتطلع دوما إلى البحث عن البديل ، فكما أنه بحث عن البديل بالنسبة للقيصرية الطاغية ، فكذلك كان حاله بعد أن انكشف زيف أفكار الشيوعية .

لقد كانت الأحلام تراود أفراد الشعب السوفييتى ولكن تبددت بالحقيقة والواقع المشاهد . وهكذا غدا واقع الاتحاد السوفييتى يدل على انعدام الحرية السياسية ، وزيف الأفكار والنظريات الماركسية ، وماكان الشعب ليصبر أكثر مما صبر ، أو أن ينتظر إلى أن يهلك فبدأ البركان يغلى من داخل هؤلاء وشعر القادة السوفييت بذلك فبدأوا بمنح شعوبهم شيئا من الحرية ، رغبة فى اسكاتهم ، والحصول على ودهم لتطول مدة بقائهم .

لقد كان القضاء على الحرية السياسية أحد الأسباب - مجتمعا مع بقية الحريات - التى أدت إلى تصدع البنيان الشيوعى ، بل ومن أكثرها ، لأن

---

(١) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٢) .
(٢) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٦٤) .
(٣) انظر العدل فريضة (٩) .
(٤) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٦٦-٢٦٧) .

الشيوعية عبرت عن نفسها بأنها السلطة السياسية فى يد الطبقة المضطهدة . ولكن كل ذلك تبدد وتبددت معه الأحلام ، فكان لابد من البحث عن مخرج من هذا الظلام الذى كان حالكا ، وفرض على الشعوب بالقوة والجبروت . فكان الهروب من المعسكرات الشيوعية ، والهمسات التى كانت تصدر هنا وهناك ، وقد استفحلت مما جعل قواد الدول الشيوعية يعيدون النظر فى أفكارهم ويعلنون التراجع والتغيير فيها تحقيقا لمصلحتهم وكسبا لشعوبهم .

وبعد هذا العرض أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الشيوعية اشتملت فى تنظيرها تحقيق الحرية السياسية ، وأن هذه الحرية ستتحقق عندما تصل البروليتاريا إلى سدة الحكم .

ثانيا : أن من المبادىء الأساسية للشيوعية القضاء على الطبقات وإقامة طبقة البروليتاريا (دكتاتورية البروليتاريا) .

ثالثا : أن الشيوعيين حكموا بأنفسهم على عدم تحقق مبادئهم وأهدافهم حيث كانت الدكتاتورية فى يد الطبقة الحاكمة من غير العمال .

رابعا : أن مبدأ الدكتاتورية سواء كان لطبقة العمال أو لغيرها نظام فاسد يقوم على التحكم والسيطرة .

خامسا : أن الديمقراطية الغربية التى تندر بها الشيوعيون حققت لشعوبها أكثر مما حققته الشيوعية لمواطنيها رغم أنها نظام فاسد .

سادسا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يرد على زعم الشيوعيين تحقيق الحرية السياسية .

سابعا : أن الشيوعيين لو منحوا الحرية السياسية لشعوبهم لكان فى ذلك هلاكا لهم .

ثامنا : أن مما يدل على عدم تحقق الحرية فى الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية هو هروب كثير من الشيوعيين إلى بلاد أوروبا الغربية ، وكفر كثير من الشيوعيين بالشيوعية ، بعد انكشافها على حقيقتها .

تاسعا : أن الطبقـة التى قامـت من أجلها الشيوعية وهـى طبقة العمال كانت أشد الطبقات اضطهادا فى الاتحاد السوفييتى ، ومما سيزيد ذلك إيضاحا فى فســاد النظـام السيـاسى الشيـوعى عـرضنا للنظـام السيــاسى فى الإسلام باختصار .

(ب) الحرية السياسية فى الإسلام :

إن النظام الإسلامى نظام متكامل يحقق للفرد السعادة فى الدارين ، وعندما كان الإسلام قد منح الإنسان الحرية التامة المنضبطة بقواعد الشرع ، فإن من الحريات التى كفلها له الحرية السياسية . وهذه الحرية لاتخرج عن الإطار العام وهو أن تمارس فى الحدود الشرعية ، وأن تكون محققة للمصلحة بعيدة عن المفسدة . وقد اهتم الإسلام بأمور السياسة إهتماما كبيرا ، وأوضح تعالى أن الأمر لايستقيم إلا مع العدل ، ومن هنا كان لابد من الاهتمام بما يحقق ذلك ، ويرعى تطبيق شرع الله تعالى فى أرضه ، فكان لزاما من وجود من يقوم بهذا الأمر ، فجعل الإسلام ذلك من الأولويات التى تستقيم بها الحياة البشرية وهو اختيار الوالى أو الأمير للقيام بسياسة الناس حسب ماقرره جل وعلا وقرره رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونأتى لنبين أهمية ذلك وشرعيته . وسنجعل الحديث عن النظام السياسى فى الإسلام فى نقاط .

أولا : أن الإسلام أوجب إقامة الإمام .

جعل الإسلام إقامة من يقوم على أمر المسلمين أمرا واجبا ، ليقيم شرع الله تعالى فيهم ، ويأخذ للمظلومين بحقهم ، ليعم العدل ويستقيم الأمر.

وقد وردت الأدلة من القرآن والسنة التى توجب ذلك وتحث عليه ، فمن القرآن قوله تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**}(١).

وقوله تعالى : {**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيما**}(٢).

---

(١) سورة النساء : (٥٩) .

(٢) سورة النساء : (١٠٥) .

هذا بالإضافة إلى الآيات الواردة فى القصاص والحدود فإنه لابد من وجود سلطة تقوم بتنفيذها .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : "من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"(١). والبيعة لاتكون إلا بوجود الإمام .

وقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم"(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (فإذا كان قد أوجب فى أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم كان هذا تنبيها على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك)(٣).

ثم إن فعله صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك فقد حكم بين الناس وأقام حدود الله تعالى ، واستعمل الصحابة رضى الله عنهم وعين الولاة ، وأرسل الجيوش وعقد الألوية .

ثانيا : فعل الصحابة رضى الله عنهم حيث قاموا بتعيين الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليقوم بأمر الله تعالى منهم ، ثم من بعد ذلك التابعين وأتباعهم ليقينهم بأن أمور الدولة(٤)لاتستقيم إلا بوجود الخليفة أو ولى الأمر .

ثالثا : الإجماع على وجوب إقامة الإمام .

يقول الإمام ابن حزم : (اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة

---

(١) رواه مسلم بشرح النووى (٣٤٠/١٢) كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن .

(٢) رواه أبو داود (٣٦/٣) كتاب الجهاد ، باب فى القوم يسافرون يؤمرون أحدهم ، رقم الحديث (٢٦٠٨) .

(٣) الحسبة فى الإسلام (٥) .

(٤) الدولة كلمة تطلق (على السلطة الشرعية المكلفة بحماية المصالح الاجتماعية عن طريق الالتزام بالقواعد والمبادىء والحقوق التى أقرها الإسلام للناس ، وهى بهذه الصفة تعتبر الهيئة التمثيلية المكلفة من الأمة تكليفا اختياريا لحماية المصالح العامة...) . المدخل للتشريع الإسلامى (٥٥) .

وجميع المعتزلة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة وأن الأمة فرض واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم)(١).

وقال الماوردى : (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالإجماع)(٢).

رابعا : أن الناس بفطرتهم يميلون إلى الاجتماع ، وهو أمر فطروا عليه ونظرا للاختلاف الواقع بينهم من حيث توجهاتهم ورغباتهم ، فإنه يلزم من وجود قوة أو جهة يحتكمون إليها ، تقيم العدل بينهم(٣)، ولأجل ذلك ماوجدت أمة أو قبيلة فى التاريخ ليس لها أحد يقودها ، بل وأحيانا يكون له عدد من القواد ، ووصل الأمر ببعض الطوائف إلى اعتبار الحاكم ابنا للآلهة أو أنه الإله نفسه(٤).

ومن هنا أولى الإسلام الحكم وشئون السياسة اهتماما خاصا فكانت له قواعده المستقلة ، وأحكامه الخاصة التى يتميز بها عن سائر الأديان والمذاهب ويتحقق من خلالها سعادة الشعوب دننا وأخرى . ونوجز هنا بعض المبادىء والأصول التى يقوم عليها نظام الحكم فى الإسلام .

---

(١) الفصل فى الملل والنحل (٨٧/٤) .

(٢) الأحكام السلطانية (٥) .

(٣) انظر عن ذلك المعنى الحسبة فى الإسلام (٤-٥) .

(٤) انظر الأنظمة السياسية المعاصرة (٧١) ومابعدها .

يقول د. عبد الله الدميجى : (إن من الأدلة على وجوب الإمامة دفع أضرار الفوضى ، لأن فى عدم اتخاذ إمام معين من الأضرار والفوضى مالايعلمه إلا الله ودفع الضر وحماية الضروريات الخمس ـ الدين ، والنفس ، والعرض والمال ، والعقل ـ واجب شرعا ، ومن مقاصد الشريعة حفظها) . الإمامة العظمى (٦٠) ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض .

الأصل الأول : يقوم الحكم فى الإسلام على عقيدة لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك أنه لامعبود ولامشرع إلا الله تعالى . ويلزم من ذلك :

(أ) المساواة بين البشر جميعا .

(ب) أن الدولة الإسلامية دولة عقيدة وليست دولة جنس أو قوم أووطن أو تراب فالرابطة الأساسية بين المسلمين هى العقيدة .

(ج) الحفاظ على الكرامة الإنسانية . فالإنسان له حقوق ولايجوز أن تصادر منه(١).

الأصل الثانى : وجوب تعيين الحاكم ، واشتراط أهليته لذلك ، ومن الشروط التى ينبغى توفرها فيه : الإسلام ، البلوغ ، العقل ، الحرية ، أن يكون ذكرا ، العلم ، العدالة ، الكفاءة النفسية ، الكفاءة الجسمية ، عدم الحرص عليها ، القرشية(٢).

وقد أوجب الإسلام على الحاكم أمورا منها :

(أ) الحكم بما أنزل الله تعالى ، والتحاكم إلى الكتاب والسنة حال الخلاف .

(ب) الحفاظ على أوامر الله تعالى فى نفسه ، ثم نشرها بين الناس وتأديب من خالفها .

(ج) العدل فى كل أحكامه ومراقبة الله تعالى فيها .

(د) المساواة بين الرعية .

(هـ) كفالة وضمان حدود الكفاية لكل أفراد المجتمع الإسلامى .

(و) مشاورة أهل الحل والعقد فى سياسة الدولة وعدم الانفراد بالرأى(٣).

---

(١) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٠١-٣٠٣) .

(٢) ورد ذكر بعض من هذه الشروط فى : الفصل فى الملل والنحل (١٦٦/٤) ، الأحكام السلطانية للماوردى (٦) دار الفكر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها . وانظر الإمامة العظمى . عن هذه الشروط بترتيبها أعلاه (٢٣٤-٢٩٥) فقد أجاد مؤلفه وأفاد .

(٣) انظر : أوضاعنا السياسية (١٦٨) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣١٤-٣١٥) .

ويجب على المحكوم أمورا منها :

(أ) طاعة ولى الأمر ماأطاع الله تعالى وأقام أمره .

قال تعالى : **{ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا}**(١).

وقال صلى الله عليه وسلم : "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة"(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم : "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة"(٣).

(ب) الإبقاء على البيعة وعدم الخروج عليه إلا بما يوجب ذلك(٤).

كما ورد فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه (بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لاننازع الأمر أهله قال إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان)(٥).

(ج) النصح لولى الأمر .

فعن تميم الدارى :

---

(١) سورة النساء : (٥٩) .

(٢) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (١٢١/١٣) ، كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، ونحوه عند مسلم بشرح النووى (٢٢٦/١٢) ، كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية .

(٣) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (١٢١/١٣-١٢٢) ، كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، مسلم بشرح النووى (٢٢٦/١٢) ، كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية .

(٤) انظر أوضاعنا السياسية (١٦٨) .

(٥) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (٥/١٣) ، كتاب الفتن ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم سترون بعدى أمورا تنكرونها ، مسلم بشرح النووى (٢٢٨/١٢) ، كتاب الأمارة ، وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية .

قال صلى الله عليه وسلم : "الدين النصيحة . قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"(١).

ويلحق بذلك حق النقد والتوجيه ويشترك فى هذا الحاكم والمحكوم شريطة أن تكون الغاية الإصلاح لاالانتصار للنفس وبالوسائل المشروعة فى الإسلام .

الأصل الثالث : البيعة . يقول ابن خلدون : (اعلم أن البيعة هى العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين لاينازعه فى شىء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره ، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم فى يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشترى فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدى هذا مدلولها فى عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة)(٢).

قال تعالى : {**لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا** ...}(٣).

ومن السنة حديث عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه حيث قال دعانا النبى صلى الله عليه وسلم فبايعناه "فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لاننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان"(٤).

وهذه البيعة دلالة على الرضا من المبايع والقبول بمن بايع وهذا فيه أعظم الإقرار بالحرية السياسية ، فإن البيعة لاتؤخذ بالقوة .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) المقدمة (٢٣١) ، دار الجيل ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها . وانظر عن البيعة وأنواعها وأدلتها الإمامة العظمى (٢٠٠) ومابعدها .

(٣) سورة الفتح : (١٨) .

(٤) سبق تخريجه (٩١٠) .

الأصل الرابع : الشورى .

(هى استطلاع رأى الأمة من خلال نوابها من أهل الحل والعقد فى أمر من الأمور الدنيوية التى تمس مصالح الناس بهدف الوصول إلى الرأى الصواب مما يساعد الحاكم على اتخاذ القرار النهائى بما لايخالف النصوص الشرعية وأحكامها ومقاصدها صراحة أو ضمنا)(١).

أو (هى وسيلة أو أسلوب أو كيفية تتبع فى التحرى عن الرأى الصائب)(٢).

والأصل فيها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال سبحانه : {**وشاورهم فى الأمر**}(٣).

وقال تعالى : {**وأمرهم شورى بينهم**}(٤).

أما السنة فإن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فيها الكثير من قضايا المشاورة مع أصحابه رضى الله عنهم سواء فى الجهاد أو غيره ، ثم كان الصحابة رضى الله عنهم من بعده عليه السلام حيث أقاموا هذا المبدأ وعملوا به ولاأدل على ذلك من اجتماعهم لأجل اختيار الخليفة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالشورى أصل من (الأصول الأولى للنظام السياسى فى الإسلام ، وفى هذا سبق المسلمون كل النظم الديمقراطية الحديثة فى الاعتراف بضرورة موافقة الجماعة على اختيار من يقوم على رعاية مصالحها ومن يوكل إليه تدبير أمورها وهنا تظهر قيمة وفاعلية الإجماع)(٥).

---

(١) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٢١) .

(٢) الديمقراطية والحرية (٦٨) ، حافظ صالح ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، دار الفتح ، بيشاور ، باكستان .

(٣) سورة آل عمران (١٥٩) .

(٤) سورة الشورى : (٣٨) .

(٥) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية (٣٧) ، ولمزيد من المعلومات عن الشورى والحكمة منها انظر الإمامة العظمى (٤٣٣) ومابعدها .

ومن المسلم به أن الشورى إنما هى فى مالم يرد فيه نص[١]، وإنما أقرت الشورى لتحقيق مصالح عديدة ومنها :

(١) إحراز الصواب غالبا .
(٢) التجرد من الهوى[٢].
(٣) التأليف بين قلوب المسلمين .
(٤) معالجة القضايا المستحدثة فى حياة الناس .
(٥) التوجيه نحو حرية الفكر والعقل .
(٦) الحد من دكتاتورية الحاكم حتى لايستبد بالأمر[٣].

وهكذا نتبين أن الإسلام قد اهتم بالسياسة وشئونها وجعلها من الدين وطالب الإسلام الدولة أو الإمام بإقامة العدل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحقيق الحياة الحرة للأفراد ، وتنمية موارد الدولة واستثمارها[٤].

إن العدل من أعظمماينشد الإنسان فى هذه الحياة فقد (قام الإجماع بين كل الأديان والمذاهب على أن المطلب الأساسى للعلم وللدين وللمذهب بل ولكل الأنشطة الإنسانية الإجتماعية هو "اسعاد الإنسان")[٥].

ولاشك أن العدل من أولويات مايحقق السعادة للانسان مجتمعا مع الحرية والمساواة ، إن العدل أمر إلهى ولأجل ذلك (مقت الله تعالى الظلم ، ومنعه عن نفسه ، وبذلك فهو حكما ممنوع بين العباد)[٦]. والعدل متوافق

---

(١) من الغريب مانراه فى بعض الدول الإسلامية حيث يوضع شرع الله تعالى ـ هذا إن وضع ـ للتصويت عليه والتشاور فى : هل يحكم به أو لا ؟!
(٢) انظر الإمامة العظمى (٤٣٣،٤٣٥) .
(٣) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٢٢-٣٢٣) .
(٤) انظر عن هذه المعانى شهادتى للتاريخ (٢٤٩-٢٥٠) .
(٥) الإنسان فى ظل الأديان (٢٠) .
(٦) العدل فريضة اسلامية (٢٤) .

مع الفطرة البشرية (وهو عنوان الكرامة الإنسانية ، أما الظلم والبغى فإنهما يتعارضان مع فطرة البشر وتطلعهم نحو حرية لاتستقيم حياتهم بدونها ، لذا نرى الإنسان لا بل حتى الطائر ينشد حريته ، وقد يسكت على سجن أو انتقاص لحريته لكن سكوتا مقترنا بالتحضير من أجل تحطيم القيود ، هو سكوت أشبه مايكون بالانحناء أمام عاصفة هوجاء)(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وأمور الناس تستقيم فى الدنيا مع العدل الذى فيه الاشتراك فى أنواع الإثم ، أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق وإن لم تشترك فى إثم ، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولايقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولاتدوم مع الظلم والإسلام ... فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان مايجزى به فى الآخرة)(٢).

ومن هنا حرم الإسلام الظلم والاستبداد من قبل الحاكم وأمره بالعدل بين الناس ، وإقامة دين الله تعالى فيهم وتطبيق شرعه عليهم جميعا دون تمييز بين حقير وأمير ، أو غنى وفقير فكلهم سواسية كأسنان المشط ولافضل لبعضهم على بعض إلا بالتقوى ، تلك المنزلة التى يتفاوت فيها الناس ويتساوون فى بقية الأمور أمام شرع الله تعالى .

ولهذا جاءت النصوص القرآنية (لتصحح مفاهيم الحاكم المستبد ، وتعلمه بأن رئاسته على الناس أمانة ، فعليه أن يقوم بحقها خير قيام ، وإلا كانت له خزيا وندامة ساعة لاينفع الندم)(٣).

---

(١) العدل فريضة اسلامية (٣٤) .

(٢) الحسبة فى الإسلام (٥٣) ، وعن العدل وفضله انظر العدل فريضة اسلامية (٢٧-٢٨) ، وقال إنه سنة الله تعالى فى خلقه . وانظر العدالة الإجتماعية (٨٠-٨١) ، سيد قطب ، الطبعة الشرعية الحادية عشرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار الشروق .

(٣) العدل فريضة إسلامية (٢٨) .

وطالب الإسلام الحاكم بالرحمة واللين مع المؤمنين مع تطبيق شرع الله تعالى وعدم السكوت أو الرضا بمخالفته أو العمل ضده . وعليه أن يتقبل منهم النصح والإرشاد . وعلى هذا فالدولة فى الإسلام تقوم بأمر الله تعالى وليست دكتاتورا يتحكم برقاب الناس(١).

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن أمور السياسة داخلة فى دين الله تعالى ولايمكن فصلها عن الدين . فكثير من أحكامها مستمدة من الكتاب والسنة .

ثانيا : أن الإسلام بأصوله التى وضعها فى نظامه السياسى يكون حافظ على الحرية السياسية واحترم الإنسان وأكرمه .

ثالثا : أن النظام الإسلامى السياسى يرفض التسلط والاستبداد ، ويمقت الانفراد بالرأى ، ويجعل لأهل الحل والعقد الحق فى اختيار من يرونه مناسبا ليكون حاكما له إذا توافرت فيه شروط الإمامة .

رابعا : جعل الإسلام فى نظامه السياسى حقوقا وواجبات على كل من الراعى والرعية ، وماذلك إلا تحقيقا للمصلحة .

خامسا : حرص الإسلام أشد الحرص على إقامة العدل وعدم التفريق بين الناس على أساس ألوانهم أو أجناسهم فالكل سواسية .

سادسا : منح النظام السياسى الإسلامى الفرد حق الاعتراض على الإمام وتوجيه النصح والمشورة له ، ويتوجب ذلك إذا صدر منه مايخالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم(٢).

---

(١) انظر عن ذلك المعنى الشيوعية (٦٨) .

(٢) انظر عن ذلك : العدل فريضة إسلامية (٥٧) .

سابعا : أن النظام السياسى فى الإسلام نظام مستقل فلايطلـق عليه بأنه نظـام إشتراكـى أو ديموقـراطـى ، وفيمـا ذكـرناه دليـل على فسـاد الشيـوعية والأنظمة الأرضية عامة حيث إنها لن تحقق ماحققه الإسلام سـواء فى الجانب السياسى أو غيره من الجوانب .

وبهذا نصل إلى الحديث عن حرية أخرى هى حرية العمل .

المبحث السادس
حرية العمل

(أ) حرية العمل فى النظام الشيوعى :

إن من الحقائق التى لاشك فيها اهتمام السوفييت بالعمل اهتماما كبيرا ولاغرابة فى ذلك الاهتمام إذا كنا علمنا أن نظامها إنما هو تطبيق فكر ماركس اليهودى الذى أولاه أكبر اهتمام وجعل حياة المجتمعات تترجم من خلال أنظمتها الاقتصادية . وأساس الاقتصاد العمل ، بل إن سعر السلعة إنما يتحكم فيه العمل ، فمن هنا اهتم الشيوعيون بالعمل والعمال وقامت دعوة تحريرهم من الاضطهاد والاستغلال وكان ذلك تنفيذا لأفكار ماركس الذى طالب بالسيطرة من قبل البروليتاريا ليتخلصوا من الاضطهاد الذى يمارسه عليهم أصحاب رؤوس الأموال ، وقد جاء الدستور ينص على حق العمل لكل فرد وتأمينه إلا أن هناك ماخرق ذلك الحق وهو أن (من لايعمل لايأكل) فكانت المعادلة صعبة جدا على الفرد خصوصا أن الدستور نص على أن جميع المواطنين لهم الحق فى العمل .

ويمكن إبراز اهتمام الشيوعيين بالعمل فى التالى :

أولا : أقوالهم فى أهميته .

يقول انجلز : (العمل كما يقول علماء الإقتصاد السياسى ، مصدر كل ثروة . وإنه كذلك فعلا ، إلى جانب الطبيعة ، التى تزوده بالمادة فيحولها إلى ثروة . ولكنه أيضا أكثر من ذلك بما لايقاس . إنه الشرط الأساسى الأول للحياة البشرية كلها ، وهو كذلك إلى درجة يترتب علينا معها أن نقول بمعنى ما : إن العمل قد خلق الإنسان نفسه)(١).

ويقول ستالين : ("العمل فى الاتحاد السوفييتى هو مسألة شرف وبسالة وبطولة" . وهى عبارة كانت تزين أبواب المعتقلات ، التى اعتبرت منذ

---

(١) ديالكتيك الطبيعة (١٦٣) .

ولادتها عام ١٩١٨م بمثابة "مدارس عمل")[١].

ثانيا : النص على أن لكل مواطن حق العمل .

حيث جاء فى الدستور السوفييتى : (العمل بالاتحاد السوفييتى هو بالنسبة لكل مواطن قادر على العمل واجب وقضية شرف ، حسب المبدأ القائل "من لايشتغل لايأكل" ويطبق فى اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية المبدأ القائل "من كل حسب مقدرته ، ولكل حسب عمله")[٢].

ثالثا : تحقيق الحرية للعمال (طبقة البروليتاريا) .

ومن قبل أعلن ماركس (أن الحرية إنما تكون لطبقة واحدة من طبقات المجتمع وهى طبقة العمال اليدويين ، أما سائر الطبقات الأخرى من صغار الزراع والتجار فضلا عن المثقفين والملاك فهم أعداء الثورة وعليهم جميعا أن يتخلوا عن وجهة نظرهم الخاصة ويتبينوا وجهة نظر البروليتاريا)[٣].

رابعا : انتقاد الأنظمة السابقة على الشيوعية حيث قامت على الاستغلال وظلم العامل .

أكثر الشيوعيون من بيان الظلم الذى كان يقع على الفلاح والعامل فى الأنظمة السابقة أو الأنظمة القائمة وكان هذا الانتقاد من مؤسسى الماركسية ، ثم من قادة الثورة .

يقول انجلز : (وأيا كان السيد الذى يستعبد الفلاح ... فقد كان الجميع يعاملونه باعتباره شيئا ، حيوانا لحمل الأثقال أو أقل . فإذا كان رقيقا فقد كان تحت رحمة سيده تماما ، وإذا كان قنا فإن الالتزامات القانونية المسجلة فى الاتفاق كانت كافية لسحقه ورغم ذلك فقد كانت تلك الالتزامات تزداد يوما بعد يوم . فكان عليه أن يعمل فى إقطاعية سيده معظم وقته ، ومما كان يكسبه فى الساعات القليلة الحرة كان عليه أن يدفع العشور والجمارك والإيجار والضرائب للطرق وضرائب (الحروب) والضرائب

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٧٦) .
(٢) الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٢-٤٠٣) .
(٣) مصادر الماركسية (٣٢) .

الإمبراطورية والمحلية ولم يكن يستطيع أن يتزوج أو يموت دون أن يدفع لسيده . وإلى جانب العمل الملتزم به قانونا عليه أن يجمع النفايات ويقطف التوت ويلتقط المحار ويسوق الكلاب عند الصيد ويقطع الأخشاب ..الخ لسيده .

وكان حق صيد البر والبحر من حقوق السيد فقط وكان الفلاح ينزوى جانبا فى هدوء ويرقب محصوله يدمر أثناء الصيد . وكان السادة يغتصبون مراعى وغابات الفلاحين العامة فى كل مكان . وكان السيد يفرض تحكمه على شخص الفلاح نفسه وعلى زوجته وبناته تماما كما يتحكم فى ممتلكاته . وكان له حق الليلة الأولى He has the right of the first night وكان يلقى بالفلاح فى سجن قلعته عندما يرى ذلك مناسبا . وكانت آلات التعذيب تنتظر الفلاح هناك تماما كما ينتظر المحقق المقبوض عليهم فى أيامنا هذه . وكان يقتله أو يقطع رقبته عندما يروق له ذلك . ولم يكن هناك فصل واحد من الفصول الملهمة فى "الكارولينا"[١]حول "قطع الأذن" ، و"جدع الأنف" ، و"خرق العين" ، و"قطع الأصابع والأيدى" ، و"حز الرأس" ، و"الشد على عجلة التعذيب" ، و"الحرق" ، و"أسياخ الحديد المحمى" ، و"التربيع" ، "أى قطع الجسم ٤ أجزاء" ...الخ . ومن يدافع عن الفلاح؟ لقد كان يجلس فى المحاكم القسس أو الأشراف أو القضاة الذين يعرفون جيدا لماذا يتقاضون أجورهم . لقد كانت كل الطبقات الرسمية فى الإمبراطورية تعيش على ذبح الفلاح)[٢].

يقول لينين : (نهب الفلاحون بصورة مزدوجة : فإنه لم يكتف بانقاص أراضيهم ، بل أجبروا أيضا على دفع "تعويضات" مقابل الأرض التى تركت لهم والتى كانوا يتمتعون بها على الدوام ، تعويضات أرفع بكثير من قيمتها الفعلية . حتى إن الملاكين العقاريين أنفسهم ، بعد عشر سنوات من إلغاء

---

(١) كتاب حول التعذيب .

(٢) حرب الفلاحين فى المانيا (٤٢-٤٣) .

القنانة ، أقروا للموظفين الذين كانوا يدرسون حالة الزراعة ، بأن الفلاحين أجبروا ، لاعلى دفع ثمن أرضهم وحسب ، بل على دفع ثمن حريتهم أيضا . وبالرغم من أن الفلاحين أجبروا على دفع ثمن حريتهم الشخصية ، إلا أنهم لم يصبحوا قط أناسا أحرارا ، فقد تركوا لمدة عشرين سنة "ملزمين مؤقتا" ، وقد ظلوا "ومايزالون الآن" فى منزلة دنيا ، يمكن معاقبتهم بالضرب والجلد ، ويدفعون ضرائب خاصة ، ولايحق لهم لامغادرة مشاعتهم شبه الإقطاعية بحرية ، ولاالتصرف بأرضهم بحرية ، ولاالإقامة بحرية فى أى محل من البلاد)[١].

وقد أكثر لينين من الحديث عن ظلم الفلاحين فى الأنظمة السابقة ، وكبت حريتهم ، ومنعهم من التنقل إلا بإذن[٢].

ولكن لماذا صبر الفلاحون على هذا الظلم النازل بهم ولم يقوموا بالثورة؟

يقول انجلز : (رغم أن الفلاحين كانوا يئنون تحت وطأة هذا العبء الثقيل فقد كان من الصعب دفعهم إلى الثورة . فقد كانوا موزعين على مساحات شاسعة مما يجعل من الصعب قيام أى اتفاق بينهم . وكان الخنوع المعتاد الموروث من جيل إلى جيل ، وانعدام اتقان استعمال السلاح فى كثير من المناطق ، واختلاف درجة الاستغلال التى كانت تتوقف على شخصية السيد كل هذه العوامل اجتمعت لتدفع بالفلاح إلى الهدوء) .

ويضيف (وفضلا عن ذلك فلم يكن الفلاحون يستطيعون وحدهم أن يبدأوا ثورة طالما كانت تواجههم القوة المتحدة والمنظمة للأمراء والنبلاء والمدن . وكانت فرصتهم الوحيدة فى النجاح هى التحالف مع الطبقات الأخرى ، ولكن كيف كان يمكن أن يتحدوا مع الطبقات الأخرى إذا كان

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٤) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٣٢-١١٣) ، الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٢٠٢-٢٠٣) .

الكل يستغلونهم على قدم المساواة؟)[١].

هـذا جزء يسير من كلام المنظرين للمذهب فى ظلم العـامل واضطهـاد الفلاح بل إن المذهـب الماركسـى ماقام إلا لنصرة العـامل وإزاحة الظلم عنه ورفـع الاستغلال المضروب عليـه على حد زعمهم . وجاءت الثـورة البلشفية التى قـامت على فكـر ماركس . وقـد أكثر لينين من انتقـاد المذاهـب الأخرى خاصة البرجوازية وظلمها للعمال وعدم حصولهم على حرياتهم وحقوقهم فى ذلك النظـام[٢]. وممـا جاء عنـه بعد هـذه الانتقادات (لقـد أطـاحت السلطة السـوفيتية بالاقطـاعيين والـرأسماليين ، وهى تدافع بثبـات عـن الشعب دون محاولات إعادة سلطتهم .

إن السلطـة السـوفيتية تقطـع الطريق على الغنى والمالـك والمضـارب ، على كل من يريد أن يغتنى دون أن يشتغل ، على كل من يريد أن يثرى من عوز الشعب وجوعه ، إن السلطـة السـوفيتية مع الشغيلـة ، ضـد المضـاربين والمالكين والرأسماليين والاقطاعيين . هنا يكمن ينبوع قـوة السلطة السوفيتية وثباتها ، ينبوع استحالة قهرها فى العالم كله .

إن عشـرات ومئـات الملايين مـن العمال والفلاحين فى العـالم كلـه قد عانوا من اضطهاد الاقطاعيين والـرأسماليين وتعسفهـم ونهبهـم . والـدولة القـديمة ، سـواء منهـا الملكيـات أو الجمهـوريات "الديمقـراطية" "الـديمقراطية المزعومة" ، ساعدت المستثمرين واضطهدت الشغيلة)[٣].

وبعد هذا العرض نجد التالى :

أولا : أن العـامل قبـل النظـام السـوفييتى كان مظلـوما مستغلا بأبشـع أنواع الاستغلال .

ثانيا : أن العامل لم يكن يتمتع بأى حرية من الحريات .

---

(١) حرب الفلاحين فى المانيا (٤٣) .

(٢) انظـر على سبيـل المثال مقالات وخطـابات بمناسبة ثورة أكتـوبر (٣٤) ومـابعدها ، لينين .

(٣) ماهى سلطة السوفييت (٣٩) .

ثالثا : أن العامل لايستطيع الانتقال إلى مكان آخر بحثا عن العمل إلا بإذن .

ونأتي لإيضاح موقف الشيوعية من حرية العمل والعمال .

النظام الشيوعي وحرية العمل والعمال :

حملت الأفكار الماركسية ، والآراء اللينينية الكثير والكثير ، ولو قدر أن التطبيق العملي تقارب مع ماجاء في مجال النظرية لربما كان حال العامل في الاتحاد السوفييتي أحسن منه بكثير من المآل الذى وصل إليه ، ويمكن إيجاز موقف الشيوعية من حرية العمل والعمال في الاتحاد السوفييتي في النقاط التالية :

أولا : أن الدستور السوفييتي ، والمراسيم التي صدرت من الحزب اشتملت على امتهان العامل واضطهاده صراحة . وبالتالى تكون الشيوعية وقعت فى عين ماانتقدت به الأنظمة السابقة عليها إن لم تكن فاقتها .

حيث صدر في عام ١٩٣٠م مرسوم ينص على (أن العامل يجب أن يقبل أى عمل يعهد به إليه ، وفى أى بلد وفى أى مكان)[١].

وفى العام نفسه صدر مرسوم (يقضى بربط العمال بمصانعهم فلايتركونها إلا بإذن خاص)[٢].

وفى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠م و٩ أكتوبر ١٩٣٠م و١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠م (صدرت مراسيم تحرم على العامل أن يتخلى من تلقاء نفسه عن أى عمل مسند إليه ، وإلا فإنه يعد هاربا ويحكم عليه بأن يقضى عشرة أعوام فى معسكرات العمل الاجبارى) .

وينص المرسوم الصادر في ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢م والمرسوم الصادر في ٢٦ يونيو عام ١٩٤٠م (على أن العامل إذا غاب يوما واحدا أو تكرر تأخره عن مواعيد العمل ثلاث مرات فى شهر واحد فإنه يفصل من عمله ويحرم

---

(١) حقيقة الشيوعية (٣٦) .

(٢) المرجع السابق (٩٦) .

من بطاقة الاتحاد المثبتة لمهنته والتى تعطيه حق السكـن والغذاء ويتعرض للحكم عليه بالسجن مدة تتراوح بين ستة أشهر وسنة) .

وينص المرسومان الصادران فى أوائل يونيو عام ١٩٣٢م و٢ يونيو عام ١٩٤٢م (على أن العمال مسئولون ماليا عن أى ضرر يحل بالمصنع أو بالأدوات بحسب تقدير مدير العمل فقط وقد يصل مايقتطع من أجر العامل إلى عشر أمثال ماأتلف أو أضاع) .

(وينص القانون السوفييتى الأعلى الصادر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠م على أن من حق المدير أن يفرض عقوبة السجن على العامل لمدة أربعة أشهر دون تحقيق ولامحاكمة)(١).

على أن المدير ليس هو الرقيب الوحيد على العمال (بل لكل مصنع أو مؤسسة بوليس خاص يحصى على العمال أنفاسهم كما أن لمندوبى الحزب الشيوعى هذا الحق بالذات)(٢).

إن مثل هذه القرارات والمراسيم تجعل من العامل آلة تنتج ليس إلا فإذا ماتعطلت استبدلت بأخرى رغم أن الآلة الحقيقية قد تصلح ويبذل جهد فى الاستفادة منها أما العامل فهو بمثابة الآلة التى لاتصلح ومصيرها لو تعطلت ولو غصبا عنها أن تواجه مصيرها المؤلم . وبهذا فأى حرية يتحدث عنها الشيوعيون؟!! طالما أنهم قد وضعوا هذه القيود التى تنوء بها كواهل أولى القوة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ووضع الشيوعيون الشروط على من سيعمل وخاصة للرقابة على هؤلاء العمال حتى يكونوا على قدر كبير فى تفهم مايريده أعضاء الحزب ، ومن هنا أمكننا فهم بعض ماجاء فى المراسيم الصادرة عنهم من أن من حق مدير المصنع الفصل للعامل ولمدة أربعة أشهر دون محاكمة أو تحقيق ، ولأجل ذلك كان لابد من الاختيار الذى ترعاه عيون

---

(١) حقيقة الشيوعية (٣٦) .

(٢) المرجع السابق (٣٧) .

الحزب ، ومـن هنا قال لينين : (إن العمال الذين نختـارهم أعضاء فى اللجنة المركزية للرقابة يجب أن يكونوا شيوعيين لاعيب فيهم ، وأعتقد أنه لابد من بذل جهد طويل النفس لتعليمهم طرائق عملهم وأهدافه . وبعد ذاك ، يجب أن يكـون ثمة عدد محدد من الأمنـاء ، بصفة معاونين فى هـذا العمل ، ينبغى اخضـاعهم لـرقابة مثلثة قبـل قبـولهم فى العمل . وأخيرا ، ينبغـى لأولئـك المستخدمين الذين نقدم على تعيينهم فورا ، على سبيل الاستثناء ، فى مناصب التفتيش العمالى والفلاحى ، أن يستجيبوا للشروط التالية :

أولا ، أن يوصى لهم عدة شيوعيين ،

ثانيا ، أن يخضعوا لامتحان يثبت أنهم يعرفون جهاز دولتنا ،

ثالثـا ، أن يخضعوا لامتحان يثبت أنهم يعرفون أسـس النظرية المتعلقة بجهـاز دولتنـا ، العلم الإدارى ، وأصـول تصـريف الأمـور الادارية ، الـخ ؛

رابعـا ، يجب أن يحققـوا حسـن التفاهم فى العمـل مـع أعضاء اللجنة المركـزية للـرقابة ، ومع أمـانتهم بالـذات ، بصورة نتمكـن معهـا مـن تحمل المسؤولية عن حسن عمل هذا الجهاز بكليته)[١].

وهكـذا كانت القرارات والمراسيم بشـأن العمال تصـب فى معين واحد هو معين الاضطهاد والاستغلال .

ثانيا : إجبار العمال على العمل المجانى (السخرة) مما يتنافى مع أبسط الحقوق فى حرية العمل .

وقد جعل الشيوعيون العامل يعمل لمصلحة الحزب أولا وأخيرا فبداية الأمر قالوا بأن الثورة لهم ومن أجلهم فخدعوا العمـال وغرروا بهم ، رغم أن الأمـر ماإستتب لهم إلا عـن طريقهم . ثم بعد أن أمسكـوا بالسلطة كان جزاء العمـال جزاء سنمار بل أدهى وأمر ومن أشد وأسـوأ ماواجهه العامل فى الاتحاد السـوفييتى هـو العمـل الاجبارى والعامل فى النظـام الشيـوعى هو ذلـك الكـادح المغبـون فى أجره وفى توفير الخدمـات الاجتمـاعية لـه ...[٢].

(١) مسائل بناء الإشتراكية (٩١-٩٢) .

(٢) انظر : تهافت الفكر المادى التاريخى (٨١) ومابعدها ، فوق أطلال الماركسية (٨٣)

يقول دجيلاس : (وعلى سبيل المثال : صدر فى الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٤٠م قانون يقضى بحظر حرية العمل وبإنزال أشد العقاب بمن يتركون أعمالهم ... على أن الأدهى من ذلك وأمر ، قد نما آنذاك وبالأخص فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ضرب من السخرة (العمل الاجبارى) وبما يسمى بمعسكرات العمل ، وشيئا فشيئا لم يبق هناك من فارق أو مميز بين العمل فى المصانع والمعامل ، وبينه فى تلك المعسكرات ، وكل ماهنالك أنه أضفى على العمل فى تلك المعسكرات طابع الطواعية والمبادرات الذاتية ، فى حين يساق إليها العمال بسوط منظور أو غير منظور ولايخفى أن التاريخ شهد ضروبا من أعمال السخرة هذه لكنها ـ وبكل الأحوال ـ ظلت متسمة بطابع العمل المؤقت ، فى حين أنها ببركة الماركسية ـ اللينينية اتخذت ظاهرة الديمومة . وقمين بالذكر أن طابع السخرة المشؤوم هذا لم يعمم على الأقطار الشيوعية الأخرى ، أو يتخذ نفس الدرجة من البشاعة والعنف ، إلا أن حرية العمل لم تتوفر البتة فى تلك الأقطار .

وفى الواقع ، أن نظام السخرة فى المجتمعات الشيوعية هو النتيجة المنطقية لاحتكار سائر الممتلكات وبالتالى وضع اليد على منابع الثروات القومية ، بحيث غدا العامل غير مضطرا لبيع عمله فحسب ، وإنما هو مجبر على بيعه بظروف خارجة عن إرادته ... لأنه أعجز من أن يرى من يستخدمه بشروط أفضل ... فالدولة هى المستخدم الوحيد ، وماعلى العامل "البرغى" إلا الرضوخ بل الانسلال فى هيكل تلك الملكية العملاقة .

ويمكن القول ، بأن أشر ضروب الرداءة والإيذاء التى مارستها الرأسمالية فى مطلع عهدها ، هى دون وطأة الطبقة الجديدة على كاهل العامل ... وكل مافى الأمر بوجهة نظر العامل أنه استبدل مستخدما فردا بمستخدم جماعى ... وكان له فى ظل المستخدم الأول حرية التعبير عن استيائه ـ إن استاء ـ وحرم هذا الحق فى ظل مستخدمه الجديد)[١].

---

(١) الطبقة الجديدة (١٤٨-١٤٩) ، وانظر : إسلام لاشيوعية (٧٨) ، الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٤-١١٥) .

وكان يرى الشيوعيون أن هذه الأعمال الشاقة بالعموم عقوبة صارمة لكل من يعمل ضد السوفييت وسياستهم .

فجاء فى القانون الاجرامى المادة ٥٨ (إن كل صرف من شأنه أن يضر أو يضعف السلطة العمالية ، أو الفلاحية السوفيتية ... أو الاتحاد السوفييتى الروسى ، أو يضر أو يضعف الأمن للاتحاد السوفييتى الروسى أو جوهر الحياة الإقتصادية والسياسية أو الثورة العمالية العالمية أو إرتأى أن يكون ضدها يحكم عليه بعبودية الأشغال الشاقة مدة سنوات بقطع النظر عن حالته الصحية)(١).

ثالثا : ومما يدل على مصادرة الحرية فى العمل وعدم اعتبار العامل المبدأ القائل (من لايعمل لايأكل) حيث إن ذلك يلزمه بالعمل ، العمل الذى يجبر عليه إذ أنه لاخيار له أبدا . فيضطر الإنسان أن يعمل فى كل الأحوال .

وإذا كان الإنسان غير قادر على العمل ، إما لكبر ، أو ضعف ، أومرض ، فالأولى له أن يموت!!

وقد جر هذا المبدأ إلى مفاسد عديدة كان من أهمها إخراج المرأة وإفسادها . يقول القطب : (إن فلسفتهم تقوم على أساس "من لايعمل لايأكل ولكل حسب عمله" إذن فلابد أن تعمل المرأة حتى تأكل . ولكنهم بدلا من أن يجعلوا الأمر فى صورة واجب عليها طرحوه فى صورة حق يحققونه لها فرفعوا شعار مساواة الرجل بالمرأة فى كل شىء وتحت هذا الشعار أخرجوها من بيتها ، وسلبوا حقها فى الانفاق عليها ، وحقها فى الصداق ، وحقها فى الراحة ، وحقها فى المحافظة على عرضها ، نعم سلبوا منها كل هذه الحقوق تحت شعار المساواة والحرية . فأخرجوها من بيتها للاستفادة منها فى أى مجال فهى تعمل فى مصانع الحديد والصلب وأمام أفران النار وسائقة جرارات وقاطعة أخشاب وفى المزارع الجماعية ، وفى

---

(١) الفتح بالإرهاب (٣٨-٣٩) .

المنـاجم ، وفى كل الأعمال الشـاقة التى لايقوى على ممـارستها سوى الرجل فهـل هـذه حقوق أعطوها للمـرأة أم أنهـا واجبات أثقلـوا بهـا كاهل المرأة وسلبوا منها حقوقها التى شرعها الله؟؟)[1].

ومن ذلك وجود المفاسد الأخلاقية ، والإقتصاد المضـاد لإقتصاد الدولة كرد فعل لتزمت الإقتصاد الموجه الـذى اهتم بالطبقـة العليـا وذويهـا وترك الآخرين هملا ، ومـن هنـا بحثـوا عن طرق أخرى يحققـون بهـا متطلباتهم .

رابعا : الوضع العام للعامل فى الاتحاد السوفييتى حيـث منع العامل من أبسـط حقوقه السياسية ، وقضـى على حريته فى اختيار العمـل المناسب له ، والمكان الذى يريده، ومنع من الانتقال إلا بإذن[2].

ولـو شئنـا لقلنا القضاء على جميـع أنواع الحريات بالنسبـة للعـامل ، سواء مايتعلق بالسياسة ، أو الإجتماع ، أو الإقتصاد .

وهذه لمحة مختصرة عن بعض الجوانب تلك .

(أ) إلغـاء اختيار أماكن العمل ، والعقوبة على تركه والاجبـار على النقلة منه إذا رغب الحزب فى ذلك .

يقـول ليـونهارد : (لم يقتصـر زعمـاء نقابة العمال على المطـالبة بزيادة ساعات العمل ، وزيادة عدد أيام العمل الاسبوعية فقـط ، بل اقترحوا أيضا إلغاء حرية اختيار أماكن العمل ، ونص هذا بالحرف الواحد : (ترى اللجنة المركـزية لنقابات العمال السوفييت أن العمال مجندون فى إدارات الـدولة ، وشـركاتها ، ومؤسساتها الإشتراكية ، ولذا فلايجوز أن يترك العـامل عمله ، أو ينتقل من شركة إلى أخرى ، أو من موقع عمل إلى آخر) ومن الطبيعى أنه كان واضحا أن الدولة ستضع "اقتراحات" اللجنة المركـزية لنقابة العمال فى صـورة تعليمـات ـ وقوانين واجبـة التنفيـذ ، بل نشـرت فى اليـوم التالى التعليمـات المطابقة لهذه الاقتراحات ، ثم جاءت بعـدهـا "المظاهرة" المصطنعة التى وافق فيها الحاضرون على المقترحات بالاجماع ...) .

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان (٣٤٧) .

(٢) قـارن مـاذكره لينين من أن العمـال قبـل الشيوعية منعوا مـن التنقـل إلا بإذن .

(فقد صاغت المادة الخامسة - مثلا - اقتراح تحريم ترك العمل على النحو التالى :

(يقدم العامل - أو الموظف - الذى يترك عمله بدون عذر قهرى ، إلى المحاكمة ، وتعاقبه محكمة الشعب بالحبس مدة لاتقل عن شهرين ولاتزيد عن أربعة أشهر)[١].

كما أنهم لم يكتفوا بالعقوبة والحبس لـ(لعمال فقط ، بل مديرو المؤسسات أيضا ، إذا لم يكونوا حازمين فى إدارة مايوكل إليهم ، أو أهملوا فى معاقبة من يخالف التعليمات)[٢].

يقول جيد : (إن العامل الروسى فى المصنع مربوط بمصنعه ، كما يربط العامل الزراعى بالمزرعة الجماعية سواء بسواء ، فإن هو يوما أراد أن يترك عمله لسبب خاص ، كأمل فى تحسين أحواله ، أو تعلل على الأقل بتخفيف بلاء عيشه ، أو من رغبة فى النقلة والتغيير لاأكثر ولاأقل ، فقد استهدف لخطر بالغ ، وهو ألا يجد عملا ما ، فى أى مكان آخر ؛ لأنه إنما يشتغل فى مصنعه كسجين ، بل إن هو ترك المصنع وبقى فى المدينة ، حرم من المسكن الذى يعطيه عمله فى المصنع الحق فيه ، ومن أشد المشقة عليه أن يجد مسكنا سواه ، مع أنه كان يدفع أجر المسكن الذى أعطى إليه ، وسيتبين له أيضا أنه بخروجه من المصنع سيخسر جزءا كبيرا من أجوره ومجموع الأرباح المتجمدة له فى المزرعة الجماعية) .

وعن إجباره على الانتقال يقول : (أما إذا رأت السلطات ذاتها أن لامندوحة من نقله فلن يستطيع رفض النقل ، فلاهو حر فى الذهاب حيث يشاء ولافى البقاء حيث تتركز علاقاته وصلاته ومصالحه)[٣].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٨) ، وانظر الفتح بالإرهاب (٦٨) وذكر أن العامل الذى يسبب عطلا بتركه للعمل يكون عرضة للحبس مدة خمس سنوات .

(٢) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٩) .

(٣) المعبود الذى هوى (٢٤١-٢٤٢) ، وانظر الفتح بالإرهاب (٦٧-٦٨) .

(ب) التغيب عن العمل .

إن الإنسـان يعتريه من عوارض الحياة ماقدر الله تعـالى عليه ، وهذه العوارض قد يكون منها مايسقط التكليف الشرعى ، الأمر المفروض من قبل الله تعالى ناهيك عن أن يكون أمرا من أحد من البشر . أمـا الشيوعيون فلم يكن هذا يهمهم من قريب أو بعيد ، واعتبروا الإنسان كـالآلة التى يجب أن تعمل دون كلل . وتناسوا إنسانية الإنسان وشعوره .

يقـول ليلاند : (إن تربيـة العـامل على تحمل المشـاق هـو إيحاء روسيا الحمراء لاستعباد الشعوب ، ولايحق للعامل المتعاقد مع معمل أن يلغى تعاقده وإن تغيـب عن عمله يحسم مـن مرتبه ٢٥٪ مما يدعو العمـال إلى التباطىء فى أعمالهم الشاقة ...)[١].

ولم تمض فترة قصيرة على هـذا القـرار حتى صدر قـرار آخر وفيـه (إن من يتأخر عن العمل عشرين دقيقـة ، لايقبـل له عذر فى هـذا التـأخير ، بل يعـاقب طبقا لما جاء فى "لائحة نظـام العمل" ، بخصم ٢٥٪ مـن مرتبه مدة قد تصل إلى ستة أشهر)[٢].

ولايمكـن قبـول عذر العامـل إلا بسبب مرض خطير يشهـد عليـه أطباء المصنع أو موت أحد أفراد أسرته[٣].

وبالطبع فإن التأخر سيكون فى بلد كالاتحاد السوفييتى أمـرا واردا جدا نظـرا لظـروف المواصلات والازدحام الشـديد ، ناهيـك عـن الحرص من كل أحد أن يكون سباقا إلى إرضاء مسئوليه .

يقـول ليونهارد إن (المواصلات كـانت سيئة لدرجة أن بعـض العمـال كانوا يتأخرون عن أعمالهـم أكثر من عشرين دقيقة ، ولم تنفعهـم أى حجة فى رفـع العقاب عنهم ، فمـديرو المصانع أنفسهم يرتعـدون خوفـا من توجيه

---

(١) الفتح بالإرهاب (٧٢) .

(٢) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٩) .

(٣) انظر فـوق أطلال الماركسيـة (١٠٩-١١٠) ، ولمزيد عـن ذلـك انظـر الشيـوعية فى موازين الإسلام (١١٢-١١٤) .

الاهمال إليهم فى تنفيذ قوانين العمل ، ولهذا قدم العمال بالجملة إلى المحاكمة ، وكان عدد من يعاقب طبقا "للائحة نظام العمل" مستمرا فى الارتفاع بشكل رهيب)(١).

(ج) إذا قمنا بمقارنة العمال بأعضاء الحزب فأين هؤلاء من أولئك؟

لقد تمتع أعضاء الحزب بكل موارد الدولة وثرواتها ، وكل مجهود بذله العمال إنما كان المستفيد الأول منه أعضاء الحزب فليس للعمال الحق فى التمتع بإنتاجهم أو أخذ المقابل لما يقومون به من عمل إلا - حتى نكون فى غاية الدقة والأمانة العلمية - ماياأكلونه وليت ذلك على سبيل الدوام أو لكل أحد من أفراد العمال . علما بأن الثورة ماقامت إلا من أجلهم ولكن كانت وعودا ذهبت مع السلطة والسيطرة .

كتب الدبلوماسى السوفييتى السابق تيودور يوننكو قائلا : (لقد وعد البلشفيك العمال باعطائهم المصانع والمناجم وجعلهم سادة البلاد والواقع أن العمال لم يعانوا ضروبا من الحرمان كالتى ذاقوها فى العهد المسمى عهد الإشتراكية ، وقد ظهر فى مكان الرأسماليين السابقين طبقة بورجوازية جديدة كلها من اليهود وقد اصبحت الصناعات الضخمة والمصانع الحربية والسكك الحديدية والتجارة جميعها فى يد اليهود)(٢).

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٩) ، وانظر إسلام لاشيوعية (٩٦) .
ويذكر ليونهارد نكتة انتشرت بين أوساط الشعب تعبيرا عن هذا الوضع السىء رغم جدية الموقف وفظاعته وهى (هل سمعت أن المسرح الكبير قد شبت فيه نار التهمته عن آخره فأصبح رمادا؟
كيف حدث هذا؟ ألم تستطع المطافى أن تحصر النيران فتحول دون هذا الدمار؟
لا . فالمطافىء فى السجن .
فى السجن .
نعم لقد حضرت متأخرة عشرين دقيقة فلم يسمح لها بمباشرة إطفاء الحريق بل زج بها فى السجن تنفيذا لما جاء فى لائحة نظام العمل من عقوبة من يتأخر عن العمل) . إنها تحكى الواقع تماما وإن كانت مجرد نكتة .
انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٩-١١٠) .

(٢) حقيقة الشيوعية (١٧٧) .

إن مـن حق أعضـاء الحزب السكـن فى أفخـم المنـازل ، والأكـل من أطيـب أنواع المطـاعم ، والـركوب لأحدث مـاأنتجتـه الـدول الغـربية مـن السيارات ، إلى غير ذلك من المميزات التى يحصل عليهـا عضو الحزب ، حتى أصبـح أعضاؤه يمثلون طبقة برجوازية جديدة انطبقـت عليهـا الأوصاف التى أطلقها أعضاء الحزب من قبل على البرجوازيين .

إن هـؤلاء الأعضاء (خدعوا الناس بشعارات النزاهـة والطهارة الثورية والانحيـاز للجمـاهير الكادحة ، حتى إذا تمكنـوا من الهيمنـة على كـل مرافق الحيـاة ، سخروها لأغراضهـم الشخصية ، ونسوا كل شعـارات النقاء الثورى والعدل الإجتماعى!!)[١].

(د) أن أجر العـامل ومايمس مسكنـه وملبسه يكاد يكون مـن أردأ طبقـات المجتمع بل هو كذلك .

ويزداد سوءا إذا ماقورن بالمجتمعات الأخرى التى ادعت الشيوعية ظلم العمال فيها .

يقـول منشـور سـرى صـدر فى مـوسكو (إن أجر العــامل فى الاتحاد السـوفييتى لايزيد على ثلـث مـايجب أن يكون عليه أجر العــامل الحقيقـى ، وأين تنفق هذه الأموال؟ ينفقها رجال الكرملين على حيـاتهم المترفة ، وعلى بيـوتهم الـريفية المكيفـة ، وعلى سيـارات الليمـوزين الفخمـة ، وعلى استراحاتهـم الخاصة ، ومستشفياتهم الخاصة ، إنهم يعيشـون فى مستوى أرفع بكثير عن مستوى القياصرة) .

ويقـول منشـور آخر : (لماذا يأتى الشعـب السوفييتى فى حسـاب درجة المعيشـة فى الـدرجة السـادسـة والعشـرين بين شعوب العـالم؟ ولماذا يتقـاضى العامل فى الغرب أضعاف مايتقاضاه العامل الروسى؟)[٢].

---

(١) وسقطت الماركسية (٧٨) .

(٢) المرجع السابق (٧٨) .

ويقـول خروشوف : (كيف نستطيـع أن ندعو العامـل الشيوعى للقيام بالثورة وهو لايحصل على لباسه الداخلى . بينما يرى هـذا العامل ، زميله فى البلاد غير الإشتراكيـــة ، لاحاصلا على اللبـــاس الـــداخلى وحده بل وعلى المعاطف الأنيقة أيضا)[١].

وأمـا مسـاكنهم يذكر كاونتـس قصـة (المزارع صاحب الأسـرة الكبيرة الـذى كان يعيش فى بيت يتكـون من حجرة واحدة ، ويضيـق الرجل ذرعا بالحيـاة ، ويلجأ إلى الحاخام يستنصحـه ، فيشير عليـه هـذا أن يأخذ صغـار الـدجاج إلى بيتـه ثم يعود ليتلقـى تعليمات أخرى ، ويعـود الـرجل ليبلغ الحاخام أن نقـل صغار الدجاج قـد زاد الحالة سوءا ، ولكـن الحاخام يطلب إليـه أن ينقل إليه العنزة ثم البقـرة . فيجن جنون الـرجل . وبعـدئذ يخبره الحاخام أن يبـدأ بإخراج البقـرة إلى المراعـى ، ثم العنزة ، ثم يخبره آخر الأمـر بإخراج الكتـاكيت ، حتى إذا فـرغ من هذا عـاد إلى مشيره الـروحى مغتبطا سعيدا ، وقد وجد أن كوخه الصغير قصر بحق ، ولايدرى لم كـان فى بداية الأمر متذمرا مستاءا)[٢].

وذكـرت رايسـا غـورباتشوف (إن مسـاكن الفلاحين تفتقـر عمليـا إلى التدفئة والماء ، ومجارى المياه القذرة ...)[٣].

ويقـول أحد العمـال السـوفييـت : (لم تكـن لـدينـا بالطبـع الأغطيـة والشـراشف . كنا ننام بين القـش وأرجلنا تمتد إلى الخارج . ونغفـو على هذا النحو ساعتين أو ثلاثة ، قبل استئناف العمل . وبديهى القول أننا لانستحم إذ كيـف لنـا أن نفعل ذلك مـن دون مياه ساخنة؟ كنـا نتمـدد كما نكون ، وسخين ومنهكين مـن التعب . أمـا لجهة الغذاء ، فإن الفقـر كـان شديدا فى تلـك الفترة . ففى الفطور الصبـاحى ، نتناول شوربة دقيـق الشعير ، وعنـد

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (٨٧) .
(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٣٣) .
(٣) نقلا من كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١١٤) .

الظهيرة ، شوربة الملفوف وفى المساء فطائر محشوة . كل ذلك كان يشكل بالطبع طعاما غير دسم على الاطلاق ، ولاتدخله اللحوم أبدا)[١].

إن العمال والفلاحين (فى روسيا هم الطبقة المستغلة الكادحة التى تعمل كثيرا وتأخذ قليلا ، وغيرهم من القادة والزعماء يتمتعون على حساب كدح هؤلاء وشقائهم . تماما كما فى الدول الأخرى ، وإن تفاوت مقدار الاستغلال فى الدول)[٢].

إن النظام الشيوعى يقوم أساسا على تجويع العمال وقتلهم واضطهادهم ليضمنوا الولاء منهم .

خامسا : أن التعاليم التى كانت تصدر للمصانع تدل بكل وضوح على مدى مصادرة هذه الحريات للعامل واعتباره جزءا مكملا للآلة ليس إلا . فمن التعاليم المقررة فى تلك المصانع :

(أ) الحصة هى كمية العمل التى يجب على العامل إنتاجها حتى يستطيع أن يتناول أجره العادى .

(ب) الفرقة كلها خاضعة لنضال المناقشة الإشتراكية فلايجوز الاقتراب من العامل أثناء تأديته عمله أو أخذ دقيقة واحدة من وقته .

(ج) منع العامل من تضييع دقيقة واحدة فى الحديث أو غيره غير متصل بما فى يده .

(د) إذا قدم مجموعة من العمال عملا فوق ماهو مقرر لهم طلب من الآخرين أن يعملوا مثلهم لأن مايستطيع أن يعمله بعضهم يجب أن يعمله الجميع ، وإذا لم يتحقق ذلك قاموا بخفض الأجر[٣].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٥٧) ، وانظر (٤١) .

(٢) إسلام لاشيوعية (٨٧) .

(٣) قلت وهذا يتفق مع مبدئهم القائل بالمساواة وفى آخره يتناقضون فينقصون الأجر رغم إدعاء المساواة فيه ، وليس غريبا هذا التناقض إذ أنها (الماركسية) ليست إلا جملة من المتناقضات .

(هـ) الأجور عرضة دائمًا للنقص فليس لها حد أدنى تقف عنده .

(و) الأجر على زيادة العمــل هـو زيادة فى الطعـام أو إجازة فى مصــايف الحكومة .

(ز) وهذه المكافأة عرضة للنقص إذا لم يستطع العمال الممتازين من الحفاظ على مقـدار إنتاجهم وإذا حدث ذلـك فإنهم يتعـرضون لخفض الأجور بل والعقاب[١].

(ح) هناك كتاب العمل وهو مجموعة من الأصفاد والسلاسـل تشد عليه من جميـع الجهات فيدون فى هذا الكتاب الاسم والعمـر والدرجة العلمية والمهنـة والأعمال التى زاولهـا وأسباب الفصل منهـا إن كان قد فصل وبيـانات الأجرة وغيرهـا ، والعـامل لايقبـل لدى أى جهـة إلا بهـذا الكتاب[٢].

(ط) وهنـاك مايسمى بـ"الاتقان الجمـاعى السوفييتى" (وهـو عبـارة عن عقد إدارة اتحاد تمليه الحكومة وليس للعمال رأى فى ابرامـه وإحكام الخطة التى تضعهـا الدولة لإنتـاج مؤسسة معينة ويحتوى هـذا الاتفـاق على : أولا : أن يتبـع العـامل بدقـة حدود الإنتـاج التى تضعهــا الحكـومة . ثانيـا : أن يحافظوا على نظـام العمل السوفييتى طـول مدة وجودهم فى وظائفهم وإلا تعرضوا لأشد أنواع العقاب)[٣].

سادسا : أن المبـادىء والقوانين التى وضعـوها للعـامل وكثرة الضغوط والمظـالم عليـه جعلته يتكاسـل فى العطاء مما أضر ذلك بالإنتـاج ، فلـو أنهم أعطــوا كـل عـامل مـايستحقه تجاه عملـه لازدادوا نشــاطا وإقبـالا ولكنهـم حرموهم من الاستمتاع بحق إنتاجهم ولم يحصلوا ـ رغم مـايبذلونه ـ إلا على لقمة العيش فكانوا يكتفون بأقل جهد طالما أن العائد واحد فى كل الأحوال

---

(١) انظر حقيقة الشيوعية (٣٨) .
(٢) انظر المرجع السابق (٣٩) .
(٣) المرجع السابق (٤١) .

ناهيك عن انعدام الحافز الفردى ، والمكافآت التشجيعية لمن يثبت مقدرة تفوق الآخرين . فإذا نظرنا إلى أن مبدأ لكل بقدر عمله وجدناه صالح للتطبيق إلا أن (البلاد الشيوعية لم تطبق ذلك لغياب الوازع الدينى الذى أوجد الهوة بين العامل وبين ماينتجه ، فالعامل يكاد يستنفذ أو استنفذ كل قواه فى عمله ولايكاد يحصل إلا على مايسد رمقه فواقع النظام تطبيقا يصد عنه نظريا)(١).

إن انعدام الحافز الفردى قد جعل العامل يهمل الأرض ، هذابالإضافة إلى الظلم الواقع عليه ، وبالتالى فإن النتيجة قلة الإنتاج ، وإن وجد فرداءته.

يقول ليلاند : (لكثرة مايرهق به الفلاح من المظالم قد أهمل كثيرا من الأراضى وجعلها بورا غير منتجة . لأنه لايتمتع بأتعابه ... وقد قاد هذا الظلم إلى كثير من حوادث العصيان والثورات ولاشك أن تهامل الفلاح ، وتركه العناية بالسائمة والطيور قد قلل إنتاجها ، فقد هلك منها عدد لايستهان به مما قضى على الحياة الإقتصادية وأوقع البلدان فى مجاعة شديدة)(٢).

وليت لينين عندما أثنى على التحسينات التى أدخلها الحزب الإشتراكى الديمقراطى فى روسيا ، والتى تتعلق بساعات العمل وتخفيضها وعدم تجاوزها ٨ ساعات وجعل يوم للراحة ، وتعليم الأطفال مجانيا إلى سنة ١٦ سنة ، وعدم تشغيل من لم يبلغ هذا السن ، وعدم تشغيل النساء فيما يضر بصحتهن ، وتعويض العمال إذا أصيبوا بطارىء فى أثناء تأدية عملهم ، ودفع الأجور أولا بأول ، وعدم الحسم على العمال بسوء الصنعة ، وعدم السماح لرب العمل بتخفيض أجور العمال بأية حجة كانت ، وكذلك

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٦) .

(٢) الفتح بالإرهاب (٦٣) .
ولمزيد عن هذه الأضرار انظر كتاب الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٦) .
وسيأتى معنا زيادة إيضاح عن الأضرار والمفاسد الناجمة عن منع الملكية الفردية فى فصل النظام الإقتصادى الشيوعى .

لايكون رب العمل قاضيا[١]. نقول ليت لينين بعد أن أعجب بهذه الإصلاحات قدم للعمال نصفها أو أقل من ذلك ، ولكن كان وضع العامل بل الفرد فى الاتحاد السوفييتى سيئا وكان الكلام النظرى حسنا جدا ، ومن هنا كان التناقض الفاضح (ومامن شك فى أن هذه الحقائق وغيرها من تناقض بين العقيدة وحقائق الحياة ، تثير الشكوك من حين إلى حين فى عقول أبناء الجيل الناشىء . ويزيد التواكل فى الوفاء بالوعود من حدة هذه المتناقضات)[٢].

ومن هنا فإن العامل لن يسكت طويلا ولو سكت تحت ضغط القوة فإنه لن يظل يكتم مافى نفسه كل وقته حتى تحين الفرصة المناسبة وإذا حانت له فإنه سيطالب بحقوقه غير منقوصة (إن مقاومة العمال وإستياءهم قد تناميا بالنسبة لمطالبهم كمنتجين ، وبالنسبة لهمومهم كمستهلكين فى آن واحد ، فهم يتطلعون إلى مستوى معيشى شبيه بمستوى معيشة البروليتاريا فى الدول الامبريالية وهو مستوى مازالوا بعيدين عنه كل البعد)[٣].

(ولابد للظلم من أن يصل إلى حده ، فتنفجر الحناجر عن ثورة دامية مروعة تقوم ضد السوفيات وعمالهم ، وكل ظلم مصيره للبلاء)[٤].

وحدث هذا للشيوعية فبعد أن فتحت أبواباً من الحرية وإن كانت ضيقة فى أول الأمر ، إلا أنهم تدافعوا إليها يريدون الولوج منها ، وبالفعل وسعوها بقوة إصرارهم وتنفسهم من الطغيان الذى كان جاثما على رقابهم ، فطالب العمال بحقوقهم وعلم القادة المتأخرون بقوة مطالبهم ومصداقيتها فما كان منهم إلا أن تخلوا قليلا قليلا عن حدة الضغوط على العامل وسمحوا

---

(١) انظر التحالف بين العمال والفلاحين (٧٦-٧٨) .
(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٢٤) .
(٣) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٧٠) .
(٤) الفتح بالإرهاب (٦٤) .

له بامتلاك جزء يسير من إنتاجه ، وهكذا حتى أعطوا فرصة أكبر فثاروا على كل أفكار ماركس ولينين القديمة وتطبيقات ستالين الدكتاتورية ومن بعده حتى أصبحوا كغيرهم من عمال العالم(١)

وقد أدى اضطهادهم ومصادرة حريتهم إلى التشكيك الحقيقى فى صدق الماركسية اللينينية فيما وعدت به العمال ، ففقدت الشيوعية بريقها وظهر زيفها وبدأ العمال فى التنصل من أفكارها ومطالبها . وهذا ولاشك أمر فطر عليه الإنسان من رفض للظلم والطغيان ، وحب للتملك خاصة مايرى أنه أحق به من غيره ، وأن هذا المنتوج ثمرة جهده وعمله . ولكن ماالذى حمل الشيوعية على أن تبقى العامل فى هذا الوضع المتردى إنها تريد الاستمرار ، وبقاء العامل بهذا الوضع النكد يضمن تعلقه بتلك الوعود واستجابته لتلك المطالب التى تطلب منه . يقول العطار : (ولما كان وجود الشيوعية وبقاؤها وحياتها مرتبطة بانخفاض مستوى الكادحين من فلاحين وعمال وجنود فالشيوعية حريصة على بقاء مستواهم خفيضا إلى أبعد حد ضمانا لبقائها)(٢).

إن العمال الضحية الأولى للنظام الشيوعى ولو ملكوا أمرهم لأطاحوا بالنظام(٣)وماشهدته الساحة السوفيتية فى الثمانينات وبداية التسعينات لهو الدليل القاطع على أن الشعب بما فيهم العمال قد نفذ صبرهم فكان لابد من إزالة الأفكار التى استعبدتهم بالقوة والقهر .

ونختم الحديث عن وضع العمال عموما بما ذكره ليلاند ووحيد الدين خان عن وضع العمال عموما حيث قال ليلاند : (إن الفائدة التى جنوها هى حرمانهم من الحرية ، من النور ، من التصويت الحر ، من العمل الحر . فالحكم الشيوعى قدم للعامل المسكين الذل والفقر والحاجة والآلام المبرحة ،

---

(١) دون النظر إلى واقعهم الذى يعيشونه الآن فإنهم يعانون من آثار السياسة السابقة
(٢) الشيوعية (١٠٧) .
(٣) انظر شهادتى للتاريخ (٢٣٢) .

وبكلمة واحدة لقد حبب له الموت بسقيه إياه جرعة ، جرعة . إن النظام السوفييتي منعه من أن يشتغل في المكان الذي يريده ويقوم بالعمل الذي يرغب فيه .

إن هذا النظام الجائر قد حدد له أجرة لاتساعده على عيش الكفاف . إن هذا النظام ، قضى عليه بأن يحمل "إجازة العمل" ، التي بدونها لايقدر أن يشتغل البتة ، وأجبره أن يشتغل بضعة أيام وساعات بدون أجر ، وذلك مايطلقون عليه ، "التبرع لمصلحة الولاية" . هذا ماجلبه النظام الشيوعي للعامل سواء في ذلك الرجل والمرأة معا)(١).

ويقول وحيد الدين خان : إن الشيوعيين (غرروا بطبقة العمال وأوهموهم أن في الماركسية إنصافا لهم من ظالميهم ، وإن أملاك الإقطاعيين والبرجوازيين ستؤول إليهم ، وستتحسن أحوالهم المعيشية ، وسيكون بيدهم زمام الأمور ، باعتبار أن الحكم هو حكم الطبقة العاملة ، ولكن بعد أن تم للماركسيين الأمر ، وسيطروا على الحكم ، فقد العمال حريتهم في اختيار العمل ، وفي تحديد أجورهم ، وفي حق الاحتجاج على أي أمر من الأمور وأصبح المتمتعون بالامتيازات هم قادة الحزب الشيوعي فقط ، بعد أن صادروا الملكيات ، وخنقوا الحريات ، ولم يعد أحد ينبس ببنت شفه ، فقد توسعت السجون والمعتقلات ، وانتشر الجواسيس ورجال المباحث والمخابرات في كل موقع ، وأقيمت محاكم خاصة قل أن تصدر أحكامها بغير الإعدام ، إلى جانب أولئك الذين يجهز عليهم في السجون والمعتقلات ، فيلاقون حتفهم تحت التعذيب ، أو يعدمون بدون محاكمة . وجماهير الشعب تلهث وراء لقمة العيش التي أصبحت بيد المسؤولين في الحزب ، إمعانا في إذلال الناس الذين يقفون طوابير أمام مراكز التموين التي لاتكون عادة في الدول الأخرى إلا في حالة المجاعة والحرب ، وأصبح هم كل إنسان أن

---

(١) الفتح بالإرهاب (٦٧-٦٨) .

يفوز برغيف خبز ، أو نصف كيلو سكر ، من هذه المراكز ، وإذا تذكر العمال - الذين يعيشون فيما يزعم أنه جنتهم - الحال التى كانوا عليها قبل الثورة التى سميت باسمهم تأسفوا عليها ، وتمنوا العودة إلى ماكانوا عليه ، وكأن لسان حالهم يردد قول الشاعر :

رب يوم بكيت فيه فلما صرت فى غيره بكيت عليه)[١]

هذا بعض مما فى الاتحاد السوفييتى فهل كانت بقية الدول الإشتراكية فى تعاملها مع العمال دون هذه القسوة والطغيان؟ لا ، إن الحال كان كذلك وإذا كانت هذه الدولة الأم فإن الربيبة من باب أولى .

إذ أن أوروبا الشرقية بجملتها كانت خاضعة للاتحاد السوفييتى سياسيا وإقتصاديا فالعمال فيها مجبرون على تقديم جهودهم وكل إنتاجهم إلى المصلحة الروسية ، ونادى الاتحاد السوفييتى بمشروع مولوتوف لحجز المصالح فى بلدان أوروبا الشرقية للاتحاد السوفييتى لمدة خمس سنوات وهو نوع من ابتزاز إقتصاديات البلدان لمصلحة روسيا وإرسال المواد الأولية إليها لتتمكن من إرساء دعائم إمبراطوريتها الشرقية فتضافرت قوى العمال المحجوزة فى قبضة السوفييت تعمل فى مختلف القطاعات إرضاء لمطامع موسكو بغض النظر عن الإضرار بالناس أو العمال[٢].

ومن نتائج ذلك : (أن عشرة ملايين فى أوروبا الشرقية قد أجبروا أن يقضوا الشتاء القارس بدون فحم أو حطب ، وهم يقاسون الأمرين من المرض والجوع منذ بدء الحرب الكونية الثانية ، فقد صدرت الأوامر فى تشرين الأول من سنة ١٩٥١م فى تشيكوسلوفاكيا أن تقطع المجارى الكهربائية من الساعة التاسعة مساء إلى الساعة السادسة صباحا عن المنازل مطلقا ... وقد نزلت القوى الكهربائية فى المطاعم والمقاهى والمسارح إلى ٥٠٪ ،

---

(١) وسقطت الماركسية (٦٠-٦١) ، وانظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٣١٨) ، الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٢) .

(٢) انظر الفتح بالإرهاب (٧٩-٨٢) .

والمراكز الرسمية فى رومانيا تقفل أبوابها فى الساعة الخامسة والنصف توفيرا للوقود وللقوى الكهربائية ، ولم يقصر هذا الأمر على رومانيا الغنية بالزيوت وحدها ، بل تناول كل البلدان الواقعة فى ضمان السوفييت ...)[١].

وأكثر من مليون شخص ومخيمات الاستعباد من المنفيين أو الفارين من أسر الظلم فى أوروبا الشرقية عام ١٩٥١م .

ففى الاتحاد السوفييتى أنشىء اثنان وأربعون مخيما للعمال المستعبدين وتضم نحو ٢٠٠,٠٠٠ عامل ، وقد ارتفع عدد المخيمات إلى سبعين مخيما ومازالت ضحايا العمال تتزايد كل سنة من خمسين ألف إلى مائة ألف[٢].

وفى بولونيا نحو خمسين مخيما فى شهر أيلول ١٩٥٠م ليقوم فيها العمال الذين حجزت قواهم لمصلحة الاتحاد السوفييتى وعددهم نحو ٤٠٠,٠٠٠ أو ٥٠٠,٠٠٠ .

وفى رومانيا نحو أربعين ألف مخيم للعمال الأسرى ويتراوح عددهم بين ٣٠٠,٠٠٠ - ٤٠٠,٠٠٠ شخص .

وفى هنغاريا وبلغاريا نحو عشرين أو ثلاثين مخيما تؤوى العمال الذين يرغمون على العمل إرغاما تحت الضغط الشديد[٣].

وفى سنة ١٩٤٥م أصدر قطاع بلغاريا قانون التعليم الشيوعى وهو يقضى على كل حاكم شيوعى أن ينفذ قانون العمل بالقوة ويجعله فى صلب التعليم المدرسى .

وفى إحدى مواد حكومة تشيكوسلوفاكيا الصادر فى تشرين الأول ١٩٤٢م يقضى على كل فرد من سن ال١٦ إلى ٦٠ سنة أن يصرف ثلاثة أشهر إلى سنتين في مخيمات العمل العائد إنتاجه إلى مصلحة الدولة وعلى المواطنين أن يقدموا ذلك لاسعاد بلادهم وإنمائها وتفويتها بدون مقابل سوى مايتناوله

---

(١) الفتح بالإرهاب (٨١-٨٢) .
(٢) انظر المرجع السابق (٨٤-٨٥) .
(٣) انظر المرجع السابق (٨٥) .

من الكفاف لحفظ الحياة[١].

وصـدر فى براغ سنـة ١٩٥١م عـن (مركز منظمة العمـل) الآتى : (على الحكومة أن تحصى عدد الأشخاص الذين يقدرون على العمل وتقويم قواهم العقلية والجسدية ، وحجزهم لمصلحة الدولة ، وعلى شعـوب أوروبا الشرقية أن يساهموا بهذا العمل إن لم يكن اختياريا فبالشدة يسـاقون سوق الغنم إلى المنـاجم والمعامل وقطع الأخشـاب وتعبيد الطرق وفلاحة الحقـول ومـاشاكل ذلك)[٢].

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن حرية العمـل قـد فقـدت تمامـا فى الاتحاد السـوفييتى وليـس للعامل أن يمارس إلا مايضعه له الحزب .

ثانيا : أن أكثر الطبقات اضطهادا هى طبقة العمال التى أصبحـت تنتج وغيرها يملك ثمرة ذلك الإنتاج .

ثالثا : أن العامل بوضعه الذى كان يعيشه فى الاتحاد السـوفييتى يكون أكثر معـاناة ممـا كان عليه أخوه فى الـدول الرأسماليـة ، تلـك الدول التى تندر قادة الشيوعية بوضع العمال فيها .

رابعا : أن واقـع الاتحاد السـوفييتى وكالعادة كشـف عـن التناقض بين النظرية والواقع كما أنه حكم على النظرية الماركسية بالبطلان .

خامسا : أن العـامل فى الاتحاد السوفييتى كان بمثابة الآلـة المنتجة وهو عرضة للمـوت فى أى وقـت[٣]، كمـا أنه لم يجد إلا الفتـات فى حين كـان أعضاء الحزب يتقلبون فى ثمرات إنتاجه[٤].

---

(١) انظر الفتح بالإرهاب (٨٨-٨٩) .
(٢) المرجع السابق (٨٩) .
(٣) انظر المرجع السابق (٦٠) .
(٤) انظر الطبقة الجديدة (٩٥) .

(ب) حرية العمل فى الإسلام :

جعل الله سبحانه وتعالى هذه الدار دار عمل وكدح ، والدار الآخرة دار جزاء وحساب على مافى هذه الدار ، ليعلم الإنسان بأنه لم يخلق عبثا وأنه محاسب على أعماله صغيرها وكبيرها .

ويمكن القول بأن العمل فى الإسلام ذو شقين :

(١) العمل للآخرة : وهى تحقق المنفعة والمصلحة لصاحبها فى الدنيا والآخرة .

(٢) العمل للحياة الدنيا : وهى التى تكون محققة المنفعة لصاحبها فى الدنيا ومعينة له فى فعل الطاعة .

وكل عمل دنيوى يقصد به وجه الله تعالى والاحتساب والاستعانة على فعل الطاعة فهو عبادة . وقد جاءت الآيات الكثيرة الدالة على الترغيب فى العمل وأن الإنسان يجازى على قدر عمله ويكون الجزاء من جنسه . ومن تلك الآيات قوله تعالى : {**يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا**}[١].

وقال تعالى : {**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**}[٢].

وقوله تعالى : {**من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد**}[٣].

وقوله جل وعلا : {**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**}[٤].

---

(١) سورة آل عمران : (٣٠) .
(٢) سورة التوبة : (١٠٥) .
(٣) سورة فصلت : (٤٦) .
(٤) سورة الزلزلة : (٧-٨) .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى جاءت تبين أهمية العمل والجزاء عليه . بل إن الدنيا لاتقوم إلا بالعمل فـ(هو قانون اللـه لعمارة هذه الأرض ماديا وروحيا فعلى سطحها خيرات معروفة ، وفى جوفها خيرات كذلك غير مجهولة ، وفى صخور الجبال ، وأعماق البحار ، وفى الهواء وجو السماء فى هذا وغيره أرزاق مذخورة للإنسان ، ولكن لايفض خاتمها إلا أهل العمل)(١).

وعمارة الأرض التى أقرها الإسلام لاتكون إلا عن طريق العمل .

إن شريعة الإسلام كلها تقوم على العمل ولأجل ذلك كرم وامتدح العمال ، وأولئك الذين يبذلون جهدهم من أجل الاستغناء عن الآخرين ، وحث الإنسان على العمل حتى لايتكفف الناس ، ويستذل بذلك حفاظا على كرامته وإنسانيته .

وقد وردت عدة أحاديث عن رسول الله صلى اللـه عليه وسلم تحث على العمل وترغب فيه منها قوله عليه الصلاة والسلام : "لأن يأخذ أحدكم أحبلا فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطى أم منع"(٢).

وقوله عليه الصلاة والسلام : (ماأكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى اللـه داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)(٣).

والعمل فى الإسلام مقرون بالعبادة ، كيف لا والعبادة فى أغلبها عمل ولأجل ذلك اهتم به الإسلام سواء منه مايتعلق بالآخرة أو بدار الدنيا ، وأصبح حب العمل متأصلا فى النفس الإنسانية المسلمة نظرا لأمر الله تعالى وأمر رسول صلى الله عليه وسلم به .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٤١) .

(٢) البخارى بفتح البارى (٤٦/٥) ، كتاب المساقاة ، باب بيع الحطب والكلأ .

(٣) رواه البخارى بفتح البارى (٣٠٣/٤) ، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده .

كفالة الإسلام حق العمل وحريته :

ويمكن إبراز ذلك فى النقاط التالية :

أولا : اهتمام الإسلام بالعمل وتكليف الدولة بإيجاد الفرص لمواطنيها .

إن أحكام الإسلام قد راعت النفس البشرية ، وحققت لها ماتطلبه فطرتها ، ومايحقق سعادتها الروحية والجسدية ، وعندما كان الإنسان مخلوقا لله تعالى ، مأمورا بعبادته ، وهذه العبادة هى عمل فى ذاتها . فإن الإسلام أولى العمل اهتماما كبيرا ، وحث عليه وأثنى على العاملين ، الذين يبتغون بأعمالهم ثواب الله تعالى .

ولم يقتصر اهتمام الإسلام بالعمل للآخرة ـ والتى هى غاية كل مؤمن ـ بل أولى العمل لأمور الدنيا عناية خاصة لأن الأصل فيه أن يكون موصلا إلى مايرضى الله تعالى . ثم إنه يحقق للانسان ماتتطلبه حياته سواء الإجتماعية أو الإقتصادية . ومن هنا ضمن الإسلام للفرد حق العمل ، وحريته فيه ، تحقيقا لمصلحته ، وتلبية لنزعته ، وأوجب على الدولة أوالسلطة وكلفها أن توجد الفرص لرعاياها ، مع عدم التضييق عليهم فى ذلك ، أو حرمانهم من هذا الحق . يقول البهى الخولى : (ومن حقه أن تتاح له فرص هذا العمل ، وليس لأحد كائنا من كان ، أن يحرمه هذا الحق أو يحول بينه وبينه ...) .

و(على السلطة الممثلة للمجتمع أن تراعى هذا الحق وأن تمكن كل عامل من أن يعمل ، وأن تفتح له الأبواب إذا سدت ... عليها أن تزيل ماأمامه من العقبات المصطنعة وغير المصطنعة ولن تقدس أمة لاتقوم السلطة فيها على رعاية أمثال هذه الحقوق)(١).

إن الإسلام حقق للإنسان حرية العمل على أكمل وجه وأبلغه ، ويظهر ذلك جليا فى السماح له بتعاطى ماشاء من صنوف الأعمال كالزراعة والتجارة ، والصناعة أو غيرها ، وجعل سبل الكسب ميسرة متنوعة ،

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٧٠-٧١) .

ووضع القيود والشروط التى تضمن الحقوق بين العباد ، وأفاض الإسلام فى بيان مايحل ويحرم على الإنسان أن يأتيه من أجل الكسب ، وأبان طرق الكسب الحلال ، وكذا حذر من طرق الكسب الحرام .

ثانيا : ومما يدل على اهتمام الإسلام بالعمل وبيان أهميته وإقرار الحرية للفرد فيه ، أنه وضع قيودا عديدة على حرية العمل ليحقق لها الانضباط ويسير بها فيما يحقق المصلحة الخاصة والعامة ، ويمكن ابراز ذلك فى القواعد التالية :

(القاعدة الأولى : منع حرية العمل عن كل مافيه إضرار بالفرد أو عدوان على حق من حقوقه ، والإضرار المحظور هنا يشمل أنواع الإضرار بالنفس أو الجسم أو العقل أو المال أو العرض .

القاعدة الثانية : منع حرية العمل عن كل مافيه إضرار بالمجتمع أو عدوان على حق من حقوقه العامة ، والإضرار المحظور هنا يشمل أنواع الإضرار الذى يمس كيان وحدة المسلمين ، أو يمس مصالحهم ، أو حقوقهم العامة .

القاعدة الثالثة : منع حريةالعمل عن كل مافيه إضرار بالدولة الإسلامية ، أو عدوان على حق من حقوقها ، والإضرار هنا يشمل أنواع الإضرار السياسى أو الإدارى أو المالى أو العسكرى ، أو غير ذلك .

القاعدة الرابعة : منع حرية العمل عن كل مافيه إضرار أو إخلال بمبدأ من مبادىء الإسلام المتعلقة بالعقائد أو بالشرائع ، أو عدوان على شىء منها بأية وسيلة ظاهرة أو خفية ، كالأعمال التى من شأنها أن تفسد عقائد المسلمين ، أو أخلاقهم ، أو تميل بسلوكهم عن صراط الإسلام وأحكام الشريعة الربانية)[١].

ثالثا : مما يدل على احترام الإسلام للعمل وتحقيقه الحرية فيه اهتمامه بالعامل .

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة (٤٦٢) .

حيث جعل له حقوقا لم يضمنها دين سماوى سابق ، ناهيك عن مذهب وضعى سابق أو لاحق للاسلام . ونعرض لبعض هذه الحقوق :

(أ) حق العامل فى اختيار العمل المناسب لامكاناته وتوجهاته ، ولم يلزم الإسلام أحدا بعمل معين إلا إذا كان هناك فرد لايصلح لذلك العمل إلا هو تحقيقا للمصلحة العامة .

(ب)إعطاء العامل الأجر العادل ، وتقدير الأجر بما يتناسب والعمل ، ومعاملة الأجير معاملة حسنة ، وعدم تكليفه مالايطيق .

قال صلى الله عليه وسلم : (إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فما كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولاتكلفوهم مايغلبهم ، فإن كلفتوهم مايغلبهم فأعينوهم"[(١)].

يقول الدكتور عماد الدين خليل : (ولم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مسألة من أهم مسائل العمل ، تلك هى تكليف العامل أو الأجير بذل جهد أكبر من ذلك الذى تم الاتفاق عليه، أو قضاء ساعات أطول فى العمل أو إنجاز قطع أكثر من المتفق عليها ، وضرورة ضمان هذه الزيادة فى الجهد الذى تنبثق عنه قيمة أكبر لصاحب العمل . كما أنه لم يترك مسألة العلاقات الإنسانية التى يجب أن تسود بين الطرفين : العامل وصاحب العمل فى أى نشاط إجتماعى ، ويتقدم بها صلى الله عليه وسلم صعدا حتى يضعها فى مرحلة الاخوة الكاملة حيث يأمر أصحابه حينذاك : عمالا وأصحاب عمل أن يأكلوا سويا ويلبسوا سويا .. يقول : (إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولاتكلفوهم مايغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم" .

وليس ثمة نظام تعرض فيه مسألة "العمل" وفق هذا المثلث الصارم : منح حق العامل كاملا فى وقته المناسب ، وزيادة هذا الحق بما يتناسب

---

(١) رواه البخارى بفتح البارى (١٧٤/٥) ، كتاب العتق ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم (العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون) .

واتساع الجهد الذى يبذله العامل ، ورفع العلاقة بين العامل وصاحب العمل إلى مستوى الأخوة والتعامل المشترك فى الطعام واللباس .. ليس ثمة نظام كهذا يتاح فيه ـ لو نفذت تعاليمه فى عصر صناعى على سبيل المثال ـ أن تنمو وتترعرع الأخلاقية الرأسمالية الجائرة والطبقية المقيتة . ثم إن هذه التعاليم وغيرها كثير ، تعد فى الوقت نفسه سببا فى عدم وصول المجتمع الإسلامى إلى مرحلة الرأسمالية ، بمفهومها الكامل ، رغم ماقدمته له حضارته من معطيات فى ميادين التكنولوجيا والعلوم التطبيقية ، لأن أخلاقية المسلمين التى صنعها دينهم وصاغها رسوله صلى الله عليه وسلم تقف حائلا دون هذا المصير ...)[١].

ويقول الغزالى عن تحديد ساعات العمل : (إن الاستمرار فى الأعمال إلى حد الإرهاق أمر لايأذن به الشرع ولايرضى عنه الله سبحانه .

ومن هنا نعرف حكمة المطالبة بتحديد ساعات العمل وسبب استمساك العمال بها ـ فى الأحوال المعتادة ـ فإن الطبقات الكادحة لاتتكون من مردة وشياطين بل من أناس لهم مشاعر وعواطف تستحق الاحترام .

ولهم مطلق الحرية فى أن يستمتعوا بزينة الله التى أخرج لعباده ، وأن يتركوا جو العمل الجاد ليتنفسوا فى جو الحياة المرحة ومواطن اللهو المباح .

وينبغى أن يلقن المسلمون دينهم على هذا النحو السمح .. على أن تحديد ساعات العمل تشريع يناسب أوقات السلم خاصة .

أما أزمنة الحرب ومايشبهها من الفترات التى تحتاج الأمة فيها إلى أن يضاعف أبناؤها جهودهم ، وأن ينتموا جميعا فى كتائب العمل المتواصل ليلا ونهارا فإن لها لاريب قوانينها المؤقتة .

---

(١) مقال فى العدل الإجتماعى (٧٢-٧٣) ، وانظر إشتراكيتهم وإسلامنا (١٤٥-١٤٦).

وفى الحرب ترخص الدماء فلاجرم أن الجهود ترخص ولو استنزفت مالدى الإنسان من طاقة .

لكن الواجب أن يوزع هذا التعب على طبقات الأمة بنسبة عادلة حتى لاتستريح طبقة على حساب أخرى!)[١].

واهتم الإسلام بدفع أجره إليه ورفض (أن يراه ساخطا متبرما ، ويقرر له أن يعطى حتى يرضى ، وحتى يشعر بأنه مجدود فى حظه على قدر ماهو مكدود فى عمله)[٢].

(ج) حقهم فى المسكن ووسائل المواصلات .

(د) حق الضمان للعامل عند الحاجة .

فالإسلام يحقق الرعاية للعامل الذى عجز عن الكسب بسبب عدم الاستطاعة البدنية ، وكذلك العامل الذى لايكفى دخله مصاريفه ونفقاته ويكون عمله مستمرا حيث يكفل الإسلام الرعاية لكل عامل أصيب بنكبة فى صحته أو منزله أو مصدر عيشه[٣].

يقول البهى الخولى : (إن الدولة مسئولة عن الفرد فى جميع حالاته عاملا كان أم عاطلا . هذا هو حكم الشريعة الإسلامية : "كلكم راع ومسئول عن رعيته . فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ..."[٤].

---

(١) الإسلام والمناهج الإشتراكية (٢٣٧-٢٣٨) .

(٢) المرجع السابق (٢٣٤) .

(٣) الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية (٢٦١) نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٦٠-٢٦٤) .

(٤) متفق عليه . البخارى بفتح البارى (٦٩/٥) ، كتاب الاستقراض ، باب العبد راع فى مال سيده ولايعمل إلا بإذنه . مسلم بشرح النووى (٢١٣/١٢) ، كتاب الإمارة باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق .

ولست أفهم للمسئولة معنى إذا لم يكن الحاكم مسئولا عن أهل البطالة من رعيته ، مطالبا بتعهد أولئك العاملين الذين لايحصلون على الكفاية من أجورهم .. وأن معانى المسئولية تصبح كلها لغوا وخداعا إذا انسلخت مسئولية الراعى عما يهدد رعيته من الجوع والحرمان)[١].

والإسلام اهتم بغير القادرين على العمل وأمن الحقوق لهم ، ولم يعتبرهم كائنات غير إنسانية عليها أن تموت جوعا .

رابعا : أن (الفلاح فى نظر الإسلام انسان حر له كرامته وشخصيته وأهليته الكاملة ، ولاارتباط له بالأرض التى يعمل فيها - إن لم يكن مالكها - إلا ارتباط الحر بأى عمل يتعاقد عليه مع غيره)[٢].

فالإسلام حقق ماأراده العامل وجاءت به النصوص الشرعية فعلا لاإدعاء . فالحقوق التى أعطيها العامل أو الأجير فى الإسلام ليس لها نظير فى أى مذهب من المذاهب الإلحادية التى ادعت بأنها ماقامت إلا من أجل العمال وإصلاح أحوالهم[٣].

خامسا : يمنح الإسلام للعامل حقوقا عديدة أخرى مثل : (تعريفه بأجره قبل قيامه بعمله ، ويأبى على أصحاب الأموال إرهاقه أو الافتيات عليه ، ويمنحه فى الأعمال المالية حرية مناسبة ، ويتيح له العمل فى أموال غيره ، وفق نظم خاصة ، كالمضاربة التى هى شركة فى إنتاج الأرض بين صاحب الأرض والعامل ، والمساقاة ، وهى شركة فى الثمر بين صاحب الشجر والعامل ...الخ

والإسلام يعطى العامل الحق فى فسخ عقد العمل ، ويعطيه حقوق التعويضات المختلفة ، وحق الراحة الاسبوعية ، وهو فى كل ذلك يأخذ بأعراف الناس وتقاليدهم .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٧٢) ، وانظر إشتراكيتهم وإسلامنا (١٤٧-١٤٨) .
(٢) الفرد والمجتمع فى الإسلام (٩٥) .
(٣) انظر الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٩٢) ومابعدها .

وهو يرعى العامل فى شيخوخته ويمنع من العمل الأطفال غير المميزين والمجانين ويصون للمرأة العاملة حياءها وأخلاقها ، وبهذه المبادىء يحبب الإسلام إلى العمال أصحاب الأموال ، ويزيدهم إخلاصا للعمل وقدرة عليه فيكثر الإنتاج ، وتزيد الثروة العامة)(١).

واجبات العمال :

بعد أن منح الإسلام العامل حريته وحقوقه التى تجب له ، فإن من العدل أن يجعل لرب العمل حقوقه الخاصة به ، والتى هى واجبات يتحتم على العامل القيام بها . ومن ذلك :

الأمانة : قال تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**}(٢).

الإخلاص فى العمل وإتقانه ومراقبة الله تعالى فيه : قال تعالى : {**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**}(٣).

والنتيجة الطبيعية نظرا لوجود الحقوق والواجبات منع تفشى الأخلاق السيئة من كذب ، وخداع ، وغش ، وسرقة ، ولأجل ذلك كان واقع المجتمع الإسلامى يخلو من هذه الأمراض ، فإذا أصابه الانتكاس ببعده عن كتاب ربه وتعاليم نبيه صلى الله عليه وسلم وقعت وتفشت فيه هذه الأوبئة . وهذه لمحة عن واقع الأمة المسلمة مع العمال .

واقع الأمة المسلمة فى تحقيق الحرية للعمال :

كان سلف الأمة عليهم الرضوان من ربهم وعلى من سار على نهجهم خير من طبق النصوص الشرعية فى احترام العمل ، والإخلاص فيه ، وإعطاء العمال حقوقهم وحرياتهم ، والسماح لهم بممارسة ماشاءوا من تجارة أو زراعة أو أعمال أخرى يقتاتون بها .

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (٧٥-٧٦) ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٢٢٦) ، ضمانات الحرية (٤٢) .

(٢) سورة الأنفال : (٢٧) .

(٣) سورة التوبة : (١٠٥) .

وقد امتلأت كتب التاريخ والسير عن أخلاق المسلمين مع العمال وأصحاب المهن حيث كانوا يؤاكلونهم ، ويخالطونهم ، ويكسونهم ، ويتقاسمون معهم ظهور الخيل فى الركوب فى الأسفار ولايثقلون عليهم ولايكلفونهم مالايطيقون . وإذا حصل أن جار أحدهم على رقيقه أو خادمه أو عامله فما كان يجد تكفيرا لتلك القسوة إلا أن يعتقه فى سبيل الله تعالى ليكون حرا وهكذا عاش المسلمون الأوائل . وستظل تلك الأخلاق وذلك الخلق إلى قيام الساعة ولن تعدم الأمة من يسير على نهج سلفها .

وبعد هذا العرض المختصر أصل إلى التالى :

أولا : أن الإسلام حث على العمل ورغب فيه سواء كان الدنيوى أو الأخروى .

ثانيا : اعترف الإسلام بالحرية للعامل فى اختيار عمله ومكانه وكسبه .

ثالثا : وضع الإسلام القيود على هذه الحرية كعادته فى جعل الأمور الفطرية والنوازع الإنسانية تسير فى تحقيق مصلحة الفرد والجماعة .

رابعا : تمتع العامل فى صدر الإسلام بكامل حقوقه كاملة غير منقوصة وسيظل كذلك ماتمسك المسلمون بكتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام .

خامسا : أن التشريعات الإسلامية فى قضايا العمل والعمال وواجبات كل من العامل ورب العمل تجاه الآخر تجعل الإسلام يحقق السعادة والرضاء بين الأطراف فلاغل ولاحقد ولاتحاسد وكل راض بقسمته وقدره الذى قدره الله تعالى له . وذلك خلاف مافى الأنظمة الأرضية من رأسمالية وإشتراكية .

سادسا : بعد أن ثبت أن الدين يحث على العمل ويطلب من المسلم أن يكون كذلك تبطل فرية ماركس وأتباعه من أن الدين أفيون الشعوب ، بل هو محرك الشعوب وباعث روح العمل والنشاط فيهم . وهذه الحرية يرتبط بها حرية أخرى وهى حرية التنقل ، وهذا مانعرض له فى المبحث التالى .

المبحث السابع
حرية التنقل

(أ) حرية التنقل فى النظام الشيوعى :

لم ينص الدستور السوفييتى على حرية التنقل سواء فى داخل البلاد أو خارجها ، فأما فى داخل البلاد فلايسمح بالانتقال (إلا بتصريح وجواز مرور أما حرية الهجرة من المجتمع الشيوعى فهى تكاد تكون مفقودة تماما حيث تضرب الشيوعية حول مجتمعها ستارا ...)(١). ووضع ستالين ورفاقه نظاما (لايسمح لأى مواطن سوفييتى أن يسافر إلى خارج البلاد دون أن يفحص أشد فحص ، وأن يعد لهذا الغرض أعظم إعداد ، ثم لايسافر بعدئذ إلا عضوا فى جماعة يجد نفسه فيها خاضعا لرقابة قوية . أما القادمون إلى بلاد الاتحاد السوفييتى من الأقطار الأجنبية فيجدون حركاتهم مقيدة بقيود محكمة يفرضها القانون السوفييتى ، ويشرف عليها مكتب السفر والسياحة ؛ ويطبق هذا المبدأ ذاته على الاتصال الشخصى بين الأفراد ، وفى ميدان الجرائد اليومية والمجلات الدورية ، والكتب والإذاعة . ثم عمدت الدولة السوفيتية فى عام ١٩٣٢م إلى وضع نظام لجوازات السفر داخل البلاد لتقيد به حركات المواطنين السوفييت ، وهو نظام كان الثوار الروس ، ومنهم لينين نفسه ، يرون أنه من أشد الأنظمة إرهاقا واستبدادا فى عهد القياصرة ...)(١).

ومما يدل على انعدام هذه الحرية تلك الأحداث التى وقعت لكثير من أفراد الشعب الروسى ، وحتى المفكرين منهم فقد منع سخاروف من السفر لاستلام جائزة نوبل للسلام(٢).

---

(١) يستثنى من ذلك اليهود وهجرتهم إلى إسرائيل .

(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٧٢) ، وانظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٨٠) .

(٣) انظر : الإسلام وحقوق الإنسان (٩٤-٩٥) ، إسلام لاشيوعية (١٠٨-١٠٩) .

ومـن هؤلاء الذين منعوا من السفر نظرا لتفوقهم وشهـرتهم الأكاديمى (كابتزا)[١]بنى عـام ١٩٣٩م جهـازا لإنتـاج الأكسجين بكميـات كبيرة وبعـد اختراع أمـريكا القنبلـة الـذرية رفض التعاون فى المشروع السـوفييتى فاتهم بعـرقلة الدفاع الوطنى وطرد مـن إدارة معهد المشكلات الفيزيائيـة ، ثم أعيد إلى منصبـه بعد موت ستالين ، وقـد اعترف خروشوف بأنه منعـه مـن السفر حفـاظا على حمـاية الشعب والـدولة والأمـن الوطنى وقـال : (والآن أسـأل الأكاديمى كابتزا ، الذى احترمته دوما كعالم عظيم ، أن يسامحنى)[٢].

ومما يدل على منع الإنسان من الانتقال هو تلك الأسوار التى ضربوها بين مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى .

فهـذا جدار برلين الـذى وضـع ليفصـل بين الألمانيتين إلا أن الشعـب حاول اختراقـه والهروب إلى المانيا الغربية وفى هذا دليـل على أن الشيوعية أسـوأ من الرأسمالية ، لأننا لم نجد عاملا أو إنسانا هـرب من دولة رأسمالية إلى دولة شيوعية والعكس صحيح يؤيده الواقع . يقول د. عبـد الله عزام : (كـل الناس فى المجتمعات الإشتراكية يعيشون داخل سجـن حديدى . فالفرد فى الاتحاد السـوفييتى محروم مـن جواز السفر ومن التنقـل ؛ ولو ملك الناس حرية السفـر لما بقـى فى روسيـا إلا ثلاثة ملايين شيـوعى . إن الشعـب كله يعيـش بين مطرقة اللجان المركزية للحزب وبين سندان قـواعده . لقد قسمت برلين سنة ١٩٤٥م إلى قسمين : الغربى تحت حكم الغرب والشرق تحت سيطرة الشيوعيين وفصل بينهما بجدار ؛ ولو اطلعت على هذا الجدار ومـايسلط عليه من أضواء لعجبت وهلعت . وهناك شبكة من الأسلاك الكهربائية التى تصعق كل من يمسها أو يقترب منها ؛ وكم من الناس صعقوا على هـذا الجدار وهم

---

(١) عـالم فيزيائى ولد عام ١٨٩٤م فى روسيا ، له منزلة دولية رفيعـة ، ذهب إلى انجلترا بعـد الثورة حيث عمل فى فيزياء الحرارة المنخفضة فى كمبردج ، رجع إلى روسيـا عام ١٩٣٤م زائرا ، ولم يسمح له بالخروج منها .

(٢) الوصية الأخيرة (٦٨) .
وعن المنع من التنقل انظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٤٨) .

يحاولون الهرب من جحيم الشيوعية إلى برلين الغربية)[١].

ومما يدل على هذا المنع الحوادث المتكررة لهروب رجال السياسة والمخابرات السوفييت إلى الدول الغربية .

وقد ظنت الشيوعية أنها بجعل شعوبها تقيم الإقامة الجبرية سيطول عمرها لأنها حجبت عنهم الحقيقة ، وأوهمتهم بأنها الجنة الموعودة . ولكن الفطرة الإنسانية ، والتى خلقت على الاعتراف بالوحدانية ، تأبى العبودية والخضوع ، وتنزع دوما إلى حب الاستقلال وعدم الخنوع ، ومن هنا لم تستطع الشيوعية من الاستمرار فى سياستها القائمة على كبت الحرية ، ومصادرة النوازع الإنسانية ، ومن هنا أعلنت تراجعها وأعتقت شعوبها من عبوديتها التى فرضتها بالقوة . وبهذا العرض المختصر لحرية التنقل نصل إلى التالى :

أولا : أن الشيوعية عملت على مصادرة حرية التنقل حفاظا على استمرارها حتى لاينكشف زيفها وخداعها .

ثانيا : أن مصادرة هذه الحرية نتيجة طبيعية لتسلط الحزب ، ورغبته فى إحكام قبضته على جميع أفراد الشعب .

ثالثا : إذا كان الحق فى الشيوعية فلماذا هذا الحجر على الاتباع والمفكرين؟! ولماذا لم تكن أراضى الاتحاد السوفييتى مفتوحة ليذهب الناس ويشاهدوا النعيم الذى يعيشه الشعب هناك؟!!

---

(١) السرطان الأحمر (٨٧) .

(ب) حرية التنقل فى الإسلام :

إن الأرض كلها لله تعالى ، وكل مافيها مسخر للانسان ، ومن هنا أباح له الإسلام التنقل فيها ، والسير فى مناكبها بحثا عن الرزق ، وطلبا لكل مافيه مصلحة له دنيوية ـ منضبطة بضوابط الشرع ـ أو دينية . فأقر الإسلام هذه الحرية للانسان ، يظهر ذلك فى :

أولا : الضرب فى الأرض طلبا للرزق :

قال تعالى : {**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**}(١).

ثانيا : الانتقال من بلد لآخر حفاظا على الدين (الهجرة) .

حيث ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا واضحا لضمان الإسلام لذلك الحق ، فأذن للمسلمين الفرار بدينهم والانتقال من بلد إلى آخر كما حدث فى الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة .

وكذلك الجهاد فى سبيل الله والضرب فى الأرض نشرا لدعوة الله تعالى وإزالة العوائق من أمامها ، كل ذلك يدل على أن هذه الحرية كانت محفوظة لكل فرد .

فـ(من حق الإنسان أن يتنقل فى البلاد من مكان إلى آخر لتبديل أسلوب ومكان المواجهة مع الظالمين ، أو للانضمام إلى فئة أخرى تشاطره المصير)(٢).

---

(٢) سورة الملك : (١٥) .

(٢) العدل فريضة (٣٨) .

ثالثا : الانتقال من مكان لآخر من أجل الدعوة فى سبيـل الله تعالى ، والجهـاد لإعلاء كلمتـه جل وعلا ، وطلـب العلم كـل ذلـك دل على الحرية التامة فى الانتقال .

رابعا : أباح الإسلام للانسـان الانتقـال بأى وسيلـة أراد ، وعـن أى طريق يختار ، شريطة عدم تعـريض نفسـه للأخطـار ، أو مصـالح الآخرين للإضرار .

خامسا : مـن اهتمام الإسلام بهذه الحرية وضع القيـود عليها من أجل تحقيق مصلحة الفرد والجماعة .

سادسا : اشترط الإسلام على الإنسان حين الانتقال مـن مكان لآخر أن يكون آمنا على نفسه ، ودينه ، وعرضه .

مصادرة الحرية وسقوط الشيوعية :

اتضح لنا من العرض السابق أن الشيوعية قامت بمصادرة الحرية كاملة ومنعت الإنسان تحت سلطانها من ممارسة مافطر عليه ، وتتطلع نفسه إليه ، فمنعته من أن يمارس عبوديته لله وأرادت استخراج الإيمان والدين من قلبه لتغرس مكانه الإلحاد والمبادىء الماركسية ، ولكنها فشلت فى ذلك لأن الفطرة أقوى من أن تتغلب عليها قوة أرضية ، ثم أردفت الشيوعية ومنعت كل مايتفرع من هذه الحرية حيث حرمت على الإنسان حرية التعبير والرأى ، وحرمته القول بالتوجيه أو الانتقاد ، وأجبرته على الذلة والانقياد لأوامر الحزب وزبانيته ، ولكى تجعل الفرد أكثر جهلا بالحقائق ، منعته من حرية التعلم ، وأسقته كأسا واحدا هو الإلحاد والكفر بخالق الإنسان ، وأوهمته بأنها لم تقم إلا من أجله ، وأن القيادة ستكون فى يده ، وأن السلطة من نصيبه دون غيره ، ولكن سرعان ماأصبحت الأنظمة تطبق عليه دون سواه ، وصودرت منه كل حرية سياسية كان بالإمكان أن يعلن من خلالها رأيه ، أو يطلب عن طريقها حقوقه ، وعندما قامت قالت له أن الثورة لك أيها العامل ، وأن القصد منها أن تحيا حرا ، وأن تغدو وتروح حرا ، وبعد أن حقق القوم هدفهم منعوه من أقل شئون الحياة ، وأصبح لايملك إلا مايأكل ولايتمتع حتى بحريته الشخصية .

هكذا عاش الإنسان فى ظل النظام الشيوعى مسلوب الحرية ، مهدر الكرامة .

ولعل المرء يتساءل لماذا كثر الأتباع لها إذا كان هذا حالها مع الإنسان وحرياته .

فنقول لقد قامت الشيوعية على شعارات براقة ينخدع بها كل محب للحرية والعدالة والمساواة خاصة إذا كان ممن يعانى من فقدانها ، وقد ذكر ذلك بعض من أعجب بها أو أعجب بالاتحاد السوفييتى فى أول أمره وعند قيامه .

فهـذا لويس فيشر يقول : (لقد أحببت السوفييت لأنهـم كانوا "تجربة" فى سبيــل مصلحـة الجمهـرة التعســة المنكـودة الكـادحة ومــن أجل خيرهـا وإسعـادها ، ولأنهم قضوا على اختصـاصات الأقوياء المعـدودين ، وامتيازات الصفـوة القلال ، ولأنهم كانوا ضعفاء البأس ، مستهدفين لخصـومة المحافظين فى مختلف أنحاء العالم ومعارضة الرجعيين والجامدين .

وكـانت هذه العوامل المحببـة والاعتبارات الجاذبة وليـدة استعـداد فى نفســى مـن البـداية ، جعلنى ، وأنا لاأكـاد أشعـر ، نصيرا للاتحاد السـوفييتى وأحد أشياعه الصادقين)[١].

ولكـن سرعان ماينقلب هؤلاء فيكفرون بذلك الفكـر ويعلنون براءتهم منه إذا انكشف زيفه ، وبان ظلمه[٢]. إن هذا الكفر نتيجة طبيعية لمن عرف حقيقة الشيوعية . وكونها أكاذيب وأوهام ، نصبت لاصطيـاد الناس والإيقاع بهـم من أجل استغلالهم . لقـد اتخذ الشيوعيون من خداع العمـال واجهـة لهـم يصلون من خلالها وينحـط غيرهم ، وقد بصر بهـذه الحقيقـة جمع من المفكرين .

يقـول فيشـر : (كنت فى ذلـك الحين لاأزال أقـرأ وأسمـع الكثير عـن روسيـا السوفيتية ، وأعلم أن البلاشفة يمجدون الإنسـان ويعززونه ، ويرثون له ، عارضين عليه الأرض والخبز والسلام والعمــل والمسكــن والطمــأنينة والتعليم والصحـة والفنـون والسعـادة ، ويـناصرون مبـادىء الإخاء الـدولى الـذى يجمـع أشتات الكادحين والمكـدودين ، ويقولـون إنهـم سيقضون على التمييز العنصـرى والاستغلال والظلم وقـوة الثراء وحقــوق الملكيـة والجشـع الإقليمى ؛ وقد راحوا يفاخرون بأنهم حرروا بولونيا وفنلندة ودول البلطيق من حكم الروس ، وتخلوا عـن امتيـازات القيصر فى الصين ومنــاطق نفـوذه وامتيازات الزيت الممنوحة فى إيران .

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٦٤) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٤٣-٢٤٤،٣٥٠-٣٥١) .

فلاغـرو إذا مضـى المظلـومون فى هـذا العالم وأنصـارهم يرون فى السـوفييت رسـل عهـد جديد فى التـاريخ . لقـد رأينـا يومئـذ دولـة تشغـل مسـاحتها سدس الكرة الأرضية تنضم إلى خطيب الشوارع فى أصـائل الآحاد وتتكلم كلامـه ، وتتحـدث بلغتـه ولسـانه ، وشهـدنا لأول مـرة فى التـاريخ حكومة تحقق أحلام المصلحين ومحطمى الأصنام والرواد الأولين فى الأجيـال الماضيـة . لقـد سرت فى البشـر هزة ، واستولى الـرعب على نفـوس أصحاب الامتيـازات ، والتقاليد ، ورجال العسكرية ، والأباطـرة ،و المزهوين بلونهم على سائر بنى البشر ، والجامدين على الأوضاع القائمة ، فلم تلبث مخاوفهم أن أثارت الآمـال الكبـار فى نفـوس الآخرين . وكـان أبدع مـا فى البلشفيـة "عمـوميتها" ، فهى لم تقترح إدخال تغييرات معينـة فى روسيـا فحسـب ، بل رمـت أيضا إلى ماهو أوسع نطاقا ، وأتم شمولا . رمـت إلى إلغاء الحروب ، والقضـاء على الفقر ، والآلام ؛ فلاعجـب إذا رأينا صغـار الناس فى كل بلد من عامل أجير ، وكاتب مفكر ، وذكى مستنير ، قد شعروا يومئذ بأن حدثا خطيرا جرى فى حيـاتهم ، حين بدأت جذور الثورة تتـأصل فى أرض روسيا وتربتها . والواقع أن ذلك العطف العام الذى أحاط بالبلشفية فى تلك الأيام كان مرجعه إلى السخط على سير الأحوال فى البلاد الأخرى ، أكثر من مرده إلى معـرفة حقـائق الحال فى روسيـا ذاتهـا ؛ فـإن أكثر النـاس كـانوا يومئـذ يجهلون ماحدث فيها ، ولايعرفون شيئا عما كان يجرى تحت النظـام البلشفى الجديد ؛ وإن مضـى كل إنسان يتحدث عنها بحرارة ، ويتحمـس فى الحديث عنهـا كـل الحمـاسة . ووقـع مـاكان منتظـرا ، إذ جعـل المنتمـون إليهـا ، الـداخلون فى حظيرتها ، يعتمدون فى الغالب على وعـودها ، ويعتذرون عن "المتـاعب" التى وجدتها فى طريقها ؛ بينما ذهب الناقمـون منها المتربصون بها ينتقـدونها على أنهـا لم تحقـق مـن تلك الوعود شيئا . ولم يلبـث هـذا الجدل القائم بين أنصارها وخصومها أن أثار فى نفسى الرغبة فى الظفـر بالحقائق من مواردها ، والعلم من مظانه ، فـذهبت إلى مـوسكو من برلين فى شهـر سبتمبر عام ١٩٢٢م وأنا لاأعرف كلمـة واحدة من الروسية ، ولاأعلم إلا القليـل من

أمر النظام السوفييتي ، وإن كنت أحنو على أمانيه ، وأعرف مع ذلك أن الأحوال فيه سيئة ، وأنني لست مسافرا إلى "المدينة الفاضلة" ولاأنا حاج إلى مكة المكرمة)[١].

إن من أعظم الآثار التي خلفها القضاء على الحريات بالنسبة للشيوعية:

أولا : زعزعة الثقة في نفوس كثير من معتنقيها من طبقة المفكرين والمثقفين ، بل في نفوس بعض قوادها وزعماء حزبها .

يقول آرثر كوستلر : (ولكن اليوم قد هوت فلسفة ماركس إلى درك السفسطاء البيزنطية ، وتحولت كل فقرة في برنامجها من حيث المعنى إلى نقيضها . فلم يعد من السهل استعادة تلك الحماسة القديمة التي كانت لها ، والحمية الأولى التي كان المرء يشعر بها ، واللذة الذهنية التي كان يحسها .

لقد كنت مهيأ للتحول إلى الشيوعية كنتيجة لتاريخ حالتي الشخصية ، كما تهيأ له ألوف آخرون غيري من الشباب "المثقف المستنير" في الطبقة الوسطى ، ذلك الشباب الذي يتألف منه الجيل الذي نشأت فيه ، نتيجة لتواريخ حالاته الخاصة ، إذ مهما تباينت تلك الحالات في ذاتها ، فقد كان يجمعها عامل مشترك عقب الحرب العالمية الأولى ، وهو التدهور السريع في القيم الأخلاقية ، وأساليب العيش التي كانت قائمة قبل عام ١٩١٤م في أوروبا كما كانت تجمعها الفتنة المستحوذة على الألباب التي اقترنت بها العقيدة الجديدة القادمة من الشرق)[٢].

ثانيا : فقدان الثقة في الفكر الماركسي ، وكذلك في الشيوعية المطبقة عمليا في الاتحاد السوفييتي حيث صودرت حرية الإنسان ، وصودمت فطرته وماكان للإنسان وهو الحر فطريا ، والذي يميل إلى الحرية بطبعه أن يسكت على ذلك ، حيث (إن الإنسان الحر وبطبيعته الحرة يفضل الموت ثمنا لحريته وكرامته ، والشعوب لاتتنازل عن حريتها طواعية ، ولاتقبل أن تعيش في

---

(١) المعبود الذي هوى (٢٥٨-٢٦٠) ، وانظر التعليم في الاتحاد السوفييتي (٤٢٤) .

(٢) المعبود الذي هوى (٣٠) .

قفص ولو من ذهب ، وكثيرا ماتخوض الحروب ، وتقوم بالثورات حفاظا على حريتها أو طلباتها ، وتدفع الثمن لذلك من عرقها ودمها وأرواحها الغالية .. والشعوب التى تعيش فى ظل الحكم الشيوعى ، لم يقدر لها أن تختار هذا الحكم أو تبدى فيه رأيها بل إنه فرض عليها فرضا ، من خلال تنظيم شيوعى انتهز الفرص ، وقفز إلى الحكم)[١].

ثالثا : أدت مصادرة الحرية إلى فتح المجال على مصراعيه من أجل التراجع عن الفكر وتطبيقاته وذلك لكون المطالبة الجماهيرية بدأت تظهر للعيان بالإضافة إلى وجود بعض المنشورات التى تطالب باعطاء العمال حرياتهم حيث وجد فى بعضها أن (العمال فى حاجة إلى الحرية ، إنهم لايريدون الحياة طبقا للوائح البلشفية ، إنهم يريدون أن يقرروا مصائرهم بأنفسهم)[٢].

وهذا أدى بدوره إلى أن يبدأ الساسة والقادة فى سياسة التراجع والتغيير .

رابعا : أن القضاء على الحرية فيه من المفاسد الشىء الكثير .

يقول السحرانى : (إن الظلم وقمع الحريات بالاستبداد والتسلط يعد فى رأس المخاطر التى تهدد المجتمعات والدول حيث تزرع فيها الانقسام والتخاذل والفساد والجهل ، وتسد أبواب التقدم إن قوة البلدان بشعوبها وبمدى ماتتمتع به من الحرية لتساهم إيجابيا فى صنع نهضتها ومستقبل أوطانها لأن المشارك فى رسم القرار يتمتع بقوة التنفيذ ، والمؤمن بالأهداف المرسومة التى تعبر عن طموحاته وآماله تراه يستصغر العظائم ، وتراه مستعدا للتضحية مهما غلت الأثمان)[٣].

---

(١) إسلام لاشيوعية (١٠٤) .
(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٤) .
(٣) العدل فريضة (٣٩-٤٠) .

وعندما كانت الشيوعية قد قضت على الحرية فإن أفراد شعبها كانوا عرضة لتفشى هذه المفساد وقد ظهرت آثار ذلك فى تخلف الاتحاد السوفييتى تكنولوجيا ، وفى انتشار الجريمة ، حتى إن غورباتشوف جعل من الأولويات فى إصلاحه القضاء على الإدمان ، كذلك انتشرت الأخلاق السيئة من سرقة وخداع وكذب ليتمكن الإنسان من العيش تحت ذلك النظام .

خامسا : إن الفطرة الإنسانية ، والمصلحة الذاتية ، والسنة الربانية ، والبراهين العقلية كلها تؤيد وتؤكد رغبة الإنسان فى الحرية وتطلعه دوما فى البحث عنها ، وبالتالى فإن أى نظام أو مذهب يتصادم معها يكون حكم على نفسه بالزوال ، وكذلك كان الفكر الشيوعى .

إن الشيوعية بكبتها الحرية ومصادرتها للحقوق الإنسانية ومصادمتها للفطرة الإنسانية قد جنت على نفسها ، حيث صرخت جموع المواطنين بمختلف لغاتها وقومياتها واتجاهاتها السياسية وفوارقها الإجتماعية كلها مطالبة بإصلاح الوضع ولم يكن التذمر فى طبقة دون أخرى أو فئة دون ثانية .

وهذا له دلالته الواضحة على المطالبة بالتغيير والعودة إلى الفطرة وترك الاضطهاد والإذلال ومصادرة الحرية .

سادسا : أدى القضاء على الحريات من قبل السلطة السوفيتية إلى التشنيع على الشيوعية واستغلال ذلك فى التنفير منها ، واستخدم ذلك فى الحرب الباردة الدعائية ضدها ، وأدى هذا بدوره لفقد ثقة الأتباع فى الخارج .

وهكذا كان القضاء على الحريات أحد الأسباب التى أدت إلى زوال الحكم الشيوعى وإنهياره . إن مثل هذا النظام (مصيره الإنهيار مهما طال الأمد به ... لأنه فقد ماء الحياة وهو الحرية)(١).

لقد عاش الشعب السوفييتى محروما من أبسط الحقوق ، مسلوبا كافة الحريات ، ومن هنا كان لابد وأن يبحث الإنسان عن نظام يحقق له سعادته

---

(١) إسلام لاشيوعية (١٠٩) .

ويحترم فيه انسانيته ، وبدأ البحث عن البديل منذ قيام الشيوعية ، وتطبيقها عمليا . وإن كانت أكثر الأصوات قد كممت وحكم عليها بالاعدام أو النفى .. وحاول الزعماء بعد ستالين أن يحققوا للفرد شيئا فخلصوا (الدولة من الارهاب وحركات التطهير ولكن أعياهم دفعها فى انتظام ، لقد حرروا المواطن السوفييتى من الخوف ولكن لم يستطيعوا أن يوحوا إليه بالثقة ، وكذلك حرروه من الاضطهاد دون منحه الحرية ، وشجعوه على أن يفكر إلا أنهم لم يسمحوا له بالإعراب عن أفكاره)[١].

فظل الفرد مقتولا قتلا معنويا[٢]، ولكنه لم ييأس من المطالبة بحريته ، واحترام ذاته وشخصيته كلما سنحت له الفرصة أو وجد إلى ذلك سبيلا[٣]، إلى أن حانت الفرصة وأعلنها حرية لم تقف فى وجهها الصواريخ عابرة القارات ، ولاالقنابل المحرقة ، فكانت قوة الفطرة أكبر من كل قوة ، كما كانت إرادة الإنسان المتفقة مع السنن الربانية فى عدم الرضا بالظلم والاستغلال أقوى من الأفكار الشيوعية ، ومن هنا كانت انتفاضة الشعب السوفييتى وشعوره بالحرية قوة مدمرة اجتاحت البلاد ، ودمرت تماثيل لينين وستالين وداستها بالأقدام ، وذلك كله تعبيرا عن معاناة الإنسان تحت ظل الحكم الشيوعى الذى كبت حريته ، لقد كان لكبت الحريات ومصادرها أكبر الأثر فى محاولة الخلوص من وطأة ذلك الفكر ، وتسلط نظامه القائم عليه ، فكانت مصادرة الحريات سببا رئيسيا من أسباب سقوط الشيوعية ، هذا بالإضافة إلى أن الإنسان فى ظل ذلك النظام لم يجد قوت يومه ، وكان عليه أن يظل الساعات الطوال ينتظر دوره فى حصوله على بعض الضروريات والحاجيات . أى أن الفكر الشيوعى جمع مع مصادرته للحرية ، إقتصادا منهارا قام على مبادىء زادت من حقد الشعب وثورته ومحاولة الخلوص منه حيث إن الجوع أساسا هو الذى فجر الثورة ضد النظام الشيوعى ، ومن هنا تعين الحديث عن النظام الاقتصادى الشيوعى .

---

(١) فشل الخروتشوفية (٣٨) دو تشير ، نقلا من كتاب الحريات العامة (٢٦٩) .
(٢) العدل فريضة إسلامية (٣٣) .
(٣) انظر لا.. للرأسمالية لا .. للماركسية ، نعم للاسلام (١٩٢) .